متماثلات ومتناقضات

من وحي القرآن والتوراة



إعداد

أحمد محمد السيد سليمان



متماثلات ومتناقضات من وحي القرآن والتوراة

إعداد

أحمد محمد السيد سليمان

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد- مدينة نصر- القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤- ٢٢٧٥٢٧٩٤- فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

٢١٤,٢٩٦ أحمد محمد السيد سليمان.
أ ح م ت متماثلات ومتناقضات من وحي القرآن والتوراة/ إعداد أحمد محمد السيد سليمان. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
٣٥٦ ص: إيض؛ ٢٤ سم.
بليوجرافية: ص ٣٥٦.
تدمك: ٨ ـ ٢٥٠٥ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.
١ ـ قصص الأنبياء في القرآن الكريم. ٢ ـ قصص الأنبياء في التوراة. ٣ ـ الديانات المقارنة. ٤ ـ القرآن الكريم والتوراة. ٥ ـ التوراة والقرآن الكريم. أ ـ العنوان

تنفيذ وطباعة الكتاب: **مطبعة البردى** بالعاشر من رمضان

رقم الإيداع	٢٠٠٩ /١١٤٧٧
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 -2505 - 8

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

استكمالا لسلسلة أبحاث قمنا بها بعون من الله وفضل على التوراة؛ كتاب اليهود المقدس، والقرآن الكريم؛ كتاب المسلمين ودستورهم من أجل تسليط الضوء على ما ورد في كل منهما من حقائق تستحق أن ننوه عنها أو أباطيل تستوجب أن ننبه إليها، وفقنا الله جل شأنه لإصدار مؤلفنا الذي أسميناه "نشأة كل من الدولتين اليهودية والإسلامية حقائق ونتائج" وسجلت في شقه الأول كيف نشأت دولة بني إسرائيل من عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام، وما تم من فتوحات ونزاعات مع أصحاب الأرض التي احتلّوها ومع من جاورهم من ممالك وشعوب. وفي شقه الثاني تناولت نشأة دولة الإسلام منذ مولد رسول الله محمد ﷺ حتى وفاته، مرورا بفترة ولاية الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - وانتهاء بولاية على بن أبي طالب - رضي الله عنه -.

وفي مؤلفنا الثاني الذي أسميته "متماثلات ومتناقضات من وحي القرآن والتوراة" أقدم المواد والمعلومات الوارد ذكرها في الكتابين المذكورين والتي يكون لها سمة التشابه أو التضاد، راجيا أن يجد القارئ الكريم فيما قدمته الفائدة المرجوة، واملا من المولى - عز وجل - أن يجزيني عليها خير الجزاء.

وقد بدأت مؤلفي هذا بذكر كيف بدأ الخلق كما ورد ذكره في كل من التوراة والقرآن؛ مرورا بخلق آدم وحواء، وقصة قابيل وهابيل، وسيرة أنبياء الله، نوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وأيوب ويونس، وقصة قارون؛ كل في سياقه التاريخي وترتيبه الزمني.

ثم أوردتُ الأحكام المتعلقة ببعض المعاملات في المرجعين المذكورين كالزواج والطلاق والزنا والاغتصاب والقتل والقصاص والربا والمواريث والنجاسة والطهارة والمأكولات والمشروبات.

كما ذكرتُ معجزة إحياء الموتى كما وردت في كل من التوراة والقرآن وقصة البقرة وبعضا من مكارم الأخلاق، كما تناولت موضوع البعث والثواب والعقاب. وتجنُّبا للإطالة قسمت الكتاب إلى جزأين، وقفت في الجزء الأول منه عند قصة موسى عليه السلام.

وقد أوردت في نهاية كل فصل من فصول الكتاب تعقيبا أُقارن فيه بين تناول كل من القرآن والتوراة للمسألة المعنية ورأينا فيه متحريا الموضوعية وعدم الشطط قدر الإمكان.

وأسأل المولى الكريم أن يديم علينا عونه وتوفيقه.

بقلم

أحمد محمد السيد سليمان

قائمة المحتويات

البيان	رقم الصفحة

البيان	رقم الصفحة

البيان	رقم الصفحة

البيان	رقم الصفحة

البيان	رقم الصفحة

البيان	رقم الصفحة

البيان	رقم الصفحة
تذمر الشعب بسبب المن	٢٩٨
إرسال السلوى	٣٠٠
استكشاف أرض كنعان	٣٠٠
تمرُّد بني إسرائيل	٣٠٢
غضب الرب على بني إسرائيل	٣٠٣
عقاب الرب لبني إسرائيل	٣٠٤
عقاب الرب لموسى وهارون	٣٠٦
وفاة هارون	٣٠٨
مواجهات في الطريق	٣٠٨
خلافة يشوع لموسى	٣٠٩
القضاء على المديانيين	٣١٠
وفاة موسى	٣١١
موسى في القرآن	٣١٤
حال بني إسرائيل في مصر	٣١٤
إلقاء موسى الرضيع في النهر	٣١٤
قتل موسى للمصري	٣١٦
موسى في مدين	٣١٧
تكليف الله لموسى	٣١٩
أمر الله لموسى بدعوة فرعون	٣٢١
تأييد الله لموسى بأخيه هارون	٣٢١
دعوة موسى لفرعون	٣٢٢
مواجهة سحرة فرعون	٣٢٦
إيمان السحرة بإله موسى	٣٢٨
بطش فرعون ببني إسرائيل	٣٢٩
دعوة موسى على فرعون	٣٢٩
تدرج آيات الله إلى فرعون	٣٣٠

الفصل الأول

بداية الخلق

بداية الخلق في التوراة

لما أراد الله أن يخلق الخلق؛ بدأ بخلق السموات، وثنّى بخلق الأرض. ويرى المفسِّرون للتوراة أن عملية الخلق الأولية هذه كانت تشمل السموات والأرض وما فيهن من مواد أولية غير مكتملة سوف يستعملها الله في خلق ما سوف تحويه السموات من نجوم وكواكب وشموس وغيرها، وما سوف تحويه الأرض من زروع وحيوانات ومخلوقات. وكانت الأرض في هذه المرحلة من الخلق غير محدّدة الشكل، وخالية من كل حياة، والمياه تغمر كل شيء، والظلام يُخيِّم في كل مكان، ورياح شديدة تسود وجه المياه.

١- بدء الخليقة

فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، ٢وَإِذْ كَانَتِ الأَرْضُ مُشَوَّشَةً وَمُقْفِرَةً وَتَكْتَنِفُ الظُّلْمَةُ وَجْهَ الْمِيَاهِ، وَإِذْ كَانَ رُوحُ اللهِ يُرَفْرِفُ عَلَى سَطْحِ الْمِيَاهِ،[1]

اليوم الأول

ولّما كان الظلام هو السائد؛ فقد أمر الله أن يكون هناك نور يبدّد هذا الظلام. ولّما رأى الله النور؛ استحسنه، وفصل بينه وبين الظلام، وسمّى النورَ نهارا، وسمّى الظلامَ ليلا. وكان ظهور النور هو علامة على اليوم الأول من الحياة على وجه الأرض.

اليوم الأول: النور

٣أَمَرَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ». فَصَارَ نُورٌ، ٤وَرَأَى اللهُ النُّورَ فَاسْتَحْسَنَهُ
وَفَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّلامِ. ٥وَسَمَّى اللهُ النُّورَ نَهَاراً، أَمَّا الظَّلامُ فَسَمَّاهُ لَيْلاً.
وَهكَذَا جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ، فَكَانَ الْيَوْمُ الأَوَّلُ[2].

(١) (٢) سفر التكوين - ١.

اليوم الثاني

وفي اليوم الثاني أمر الله أن تكون هناك طبقة فاصلة بين المياه التي تغمر الأرض والمياه التي تحملها السحب؛ فكان الجَلَدْ الذي يعـرّفه المفسِّرون للتوراة بأنه الهواء. وسمّاه الله سماء من السمو والارتفاع.

اليوم الثاني: الجلد

٦ثُمَّ أَمَرَ اللهُ: «لِيكُنْ جَلَدٌ يَحجُزُ بَيْنَ مِـيَاهٍ وَمِيَاه». ٧فَخَلَقَ اللهُ الجَلَدَ، وَفَرَّقَ بَيْنَ المِيَاهِ الَّتِي تَحْمِلُهَا السُّحُبُ وَالمِيَاهِ الَّتِي تَغْمُرُ الأَرْضَ. وَهكَذَا كَانَ. ٨وَسَمَّى اللهُ الجَلَدَ سَمَاءً. ثُمَّ جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ اليَوْمُ الثَّانِي[1].

اليوم الثالث

وفي اليوم الثالث أمر الله المياه التي تحت السـماء أن تتجمَّع عند موضع واحد؛ فتجمَّعت المياه وانحسرت حتى ظهرت اليابسة. وأطلق الله اسم البحار على المياه المُتـجمّعـة، واسم الأرض على اليابسـة التي انحسرت عنهـا المياه. ورأى الله ما صار من بحـار ويابسة؛ فاستحـسنه. وأمر الله الأرض أن تنبت العـشب والبـقل والشـجر، فـأنبـتت الأرض كل أنواع الأعـشاب والـبقـول والأشجار التي تحمل بذورا من جنسها من أجل التكاثر واستمرار النوع. ورأى الله ما أخرجته الأرض؛ فاستحسنه.

اليوم الثالث: الأرض الجافة والخضروات

٩ثُمَّ أَمَرَ اللـهُ: «لِتَتَجَـمَّعِ المِيَاهُ الَّتِي تَحْتَ السَّـمَاءِ إِلَى مَـوْضِعٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ اليَابِسَةُ». وَهكَذَا كَانَ. ١٠وَسَمَّى اللهُ اليَابِسَـةَ أَرْضاً وَالمِيَاهَ المُجتَـمِعَةَ بِحَاراً. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ فَاستَحْسَنَهُ. ١١وَأَمَـرَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْباً وَبَقْلاً مُبْزِراً، وَشَجَـراً مُثْمِراً فيه بِزْرُهُ الَّذِي يُنْتِجُ ثَمَـراً كَجِنْسِهِ فِي الأَرْضِ». وَهكَذَا كَانَ. ١٢فَـأَنْبَتَتِ الأَرْضُ كُلَّ أَنْوَاعِ الأَعْشَـابِ وَالبُقُولِ الَّـتِي تَحْمِلُ بُزُوراً مِنْ

(١) سفر التكوين -١.

جِنْسِهَا، وَالأَشْجَارَ الَّتِي تَحْـمِلُ أَثْمَاراً ذَاتَ بُذُورٍ مِنْ جِنْسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ. ١٣وَجَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ(١).

اليوم الرابع

وفي اليوم الرابع أمر الله أن تكون هناك أنوار في جو السماء للتفرقة بين الليل والنهار، ولتضيء الأرض، ولتكون علامات لتحديد الأزمنة، ومواعيد تذكّر بالأيام والسنين، فخلق نورين عظيمين؛ الأكبر ليشرق في النهار، والأصغر ليضيء في الليل؛ وهما الشمس والقمر، كما خلق الله النجوم لتزيِّن السماء. ورأى الله ذلك؛ فاستحسنه.

اليوم الرابع: القمر والنجوم

١٤ثُمَّ أَمَرَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُفَرِّقَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، فَتَكُونَ عَلاَمَاتٍ لِتَحْدِيدِ أَزْمِنَةٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينَ. ١٥وَتَكُونَ أَيْضاً أَنْوَاراً فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُضِيءَ الأَرْضَ». وَهَكَذَا كَانَ. ١٦وَخَلَقَ اللهُ نُورَيْنِ عَظِيمَيْنِ، النُّورَ الأَكْبَرَ لِيُشْرِقَ فِي النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِيُضِيءَ فِي اللَّيْلِ، كَمَا خَلَقَ النُّجُومَ أَيْضاً. ١٧وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُضِيءَ الأَرْضَ، ١٨لِتَتَحَكَّمَ بِالنَّهَارِ وَبِاللَّيْلِ وَلِتُفَرِّقَ بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلاَمِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ. ١٩وَجَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ(٢).

اليوم الخامس

وفي اليوم الخامس أمرِ الله بخلق الحيوانات المائية، والطيور التي يمتلئ بها فضاء السماء؛ فكانت الحيوانات المائية التي امتلأت بها مياه البحار والمحيطات والأنهار، والطيور التي لا تُحصى أجناسُها في الجو، وأمرها الله أن تتكاثر لتمتلئ بها مياه البحار وجو السماء. ورأى الله ذلك؛ فاستحسنه.

(١) (٢) سفر التكوين -١.

اليوم الخامس: الطيور والأسماك

٢٠ثُمَّ أَمَرَ اللهُ: «لِتَزْخَرِ الْمِيَاهُ بِشَتَّى الْحَيَوَانَاتِ الْحَيَّةِ وَلْتُحَلِّقِ الطُّيُورُ فَوْقَ الأَرْضِ عَبْرَ فَضَاءِ السَّمَاءِ». ٢١وَهكَذَا خَلَقَ اللهُ الْحَيَوَانَاتِ الْمَائِيَّةَ الضَّخْمَةَ، وَالْكَائِنَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي اكْتَظَّتْ بِهَا الْمِيَاهُ، كُلاً حَسَبَ أَجْنَاسِهَا، وَأَيْضاً الطُّيُورَ وَفْقاً لأَنْوَاعِهَا. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ. ٢٢وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلاً: «انْتَجِي، وَتَكَاثَرِي وَامْلإِي مِيَاهَ الْبِحَارِ. وَلْتَتَكَاثَرِ الطُّيُورُ فَوْقَ الأَرْضِ». ٢٣ثُمَّ جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمُ الْخَامِسُ(١).

اليوم السادس

وفي اليوم السادس أمر الله الأرض أن تُخرج الكائنات الحيّة من بهائم ووحوش وزواحف، فخرجت الكائنات الحيّة كما أمر الله. ورأى الله ما خلقه؛ فاستحسنه. ولمّا انتهى الله من جميع خلقه، وما أعدّه لحياة الإنسان، أراد أن يخلق الإنسان، فخلقه على صورته، وجعله ذكرا وأنثى، وجعل له سلطانا على سمك البحر وطير السماء وحيوانات الأرض، وبارك الله الإنسان، وجعل له كل ما على الأرض من ثمر غذاء؛ ما عدا العشب، فقد جعله طعاما لكل وحوش الأرض وطيور السماء والحيوانات الزاحفة. ورأى الله ما خلقه؛ فاستحسنه جدّا.

اليوم السادس: الحيوانات والإنسان

٢٤ثُمَّ أَمَرَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ كَائِنَاتٍ حَيَّةً، كُلاً حَسَبَ جِنْسِهَا، مِنْ بَهَائِمَ وَزَوَاحِفَ وَوُحُوشٍ وَفْقاً لأَنْوَاعِهَا». وَهكَذَا كَانَ. ٢٥فَخَلَقَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ، وَالْبَهَائِمَ وَالزَّوَاحِفَ، كُلاً حَسَبَ نَوْعِهَا. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ فَاسْتَحْسَنَهُ. ٢٦ثُمَّ قَالَ اللهُ: «لِنَصْنَعِ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا، كَمِثَالِنَا، فَيَتَسَلَّطَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ، وَعَلَى الأَرْضِ، وَعَلَى كُلِّ زَاحِفٍ يَزْحَفُ عَلَيْهَا».

---

(١) سفر التكوين -١.

٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِه. عَلَى صُورَةِ الله خَلَقَهُ. ذَكَراً وَأُنْثَى
خَلَقَهُمْ. ٢٨وبَارَكَهُمُ اللهُ قَائِلاً لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَتَكَاثَرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ
وَأَخْضِعُوهَا. وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ
يَتَحَرَّكُ عَلَى الأَرْضِ». ٢٩ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ أَصْنَافِ الْبُقُولِ
الْمُبْزِرَةِ الْمُنْتَشِرَةِ عَلَى كُلِّ سَطْحِ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ مُثْمِرٍ مُبْزِرٍ، لِتَكُونَ لَكُمْ
طَعَاماً. ٣٠أَمَّا الْعُشْبُ الأَخْضَرُ فَقَدْ جَعَلْتُهُ طَعَاماً لِكُلِّ مِنْ وُحُوشِ الأَرْضِ
وَطُيُورِ السَّمَاءِ وَالْحَيَوَانَاتِ الزَّاحِفَةِ، وَلِكُلِّ مَا فِيهِ نَسَمَةُ حَيَاةٍ». وَهَكَذَا كَانَ.
٣١وَرَأَى اللهُ مَا خَلَقَهُ فَاسْتَحْسَنَهُ جِداً. ثُمَّ جَاءَ مَسَاءٌ أَعْقَبَهُ صَبَاحٌ فَكَانَ الْيَوْمُ
السَّادِسُ(١).

اليوم السابع

وفي اليوم السابع كان الله قد أكمل خلق السموات والأرض، وأتم عمل كل ما أراده؛ فأحسّ بالرضا، وبارك هذا اليوم وقدّسه؛ لأنه استراح فيه من جميع أعمال الخلق التي أرادها. ولم يكن قد نبت في الأرض شجر ولا عشب؛ لأن الرب لم يكن قد أرسل مطرا على الأرض، ولم يكن قد خلق الإنسان بعد ليفلحها، فقط كان هناك ضباب يتصاعد من الأرض فيسقي سطحها كله.

٢- اليوم السابع: يوم الراحة

وَهَكَذَا اكْتَمَلَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ بِكُلِّ مَا فِيهَا. ٢وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَتَمَّ
اللهُ عَمَلَهُ الَّذِي قَامَ بِهِ، فَاسْتَرَاحَ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ مَا عَمِلَهُ. ٣وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ
السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ اسْتَرَاحَ فِيهِ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِ الْخَلْقِ ٤هَذَا وَصْفٌ مَبْدَئِيٌّ
لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ. ٥وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نَبَتَ بَعْدُ فِي
الأَرْضِ شَجَرٌ بَرِّيٌّ وَلاَ عُشْبٌ بَرِّيٌّ، لأَنَّ الرَّبَّ الإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَرْسَلَ مَطَراً

(١) سفر التكوين – ١.

عَلَى الأَرْضِ، ولَمْ يكُنْ هُنَاكَ إِنْسَانٌ لِيَفْلَحَهَا، ٦إلاَّ أَنَّ ضَبَاباً كَانَ يَتَصَاعَدُ مِنَ الأَرْضِ فَيَسْقِي سَطْحَهَا كُلَّهُ[1].

خلق الإنسان

وصنع الله آدم من تراب الأرض، ونفخ في أنفه من روحه؛ فدبَّت فيه الحياة، وأعدَّ له جنّة في شرقي عدن لإقامته، واستنبت له فيها من كل ما حسن منظره، وطاب ثمره من أشجار، وغرس في وسط الجنّة شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، وأجرى في الجنّة نهرا ليسقي زرعها، ثم يتفرع إلى أربعة أنهر تمتد في المناطق المحيطة بالجنّة.

. . . . . ٧ثُمَّ جَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ مِنْ تُرَابِ الأَرْضِ ونَفَخَ فِي أَنْفِه نَسَمَةَ حَيَاة، فَصَارَ آدَمُ نَفْساً حَيَّةً. ٨وأَقَامَ الرَّبُّ الإِلَهُ جَنَّةً فِي شَرْقِيٍّ عَدْن ووَضَعَ فِيهَا آدَمَ الَّذي جَبَلَهُ. ٩واسْتَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ بَهِيَّة لِلنَّظَرِ، ولَذِيذَةٍ للأَكْلِ، وَغَرَسَ أَيْضاً شَجَرَةَ الحَيَاة، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الخَيْرِ وَالشَّرِّ فِي وَسَطِ الجَنَّةَ. ١٠وكَانَ نَهْرٌ يَجْرِي فِي عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الجَنَّةَ، وَمَا يَلْبَثُ أَنْ يَنْقَسِمَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْهُرٍ[2].

(١) (٢) سفر التكوين – ٢.

بداية الخلق في القرآن

من رحمة الله بعباده، أن أنزل القرآن الكريم؛ على رسوله محمدا ليهدي الناس إلى عبادته وحده، وخلق الإنسان؛ فعلّمه النطق والكلام دون سائر خلقه، وخلق الشمس والقمر يدوران في مداريهما بحساب متقن لا يحيدان عنه، وخلق النجوم في السماء، والشجر على الأرض؛ وكلهم يسجد لله طائعين، ورفع السماء بغير عَمَدْ، وأقام ميزان العدل، وأمر الناس أن يزنوا بالعدل وأن لا يتظالموا، وجعل الأرض صالحة لمعيشة جميع خلقه، وأنبت لهم فيها من الفواكه والنخل المثمر ما لذ طعمه واختلف نوعه، ومن جميع أنواع الحبوب منها ما هو على شكل سنابل، ومنها ما هو على شكل أوراق.
ويتعجّب المولى جلّت قدرته من جحود عباده لتلك النعم التي لا تخفى على أحد.

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾ [الرحمن].

خلق الهواء والماء والعرش

أول ما خلق الله الهواء، ثم خلق الماء على متنه، ثم خلق العرش والكرسي. والعرش (السرير كما يعرفه الناس) هو محل استوائه جلّت قدرته، والكرسي هو مرتقاه جل شأنه، ولا مجال للتشبيه؛ فالسرير غير السرير الذي نعرفه في الدنيا، والكرسي غير الكرسي كذلك، والاستواء هو استواء يليق بجلاله وعظمته.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ... (٧)﴾ [هود].

خلق السموات والأرض

يخبر المولى - سبحانه وتعالى - أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة، ولمّا شاءت إرادته أن ينفصلا، أمر بأن يتمّ الانفصال؛ فكانت السموات السبع والأراضين السبع، وكان الهواء فاصلا بينهما، وجعل الله الماء أصل كل حي، وجعل الجبال رواسي تحفظ الأرض من أن تميل، كما جعل على وجه الأرض السُبل الممهّدة التي تيسّر حركة الناس والدواب على سطحها، وجعل السماء سقفا عاليا قوي البنيان، وجعل الليل والنهار والشمس والقمر آيات بيّنات على عظيم قدرته.

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢)﴾ [الأنبياء].

ويخبر المولى - سبحانه وتعالى - أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ وكان قادرا على خلقها في لحظة، لكنّها إرادته جل شأنه؛ وربّما أراد أن يُعلّم العباد الرفق والتثبت في كل أمورهم، وربما كانت هذه المهلة من أجل أن تأخذ المواد المكوّنة لها حظّها من التفاعلات الضرورية لتكونها بالصورة المُثْلى التي أرادها الله جل شأنه لها؛ بدليل قوله - عزّ وجل - أن خلقهُنّ لم يسبب له أي تعب أو مشقة. وبعد أن أتم الله خلق السموات والأرض استوى جل شأنه على العرش؛ استواء يليق بمقامه وعظمته.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ....(٥٤)﴾ [الأعراف].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)﴾ [ق].

خلق الله السماء بِقوَّة واقتدار؛ وهي على سعتها العظيمة تتسع ولا تتوقف عن التمدد بقدرته ومشيئته، وجعل الأرض ممهّدة للحياة؛ كالفراش الذي يُمهِّده الإنسان أو الحيوان لنومه، وجعل المخلوقات زوجين اثنين؛ ليتزاوجوا ويتكاثروا، فلا ينقرضوا.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات].

وخلق الله السموات السبع على هيئة طبقات يعلو بعضها بعضا في إحكام بالغ، لا يرى فيه الناظر أي تناقض أو خلل.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك].

إن السماء التي هي أشدُّ خلقا من خلق الإنسان؛ بناها الله فأحكم بناءها، وجعلها عالية شديدة العُلُوِّ ومستوية المنظر، وجعل ليلها شديد الظلام لسكن المخلوقات وراحتهم، ونهارها شديد الضياء لانطلاقها إلى معايشها على هُدًى وبصيرة. ومن عظيم نعمه أنه أوحى إلى الأرض أن تُخرج ما في بطنها من ماء وكلأ، وأرساها بالجبال فلا تميد ولا تضطرب.

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات].

جعل الله الأرض للناس وعاءا يسترهم وهم أحياء؛ بالدّور التي يبنونها أو الخيام التي ينصبونها على ظهرها، وتحتوي أجسادهم في جوفها عند الموت. وجعل الجبال على ظهرها تحفظها من أي اضطراب يفسد عليهم حياتهم. وجعل مياهها عذبة سائغة للشاربين.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧)﴾ [المرسلات].

خلق الليل والنهار

خلق الله السموات والأرض في ستة أيام من أيام الدنيا؛ قدّرها بمشيئته فلم تكن الشمس قد ظهرت بعد، ثم استوى على العرش استواء يليق بمقامه وجلال قدره؛ وكان عرشه على الماء قبل خلقهن. وقد جعل الله آيتي الليل والنهار يغطي كل منهما الآخر بتتابع بديع ودأب لا يفتر ولا ينقطع، وسخّر الشمس والقمر وسائر النجوم لأمر لا يدرك سره إلا هو جلت قدرته. ويقول المولى عن نفسه أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يصبه تعب أو فتور؛ فمثل هذه التغيرات تنطبق على المخلوق لا على الخالق.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾ [الأنبياء].

ومن عظيم قدرة الله؛ أن هذه السموات التي تُرى كسقف عظيم البناء بعيد الإدراك، قد أحكم بناءها، ورفعها من غير أعمدة كما هي العادة في بنيان البشر، وسخّر الشمس والقمر يجريان كل في فلكه إلى أن يأمر الله بأن يتوقفا أو يزولا؛ فهو وحده الذي يُدبِّر أمر الكون، ويبيّن آيات قدرته للناس ليعلموا أنه على جمعهم يوم الحساب إذا يشاء قدير.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ [الرعد].

الله الذي خلق السموات والأرض، وجعل النهار والليل لتيسير أمور العباد من حركة ونشاط في نهارهم، وسكن وقرار في ليلهم، وحساب الأيام والسنين وغيرها من المنافع.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام].

من آيات الله في الكون؛ الليل والنهار؛ يعقب كل منهما الآخر في ترتيب محكم لا تفاوت فيه ولا إبطاء. والشمس التي هي دليل الناس على النهار بنورها الباهر؛ تجري في مسارها الذي قدّره الله لها منذ أن خُلقت إلى أن يشاء؛ منصاعة لأمره جلّت قدرته. وقد جعلها الله دليلا للناس على مرور الأيام وانقضاء الفصول. والقمر الذي هو مصباح الليل يدور دورته الشهرية في أشكال متفاوتة في كل ليلة؛ فهو يتدرج من الصغر في أول الشهر حتى يصير في كماله ليلة الرابع عشر منه، ثم يعود فيتدرج من الكبر، حتى يتلاشى في آخره. وقد جعل الله القمر دليلا على بدء الشهور ونهايتها. وجعل الله هاتين الآيتين؛ الشمس والقمر؛ يدور كل منهما في فلكه بتتابع بديع لا يسبق أي منهما الآخر، ولا يتداخل معه فيَفسد نظام الكون بأسره.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ㊲ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ㊳ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ㊴ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ㊵﴾ [يس].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑤﴾ [يونس].

ومن دلائل قدرته أنه جعل الليل والنهار متتابعين؛ كأن أحدُهما يخرج من خلال الآخر. وجعل طول كل منهما مرتبط بالآخر في علاقة عكسية بديعة؛ فإذا زاد الليل نقص النهار، وإذا زاد النهار نقص الليل.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ [الحديد].

وجعل الله الكواكب تدور في السماء عبر منازل محدّدة، وجعل ضوء الشمس يضيء الدنيا نهارا، ونور القمر ينيرها ليلا، وجعل الليل والنهار متتابعين يخلُف أحدُهما الآخر؛ فلا ظلام دائم ولا نور بلا نهاية.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج].

تصريف أمور المخلوقات

خلق الله السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات في ستة أيام، ثم استوى على العرش. وهو الذي يدبّر أمور خلقه من عليائه؛ فتحمل ملائكتُه أوامره لتبلغها إلى أي مكان من هذا الكون في طرفة عين؛ لكنّها بمقياس البشر تساوي ألف سنة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة].

الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وعلمه محيط بكل ما يدخل إلى جوف الأرض من مطر وأجساد وغيرها، وما يخرج من باطنها من نباتات ومعادن وغيرها، وما ينزل من السماء من مطر وملائكة؛ تنزل بأقداره وأوامره، وما يصعد إلى السماء من أعمال العباد وغيرها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

خلق الله الأرض وجعلها سبع أراضين، ثم جعل فيهنّ أرزاق المخلوقات التي بها تحيا وعليها تعيش، ثم خلق السموات وجعلهن سبع سموات.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق].

بعد أن أمر الله بأن تنفصل الأرض عن السماء؛ وقد كانتا متّصلتين ببعضهما، منح الأرض بركته بأن تُنبت زرعها وتُثمر، وقدّر فيها أرزاق المخلوقات التي ستسكنها، وجعل الجبال رواسي فوق سطحها لتكون صالحة لحياة المخلوقات عليها؛ كل ذلك في أربعة أيام، وأمر السماء أن تكون سبع سموات، وقدّر لكل سماء أمرها من ملائكة ونجوم وغيرها ليقوم كل من هذه المخلوقات بوظيفته التي خلقه الله من أجلها؛ كل ذلك في يومين.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

بعض آيات الله في خلقه

من نعم الله على عباده أن جعل سطح الأرض مبسوطا كالمهد الذي يعدّه الإنسان لمنامه. وجعل الجبال للأرض كالأوتاد التي تقام بها الخيمة فتحفظها قائمة. وجعل البشر ذكرا وأنثى يأنس بعضُهم لبعض؛ ويُكمِّل بعضُهم بعضا. وجعل النوم راحة للإنسان من تعب النهار، وجعل الليل له سكنا، وجعل النهار لسعيه وتدبير مصالحه. وجعل السموات السبع سقفا

شديد البنيان يوحي بالأمان. وجعل الشمس سراجا شديد الضوء؛ ينير للناس طرقهم فلا يتعثرون في سعيهم. وأنزل من السحاب الماء الوفير لسقي زروعهم؛ فتُخْرج لهم الأرض من خيراتها ما يكفي حاجتهم وحاجة بهائمهم؛ فضلا عن الحدائق الكثيفة الأشجار التي ينعمون بثمرها وظلها.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ [النبأ].

الله الذي بسط الأرض، ووسّع أرجاءها لتتسع لحركة مخلوقاته، وأرساها بشوامخ الجبال فلا تميل ولا تهتز، وأجرى فيها الأنهار بالماء العذب الفرات الذي جعله أساس حياة الإنسان والحيوان والزرع، وجعل من كل الثمرات زوجين اثنين حتى لا تنقرض الثمار وتظل تتكاثر من أجل بقاء كل الأحياء على وجه الأرض. كما جعل النهار يتلوه ليل، والليل يتلوه نهار لاستمرار دورة الحياة بلا انقطاع أو توقف.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾ [الرعد].

وهو الذي بسط الأرض لعباده ومهّدها لهم، وأمرهم بأن يسعوا في أرجائها بحثا عن أسباب الرزق، وجعل السماء فوقهم سقفا محفوظا عظيم البناء بديع المنظر، وساق السحاب بالمطر يُسْقِطه حيث يشاء؛ فيُحيي به الزرع والضرع؛ فضلا منه وتكرما.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾ [البقرة].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك].

زيّن الله السماء الدنيا (الأقرب إلى الأرض) بنجوم تضيء ليل الأرض، وتحرس السماء من تنصّت الشياطين على من فيها من ملائكة؛ فتحرقهم.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك].

خلق الإنس والجان

الله الذي خلق الناس جميعا من لدن آدم حتى يرث الأرض ومن عليها، وجعل بداية خلق الإنسان جنينا في رحم أمه، ثم مخلوقا كامل الخلقة. وهو الذي جعل له الأرض مستقرا وسكنا؛ يمشي في مناكبها حيّا، ويرقد في جوفها ميّتا إلى يوم البعث.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾ [الأنعام].

خلق الله الإنسان (آدم) من طين يابس كأنه الفخار (الطين بعد أن يحرق في النار)، وخلق الجان من جذوة من نار.

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الرحمن].

الله الذي خلق الإنسان من عدم، وجعله قادرا على التكاثر لعمارة الأرض، وجهّزه بجميع الحواس التي تعينه على الحياة كالأذنين للسمع، والعينين للإبصار، والقلب الذي يهديه إلى طريق الحق.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الملك].

بدأ الله خلق الإنسان من طين (كما في آدم) وجعل عمره محدّدا في الحياة، وجعل لبعثه يوم الحساب موعدا لا يعلمه إلا هو جلّت قدرته.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ②﴾ [الأنعام].

مراحل خلق الإنسان

تبدأ مراحل خلق الإنسان بنطفة في منيّ الرجل، تتّحد مع بويضة المرأة، فيصير كليهما نطفة أمشاج (مختلطة)، ثم تصبح النطفة الأمشاج علقة في الرحم، ثم تصير خلقا كامل الخلقة؛ ذكرا أو أنثى كما يشاء الله.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ㊱ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ㊲ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ㊳ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ㊴﴾ [القيامة].

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ②﴾ [الإنسان].

وهذه لقطة معجزة لمسلسل خلق الإنسان والمراحل التي يمرّ بها؛ بدأت بخلق آدم من تراب كما أسلفنا، ثم التكاثر الذي يبدأ بماء مهين (النطفة)، يودعها الله في قرار مكين (الرحم) إلى أن يحين موعد ولادته طفلا. ويمر الإنسان بمراحل النمو المختلفة من شباب وشيخوخة أو يتوفّاه الله في أي مرحلة من تلك المراحل دون أن يصل إلى ما بعدها؛ فليس الموت مرتبطا بمرحلة معينة.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑳ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ㉑ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ㉒﴾ [المرسلات].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ㊻﴾ [غافر].

جعل الله خلق الإنسان من نفس واحدة هي آدم، ثم جعل منه زوجه حواء، ثم جعل نسله من بعده حملا يتكوّن في رحم الأم؛ خلقا من بعد

خلق (مراحل نمو الجنين كما سبق) في ظلمات ثلاث هي ظلمات البطن والرحم والمشيمة.

﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون (٦)﴾ [الزمر].

حكمة الزوجية في المخلوقات

من عظيم خلق الله أنه جعل كل المخلوقات في الوجود زوجين اثنين؛ في الأحياء من أجل النسل والتكاثر، وفي الجمادات من أجل أن تستمر دورة الحياة كما أرادها الله. ولا واحد إلا الخالق جل شأنه.

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)﴾ [يس].

آية الله في المطر

يُنَزِّل الله الماء من السماء على هيئة مطر؛ تمتلئ به الأنهار والآبار، وما يفيض يتزل إلى باطن الأرض في خزانات جوفية يخرجها الإنسان وفق حاجته؛ فيسقي بها الزرع الذي تختلف ألوانه وطعومه. ونرى الزرع في بدء حياته نضرا شهي اللون والطعم، ثم يصفرّ ويذبل حتى يموت فيصير هشيما. وعلى الإنسان أن يتّعظ من دورة حياة النبات التي لا تخفى على أحد؛ لأن دورة حياة كل حي تتكرر بنفس الصورة؛ شباب وكهولة ثم موت.

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب (٢١)﴾ [الزمر].

آية الله في البحار

جعل الله حاجـزا بين الماء العذب والماء المالح؛ إذا التقيـا، فلا تتداخل مياههما، ويظل الماء العذب عـذبا فراتا لا يتغير بملوحة الماء المالح. ومن نعم الله التي تأتينا من البحـر اللؤلؤ والمرجان؛ حلْية لنا، والسفن التـي تسير على صفحة الماء كالجبال الشامخات؛ تحملنا وتحمل متاعنا.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن].

تعقيب

تصوّر لنا التوراة عمليّة الخلق كأنها جاءت صدفة؛ بدليل ما ذكرته من أنّ الله لما خلق الأرض كانت مشوّشة، ويسود الظلام وجه المياه. ولم تُبيّن لنا التوراة كيف جاءت المياه التي صاحبت خلق السموات والأرض.

وتقول التوراة أن الله لما رأى الظلام، أمر أن يكون هناك نور يبدّد حلكة الظلام؛ كأن الله قد فوجئ بهذا الظلام. وبعدها نرى الله يخلق الشمس لتشرق في النهار، والقمر ليضيء في الليل؛ وهذا لا ينسجم مع خلق الله للنور الذي ذُكر أولا.

وتقول التوراة أن الله لمّا خشي من اختلاط مياه الأرض بالمياه التي تحملها السحب، خلق الهواء ليحجز بينهما؛ وعمليّة خلق الهواء ليحجز بينهما غير مستساغة عمليا.

وتقول التوراة أن الله لمّا رأى الماء يغطي وجه الأرض، أمره أن يتجمّع في موضع واحد؛ فظهرت اليابسة، وأن الله لما رأى المياه المتجمّعة، سمّاها بحرا، وسمّى اليابسة أرضا، وأن الله استحسن ذلك؛ كإنسان صنع شيئا جميلا فانبهر به، ثم أعطاه اسما يتناسب مع طبيعته التي رآه عليها.

والتوراة غالبا تُقدِّم الله في صورة بشرية، يخلق، ثم ينفعل بما خلق؛ بمعنى أنه قد يستحسنه أو قد يستقبحه. كما أنّه يسمّي الأشياء بعد أن يخلقها.

وما سبق يدل على أن الله لم يخلق الخلق بمشيئة كاملة، وأن سابق علمه لم يكن محيطا بكل مخلوقاته. وهذا يتنافى مع قدرة الله، وإحاطة علمه بكل ما هو كائن وما سيكون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وتقول التوراة أنّ الله أمر الأرض أن تُخرج الكائنات الحية من بهائم ووحوش وزواحف، فخرجت الكائنات الحية كما أمر الله. ولم تتعرّض

التوراة لعملية خلق تلك الكائنات وكيفية خروجها من باطن الأرض، ولم تقدم تفسيرا منطقية لخلقها.

وتقول التوراة أن الله جعل كل ما على الأرض من ثمر؛ غذاء للإنسان، ما عدا العشب؛ فقد جعله طعاما لكل وحوش الأرض وطيور السماء والحيوانات الزاحفة. وهذا غير مقبول بعامة، فأغلب الكائنات المذكورة لا تأكل العشب.

وتقول التوراة أنّ الله لما أراد أن يخلق آدم، خلقه على صورته. وفي ذلك تجسيد لله، وتأكيد على بشريّته. وبشريّة الله تتجلى في كثير مما أوردته التوراة عنه عز وجل.

وما ورد عن خلق آدم من تراب، وإسكانه جنة عدن التي أعدّها الله لسكناه هو وزوجته، فلا خلاف بين التوراة والقرآن في هذه الجزئية.

أمّا شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر؛ اللتان ذكرت التوراة أنهما في جنة عدن، فلم يذكر القرآن عنهما شيئا، بل ذكر فقط الشجرة المحرّمة التي نُهي آدم عن الأكل منها. ولم يذكر القرآن أي علاقة لهذه الشجرة بالحياة أو الموت أو الخير أو الشر، لكنّ ما ذكره القرآن عنها أنها كانت اختبارا من الله لآدم؛ هل يطيع أمره أو يعصيه.

ويقول القرآن أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة، فأمر الله أن ينفصلا؛ فكانت السموات والأرض. وهذه الحقيقة القرآنية لا ينقضها العلم الحديث، ويشير إليها بما يسمى "الانفجار العظيم".

ويقول القرآن عن الجبال أنها رواسي للأرض حتى لا تتمايل أو تتأرجح. وهذه الحقيقة القرآنية، يؤكدها علماء الأرض الذين يذكرون أن ما نراه من الجبل فوق سطح الأرض جزء يسير من تكوين الجبل، والجزء الأعظم منه يغوص في أعماق الأرض ليؤدي الجبل دوره في رُسوّ الأرض.

وما ذكرته التوراة من أن الله لما أكمل الخلق أحسّ بالرضا، وبارك اليوم السابع وقدّسه؛ لأنه استراح فيه من جـميع أعمال الخلق التي أرادها، فيناقضه مـا ورد في القـرآن من أن الله خلق السـموات والأرض في سـتـة أيام، ثم استـوى على عرشـه، لم يصبـه تعب ولا نصب؛ لأن مثل هذه الأحـاسيس تنطبق على مخلوقات الله لا على الله جلّت قدرته.

وتحدّثنا التوراة عن الكواكب والنجـوم، فتقول أن الله خلقهـا ليزيّن بها السماء، ويضيف القرآن للنجوم وظيفة أخرى؛ هي حراسة السماء من تنصّت الشيـاطين. فكل من يحاول من الشيـاطين التنصّت على الملأ الأعلى، يرسل الله عليه أحدها فيحرقه.

وتكلّم القرآن عن ملائكة الله المسبّحة بحمده، والملائكة المكلّفة من لدنه بتيسـير أمور العباد وتـوصيل أوامره إلى جميع خلقـه في طرفة عين. وتكلّم القرآن عن عالم الجن، وأنهم خُلقوا من جزوة من نار، وأنهم أمم أمثالنا.

وتكلّم القرآن عن معجزة الله في خلق البحـار، وعن حاجز غير مادي يحجز بين المـاء العذب والماء المالح؛ إذا التقيـا، فلا تتداخل مياهـهما، ويظل الماء العذب عـذبا فراتا لا يتـغير طعـمه بملوحة الماء المالح. وقـد أثبت العلم الحديث ما أخبر به القرآن من أكثر من ألف وأربعمائة سنة.

وتكلّم القـرآن عن معجـزة الله في خلق الإنسان، وعن مـراحل الخلق بصورة رائعة اكتشفهـا العلم الحديث مؤخرا؛ بما يشهد بأن القرآن لا يمكن أن يكون صناعة بشرية.

وتكلّم القرآن عن معجزة خلق السمـوات السبع على هيئة طبقات تعلو بعضها بعضا في إحكام بالغ لا يرى فيه الناظر أي تناقض أو خلل.

وتكلّم القرآن عن مـعجزة خلق الأرض وجـعْلها سبعـة أراضين؛ سبع طوابق تلتف حول مركـزها في تكوين معجز. وهذه أمـور لم تتناولها التوراة من قريب أو بعيد.

الفصل الثاني

خلق آدم وحواء

خلق آدم وحواء في التوراة
الشجرة المحرّمة

لمّا أكمل الله خلق السموات والأرض، وأقام جنّة في شرقي عدن لمعيشة آدم، وضعه الله في الجنّة، وأخبره أن كل ما في الجنّة مباح له؛ يأكل منه كيف يشاء، وحذّره من شجرة واحدة لا يأكل منها؛ وهي شجرة معرفة الخير والشر، وقال له إن هو أكل منها فإنّه حتما يموت.

الشجرة المحرمة

١٥وأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا.
١٦وأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، ١٧ولَكِنْ
إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً
تَمُوتُ»(١).

خلق حواء

وخلق الله من تراب الأرض كل وحوش البرية، وطيور الفضاء، وأحضرها إلى آدم ليُسمّي كلا منها باسم يعرفها به. ولاحظ آدم أن كل هذه الحيوانات تنقسم إلى ذكر وأنثى، لكنّه لم يجد فيها من يشبهه فأحسّ بالوحدة. ورأى الرب أن يؤنس وحدة آدم؛ بأن يخلق مُعينا له في دنياه، ومؤنسا له في وحدته؛ ويكون على شاكلته. أوقع الرب؛ آدم في نوم عميق، ثم أخذ ضلعا من أضلعه وسدّ مكانه باللحم، وعمل من هذا الضلع امرأة. وأحضر الربُّ المرأة أمام آدم؛ فسمّاها آدم امرأة. وكان آدم وامرأته عريانين، ولكنهما لم يكونا يشعران بأي خجل بسبب ذلك؛ لأنهما لم يكونا يعرفان الخطيئة؛ التي تجعل صاحبها يشعر بالخجل.

---

(١) سفر التكوين -٢.

١٨ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «لَيسَ مُسْتَحْسَناً أَنْ يَبْقَى آدَمُ وَحِيداً. سَأَصْنَعُ لَهُ
مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ». ١٩وكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ البَرِّيَّةِ
وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ
أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْماً لَهُ. ٢٠وهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى
كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لِنَفْسِهِ مُعِيناً مُشَابِهاً لَهُ.
٢١فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ، ثُمَّ تَنَاوَلَ ضِلْعاً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَسَدَّ
مَكَانَهَا بِاللَّحْمِ، ٢٢وَعَمِلَ مِنْ هَذِهِ الضِّلْعِ امْرَأَةً أَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ
آدَمُ: «هَذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. فَهِيَ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ
امْرِيءٍ أُخِذَتْ». ٢٤لِهَذَا، فَإِنَّ الرَّجُلَ يَتْرُكُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ،
وَيَصِيرَانِ جَسَداً وَاحِداً. ٢٥وكَانَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ عُرْيَانَيْنِ، وَلَمْ يَعْتَرِهِمَا
الْخَجَلُ[1].

الأكل من الشجرة

عاش آدمُ وزوجُه في الجنّة؛ يأكلان من ثمرها، ويستمتعان بظلّها، ويرتويان من مائها؛ لا يُكدّر صفو حياتهما فيها مُكدِّر؛ حتى كانت اللحظة التي استمعت فيها زوجته إلى الحيّة؛ أمكر وحوش البرية. ويدور حوار بين الحيّة وزوجة آدم حول الشجرة التي حذّرهما الله من الأكل منها، وتُوَسْوس الحيّةُ للمرأة وتقول لها أن الله قد منعهما من الأكل من تلك الشجرة حتى لا تنفتح أعينهما؛ فيصيران مثل الله قادرين على التمييز بين الخير والشر. وكانت المرأة دائمة التطلّع بشغف إلى الشجرة وحسنها، وتنجذب دائما إلى جمال ثمرها. لم تقاوم المرأة طويلا، فمدّت يدها وقطفت من ثمرها، وأكلت

(١) سفر التكوين -٢.

وأعطت لآدم، فأكل هو الآخر، فانفتحت أعينهما على عُرْيهما، وخجلا من نفسيهما، وجعلا لنفسيهما غطاء من ورق التين؛ يستران به عورتيهما.

٣- سقوط الإنسان

وَكَانَت الحَيَّةُ أَمكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَت الْمَرْأَةَ: «أَحقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الجَنَّة؟» ٢فَأَجَابَت الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الجَنَّة كُلِّهَا، ٣مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ لِكَيْ لاَ تَمُوتَا». ٤فَقَالَت الحَيَّةُ لِلْمَرْأَة: «لَنْ تَمُوتَا، ٥بَلْ إِنَّ اللهَ يَعْرِفُ أَنَّهُ حِينَ تَأْكُلان مِنْ ثَمَرِ هَذه الشَّجَرَة تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا فَتَصِيرَان مِثْلَهُ، قَادِرَيْنِ عَلَى التَّمْييزِ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ». ٦وَعِنْدَمَا شَاهَدَت الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَذِيذَةٌ لِلْمَأْكَلِ وَشَهِيَّةٌ لِلْعُيُون، وَمُثِيرَةٌ لِلنَّظَرِ قَطَفَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، ثُمَّ أَعْطَتْ زَوْجَهَا أَيْضاً فَأَكَلَ مَعَهَا، ٧فَانْفَتَحَتْ لِلْحَال أَعْيُنُهُمَا، وَأَدْرَكَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ، فَخَاطَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ مِنْ أَوْرَاقِ التِّين(١).

الحكم على الحية

أصبح الزوجان في حالة من الخجل من فعلتيهما؛ وإذ بهما يسمعان صوت الرب يتمشّى في الجنة، فاختبئا من حضرته، وتواريا بين أشجار الجنة. نادى الربُّ آدم أين أنت يا آدم؟ فأجابه آدم لقد اختبأت من حضرتك لأنني عريان. ويسأله الرب من أخبرك أنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتُك عنها؟ فيقول آدم إنها المرأة التي أطعمتني منها. ويسأل الربُّ المرأة لماذا فعلت ذلك؟ وتردُّ المرأة قائلة إنها الحيّة؛ هي التي أغوتني على الأكل من الشجرة، فيقول الربُّ للحيّة بسبب ذلك فأنت ملعونة من بين جميع البهائم ووحوش البرية، وعلى بطنك تسعين، ومن التراب تأكلين، وتكون العداوة دائمة بينك وبين المرأة، ويسحق الإنسان رأسك، وأنت تلدغين ذريته.

---

(١) سفر التكوين - ٣.

٨ثُمَّ سَمِعَ الزَّوْجَانِ صَوْتَ الرَّبِّ الإِلَهِ مَاشِياً فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ
النَّهَارِ، فَاخْتَبَآ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ الإِلَهِ بَيْنَ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلَهُ
آدَمَ: «أَيْنَ أَنْتَ؟» ١٠فَأَجَابَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَاخْتَبَأْتُ خَشْيَةً مِنْكَ
لأَنِّي عُرْيَانٌ». ١١فَسَأَلَهُ: «مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنْ ثَمَرِ
الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟» ١٢فَأَجَابَ آدَمُ: «إِنَّهَا الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا رَفِيقَةً لِي.
هِيَ الَّتِي أَطْعَمَتْنِي مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ». ١٣فَسَأَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ الْمَرْأَةَ:
«مَاذَا فَعَلْتِ؟» فَأَجَابَتْ: «أَغْوَتْنِي الْحَيَّةُ فَأَكَلْتُ». ١٤فَقَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ لِلْحَيَّةِ:
«لأَنَّكِ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ
الْبَرِّيَّةِ، عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ، وَمِنَ التُّرَابِ تَأْكُلِينَ طَوَالَ حَيَاتِكِ، ١٥وَأُثِيرُ عَدَاوَةً
دَائِمَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ نَسْلَيْكُمَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ وَأَنْتِ
تَلْدَغِينَ عَقِبَهُ»[1].

الحكم على آدم وحواء

وبعد أن أعلن الله حكمه على الحيّة التي كانت سببا في إغواء حوّاء، توجّه إلى حوّاء التي كانت سببا في أكل آدم من الشجرة، وأصدر حكمه عليها بأنّه سوف يزيد من آلام حملها ومخاضها، وسوف يكون إنجابها للأولاد عملا شاقا ومضنيا تعاني منه كثيرا، وسوف تكون دائما متشوّقة إلى زوجها، وسوف يكون الزوج متسلّطا عليها، ومتحكّما في جميع شئونها. وجاء دور آدم؛ الذي أذعن لزوجته، وأكل ما قدمت إليه من ثمر الشجرة، فقال له الرب أنه قد لعن الأرض بسببه؛ فلا تنبت له إلا حسكا وشوكا، ولكي يأكل من عشب الحقل؛ عليه أن يكدّ ويكدح لكي يخرج من الأرض خيرها، وسوف تكون حياته كلّها على وجه الأرض تعبا وشقاء، وسوف تنتهي حياته بالموت؛ فيدفن في تراب الأرض التي أُخذ منها جسده.

---

(١) سفر التكوين - ٣.

١٦ثُمَّ قَالَ لِلْمَرْأَةِ: «أُكَثِّرُ تَكْثِيراً أَوْجَاعَ مَخَاضِكِ فَتُنْجِبِينَ بِالآلاَمِ أَوْلاَداً، وَإِلَى زَوْجِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَتَسَلَّطُ عَلَيْكِ». ١٧وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ أَذْعَنْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ، وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا، فَالأَرْضُ مَلْعُونَةٌ بِسَبَبِكَ وَبِالْمَشَقَّةِ تَقْتَاتُ مِنْهَا طَوَالَ عُمْرِكَ. ١٨شَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. ١٩بِعَرَقِ جَبِينِكَ تَكْسَبُ عَيْشَكَ حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ، فَمِنْ تُرَابٍ أُخِذْتَ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ»(١).

الطرد من الجنة

وسمّى آدم زوجته حواء، وكساهما الربُّ رداء من جلد صنعه لهما بنفسه. ولما رأى الربُّ أن آدم وحواء قد تجرّءا على الأكل من شجرة معرفة الخير والشر؛ فصارا مثله من ناحية (معرفة الخير والشر)، خاف الربُّ أن يتجرّءا كذلك على الأكل من شجرة الحياة فلا تكون له سلطة على حياتيهما فلا يموتان، فأخرجهما من جنّة عدن؛ ليكابدا مشقّة الحياة على الأرض بعد أن كانا منعّمين في الجنة، وأقام حرسا من ملائكة الكروبيم(٢)، ونصب سيفا من النار المتوهجة؛ لحراسة الطريق المؤدية إلى شجرة الحياة حتى لا يقربها أحد.

طرد الإنسان من الجنة

٢٠وَسَمَّى آدَمُ زَوْجَتَهُ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. ٢١وَكَسَا الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ رِدَاءَيْنِ مِنْ جِلْدٍ صَنَعَهَا لَهُمَا. ٢٢ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ الإِلَهُ: «هَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا، يُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَقَدْ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَتَنَاوَلُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ وَيَأْكُلُ، فَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». ٢٣فَأَخْرَجَهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْ تُرَابِهَا. ٢٤وَهَكَذَا طَرَدَ اللهُ الإِنْسَانَ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ،

(١) سفر التكوين - ٣.

(٢) طائفة من الملائكة.

وَأَقَامَ مَلائِكَةَ الْكَرُوبِيمِ وَسَيْفاً نَارِيّاً مُتَقَلِّباً شَرْقِيَّ الْجَنَّةِ لِحِرَاسَةِ الطَّرِيقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»(١).

ذرية آدم

وعاشر آدم زوجته حواء؛ فولدت له قايين (قابيل)، ومن بعده هابيل. عمل قايين في فلاحة الأرض، وهابيل في رعي الغنم. وذات يوم قدّم قايين قربانا للرب من ثمار أرضه، وقدّم هابيل قربانا للرب من خيرة أبكار غنمه؛ فتقبّل الرب قربان هابيل ولم يتقبّل قربان قايين؛ فاغتاظ قايين من أخيه وحقد عليه حقدا دفعه إلى قتله.

٤- تقدمات قايين وهابيل

وَعَاشَرَ آدَمُ حَوَّاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». ٢ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ، وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِياً لِلْغَنَمِ. أَمَّا قَايِينُ فَقَدْ عَمِلَ فِي فَلاَحَةِ الأَرْضِ. ٣وَحَدَثَ بَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ أَنْ قَدَّمَ قَايِينُ مِنْ ثِمَارِ الأَرْضِ قُرْبَاناً لِلرَّبِّ، ٤وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضاً مِنْ خَيْرَةِ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَأَسْمَنِهَا. فَتَقَبَّلَ الرَّبُّ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَرَضِيَ عَنْهُ. ٥لَكِنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ قَايِينَ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدّاً وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ كَمَداً. . . . . ٨وَعَادَ قَايِينُ يَتَظَاهَرُ بِالْوُدِّ لأَخِيهِ هَابِيلَ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا مَعاً فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ هَجَمَ عَلَى أَخِيهِ هَابِيلَ وَقَتَلَهُ. . . . .(٢)

وعاشر آدم زوجته حواء؛ فأنجبت له ابنا أسمته شيث؛ قائلة أن الله قد عوّضها عن هابيل الذي قتله قايين. وولد لشيث ابنا أسماه أنوش، وأُطلق على نسل شيث أبناء الله في مقابل أبناء قايين؛ الذين أُطلِق عليهم أبناء الناس.

(١) سفر التكوين -٣.   (٢) سفر التكوين -٤.

مولد شيث

٢٥وَعَاشَرَ آدَمُ زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ مَرَّةً أُخْرَى فَـأَنْجَبَتْ لَهُ ابْناً أَسْمَتْهُ «شيثاً» إِذْ
قَالَـتْ: «قَدْ عَوَّضَـنِي اللهُ نَسْلاً آخَـرَ عِوَضـاً عَنْ هَابِيلَ الَّذِي قَتَلَهُ قَـايِينُ».
٢٦وَوُلِدَ لِشَـيثٍ أَيْضـاً ابْنٌ سَـمَّـاهُ أَنُوشَ وَعِنْدَئِذٍ ابْتَـدَأَ النَّاسُ يَدْعُـونَ بِاسْمِ
الرَّبِّ[1].

مـوت آدم

وعاش آدم بعد مولد شـيث ثمانمائة سنة، وأنجب بنين وبنات، ثم مات
وله من العمر تسعمائة وثلاثون سنة.

٥- ذرية آدم

هَذَا سِجِلُّ بِمَوَالِيدِ آدَمَ. يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَـانَ، صَنَعَهُ اللهُ عَلَى مِثَالِه.
٢وَقَدْ خَلَقَهُ ذَكَراً وأُنْـثَى. وَيَوْمَ خَلَقَهُ، بَارَكَهُ وَسَمَّاهُ آدَمَ. ٣كَانَ عُـمْرُ آدَمَ مِئَةً
وَثَلاَثِينَ سَنَةً عِنْدَمَا أَنْجَبَ وَلَداً كَشَبَهِه وَمِثَـاله، وَسَمَّاهُ شيثاً. ٤وَعَاشَ آدَمُ بَعْدَ
مَوْلِدِ شيث ثَمَانِي مِئَـة سَنَة، وَوُلِدَ لَهُ بَنُونَ وَبَنَاتٌ. ٥وَمَاتَ آدَمُ وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ
تِسْعُ مِئَةٍ وَثَلاَثُونَ سَنَةً.... [2]

---

(١) سفر التكوين -٤.　　(٢) سفر التكوين -٥.

خلق آدم وحواء في القرآن
خلـــق آدم

خلق الله الأشـيـاء كلّهـا، وصورّهـا فأحـسـن صورها. وقـد بدأ خلق الإنسان من طين كمـا هو في أبينا آدم عليه السلام، ثم نفخ فيـه الروح فصار بشرا سويا، وخلق منه زوجه حـوّاء، وجعل نسله بالتكاثر من خلال التزاوج بين الذكر والأنثى؛ فيـجتمع مـاء الذكر مع ماء الأنثى، وتـتم عملية التناسل (تناولناها في الفصل الأول بشيء من التفصيل). وجعل الله عمرنا على وجه الأرض لأجل مـعلوم عنده وحـده، ثم نموت بعـد انقضـاء الأجل، وجـعل لحسابنا يوما محدّدا؛ تُبعث فيه جميع الخلائق ليُقْضى بينهم.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة].

دهشة الملائكة من خلق آدم

لما شاءت إرادة الله أن يخلق آدم، قال لملائكته أنّه سوف يخلق خلقا من خلقه؛ يعـمرون الأرض ويتكاثرون فـيها. ومن شـدّة خشيـة الملائكة من أن يكونوا قد قصّروا في عـبادة الله، وظنّهم أن الله سوف يخلق هؤلاء من أجل عبادته؛ قـالوا يارب هل قصّرنا في عبادتك وتقـديسك، فتخلق هؤلاء الذين سوف يفسدون في الأرض ويسفكون الدمـاء؟ فقال الله لملائكته إني أعلم من شـأنهم ما لا تعلمـونه؛ فـقد كـان في سابق علمـه أن سـيكون منهم أنبيـاء ومرسلين وشهداء وأولياء صالحين.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة].

تعليم الله لآدم أسماء كل شيء

ولمّا كان قول الملائكة يشير إلى ظنّهم الأفضلية على هذا المخلوق الذي يريد الله أن يخلقه وهو آدم؛ لما جبلوا عليه من دوام الطاعة وحسن العبادة، أراد المولى سبحانه وتعالى أن يبيّن لهم فضله؛ فعلّمه أسماء الأشياء التي سوف يتفاعل معها على الأرض، ومعانيها، وما تدلّ عليه، ثم عرض تلك الأشياء على الملائكة، وطلب منهم أن ينبئوه بأسمائهم إن كانوا حقا يعلمون شيئا لم يعلّمهم إيّاه، فسجدوا لله خاشعين منيبين، وقالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا. عندئذ عرض أسماء الأشياء على آدم، وقال له: أنبئهم بأسمائهم، فسمّى آدمُ كل شيء باسمه كما علّمه الله، فتبيّن للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الله في خلقه.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾ [البقرة].

سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس

أمر الله تعالى ملائكته؛ وكان فيهم إبليس؛ بالسجود لآدم سجود إكرام وتبجيل، فامتثلوا لأمر الله، وبادروا إلى السجود، لكن إبليس استكبر عن أمر الله فلم يسجد، وقال لا أسجد لمن خلقته من طين. ولمّا سأله الله - عز وجل - عن سبب عدم سجوده لآدم كما أمره، كان جوابه أنّه خير من آدم لأنه خُلِق من نار؛ وآدم خُلِق من طين، فأمره الله بالخروج من حضرته، ولعنه وحرمه من رضوانه إلى يوم القيامة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر].

عداوة إبليس لآدم وذريته

لمّا أمر الله إبليس أن يسجد لآدم مع من أمره من الملائكة أبى واستكبر. ولمّا سأله المولى عز وجل عن سبب امتناعه عن السجود لمن كرمّه وخلقه بيديه، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين؛ وهو يظنّ أن مادّة النار أكرم من مادة الطين الذي خُلق منه آدم. عندئذ طرده الله من رحمته ومن المقرّبين من حضرته، فطلب إبليس من ربه أن يمهله إلى يوم البعث؛ وقد عقد العزم على شنّ حرب شعواء على آدم وذريته، ليغويهم كما غوى هو من قبل، ويجرُّهم إلى المصير الأليم الذي وضع نفسه فيه بمعصيته لله واستكباره وعدم استغفاره من ذنبه، وأقسم بعزّة الله أن يغويهم أجمعين؛ إلا من أخلص منهم العبودية لله. وأمهله الله إلى يوم القيامة، لكنه أقسم أن يملأ جهنم من إبليس ومن ذريته وممن تبعه من بني آدم.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص].

الأكل من الشجرة المحرّمة

كان الله قد هيّأ لنبيه آدم جنة عظيمة على مرتفع من الأرض، وجعل له فيها من الزروع والثمار والأشجار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وأمره أن يسكن فيها، ويأكل من خيرها، ويستظل بظلها؛ إلاّ شجرة واحدة أمره أن لا يقربها. وكان الشيطان مُتربِّصا لآدم؛ فوسوس له ولزوجته أن يأكلا من الشجرة، وأوهمهما أن من يأكل منها يحيا حياة الخلد؛ فلا يموت. وعصى آدمُ ربّه، فأكل من الشجرة. وبعد أن أكل من الشجرة أحسّ بندم عظيم لأنه عصى الله، فدعا الله جلّ شأنه أن يغفر له. ولما كانت توبته صادقة، غفر الله له ذنبه، وأمره أن يخرج هو وزوجه من الجنة إلى الأرض التي كتب الله لهم أن يعيشوا فيها هما وذريّتهما، وحذّرهما من إبليس ومن غوايته التي كانت السبب في إخراجهم من نعيم الجنة إلى شقاء الأرض، وأمرهما أن يتّخذاه عدوّا، وأن لا ينقادا لوساوسه. وبيّن الله منهاجه لآدم ولذريته كي ينالوا جنة الخلد؛ وهو أن يتّبعوا أوامر الله، ويجتنبوا نواهيه.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة].

توبة آدم وحواء

وفي لمحة أخرى من قصة آدم وحوّاء، تخبرنا هذه الآيات من سورة الأعراف أن الله سبحانه وتعالى أمر آدم وزوجه حواء أن يسكنا الجنة، ويأكلا

من جميع ثمارها، ونهاهما عن شجرة واحدة من أشجار الجنة. وعاشا في الجنة في صفاء ودعة. وكان الشيطان ينظر إلى حالهما وما هما فيه من حياة طيبة ورضوان من الله؛ فيتحسّر على نفسه لأنه طُرِد من رحمة الله، وأخذ يوسوس لهما من ناحية الشجرة التي نهاهما الله عنها من أجل أن يعصيا الله فيكونون سواء في المعصية. وقال لهما الشيطان: إن الله منعكما عن تلكما الشجرة حتى لا تكونا ملكين خالدين في الحياة، ويريد لكما أن تظلا بشرين قصيري الأجل، وأن لا تستمتعا بما أنتم فيه من النعيم طويلا، وأقسم لهما بأغلظ الأيمان أنه صادق في نصحه لهما. ولم يزل الشيطان يوسوس لهما؛ حتى نسيا أمر ربهما، وأكلا من ثمار الشجرة التي حرمّها الله عليهما. وما إن أكلا من الشجرة حتى تغيّرت حالهما، وبدت لهما سوءاتهما؛ وكانا لا ينظران إليها من قبل. وأخذا يجمعان من ورق الشجر ما يستران به عورتيهما. وناداهما ربهما لماذا أكلتما من الشجرة التي نهيتكما عنها؟ ولماذا أطعتما الشيطان وقد حذّرتكما منه؟ فأجابا الله في ذلة وانكسار : ربنا ظلمنا أنفسنا بعصيانك، وإن لم تغفر لنا ذنوبنا، وتسعنا رحمتك؛ فقد بؤنا بخسران مبين. فأجابهم الرب قد غفرت لكم، لكنني قد جعلت لكم الأرض مستقرا لكما ولذريتكما؛ فيها تحيون عمركم، وفي جوفها تدفن أجسادكم حتى يوم البعث.

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)﴾ [الأعراف].

تعقيب

تقول التوراة أن الله حذّر آدم من الأكل من الشجرة، وقال له إن هو أكل منها فإنّه حتما يموت. وإن كان المقصود أن يموت آدم بمجرد الأكل من الشجرة، يكون الله قد هدّده بالموت وتراجع عن تهديده؛ وحاشاه. وإن كان المقصود بموت آدم؛ هو الموت الطبيعي المكتوب على كل حي، فلا يكون للتهديد هنا أي معنى لأنه كان سيموت؛ سواء تهدّد من الرب أم لم يتهدّد، ويكون التهديد هنا مجرد لغو من الرب؛ وحاشاه.

تقول التوراة أن الله خلق من تراب الأرض كلّ وحوش البرية، وطيور الفضاء، وأحضرها إلى آدم ليُسمّي كلاّ منها باسم ليعرفها به. لكن القرآن يقول إن الله هو الذي علّم آدم أسماء الأشياء كلّها، وعرّفه صفاتها ومدلولاتها؛ وهذا أكثر مصداقية، لأنه كيف يكون لآدم أن يعرف شيئا لم يُعلِّمه الله إيّاه؟

وتقول التوراة عن خلق حواء؛ أن الله أراد أن يؤنس وحدة آدم، فأوقعه في نوم عميق، وأخذ ضلعا منه، وصنع منه امرأة. والتفكُّر هنا ليس في كيفية خلق الله لحواء؛ فهو قادر على كل شيء، لكن عند القول بأن الله أراد يؤنس آدم فخلق له حواء؛ لأن في ذلك تأكيد على مصادفة خلق حواء، ونفي لعلم الله ومشيئته التي سبقت خلقه لجميع الأشياء؛ وهما من صفات الله التي يؤكِّد عليها القرآن دائما.

وتَنْسب التوراةُ إلى الحيّة مسئولية إغواء حوّاء للأكل من الشجرة، وتقول أن حوّاء هي التي أكلت من الشجرة، ثم أعطت آدم فأكل. والمستغرب هو كيف للحية أن تقوم بإغواء حواء؛ وهي حيوان أعجم لا لسان له ولا عقل !! ويقول القرآن أن الشيطان هو الذي وسوس لآدم وأغراه بالأكل من الشجرة، فأكل منها، ثم تبعته زوجته. وتعبير القرآن هو الأصدق؛ لأن وظيفة الشيطان

هي الوسوسة والتلبيس على النفس البشرية، كما أن أكل آدم أولا يُثْبت قوامته على حواء وتسلُّطه عليها؛ فهو الأصل، وخُلقت حواء كجزء منه.

وصوت الرب الذي يتمشّى في الجنة، وحواره مع آدم؛ كما ذكرت التوارة، إعلان عن بشريّة الله التي تؤكّدها التوراة؛ حيثما ورد ذكر الله جل شأنه.

أما عقاب الله للحيّة بأن جعلها تسعى على بطنها، فيدفعنا إلى التساؤل؛ هل كانت الحيّة تسعى على أرجل من قبل، ثم بدّل الله حالها بعد العقوبة المزعومة.

أما أن يسحق الإنسانُ رأسَ الحيّة، وتلدغ الحيّةُ ذريته؛ فلا تضيف جديدا لحال الحيّة مع الإنسان وحال الإنسان معها منذ خلقهم الله.

والحال نفسه ينطبق على عقاب الله لحوّاء؛ بأن تتكبد آلام الحمل والمخاض وإنجاب الأولاد، يجعلنا نتساءل؛ أليست هذه هي وظيفتها التي خلقها الله من أجلها؟

وكذلك عقاب الله لآدم بأن يكدّ ويكدح، وأن تكون حياته كلها على وجه الأرض تعبا وشقاء، وأن تنتهي حياته بالموت؛ فيُدفن في تراب الأرض؛ يثير تساؤلا مفاده؛ هل في ذلك أي إضافة جديدة لمهمة آدم في الحياة، ونهايته المحتومة في تراب الأرض.

وتقول التوراة أن الربّ خاف من آدم وحواء أن يتجرءا على الأكل من شجرة الحياة بعد أن أكلا من شجرة معرفة الخير والشر؛ فلا تكون له سلطة على حياتيهما، فلا يموتان، فأخرجهما من جنّة عدن، وأقام حرّاسا من ملائكة الكروبيم، ونصب سيفا من النار المتوهّجة لحراسة الطريق المؤدّية إلى شجرة الحياة؛ حتى لا يقربها أحد. أيعقل أن يخاف الخالق من أحد من مخلوقاته، ويخشى أن يخرج هذا المخلوق عن إرادته ومشيئته!!

الفصل الثالث

قابيل وهابيل

قايين (قابيل) وهابيل في التوراة
تقدمات قايين وهابيل

كان قايين (قابيل) هو الابن البكر لآدم؛ وكان عمله هو فلاحة الأرض، وهابيل هو الابن الثاني لآدم؛ ويعمل في رعي الغنم. وكان لكل منهما شخصية تناقض الأخرى، فقايين لم يكن متصالحا مع نفسه ولا مع غيره، وينظر بمنظار الحسد لأخيه هابيل الذي كان وديعا مسالما مخلصا قلبه لله. وحدث أن طلب منهما أبوهما أن يقدّما قربانا لله؛ من أجل مباركتهما، فتباطأ قايين في تقديم قربانه. ولمّا نوى قايين تقديم القربان، جمع من ثمار الأرض وقدّم قربانه. وكما هو معلوم فإن الأرض ملعونة من الله بسبب خطية آدم وحواء وأكلهما من الشجرة المحرّمة، وقدّم هابيل خيرة أبكار غنمه وأسمنها، ونزلت نار من السماء فأكلت تقدُمة هابيل وتركت تقدُمة قايين؛ وكان ذلك دليلا على أن الله قد قبل قربان هابيل ولم يقبل قربان قايين. اغتاظ قايين بسبب ذلك، وازداد حقده على أخيه هابيل ولكنه لم يظهر له شيئا ممّا في نفسه.

٤- تقدمات قايين وهابيل

وَعَاشَرَ آدَمُ حَوَّاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». ٢ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ، وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِياً لِلْغَنَمِ. أَمَّا قَايِينُ فَقَدْ عَمِلَ فِي فَلاَحَةِ الأَرْضِ. ٣وَحَدَثَ بَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ أَنْ قَدَّمَ قَايِينُ مِنْ ثِمَارِ الأَرْضِ قُرْبَاناً لِلرَّبِّ، ٤وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضاً مِنْ خَيْرَةِ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَأَسْمَنِهَا. فَتَقَبَّلَ الرَّبُّ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَرَضِيَ عَنْهُ. ٥لَكِنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ قَايِينَ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِداً وَتَجَهَّمَ وَجْهُهُ كَمَداً. . . . .(١)

---

(١) سفر التكوين –٤ .

قتل قايين لأخيه هابيل

ولّما كان قايين قد أضمر في نفسه شرا تجاه أخيه هابيل، فقد دعاه للقائه في الحقل. ولما التقيا، فاجأ قايين أخاه هابيل بالهجوم عليه؛ حتى تمكّن منه وقتله. عندئذ قال له الرب ماذا فعلت بأخيك؟ إن صوت دمه يصرخ إليّ من الأرض، سوف تحلّ عليك لعنتي بسبب

قتلك لأخيك، والأرض التي فتحت فاها وابتلعت دم أخيك؛ الذي سفكته لن تعطيك خيرها،

وسوف تظل شريدا وطريدا في الأرض. استعطف قايين الرب ليخفّف من عقوبته، ويحميه من أن يقتله من يراه بسبب خطيئته، فقال له الرب أنه سوف يعاقب كل من يقتله بسبعة

أضعاف العقوبة التي أنزلها به، ووسمه بعلامة تحظر على كل من يلقاه أن يغتاله. وخرج قايين من حضرة الرب، واستقر في أرض نود شرقي عدن.

٨وَعَادَ قَايِينُ يَتَظَاهَرُ بِالْوُدِّ لأَخِيهِ هَابِيلَ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا مَعاً فِي الْحَقْلِ
أَنَّ قَايِينَ هَجَمَ عَلَى أَخِيهِ هَابِيلَ وَقَتَلَهُ. ٩وَسَأَلَ الرَّبُّ قَايِينَ: «أَيْنَ أَخُوكَ
هَابِيلُ؟» فَأَجَابَ: «لاَ أَعْرِفُ. هَلْ أَنَا حَارِسٌ لأَخِي؟» ١٠فَقَالَ الرَّبُّ لَهُ:
«مَاذَا فَعَلْتَ؟ إِنَّ صَوْتَ دَمِ أَخِيكَ يَصْرُخُ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. ١١فَمُنْذُ الآنَ،
تَحِلُّ عَلَيْكَ لَعْنَةُ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا وَابْتَلَعَتْ دَمَ أَخِيكَ الَّذِي سَفَكَتْهُ
يَدُكَ. ١٢عِنْدَمَا تَفْلَحُهَا لَنْ تُعْطِيَكَ خَيْرَهَا، وَتَكُونُ شَرِيداً وَطَرِيداً فِي
الأَرْضِ». ١٣فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ: «عُقُوبَتِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تُحْتَمَلَ. ١٤هَا أَنْتَ
الْيَوْمَ قَدْ طَرَدْتَنِي عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، وَمِنْ أَمَامِ حَضْرَتِكَ أَخْتَفِي، وَأَكُونُ شَرِيداً
طَرِيداً فِي الأَرْضِ، وَيَقْتُلُنِي كُلُّ مَنْ يَجِدُنِي». ١٥فَقَالَ الرَّبُّ لَهُ: «سَأُعَاقِبُ
كُلَّ مَنْ يَقْتُلُكَ بِسَبْعَةِ أَضْعَافِ الْعُقُوبَةِ الَّتِي عَاقَبْتُكَ بِهَا» وَوَسَمَ الرَّبُّ قَايِينَ
بِعَلاَمَةٍ تَحْظُرُ عَلَى مَنْ يَلْقَاهُ اغْتِيَالَهُ. ١٦وَهكَذَا خَرَجَ قَايِينُ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ
وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنَ[1].

(١) سفر التكوين -٤.

ذرية قايين

وعاشر قايين زوجته، فأنجبت له ابنا أسماه حنوك، ثم ولد حنوك عيراد، وولد عيراد محويائيل، وولد محويائيل متوشائيل، وولد متوشائيل لامك. وتناسل لامك وكثرت ذريته حتى صار منهم رعاة المواشي وساكني الخيام، وصار منهم العازفون بالعود والمزمار وأول صانعي آلات النحاس والحديد.

ابناء قايين

١٧وَعَاشَرَ قَايِينُ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ وَأَنْجَبَت ابْناً دَعَاهُ «حَنُوكَ». وَكَانَ قَايِينُ
آنَئذ يَبْنِي مَدِينَةً فَسَمَّاهَا «حَنُوكَ» عَلَى اسْمِ ابْنِه. ١٨ثُمَّ وَلَدَ حَنُوكُ عِيرَادَ،
وَوَلَدَ عِيرَادُ مَحُويَائِيلَ، وَوَلَدَ مَحُويَائِيلُ مَتُوشَائِيلَ، وَوَلَدَ مَتُوشَائِيلُ لاَمَكَ.
١٩وَتَزَوَّجَ لاَمَكُ امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ الْوَاحِدَةِ عَادَةُ، وَاسْمُ الأُخْرَى صِلَّةُ.
٢٠وَوَلَدَتْ عَادَةُ كُلاً مِنْ «يَابَالَ» أَوَّلِ رُعَاةِ الْمَوَاشِي وَسَاكِنِي الْخِيَامِ. ٢١وَأَخِيه
يُوبَالَ أَوَّلِ الْعَازِفِينَ بِالْعُودِ وَالْمِزْمَارِ. ٢٢وَوَلَدَتْ صِلَّةُ «تُوبَالَ قَايِينَ» أَوَّلَ
صَانِعِي آلاَتِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ. كَمَا وَلَدَتْ «نَعْمَةَ» أُخْتَ تُوبَالَ قَايِينَ(١).

جزاء قتل النفس

ولمّا كان قتل النفس عظيما عند الله فقد جعل جزاءه في حالة قتل مثل قايين (وهو الذي قام بالقتل عدوانا وظلما) سبعة أضعاف، وجعله في حالة حفيده لامك (وهو الذي قتل دفاعا عن النفس وانتقاما لكرامته) سبعة وسبعين ضعفا.

٢٣وَقَالَ لاَمَكُ لِزَوْجَتَيْه: «يَاعَادَةُ وَصِلَّةُ، اسْمَعَا قَوْلِي، يَازَوْجَتَيْ لاَمَكَ
أَصْغِيَا لِكَلاَمِي: إِنِّي قَتَلْتُ رَجُلاً جَرَحَنِي وَشَاباً كَسَرَنِي. ٢٤فَإِنْ كَانَ يُنْتَقَمُ
لِقَايِينَ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ، فَإِنَّهُ يُنْتَقَمُ لِلاَمَكَ سَبْعَةً وَسَبْعِينَ ضِعْفاً»(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين -٤.

قابيل وهابيل في القرآن

قربانا قابيل وهابيل

لما سكن آدم وحـــواء الأرض بعـد أن طردا من الجنة، صـــار آدم يكدّ ويشقى من أجل عيشـه هو وحواء، وكان يعاشر حواء كـما علّمه الله، وكان حملُها في كل مرة توأمين ذكرا وأنثى؛ فكان آدم يُزَوِّج توأم هذا لتوأم الآخر، وحرّم آدمُ على أبنائه أن يتزوج التوأم من أختـه التي وُلِدت معه. وحسب هذا التشـريع كان من المفـروض أن يتزوّج قابيل توأم هابيل، ويـتزوّج هابيل توأم قابيل. وكانت توأم قابيل تفوق الثانية حسنا وجمالا، فرأى قابيل أن يتزوّجها على عكس التـشـريع الذي سنّه أبوه آدم. ولما رأى آدم إصـرار ابنه قـابيل أن يتزوّج أختـه التي ولدت معه، طلب منه أن يقدّم قربانا، ويقـدّم أخوه قربانا؛ ومن يتقبّل الله منه قـربانه يتزوّجها. وعلى تلة من الأرض قـدّم قابيل قربانه بعضا من زرعه، وقدم هابيل كبشا من غنمه، وجلسا يرقبان السماء؛ وإذ بنار تنقضُّ على كـبش هابيل فتلتهـمه؛ عـلامة على قبـول قربانه، وتتـرك قربان قابيل. احـتدم غضب قـابيل على أخيه هابـيل، وقال لأبيه آدم لقـد قبل الله قربانه لأنك تُحِبُّـه أكثر مني وتدعو له دائما بالخير، ثم قـال لأخيه هابيل لن تتزوج أختي؛ حتى لو كـان في ذلك قتلك. وحاول هابيل أن يهدِّئ من ثورة أخـيـه، ويدعـوه إلى أن يرضى بقـضـاء الله؛ لكنه أغلظ له القـول، وقـال سأقتلك. ورد عليه هابيل قائلا: إن الـله لا يتقبل إلا من المتّقين، ولن أحاول قتلك إن أنت حاولت ذلك؛ لأني أخاف غضب الله وأرجو مغفرته:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾ [المائدة].

قتل قابيل لأخيه هابيل

ولّما كان هابيل هو الأقوى والأصحَّ بدنا من أخيه قابيل، ولّما كان قابيل مبيّتا نية قتله لأخيه، فقد هجم عليه من خلفه، وضربه بحجر على رأسه؛ فوقع على الأرض وقد انفجرت من رأسه دماء غزيرة أفضت إلى موته. اقترب منه قابيل يهزُّ جسده فلم يتحرك، وضمّه إليه بأسى؛ وهو ينظر حوله، ويفكّر كيف يواري جسد أخيه عن ناظريه، ويفكّر في أبيه وماذا يفعل إذا علم بالأمر. ولفت نظره غراب ينبش في الأرض، ويهيل التراب على غراب ميت حتى أخفى جثته، فقال في نفسه متحسِّرا ألا أستطيع أن أفعل مثل هذا الغراب؟ وقام من فوره فحفر حفرة في الأرض بمقدار جسد أخيه، وأرقده فيها، وأهال عليه التراب، واندفع يمشي على غير هدى والندم يعصر قلبه.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

فرض القصاص على بني إسرائيل

وبسبب قتل قابيل لأخيه هابيل؛ ظلما وعدوانا، كتب الله على بني إسرائيل، وشرّع لهم في التوراة؛ أنّ من قتل نفسا بغير نفس (كالقصاص مثلا)، أو بسبب مفسدة ارتكبها (كالكفر أو الزنا أو قطع الطريق ونحوه)؛ يكون ذنبه كذنب من قتل الناس جميعا لا نفسا واحدة، ومن تركها حيّة كما أراد الله لها، فكأنّما حافظ على حياة كل الناس؛ وله أجر ذلك عند الله.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة].

تعقيب

لمّا أمر آدمُ ابنيه قابيل وهابيل أن يقدّم كلٌّ منهما قربانا، وقبل الله قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل، علّلت التوراة ذلك بسبب أن قابيل قدّم قربانه من ثمار الأرض؛ وأن الأرض ملعونة بسبب خطيئة آدم وحواء وأكلهما من الشجرة المحرّمة. ويعلِّل القرآنُ ذلك بأنه كان بسبب فساد طوِيَّة قابيل، وحقده على أخيه هابيل لأنه قصد أن يخالف وصِيّة أبيه آدم بأن يتزوّج هو من توأم هابيل ويتزوّج هابيل من توأمه هو التي ولدت معه.

أمّا لعنة الأرض التي تذكرها التوراة؛ فهي غير مقبولة لا عقلا ولا شرعا، فما دخل الأرض في خطيئة آدم وحواء، وما هي جريرتها حتى تُلعن من قبل الله عز وجل بسبب تلك الخطيئة؟ وما ذنب البشرية جمعاء لكي يحكم الله عيها أن تعيش على أرض ملعونة؟ فقد خلق الله الأرض لحياة البشر، وخلق آدم ليعيش عليها هو وذريته. كما أن خطيئة آدم كانت مقدّرة في علم الله، ليخرج من الجنة إلى الأرض التي خُلِق من أجلها.

وما جاء عن جزاء قتل النفس التي توعّد فيها الرب من يقتل قايين، وتشديدها في حالة من يقتل لامك فإنها تأتي مصداقا لقول المولى -عز وجل- في الآية (٣٢) من سورة المائدة السابق ذكرها؛ من أن الله جل شأنه كتب على بني إسرائيل، أنّه من قتل نفسا واحدة بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. فإن توعّد القاتل بالقتل؛ يردعه، فلا يقدم على القتل تجنبا للعقاب.

أما جعل التوراة جزاء من يقتل قايين (وهو الذي قام بالقتل عدوانا وظلما) سبعة أضعاف، وجزاءه في حالة حفيده لامك (وهو الذي قتل دفاعا عن النفس وانتقاما لكرامته) سبعة وسبعين ضعفا؛ فيشوبه خلل بالغ في مقدار

العقوبة المقررة في الحالتين والأولى تقديرها بعكس ما أوردته التوراة لتكون مشددة في حالة القتل العمد وأخف في حالة الدفاع عن النفس.

أما وسم الرب لقايين بعلامة تحظر على كل من يلقاه أن يغتاله فلا تستقيم مع غضب الرب عليه وتوعده له.

وتناوُل القرآن قصة قتل قابيل لأخيه هابيل، وحيرته وهو يفكّر كيف يواري جثمانه، وكيف أن الله أرسل قريبا منه غرابا؛ ينبش في الأرض، ويهيل التراب على غراب ميّت حتى غيّب جثته في جوف الأرض، وكيف أن قابيل حفر حفرة لأخيه، وأرقد فيها جسده، وأهال عليه التراب كما فعل الغراب أكثر مصداقية من رواية التوراة. وعدم تناول التوراة لمثل هذه الجزئية؛ يجعل سير الأحداث في القصة مضطربا، وغير مكتمل.

الفصل الرابع

نوح

نوح في التوراة
العصر الذي وُلد فيه نوح

أبوه هو لامك بن متوشالح؛ الذي ولد من سلالة شيث؛ الذي ولدته حواء كتعويض لها من الرب بعد مقتل ابنها هابيل. وقد رزقه الله بثلاثة أبناء هم سام وحام ويافث.

متوشالح ونوح

٢٥وَكَانَ عُمْرُ مَتُوشَالَحَ مِئَةً وَسَبْعاً وَثَمَانِينَ سَنَةً عِنْدَمَا أَنْجَبَ لاَمَكَ.
٢٦وَعَاشَ مَتُوشَالَحُ بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعَ مِئَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وُلِدَ لَهُ فِيهَا بَنُونَ
وَبَنَاتٌ. ٢٧وَمَاتَ مَتُوشَالَحُ وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعٌ وَسِتُّونَ سَنَةً.
٢٨كَانَ عُمْرُ لاَمَكَ مِئَةً وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً عِنْدَمَا أَنْجَبَ ابْناً، ٢٩سَمَّاهُ نُوحاً
قَائِلاً: «هَذَا يُعَزِّينَا عَنْ أَعْمَالِنَا وَمَشَقَّةِ أَيْدِينَا فِي الأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ».
٣٠وَعَاشَ لاَمَكُ خَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْساً وَتِسْعِينَ سَنَةً بَعْدَ وِلاَدَةِ نُوحٍ، وُلِدَ لَهُ فِيهَا
بَنُونَ وَبَنَاتٌ ٣١وَمَاتَ لاَمَكُ وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ سَبْعُ مِئَةٍ وَسَبْعٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً.
٣٢كَانَ عُمْرُ نُوحٍ خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ عِنْدَمَا أَنْجَبَ سَاماً وَحَاماً وَيَافَثَ(١).

وكان مولد نوح في عصر كثُر فيه الفساد بسبب زواج أبناء شيث؛ الذين أطلقت عليهم التوراة (أبناء الله) بسبب صلاح والدهم الذي ساروا على خطاه فترة من الزمن، ولكنهم انجذبوا إلى بنات قايين؛ الذين أسمتهم التوراة (بنات الناس) لأنهم كانوا منغمسين في الفساد على منهاج أبيهم الذي لعنه الله بسبب قتله لأخيه هابيل. وتزاوج أبناء الله من بنات الناس فأنجبوا ذرية بعُدت عن عبادة الله، ومارست كل أنواع الفساد. وسُمّيت هذه الحقبة بحقبة الجبابرة. وفي هذه الحقبة كانت ولادة نوح.

---

(١) سفر التكوين – ٥.

٦- حقبة الجبابرة

وَحَدَثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَتَكَاثَرُونَ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ، ٢انجَذَبَتْ أَنْظَارُ أَبْنَاءِ اللهِ إِلَى بَنَاتِ النَّاسِ فَرَأَوْا أَنَّهُنَّ جَمِيلاتٌ فَاتَّخَذُوا لأَنْفُسِهِمْ مِنْهُنَّ زَوْجَاتٍ حَسَبَ مَا طَابَ لَهُمْ. ٣فَقَالَ الرَّبُّ: «لَنْ يَمْكُثَ رُوحِي مُجَاهِداً فِي الإِنْسَانِ إِلَى الأَبَدِ. هُوَ بَشَرِيٌّ زَائِغٌ، لِذَلِكَ لَنْ تَطُولَ أَيَّامُهُ أَكْثَرَ مِنْ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً فَقَطْ». ٤وَفِي تِلْكَ الحِقَبِ، كَانَ فِي الأَرْضِ جَبَابِرَةٌ، وَبَعْدَ أَنْ دَخَلَ أَبْنَاءُ اللهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَلَدْنَ لَهُمْ أَبْنَاءً، صَارَ هَؤُلاَءِ الأَبْنَاءُ أَنْفُسُهُمُ الجَبَابِرَةَ المَشْهُورِينَ مُنْذُ القِدَمِ(١).

ولمّا رأى الربُّ أن بني الإنسان قد تكاثرت شرورهم حتى ملأت الأرض، أسف لأنّه كان قد خلقهم من أجل عبادته؛ فعبدوا غيره، وفكّر في أن يمحوهم من على وجه الأرض، ولا يترك عليها لا حيوان ولا طير بسبب فساد الإنسان. ولم يكن على وجه الأرض من يحظى برضا الله من بني البشر سوى نوح.

عقاب الله للبشرية

٥وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ فِكْرِ قَلْبِهِ يَتَّسِمُ دَائِماً بِالإِثْمِ، ٦فَمَلأَ قَلْبَهُ الأَسَفُ وَالحُزْنُ لأَنَّهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ. ٧وَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ وَالحَيَوَانَاتِ وَالزَّوَاحِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي خَلَقْتُهُ». ٨أَمَّا نُوحٌ فَقَدْ حَظِيَ بِرِضَى الرَّبِّ(٢).

نوح يصنع الفلك

ومع تعاظم شرور البشر وفسادهم، أخبر الله نوحا أنّه قد أزفت نهاية كل من على وجه الأرض من البشر، وأمره أن يبني فُلْكا (سفينة) من خشب

(١) (٢) سفر التكوين - ٦.

السرو؛ بمواصفات حدّدها الله له لتكون منجاة له ولمن يريد الله استبقاءه من بشر وحيوان؛ فتنجيهم من الطوفان الذي سوف يُهلك الله به كل ما على وجه الأرض من أحياء.

نوح يصنع فلكا

٩وَهَذَا سجلُّ مَوَاليد نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ صَالحاً كَاملاً في زَمَانه، وَسَارَ نُوحٌ
مَعَ الله. ١٠وأَنْجَبَ نُوحٌ ثَلاثَةَ أَبْنَاء هُمْ سَامٌ وَحَامٌ وَيَافَثُ. ١١وَإِذْ سَادَ الشَّرُّ
الأَرْضَ أَمَامَ الله وَعَمَّهَا الظُّلْمُ، ١٢نَظَرَ اللهُ وَإِذَا بهَا فَاسدَةٌ لأَنَّ كُلَّ بَشَرٍ عَلَى
الأَرْضِ قَدْ سَلَكَ في طَريقِ الإِثْمِ. ١٣فَقَالَ اللهُ لنُوحٍ: «قَدْ أَزِفَتْ نهَايَةُ الْبَشَرِ
جَميعاً أَمَامي، لأَنَّهُمْ مَلأُوا الأَرْضَ ظُلْماً؛ لذَلكَ سَأُبيدُهُمْ مَعَ الأَرْضِ.
١٤ابْنِ لَكَ فُلْكاً منْ خَشَبِ السَّرْوِ، . . . . . ١٧فَهَا أَنَا أُغْرِقُ الأَرْضَ بطُوفَانٍ
منَ الْمِيَاه لأُبيدَ كُلَّ كَائنٍ حَيٍّ فيهَا ممَّنْ تَحْتَ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا عَلَى الأَرْضِ
لاَبُدَّ أَنْ يَمُوتَ(١).

وقال الله لنوح أنه بعد أن يفرغ من بناء الفلك، سوف يأخذ معه فيه امرأته وبنيه ونساء بنيه، ومن الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها من الأحياء زوجين اثنين؛ ذكرا وأنثى لاستمرار الحياة بعد الطوفان. كما أمره الله أن يدّخر لنفسه ما يمكن من طعام؛ يكون غذاء له ولمن معه في الفلك. وعمل نوح بجد في بناء الفلك كما أمره الله، وجمع فيها كل ما يؤكل انتظارا لأمر الله الموعود.

. . . . . ١٤ابْنِ لَكَ فُلْكاً منْ خَشَبِ السَّرْوِ، . . . . . ١٧فَهَا أَنَا أُغْرِقُ
الأَرْضَ بطُوفَانٍ منَ الْمِيَاه لأُبيدَ كُلَّ كَائنٍ حَيٍّ فيهَا ممَّنْ تَحْتَ السَّمَاء. كُلُّ مَا
عَلَى الأَرْضِ لاَبُدَّ أَنْ يَمُوتَ. ١٨وَلَكنِّي سَأُقيمُ مَعَكَ عَهْداً، فَتَدْخُلُ أَنْتَ مَعَ
بَنِيكَ وَامْرَأَتِكَ وَنِسَاءِ بَنِيكَ إِلَى الْفُلْكِ. ١٩وَتَأْخُذُ مَعَكَ فِي الْفُلْكِ زَوْجَيْنِ،

(١) سفر التكوين - ٦.

ذَكَراً وَأُنْثَى، مِنْ كُلِّ كَائِنٍ حَيٍّ ذِي جَسَد، لاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. . . . . ٢١وَتَدَّخِرُ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَتَخْزُنُهُ عِنْدَكَ لِيَكُونَ لَكَ وَلَهَا غِذَاءً». ٢٢وَفَعَلَ نُوحٌ تَمَاماً بِمُقْتَضَى كُلِّ مَا أَمَرَ الرَّبُّ بِهِ(١).

الأمر بملء الفلك

ولمّا انتهى نوح من بناء الفلك، أمره الله أن يدخل هو وأهل بيته إلى الفلك، وأن يأخذ معه من كل أنواع الحيوانات والطيور ما ذكره الله له: سبعة أزواج من الحيوانات الطاهرة، وزوجين اثنين من الحيوانات غير الطاهرة، ومن كل أنواع الطيور؛ سبعة أزواج. وأخبره الله أنه بعد سبعة أيام، سوف يأمر المطر بأن يصبّ مياهه على الأرض لمدة أربعين يوما متواصلة؛ ليمحو بالطوفان كل حي على وجه الأرض؛ وينجيه هو ومن معه بالفلك. وفعل نوح كل ما أمر به الرب.

٧- الأمر بملء الفلك

وَقَالَ الرَّبُّ لِنُوحٍ: «هَيَّا ادْخُلْ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ جَمِيعاً إِلَى الْفُلْكِ لأَنِّي وَجَدْتُكَ وَحْدَكَ صَالِحاً أَمَامِي فِي هَذَا الْجِيلِ. ٢خُذْ مَعَكَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الطَّاهِرَةِ سَبْعَةَ ذُكُورٍ وَسَبْعَ إِنَاثٍ، وَزَوْجَيْنِ ذَكَراً وَأُنْثَى مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الأُخْرَى غَيْرِ الطَّاهِرَةِ. ٣وَخُذْ مَعَكَ أَيْضاً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الطُّيُورِ سَبْعَةَ ذُكُورٍ وَسَبْعَ إِنَاثٍ لاسْتِبْقَاءِ نَسْلِهَا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ. ٤فَإِنِّي بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أُمْطِرُ عَلَى الأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، لَيْلاً وَنَهَاراً، فَأَمْحُو عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ كُلَّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ». ٥وَفَعَلَ نُوحٌ بِمُوجِبِ كُلِّ مَا أَمَرَهُ الرَّبُّ بِهِ.
٦وَكَانَ عُمْرُ نُوحٍ سِتَّ مِئَةِ سَنَةٍ عِنْدَمَا حَدَثَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الأَرْضِ. . . . . (٢).

---

(١) سفر التكوين - ٦.

(٢) سفر التكوين - ٧.

الطوفان

وفي اليوم الموعود، فاضت المياه على سطح الأرض، فقد هطلت الأمطار بغزارة لمدة أربعين يوما وليلة، وتفجّرت المياه من باطن الأرض. وكان نوح قد دخل الفُلْك بأهله ومن معه من حيوانات وطيور وأغلق أبوابه. وكلما زاد ارتفاع المياه على وجه الأرض طفت الفلك. وغطّت المياه قمم الجبال العالية. وزادت عليها حتى أغرقت كل حي يتحرك على وجه الأرض من طيور وزواحف وحيوانات، ولم يبق سوى نوح ومن معه في الفلك الذي كان يتهادى بهم على سطح الماء. وظلّت المياه تُغطّي سطح الأرض مدة مائة وخمسين يوما.

الطوفان

١٠وَمَا إِنِ انْقَضَتِ الأَيَّامُ السَّبْعَةُ حَتَّى فَاضَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ ١١فَفِي
سَنَةِ سِتِّ مِئَةٍ مِنْ عُمْرِ نُوحٍ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي الْيَوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ،
تَفَجَّرَتِ الْمِيَاهُ مِنَ اللُّجَجِ الْعَمِيقَةِ فِي بَاطِنِ الأَرْضِ، وَهَطَلَتْ أَمْطَارُ السَّمَاءِ
الْغَزِيرَةُ، ١٢وَاسْتَمَرَّ هَذَا الطُّوفَانُ عَلَى الأَرْضِ لَيْلاً وَنَهَاراً مُدَّةَ أَرْبَعِينَ يَوْماً.
١٣فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي بَدَأَ فِيهِ الطُّوفَانُ دَخَلَ نُوحٌ وَزَوْجَتُهُ وَأَبْنَاؤُهُ سَامٌ وَحَامٌ
وَيَافَثُ وَزَوْجَاتُهُمُ الثَّلاَثُ إِلَى الْفُلْكِ. ١٤وَدَخَلَ مَعَهُمْ أَيْضاً مِنَ الْوُحُوشِ
وَالْبَهَائِمِ وَالزَّوَاحِفِ وَالطُّيُورِ وَذَوَاتِ الأَجْنِحَةِ كُلٌّ حَسَبَ أَصْنَافِهَا؛ ١٥مِنْ
جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ أَقْبَلَتْ إِلَى الْفُلْكِ، وَدَخَلَتْ مَعَ نُوحٍ زَوْجَيْنِ زَوْجَيْنِ
١٦ذَكَراً وَأُنْثَى دَخَلَتْ، مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، كَمَا أَمَرَهُ اللهُ. ثُمَّ أَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ
بَابَ الْفُلْكِ. ١٧وَدَامَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْماً عَلَى الأَرْضِ، وَطَغَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ
الْفُلْكَ فَوْقَ الأَرْضِ، ١٨وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الأَرْضِ وَطَغَتْ جِدّاً، فَكَانَ
الْفُلْكُ يَطْفُو فَوْقَ الْمِيَاهِ. ١٩وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ جِدّاً فَوْقَ الأَرْضِ حَتَّى أَغْرَقَتْ
جَمِيعَ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ الَّتِي تَحْتَ السَّمَاءِ كُلِّهَا. ٢٠وَبَلَغَ ارْتِفَاعُهَا خَمْسَ عَشْرَةَ
ذِرَاعاً (نَحْوَ سَبْعَةِ أَمْتَارٍ) عَنْ أَعْلَى الْجِبَالِ، ٢١فَمَاتَ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ يَتَحَرَّكُ

عَلَى الأَرْضِ مِنْ طُيُور وَبَهَـائِمَ وَوُحُوشٍ وَزَوَاحِفَ وَكُلِّ بَشَرٍ ٢٢مَـاتَ كُلُّ مَا يَحْـيَا وَيَتَنَفَّسُ عَـلَى الْيَابِسَـةِ. ٢٣وَبَادَ مِنْ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ كُلُّ كَـائِنٍ حَيٍّ سَوَاءٌ مِنَ النَّاسِ أَمِ الْبَهَائِمِ أَمِ الزَّوَاحِـفِ أَمِ الطُّيُورِ، كُلُّهَا أُبِيدَتْ مِنَ الأَرْضِ، وَلَمْ يَبْقَ سِوَى نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُـلْكِ. ٢٤وَظَلَّتِ الْمِيَاهُ طَامِيَةً عَلَى الأَرْض مُدَّةَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ يَوْماً(١).

تناقص المياه

وتذكّر الله نوحا ومن معه في الفلك، فأرسل ريحا على الأرض لتجفيف المياه، وتوقّف المطر، وانسدّت ينابيع الأرض، وأخذت المياه تجفّ تدريجيا حتى استقرت الفلك على جبل أراراط (وكلمة أراراط تعني المكان المرتفع، ويقول المفسرون أنه يقع في أرمينيا).

٨- تناقص المياه

ثُمَّ افْتَقَدَ اللهُ نُوحاً وَمَا مَعَهُ فِي الْفُلْكِ مِنْ وُحُوشٍ وَبَهَائِمَ، فَأَرْسَلَ رِيحاً عَلَى الأَرْضِ فَتَـقَلَّصَتِ الْمِيَـاهُ ٢وَانْسَدَّتْ يَنَـابِيعُ اللُّجَجِ وَمَـيَازِيبُ السَّمَـاءِ، وَاحْتَبَـسَ الْمَطَرُ. ٣وَتَرَاجَعَتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ تَدْرِيجِيّـاً. وَبَعْدَ مِئَةٍ وَخَـمْسِينَ يَوْماً نَقَصَتِ الْمِيَـاهُ. ٤وَاسْتَقَرَّ الْفُلْكُ عَلَى جِبَالِ أَرَارَاطَ فِي الْيَـوْمِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنَ الشَّـهْرِ السَّـابِعِ لِلطُّوفَانِ. ٥وَظَلَّتِ الْمِيَاهُ تَتَنَاقَصُ تَدْرِيجِيّاً حَـتَّى الشَّهْـرِ الْعَاشِرِ. وَفِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ الْعَاشِرِ بَدَتْ قِمَمُ الْجِبَالِ(٢).

رُسُوّ الفلك

وبعد أربعين يوما من رُسُوّ الفلك، أطلق نوحٌ غـرابا ليعرف حال الماء؛ فظلّ يتردد بين الأرض والسفينة ولا يدخلها حـتى جفّت الأرض. وبعد سبعة أيام أطلق نوحٌ حمامـة؛ فلم تجد لرجليها موضعـا على الأرض فرجعت إلى

(١) سفر التكوين – ٧.

(٢) سفر التكوين – ٨.

الفلك. وبعد سبعـة أيام أخرى عاد وأطلقها، فعـادت تحمل في منقارها ورقة زيتون خضراء؛ فعرف من ذلك أن المياه قـد تناقصت. وبعد سبعة أيام أخرى أطلقها فلم ترجع إليه؛ فعرف أن المياه قد انحسرت عن الأرض.

إرسال الغراب والحمامة

٦وَبَعْـدَ أَرْبَعِينَ يَوْماً أُخْـرَى فَتَحَ نُوحٌ النَّافِـذَةَ الَّتِي كَانَ قَـدْ عَمِلَهَـا فِي
الْفُلْكِ. ٧وَأَطْلَقَ غُرَاباً، فَخَرَجَ وَظَلَّ يَحُومُ مُتَرَدِّداً إِلَى الْفُلْكِ حَتَّى جَفَّتِ الْمِيَاهُ
عَنِ الأَرْضِ. ٨ثُمَّ أَطْلَقَ نُوحٌ حَـمَـامَـةً مِنَ الْفُلْكِ لِيَـرَى إِنْ كَانَتِ الْمِـيَاهُ قَـدْ
تَقَلَّصَتْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ، ٩وَلَكِنَّ الْحَمَامَةَ لَمْ تَجِدْ مَوْضِعاً تَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ رِجْلُهَا
فَرَجَعَتْ إِلَيْـهِ فِي الْفُلْكِ، لأَنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ مَا زَالَتْ تَغْمُـرُ سَطْحَ الأَرْضِ، فَمَدَّ
يَدَهُ وَأَخَذَهَا، وَأَدْخَلَهَـا عِنْدَهُ إِلَى الْفُلْكِ. ١٠وَانْتَظَرَ سَبْعَةَ أَيَّـامٍ أُخْرَى ثُمَّ عَادَ
فَأَطْلَقَ الْحَمَامَةَ مِنَ الْفُلْكِ، ١١فَرَجَعَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَسَاءِ تَحْمِلُ فِي مِنْقَارِهَا وَرَقَةَ
زَيْتُونٍ خَضْرَاءَ، فَأَدْرَكَ نُوحٌ أَنَّ الْمِيَاهَ قَدْ تَنَاقَصَتْ عَنِ الأَرْضِ. ١٢فَمَكَثَ سَبْعَةَ
أَيَّامٍ أُخْرَى ثُمَّ أَطْلَقَ الْحَمَامَةَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَيْهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ(١).

ظهـور الأرض

رفع نوح غطاء الفلك، وتطلّع حـواليه؛ فرأى أن الميـاه قد بدأت تجف عن سطح الأرض، فأيقن بالنجاة هو من معه، وأحسّوا جميعا بالارتياح.

ظهور الأرض

١٣وَفِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ الأَوَّلِ مِنَ السَّـنَةِ الْوَاحِدَةِ وَالسِّتِّ مِئَةٍ مِنْ
عُمْرِ نُوحٍ، جَـفَّتِ الْمِيَاهُ عَنِ الأَرْضِ، فَرَفَعَ نُوحٌ سَـقْفَ الْفُلْكِ وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ،
فَرَأَى أَنَّ سَطْحَ الأَرْضِ قَدْ أَخَذَ فِي الْجَفَافِ. ١٤وَلَكِنَّ الأَرْضَ لَمْ تَجِفَّ تَمَاماً
إِلاَّ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين – ٨.

الخروج من الفلك

ولم يلبث أن جاء الأمر من الله إلى نوح أن يخرج من الفلك هو ومن معه؛ لينتشروا في الأرض، ويتكاثروا؛ لكي تعود دورة الحياة إلى الأرض من جديد.

الخروج من الفلك

١٥وَخَاطَبَ اللهُ نُوحاً قَائلا: ١٦«اخْرُجْ مِنَ الْفُلْك أَنْتَ وَامْرَأَتُكَ وَبَنُوكَ وَنسَاءُ بَنيكَ مَعَكَ، ١٧وَأَخْرِجْ كُلَّ مَا مَعَكَ مِنَ الْكَائنَات الحَيَّة، مِنْ طُيُورٍ وَبَهَائمَ وَكُلِّ مَا يَزْحَفُ عَلَى الأَرْضِ لتَتَوَالَدَ وَتَتَكَاثَرَ عَلَى الأَرْضِ». ١٨وَخَرَجَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَزَوْجَاتُ بَنيه مَعَهُ. ١٩وَكَذَلكَ خَرَجَتْ مَعَهُ كُلُّ الحُيَوَانَات، وَالزَّوَاحِفِ وَالطُّيُورِ، وَكُلُّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، كُلٌّ مِنْهَا كَجِنْسِهَا[1].

خرج نوح ومن معه من إنسان وحيوان من الفلك؛ فرحين بالنجاة، ومستبشرين بنعمة الله عليهم. كان أول عمل قام به نوح على الأرض؛ حين لامست رجلاه سطحها، أن بنى مذبحا للرب، واختار بعضا من جميع ما معه من حيوانات وطيور طاهرة؛ فقربها محرقات للرب. وتقبّل الرب من نوح تقدماته برضا، وعهد الرب إلي نفسه أن لا يلعن الأرض مرة أخرى بسبب خطايا الإنسان، وأن تكون كلّ أيام الأرض مواسم زرع وحصاد، وأن تستمر دورة الحياة كما هي من برد وحر وصيف وشتاء وليل ونهار؛ كما خلقها دون تغيير.

بناء مذبح للرب

٢٠وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحاً للرَّبِّ ثُمَّ اخْتَارَ بَعْضاً منْ جَميعِ الْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ الطَّاهِرَة وَقَرَّبَهَا مُحْرَقَات عَلَى الْمذْبَح. ٢١فَتَقَبَّلَهَا الرَّبُّ بِرِضًى، وَقَالَ فِي نَفْسه: «لَنْ أَلْعَنَ الأَرْضَ مَرَّةً أُخْرَى منْ أَجْلِ الإِنْسَانِ، لأَنَّ أَهْوَاءَ قَلْبِ الإِنْسَانِ شرِّيرَةٌ مُنْذُ حَدَاثَته وَلَنْ أُقْدمَ عَلَى إِهْلاَكِ كُلِّ حَيٍّ كَمَا فَعَلْتُ.

(١) سفر التكوين -٨.

٢٢وَتَكُونُ كُلُّ أَيَّامِ الأَرْضِ مَوَاسِمَ زَرْعٍ وَحَصَادٍ وَبَرْدٍ وَحَرٍّ وَصَيْفٍ وَشِتَاءٍ وَنَهَارٍ وَلَيْلٍ، لَنْ تَبْطُلَ أَبَداً»(١).

وبارك الله نوحا وأبناءه قائلا : أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض، وأعطاهم السلطان على كل حيوانات الأرض وطيور السماء وسمك البحر؛ ليكون طعاما حلالا لهم، وأن يأكلوا ممّا تُنْبِته الأرض من بقول خضراء، وحرّم عليهم أن يأكلوا لحما بدمه، أو أن يسفك بعضهم دماء بعض. وأنذرهم أنّ من يسفك دم الآخر يُسفك دمه؛ جزاء لذلك، وتكريما للإنسان الذي خلقه الله على صورته.

٩- الله يبارك نوحا

وَبَارَكَ اللهُ نُوحاً وَأَبْنَاءَهُ قَائِلاً لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَتَكَاثَرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، ٢لِتَطْغَ الخَشْيَةُ مِنْكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَتَحَرَّكُ عَلَى الأَرْضِ، وَعَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ، فَإِنَّهَا كُلَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ خَاضِعَةً لَكُمْ. ٣وَلْيَكُنْ كُلُّ حَيٍّ مُتَحَرِّكٍ طَعَاماً لَكُمْ، فَتَأْكُلُونَ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا تَأْكُلُونَ الْبُقُولَ الخُضْرَاءَ الَّتِي أَعْطَيْتُكُمْ. ٤وَلَكِنْ لاَ تَأْكُلُوا لَحْماً بِدَمِهِ. ٥وَأُطَالِبُ أَنَا بِدَمِكُمْ لأَنْفُسِكُمْ. مِنْ يَدِ كُلِّ حَيَوَانٍ أُطَالِبُ بِهِ، وَمِنْ يَدِ الإِنْسَانِ أَيْضاً أُطَالِبُ الأَخَ بِنَفْسِ أَخِيهِ الإِنْسَانِ. ٦فَسَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِسَفْكِ دَمِهِ لأَنَّ اللهَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. ٧أَمَّا أَنْتُمْ فَأَثْمِرُوا وَتَكَاثَرُوا وَتَوَالَدُوا فِي الأَرْضِ»(٢).

عهدُ الله مع نوح

ومن أجل أن يُطمئِن الربُ نوحا ومن نجا معه في الفلك، أخذ على نفسه عهدا وموثقا أن لا يبيد بالطوفان أي جسد حي، وأن لا يكون هناك طوفان مرة ثانية. وعيّن الرب علامة على ذلك الميثاق؛ قوسه في السماء

(١) سفر التكوين -٨.

(١) سفر التكوين - ٩.

(قوس قزح) يظهر عندما يخيّم الرب في السحب، ليُذكِّر الرب بميثاقه معهم؛ فلا ينقُضه.

عهد الله مع نوح

٨وَخَاطَبَ الرَّبُّ نُوحاً وَأَبْنَاءَهُ مَعَهُ قَائِلاً: ٩«هَا أَنَا أُبْرِمُ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعْ ذُرِّيَّتِكُمْ، ١٠وَمَعْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي مَعَكُمْ، مِنْ طُيُورٍ وَبَهَائِمَ، وَمِنْ كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ الَّتِي خَرَجَتْ مَعَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ، مَعْ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ عَلَى الأَرْضِ. ١١أُبْرِمُ مِيثَاقِي مَعَكُمْ بِأَنْ لاَ يُبِيدَ الطُّوفَانُ كُلَّ ذِي جَسَدٍ ثَانِيَةً، وَأَنْ لاَ يَكُونَ هُنَاكَ طُوفَانٌ لِيَقْضِيَ عَلَى الْحَيَاةِ فِي الأَرْضِ». ١٢وَقَالَ الرَّبُّ: «وَهَذِهِ هِيَ عَلاَمَةُ الْمِيثَاقِ الأَبَدِيِّ الَّذِي أُقِيمُهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ الَّتِي مَعَكُمْ: ١٣أَضَعُ قَوْسِي فِي السَّحَابِ فَتَكُونُ عَلاَمَةَ مِيثَاقٍ بَيْنِي وَبَيْنَ الأَرْضِ. ١٤فَيَكُونُ عِنْدَمَا أُخَيِّمُ بِالسَّحَابِ فَوْقَ الأَرْضِ، وَتَظْهَرُ الْقَوْسُ، ١٥أَنِّي أَذْكُرُ مِيثَاقِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ مِنْ ذَوَاتِ الْجَسَدِ، فَلاَ تَتَحَوَّلُ الْمِيَاهُ إِلَى طُوفَانٍ يُبِيدُ كُلَّ حَيَاةٍ. ١٦وَتَكُونُ الْقَوْسُ فِي السَّحَابِ، فَأُبْصِرُهَا، وَأَذْكُرُ الْمِيثَاقَ الأَبَدِيَّ الْمُبْرَمَ بَيْنِي وَبَيْنَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ عَلَى الأَرْضِ». ١٧وَقَالَ اللهُ لِنُوحٍ: «هَذِهِ هِيَ عَلاَمَةُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَبْرَمْتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ كُلِّ حَيٍّ عَلَى الأَرْضِ»(١).

نوح يسكر ويتعرّى

وكان مع نوح كما ذكرنا أبناءه الثلاثة سام وحام ويافث، واشتغلوا جميعا بالفلاحة عونا لأبيهم. وذات يوم شرب نوح الخمر؛ فسكر وتعرى وهو نائم في خيمته. ودخل عليه ابنه حام (أبو الكنعانيين كما تذكر التوراة) وهو بهذا الوضع فضحك ساخرا، وخرج إلى أخويه فأخبرهما بحال أبيه متهكّما. لم يعجبهما تصرف أخيهما، وأخذا رداء فسترا به عُرْي أبيهما.

(١) سفر التكوين - ٩.

أبناء نوح

١٨أَمَّا أَبْنَاءُ نُـوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مَـعَهُ مِنَ الْفُلْكِ فَكَانُوا: سَـاماً وَحَـاماً وَيَافَثَ. وَحَـامٌ هُوَ أَبُو الْكَنْعَـانِيِّينَ. ١٩هَؤُلاَءِ كَـانُوا أَبْنَاءَ نُوحٍ الثَّـلاثَةَ الَّذِينَ تَفَرَّعَتْ مِنْهُمْ شُعُوبُ الأَرْضِ كُلُّهَا(١).

لعن كنعان ومباركة سام

٢٠وَاشْتَـغَلَ نُوحٌ بِالْفَلاحَةِ وَغَرَسَ كَـرْماً، ٢١وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْـرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خَيْمَتِهِ، ٢٢فَشَاهَدَ حَـامٌ أَبُو الْكَنْعَانِيِّينَ عُرْيَ أَبِيهِ، فَخَرَجَ وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ اللَّذَيْنِ كَانَا خَارِجـاً. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ رِدَاءً وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَـافِهِمَا وَمَشَيَـا الْقَهْقَرَى إِلَى دَاخِلِ الْخَيْـمَةِ، وَسَتَرَا عُرْيَ أَبِـيهِمَا مِنْ غَيْـرِ أَنْ يَسْتَدِيرَا بِوَجْهَيْهِمَا نَحْوَهُ فَيُبْصِرَا عُرْيَهُ. . . . .(٢)

لعن حام وموت نوح

ولمّا أفاق نوح من سكره، وعرف بما فعله ابنه الصغير، لعنه، ودعا عليه ليكون عبدا لعبيد إخوته، ودعا لسام (أبو الساميين) بالبركة، وأن يكون الكنعانيون عبيدا لهم، ودعا ليافث بالبركة، وأن يسكنوا في مواطن الساميين، ويكون الكنعانيون عبيدا لهم كذلك. ومات نوح وله من العمر تسعمائة وخمسين سنة.

. . . . . ٢٤وَعِنْدَمَا أَفَـاقَ نُوحٌ مِنْ سُكْرِهِ وَعَلِمَ مَا فَعَلَهُ بِهِ ابْنُهُ الصَّـغِيرُ ٢٥قَالَ: «لِيَـكُنْ كَنْعَانُ مَلْعُـوناً، وَلْيَكُنْ عَبْـدَ الْعَبِـيدِ لإِخْوَتِـهِ». ٢٦ثُمَّ قَالَ: «تَبَارَكَ اللهُ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْـداً لَهُ. ٢٧لِيُوَسِّعِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي خِيَامِ سَـامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْـداً لَهُ». ٢٨وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثَـلاَثَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، ٢٩ثُمَّ مَاتَ وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ تِسْعُ مِئَةٍ وَخَمْسُونَ سَنَةً(٣).

---

(١) (٢) (٣) سفر التكوين - ٩.

نوح في القرآن

اصطفاء الله لانبيائه

اختـار الله من عباده مـن اصطفاه منهم، وفضّله عـلى الناس جميـعا؛ فاصطفى آدم عليـه السلام بأن خلقه بيـده، ونفخ فيه من روحه، وأسـجد له ملائكتـه. واصطفى نوحاً عليه السلام بأن جـعله أول رسول إلى أهل الأرض لمّا انتشر الشرك وعبادة الأوثان، ولمّا خالفـه قومُه أغرقهم الله بشركهم، ونجّاه هو والقلة التي آمنت مـعه. واصطفى إبراهيم عليـه السلام وجـعل في ذريته النبوة والرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ التي تدعو لتوحيد الله ونبذ ما عداه من أوثان.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)﴾ [آل عمران].

دعوة نوح لقومه

كان نوح عليه السلام أوّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام؛ فـقد تفشّت بين النـاس عبادةُ الأصنام. ودعـا نوح قومه لعـبادة الله وحـده ونبـذ عـبادة الأصنـام، وحذّرهم مـن عذاب اللـه إن هم ظلّوا على شركـهم؛ فكان جواب قومـه أنهم لن يتركوا ما كـان يعبد آباؤهـم، واتهـموه بالضلال وعـدم التعقّل. لم يتوقّف عن دعـوتهم لعبادة الله، وتخـويفهم من عـقابه. وكـان يؤكـد لهم أنه رسـول من رب العـالمين، وأن الله هو الأحق بالعبادة، ويُقْسم لهم أنه صادق معهم، أمين في إسداء النصح لهم، وأنه يعلم من علم الله ما لا يعلمونه، ويحذّرهم من أن يستـخفّوا بدعوته لهم ونصحه إيّاهم، ويقـول لهم ألا تصدّقـون أن يبعث الله رسـولا منكم، ولا ترون في ذلك رحمة بكم، وإحسانا إليكم منه وتفضّلا؛ قبل أن يحلّ عليكم عذابُه فلا يقدر أحد أن يردّه عنكم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف].

وكان يُنذرهم ويُحذِّرهم من عذاب الله؛ إذا استمروا في غيِّهم وضلالهم وعبادتهم لغير الله، ويأمرهم أن يعبدوا الله وحده ويطيعوا أوامره ويتجنبوا نواهيه؛ وقاية لهم من غضبه ونقمته، ويُبشِّرهم إن هم فعلوا ذلك؛ بمغفرة من الله لما سبق من ذنوبهم، ويُمدّ الله لهم في آجالهم ليزدادوا من أعمال الخير.

وكان يدعوهم ليلا ونهارا؛ وكان حريصا على هدايتهم. وكان كلما ألحّ في دعوتهم، ألحّوا هم في صدِّهم، وفرارهم منه. وإمعانا منهم في الإعراض عنه، كانوا إذا اقترب منهم يسدّون آذانهم بأصابعهم كي لا يسمعوا قوله، ويضعون ثيابهم على وجوههم كي لا يروه. ورغم ذلك لم تفتُر همّتُه ولم يتقاعس عن دعوتهم، فكان يذهب إلى مجالسهم ومجتمعاتهم كي يواجه جموعهم، وإذا اختلى بأحدهم دعاه وحده علّه يهتدي فيزداد عدد المؤمنين واحدا.

وكان نوح في دعوته يعدّد لهم نعم الله عليهم؛ عسى أن تنفتح قلوبُهم لنور الحق، فيقول لهم أليس الله الذي يرسل عليكم المطر الذي تمتلئ به الأودية والشعاب فيتحوّل إلى أنهار تسقون منها زرعكم وبساتينكم؟ أليس الله الذي خلق السموات السبع، وزيّنها بنور القمر، وأضاءها بالشمس؟ أليس الله الذي خلقكم من طين الأرض، وهو الذي يتوفّاكم في جوفها ثم يعيدكم يوم البعث؟ أليس الله الذي بسط لكم الأرض لتمشوا في أرجائها ساعين على رزقكم؟ ربٌّ كهذا ألا يستحق منكم الإجلال والتعظيم؟

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح].

وظلّ نوح يدعو قومه ردْحا طويلا من الزمن؛ امتد حتى وصل تسعمائة وخمسين سنة، ولم يتبعه إلا قليل منهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت].

مجادلة قومه له

كان نوح يدعو قومه أن لا يعبدوا غير الله، وكان ينذرهم ويخوّفهم من عذاب الله الذي لا مردّ له لو نزل بهم. وكان يتصدّى له أهل الرأي والحكم في قومه من علِية القوم، وكانوا يوبّخونه بقولهم له ما أنت إلا بشر مثلنا فلماذا اختارك الله من دوننا لتدعونا إلى ما تدعونا إليه؟ وإذا كنت محقا فلماذا اتبعك الذين هم أقلّنا مكانة، وأكثرنا سفاهة، ولم يتبعك كبراؤنا وحكماؤنا؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ

اتَّبعَكَ إلاَّ الَّذينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧)﴾ [هود].

وأصرّوا على رفض دعوته، وظلّوا على شركهم، ودأب كبار القوم وقادتهم على التحريض ضده، وكانوا يقولون للعامة إنه ليس إلا بشرا مثلكم يريد أن يتفضل عليكم بادعائه النبوّة، ولو شاء الله أن يرسل رسولا لأرسل ملكا من عنده، وكانوا يصفونه بالجنون، ويدعون الناس أن يصبروا عليه حتى يموت ويستريحوا من لجاجته.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾ [المؤمنون].

وكانوا يقولون له أتريدنا أن نصدّقك ولم يتبعك إلا من هم أسافلنا وأقلّنا شأنا؟ فيقول لهم لا علم لي بما كان منهم، لكنهم صدّقوني وآمنوا بدعوتي، ولا ينبغي لي أن أطردهم لأن مردّهم إلى الله رب العالمين يفصل بينهم ويجازيهم على أعمالهم، وما أنا إلا نذير للناس من عذاب يوم عظيم، فهدّدوه بالرجم إن هو لم يتوقف عن دعوته.

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ [الشعراء].

وكانوا يقولون له مستكبرين: فلتأتنا بما تعدنا به من العذاب إن استطعت، فيردّ عليهم أن عذابهم ليس بيده، ولكن يأتيهم من عند الله متى شاء، وإذا جاء لن يقدر أحد على ردّه، وإن لم يشأ الله أن يهديكم، فهو ربكم القادر على كل شيء، وإليه المرجع والمآل.

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾ [هود].

تحدي نوح للمكذبين من قومه

مكث نوح في قومه تسعمائة وخمسون عاما يدعوهم إلى وحدانية الله، ونبذ عبادة الأصنام التي ابتدعوها وصنعتها أيديهم، فكانوا يكذّبونه وينهرونه ويهدّدونه بالقتل هو ومن معه إن هو لم يقلع عن دعوتهم وتذكيره الدائم لهم بأحقية الله بالعبادة. وبلغ من إصرارهم على الكفر أن الرجل إذا مات أوصى بنيه أن لا يؤمنوا به، وينعتوه لهم بالكذب والضلال. وواجه نوح صدّهم له وجحودهم لدعوته وتهديدهم إياه؛ بأن تحدّاهم هم وأصنامهم أن يضرّوه بشيء مهما بلغ تدبيرهم لأن الله هو ناصره ومعينه.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ [يونس].

دعوة نوح على قومه

لما تيقّن نوح من جحود قومه، وإصرارهم على الشرك بالله، خاطب ربّه قائلا إنهم عصوني وأصرّوا على الشرك؛ باتباعهم تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، واتفقوا فيما بينهم وتواصوا أن لا يتركوا عبادة أصنامهم؛ التي أسموها وَدّاً وسُوَاعاً ويَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً، وقد بالغوا في ذلك أشد المبالغة.

ودعا نوح ربه أن يزيدهم ضلالا على ضلالهم؛ حتى يستحقّوا عذابه، وأن يقتلعهم من على وجه الأرض؛ حتى لا يكونوا سببا في إضلال غيرهم، ولأن ذريتهم سيكونون مثلهم كافرين فُجّارا.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا

لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح].

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ [الشعراء].

نوح يصنع الفلك

لما اشتكى نوح إلى ربه مجادلة قومه له، وصدِّهم الناس عن دعوته، واستعجالهم العذاب الذي كان يخوّفهم به؛ واساه ربُّه قائلا لا تأسف لعملهم، فلن يؤمن منهم أحد غير هؤلاء النفر القليل معك، وعمّا قليل يأتيهم عذابي. وأمره ربُّه أن يصنع سفينة، وعلّمه كيف يصنعها. ويقال أنه زرع شجرها وانتظر حتى كمل نموه، فقطعه، وانتظر حتى جف فنشرَهُ. ولما أكبّ نوع على صنع السفينة، سخر منه قومه وقالوا يصنع سفينة على البر!! فيردُّ عليهم إن تسخروا منا اليوم، فإنا نسخر منكم غدا، وسوف يأتيكم عذاب من الله يخزيكم، ولا ينج منه أحد. وأمره الله إن نزل أمر الله، واستوى هو ومن معه على الفلك أن يشكره على أن نجّاه من القوم الكافرين، وأن يدعوه أن يُنْزِله من الأرض منزلا مباركا طاهرا من دنس الشرك.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ [هود].

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾ [الأنبياء].

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا

تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾ [المؤمنون].

الطوفان

كانت علامة الطوفان أن يفور التنّور (الفرن) في بيت نوح بالماء. ولما فار التنّور أمر الله نوحا أن يقصُد السفينة التي كان قد تم بناؤها، فيفتح بابها، ويأخذ معه كل من آمن من أهل بيته ومن بني قومه؛ وهم قليل، وأن يدخل فيها من كل دواب الأرض؛ زوجين اثنين. وما إن انتهى نوح من شحن سفينته كما أمر الله، أغلق بابها، وقال بسم الله تجري، وبسم الله ترسو. وكان الماء ينهمر من أبواب السماء، ويتفجّر من عيون بالأرض؛ حتى التقيا جميعا في فيضان عظيم غطّى وجه الأرض، وأخذ يرتفع حتى غطى قمم الجبال الشامخات.

وكانت أوقاتا عصيبة على الكافرين، فقد غطّت المياه كل شيء، وارتفعت على سطح الأرض، وتلاطمت أمواجُها كأنها الجبال في علوِّها؛ والسفينة تتقاذفها الأمواج كأنها ريشة في الهواء، لكن عناية الله كانت تحفظها فلا تميل ولا تنكفئ.

ومن كوّة في السفينة رأى نوح ابنه (كان من الذين لم يؤمنوا بدعوته) يجاهد الموج، فرقّ قلبُه له، ودعاه أن يأتي إلى السفينة مؤمنا فلا يهلك مع الكافرين، لكنه ردّ عليه قائلا: سوف ألجأ إلى جبل من الجبال العالية فلا يصلني الماء، فقال له نوح لن يعصمك شيء من الغرق إلا أن يتغمّدك الله برحمته. ولم يلبس أن غاب عن ناظري أبيه بين طيات الموج، فغرق مع غيره من الكافرين. واستغاث نوح ربه لينجي ابنه قائلا إنه من أهلي؛ وقد وعدتني أن تُنجِّي أهلي، ووعدك حق، وحكمك لا مردّ له، فأجابه الله إنه ليس من أهلك، إنما أهلك هم المؤمنون، وهو من الكافرين، ولا تسألني عما لا علم

لك به؛ فتكون من الجاهلين. وكان جوابُ نوح على ربه أعوذ بك ربي أن أسألك ما لا علم لي به، وإن لم تغفر لي ذلّتي، وترحمني؛ فلا تعذّبني بها، أكون من الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر].

انحسار الطوفان

ولما أرادت مشيئة الله أن ينتهي الطوفان، أمر الأرض أن تبتلع الماء، والسماء أن تُقلع عن المطر؛ حتى جفت الأرض، واستوت السفينة على جبل الجودي بعد أن كانت الأرض قد تطهّرت من كل الكافرين.

وأنجى الله نوحا والقلّة التي آمنت معه في سفينة صنعها من خشب ثبته مع بعضه بمسامير؛ فكانت تجري بهم على صفحة الماء بعناية الله وحفظه، وجعلهم خلفاء الأرض دون منازع. وأهلك الله بالطوفان كل من كذّبه من

قومه وعمي عن نور الإيمان الذي كان يدعوهم إليه، وجعلهم عبرة للمعتبرين.

وأمر الله نوحا أن يهبط بسلام هو ومن معه من السفينة، وباركه الله هو من معه، وأمرهم أن يعمروا الأرض، وأن يشكروا الله على أن أنجاهم من القوم الظالمين؛ فلا يعملون عملهم، وإلا فالنار هي مآل كل مشرك بالله، كافر بأنعمه.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ...... قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾ [هود].

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾ [القمر].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾ [الأعراف].

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٥)﴾ [العنكبوت].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣)﴾ [يونس].

تعقيب

تقول التوراة أن الفساد قد كثُر في الأرض في عهد نوح، وأن الله قد أسِف لخلقه الإنسان. وأسف الله هنا يقودنا إلى محصّلة واحدة؛ مفادها أنه لم يكن في علمه - عزّ وجلّ - ما سيكون من بني الإنسان من مفاسد، كما أنه يشير إلى نهج التوراة في التأكيد على شرية الله التي تتردّد في أغلب آياتها.

وتقول التوراة أن الله أمر نوحا أن يأخذ معه في الفلك؛ زوجته وجميع بنيه، ومن الحيوانات والطيور والزواحف وغيرها من الأحياء؛ من كل زوجين اثنين ذكرا وأنثى لاستمرار الحياة بعد الطوفان. والقرآن لا يختلف مع التوراة في هذه الجزئية؛ إلا ما كان من أمر زوجته وأحد أبنائه اللذان كانا على الكفر، ولم يركبا معه في السفينة، وهلكا مع الهالكين.

وتقول التوراة أن الله أخبر نوحا بأنه سوف يأمر المطر بأن يصبّ مياهه على الأرض بعد سبعة أيام، ويقول القرآن أن الله قد جعل لنبيه علامة على بدء الطوفان؛ هي أن يفور الماء من التنّور.

وتقول التوراة أن نوحا لما استقر على الأرض، بنى مذبحا لعبادة الرب، وقدّم الذبائح شكرا لله على أنّه أنجاهم. ويقبل الرب تقدمات نوح برضى، ويتعهد بأن لا يلعن الأرض مرة أخرى بسبب خطايا الإنسان. ويعلن الرب ندمه على إهلاك الأرض بالطوفان، ويعاهد نفسه بأن لا يفعل ذلك مرة أخرى. فكأن الرب إنسان ارتكب معصية، وتاب عنها، وتعهّد بأن لا يعود لمثلها أبدا. وليت الأمر اقتصر على ذلك، فقد عيّن الرب علامة على ذلك الميثاق؛ قوسه في السماء (قوس قزح) ليذكّره إذا نسي. فالرب هنا تصيبه آفة النسيان مثله مثل بني الإنسان، وحاشاه.

وتقدّم لنا التوراةُ نوحا النبي الذي أنجاه الله وأغرق جميع قومه؛ رجلا يشرب الخمر ويسكر، ويتوه عن الوعي، وأنا أربأ بأنبياء الله من مثل هذه الكبائر.

أمـا أن يكون من أبـناء نوح الذين أنجـاهم الله وأغـــرق غـيـرهم من الكافرين، ولد عاقّ ويستحق اللعن؛ فكان من الأولى أن يهلك مع من هلكوا من قبل. فلماذا كان الطوفان إذا كان بعض من نجا لا يستحقون النجاة !! أما أن يكون من نجا مع نوح هم أهل بيته جمـيعا؛ برُّهم وفاجرُهم، فلا أظن أن الله جلّ شأنه؛ يأمر بأمر جلل كالطوفان، ولا يجـعل منه وسيلة فعّالة لتطهير الأرض من جميع الكافـرين بصرف النظر عن علاقتهم بنبيـه نوح كما أعلن، وكما أراد. وإشارة القرآن إلى هلاك ابنه وزوجته دليل على ذلك.

الفصل الخامس

إبراهيم

إبراهيم في التوراة
نشأة إبراهيم

نشأ أبرام (إبراهيم) في بيئة وثنية يعبد الناسُ فيها الأصنام والكواكب والنجوم وغيرها من تلك المعبودات التي يسمّونها آلهة، وجاءه الأمر من الله أن يترك موطنه إلى أرض كنعان (فلسطين)؛ فامتثل لأمر الله، وغادر أور الكلدانيين (العراق) مصطحبا معه أباه تارح وزوجته ساراي (سارة) وابن أخيه لوط حتى وصلوا حاران (قرب الحدود السورية). لم يتوجّه مباشرة إلى أرض كنعان، بل أقام في حاران خمسة عشر عاما حتى مات أبوه تارح.

نسب ابرام

. . . . . ٣١وَأَخَذَ تَارَحُ ابْنَهُ أَبْرَامَ وَحَفِيدَهُ لُوطاً بْنَ هَارَانَ، وَسَارَايَ كَنَّتَهُ
زَوْجَةَ ابْنِه أَبْرَامَ، وَارْتَحَلَ بِهِمْ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ.
٣٢لَكِنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى حَارَانَ وَاسْتَقَرُّوا فِيهَا. وَهُنَاكَ مَاتَ تَارَحُ وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ
مِئَتَانِ وَخَمْسُ سِنِينَ(١).

التوجه إلى الأرض الموعودة

وأمره الرب مرة ثانية أن يترك حاران إلى الأرض التي وعده إيّاها أن تكون له ولذريته من بعده؛ فارتحل إلى حيث أمره الرب، واصطحب معه زوجته سارة وابن أخيه لوط ومعهم كل مقتنياتهم وأملاكهم إلى الأرض الموعودة. وفي أرض كنعان؛ حيث يقيم الكنعانيون، أخذ يتنقل من موضع إلى آخر بحثا عن سبل الحياة من ماء وعشب، حتى وصل إلى شكيم (نابلس)، ثم انتقل إلى الجبل شرقي بيت إيل، وتابع تنقّله ناحية جنوب فلسطين. وفي كل مكان كان يستقر فيه بعضا من الوقت، كان ينصب خيامه للإقامة، ويشيّد مذبحا للرب ليتعبّده فيه ويتقرب إليه.

---

(١) سفر التكوين -١١.

١٢- دعوة ابرام

وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، ٢فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لِكَثِيرِينَ). ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». ٤فَارْتَحَلَ أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ، وَرَافَقَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ فِي الْخَامِسَةِ وَالسَّبْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا غَادَرَ حَارَانَ. ٥وَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ زَوْجَتَهُ وَلُوطاً ابْنَ أَخِيهِ وَكُلَّ مَا جَمَعَاهُ مِنْ مُقْتَنَيَاتٍ وَكُلَّ مَا امْتَلَكَاهُ مِنْ نُفُوسٍ فِي حَارَانَ، وَانْطَلَقُوا جَمِيعاً إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَنْ وَصَلُوهَا. ٦فَشَرَعَ أَبْرَامُ يَتَنَقَّلُ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ بَلَغَ مَوْضِعَ شَكِيمَ إِلَى سَهْلِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ آنَئِذٍ يَقْطُنُونَ تِلْكَ الأَرْضَ. ٧وَظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «سَأُعْطِي هَذِهِ الأَرْضَ لِذُرِّيَّتِكَ». فَبَنَى أَبْرَامُ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ. ٨وَانْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلِ حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِيلِ غَرْباً وَعَايِ شَرْقاً وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ. ٩ثُمَّ تَابَعَ أَبْرَامُ ارْتِحَالَهُ نَحْوَ الْجَنُوبِ(١).

ابرام في ديار مصر

وكان عام قحط وجفاف، وعمّت المجاعة المنطقة التي يعيش فيها أبرام، فقرّر الارتحال إلى مصر من أجل الماء والزاد ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط وكل ممتلكاته وعبيده. ولما اقترب من تخوم مصر شعر بالخوف على نفسه بسبب جمال زوجته التي قد يطمع فيها المصريون فيقتلونه ليستأثروا بها، فاتفق معها أن تقول أنها أخته وليست زوجتُه من أجل أن يحسنوا معاملته وينجو بنفسه من القتل.

ابرام في ديار مصر

١٠وَعَمَّتْ تِلْكَ الْبِلادَ مَجَاعَةٌ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ فِيهَا لأَنَّ الْمَجَاعَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً فِي الأَرْضِ. ١١وَمَا إِنِ اقْتَرَبَ مِنْ تُخُومِ مِصْرَ حَتَّى قَالَ

(١) سفر التكوين - ١٢.

بزوجته ساراي: «أَنَا أَعْرِفُ أَنَّكِ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ، ١٢فَمَا إِنْ يَرَاكِ الْمِصْرِيُّونَ حَتَّى يَقُولُوا: هَذِهِ هِيَ زَوْجَتُهُ فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَحْيُونَكِ. ١٣لِذَلِكَ قُولِي إِنَّكِ أُخْتِي، فَيُحْسِنُوا مُعَامَلَتِي مِنْ أَجْلِكِ وَتَنْجُو حَيَاتِي بِفَضْلِكِ»(١).

وما إن دخلوا إلى مصر؛ ورأى رجال الفرعون جمال سارة، حتى أبلغوا الفرعون، فأمرهم أن يأتوا بها إلى بيته لتنضم إلى حريمه، وأجزل فرعون لأبرام العطاء بسببها. ولمّا أراد فرعون أن يدخل بها، حال الله بينه وبين ذلك وأصابه بمرض شديد. ولما أدرك فرعون أن ذلك بسبب هذه المرأة، وعرف أنها زوجة لأبرام وليست أخته، عاتب أبرام في ذلك، وأرجعها إليه معزّزة مكرّمة، ومنحه العبيد والجواري والهبات الكثيرة. وعند مغادرة أبرام البلاد، أمر الفرعون رجاله أن يرافقوه وهو خارج من مصر حتى حدود البلاد؛ احتفاء به وإكراما له.

..... ١٤وَلَمَّا اقْتَرَبَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ اسْتَرْعَى جَمَالُ سَارَايَ أَنْظَارَ الْمِصْرِيِّينَ، وَشَاهَدَهَا أَيْضاً رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ فَأَشَادُوا بِهَا أَمَامَهُ. فَأُخِذَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ. ١٦فَأَحْسَنَ إِلَى أَبْرَامَ بِسَبَبِهَا وَأَجْزَلَ لَهُ الْعَطَاءَ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْحَمِيرِ وَالْعَبِيدِ وَالإِمَاءِ وَالأُتُنِ وَالْجِمَالِ. ١٧وَلَكِنَّ الرَّبَّ ابْتَلَى فِرْعَوْنَ وَأَهْلَهُ بِبَلايَا عَظِيمَةٍ بِسَبَبِ سَارَايَ زَوْجَةِ أَبْرَامَ. ١٨فَاسْتَدْعَى فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَسَأَلَهُ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا زَوْجَتُكَ؟ ١٩وَلِمَاذَا ادَّعَيْتَ أَنَّهَا أُخْتُكَ حَتَّى أَخَذْتُهَا لِتَكُونَ زَوْجَةً لِي؟ وَالآنَ هَا هِيَ زَوْجَتُكَ، خُذْهَا وَامْضِ فِي طَرِيقِكَ». ٢٠وَأَوْصَى فِرْعَوْنُ رِجَالَهُ بِأَبْرَامَ، فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ يَمْلِكُ(٢).

عودة أبرام من ديار مصر

غادر أبرام أرض مصر بمن معه ولسانه يلهث بالشكر لله الذي نجّاه من هذه المصيبة التي ألمّت به، واتّجه ناحية منطقة النقب، وظل يتنقّل فيها حتى وصل إلى بيت إيل حيث كان يقيم قبل مغادرته إلى مصر.

---

(١) سفر التكوين - ١٢.

(٢) سفر التكوين ١٣.

١٣- عودة ابرام من مصر

وَغَادَرَ أَبْرَامُ مِصْرَ وَتَوَجَّهَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ وَلُوطٌ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، نَحْوَ مِنْطَقَةِ النَّقَبِ ٢وَكَانَ أَبْرَامُ يَمْلِكُ ثَرْوَةً طَائِلَةً مِنَ الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. ٣وَظَلَّ يَنْتَقِلُ فِي مِنْطَقَةِ النَّقَبِ مُتَّجِهاً إِلَى بَيْتِ إِيلٍ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ قَدْ نَصَبَ فِيهِ خِيَامَهُ أَوَّلاً بَيْنَ بَيْتِ إِيلٍ وَعَايَ. ٤حَيْثُ كَانَ قَدْ شَيَّدَ الْمَذْبَحَ أَوَّلاً، وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ(١).

افتراق ابرام ولوط

كان لوط مرافقا لأبرام لا يفارقه، وكان لكل منهما غنمه وأبقاره التي يرعاها لحساب نفسه وخيامه وعبيده. وتوسّعت أملاكهما، وكثرت مواشيهما؛ حتى صارت هناك نزاعات دائمة بين رعاة الطرفين من أجل العشب والماء وما شابه. رأى أبرام أن يفترقا حتى لا تتطوّر النزاعات بين الرعاة إلى ما هو أكثر من ذلك. وحرصا منه على حسن الصلة بينه وبين ابن أخيه لوط، عرض عليه أن يفترقا، وخيّره أن يتّجه حيث يشاء؛ شمالا أو جنوبا حسب ما ترضاه نفسه؛ فيختار هو الاتجاه الآخر إرضاء له.

افتراق ابرام ولوط

٥وَكَانَ لِلُوطٍ الْمُرَافِقِ لأَبْرَامَ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ أَيْضاً. ٦فَضَاقَتْ بِهِمَا الأَرْضُ لِكَثْرَةِ أَمْلاَكِهِمَا فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعاً. ٧وَنَشَبَ نِزَاعٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرِزِّيُّونَ يُقِيمُونَ فِي الأَرْضِ. ٨فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: «لاَ يَكُنْ نِزَاعٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَلاَ بَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. ٩أَلَيْسَتِ الأَرْضُ كُلُّهَا أَمَامَكَ؟ فَاعْتَزِلْ عَنِّي. إِنِ اتَّجَهْتَ شِمَالاً، أَتَّجِهْ أَنَا يَمِيناً، وَإِنْ تَحَوَّلْتَ يَمِيناً، أَتَحَوَّلْ أَنَا شِمَالاً»(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين ١٣.

لوط يختار سدوم

تلفّت لوط حـوله، واتجهت عيناه ناحـية السـهول المحيطـة بنهر الأردن فراقت له، واخـتارها لنفسه، ورحـل بأملاكه شرقـا حتى استقـر في حوض الأردن، ونصب خيامه بجوار سدوم، وظل أبرام في أرض كنعان. وكان أهل سدوم متورّطين في الشر، وبعيدين جدا عن أوامر الرب.

لوط يختار سدوم

١٠وَتَلَفَّتَ لُوطٌ حَوْلَهُ فَشَاهَدَ السُّهُولَ الْمُحِيطَةَ بِنَهْرِ الأُرْدُنِّ وَإِذَا بِهَا رَيَّانَةٌ كُلُّهَا، قَبْلَمَا دَمَّرَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، وَكَأَنَّهَا جَنَّةُ الرَّبِّ كَأَرْضِ مِصْرَ الْمُمْتَدَّةِ إِلَى صُوغَرَ. ١١فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ حَوْضَ الأُرْدُنِّ كُلَّهُ وَارْتَحَلَ شَرْقاً. وَهكَذَا اعْتَزَلَ أَحَدُهُمَا عَنِ الآخَرِ. ١٢وَسَكَنَ أَبْرَامُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَقَامَ لُوطٌ فِي مُدُنِ السَّهْلِ حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ بِجِوَارِ سَدُومَ. ١٣وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ مُتَوَرِّطِينَ فِي الشَّرِّ وَخَاطِئِينَ جِداً لَدَى الرَّبِّ(١).

حرب الملوك وأسر لوط

عاش لوط مع أهل سدوم في عبودية الملك كدرلعومر اثنتي عشرة سنة، وكان يفرض عليهم الجزية، ويعـاملهم بغلظة أدّت إلى ثورتهم عليه؛ ممّا دفعه إلى تجميع حلفائه لحربهم. واحتشـدت القوات المتحاربة؛ أهل سدوم وعمّورة من جهة، وكدرلعومر وحلفاؤه من جـهة أخرى في وادي السديم حول البحر الميت. وكانت حربا ضروسا بين الطرفين؛ انتهت بهزيمة أهل سدوم وعمّورة، وأسر لوط، والاستيلاء على أهل بيته وعبيده وكل أملاكه.

١٤- حرب الملوك

وَحَدَثَ فِي زَمَانِ أَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاسَارَ وَكَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُويِيمَ، ٢أَنَّ حَرْباً نَشَبَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَارَعَ مَلِكِ

(١) سفر التكوين - ١٣.

سَدُومَ وبِرْشَاعَ مَلك عَمُورَةَ وَشِنْآبَ مَلك أَدْمَةَ وَشِمْئِيبَرَ مَلك صَبُويِيمَ، وَمَلك بَالَعَ الْمَعْرُوفَة بِصُوغَرَ. ٣هَؤُلاَءِ جَمِيعُهُمُ احْتَشَدُوا فِي وَادِي السِّدِّيمِ وَهُوَ بَحْرِ الْمِلْحِ (الْبَحْرُ الْمَيِّتُ)....... ٨فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ وَمَلِكُ عَمُورَةَ وَمَلِكُ أَدْمَةَ وَمَلِكُ صَبُويِيمَ وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، فِي عُمْقِ السِّدِّيمِ وَخَاضُوا حَرْباً..... ١٠وكَانَ وَادِي السِّدِّيمِ مَلِيئاً بِآبَارِ الزِّفْت، فَانْدَحَرَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا بَيْنَهَا، أَمَّا الْبَاقُونَ فَهَرَبُوا إِلَى الْجِبَالِ. ١١فَغَنِمَ الْمُنْتَصِرُونَ جَمِيعَ مَا فِي سَدُومَ وَعَمُورَةَ مِنْ مُمْتَلَكَات وَمُؤَنٍ وَمَضَوْا. ١٢وأَسَرُوا لُوطاً ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ الْمُقِيمَ فِي سَدُومَ، وَنَهَبُوا أَمْلاَكَهُ ثُمَّ ذَهَبُوا(١).

إنقاذ لوط من الأسر

لمّا وصل خبرُ أسر لوط إلى عمِّه أبرام، جرّد قوّة من غلمانه قوامها ثلاثمائة وثمانية عشر غلاما مدرّبين على القتال، وهاجم القوات التي أسرت لوطا، فقهرهم، واستردّ لوطا وجميع أملاكه وكل الأسرى.

إنقاذ لوط من الأسر

...... ١٤فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ أَنَّ ابْنَ أَخِيهِ قَدْ أُسِرَ، جَرَّدَ ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ غِلْمَانِهِ الْمُدَرَّبِينَ الْمَوْلُودِينَ فِي بَيْتِهِ وَتَعَقَّبَهُمْ حَتَّى بَلَغَ دَانَ ١٥وَفِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ قَسَّمَ رِجَالَهُ، وَهَاجَمَهُمْ وَقَهَرَهُمْ، ثُمَّ طَارَدَهُمْ حَتَّى حُوبَةَ شَمَالِيَّ دِمَشْقَ. ١٦وَاسْتَرَدَّ كُلَّ الْغَنَائِمِ، وَاسْتَرْجَعَ ابْنَ أَخِيهِ لُوطاً وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضاً وَسِوَاهُمْ مِنَ الأَسْرَى(٢).

عهد الله مع أبرام

وتجاوز أبرام الثمانين من العمر؛ ولم يزل بدون ولد، ويعيش حياة الرحّل في أرض الكنعانيين؛ وكان ذلك يؤرّقه. ولما ظهر الرب لأبرام في الرؤيا وقال له لا تخف من الأحداث التي تمرّ بك فأجرك عظيم وأنا لك سند

(١) (٢) سفر التكوين – ١٤.

ومعين، قال للرب أي خير لي في هذه الحياة وأنا من غير وارث يرثني غير عبدي (كان العبد يرث سيّده إذا لم يكن هناك وارث من صلبه)، فطمأنه الرب بقوله لن يرثك إلا ولد من صلبك، وسوف أكثّر ذريتك كعدد النجوم في السماء، وسوف أعطيك هذه الأرض ميراثا لك ولذريتك من بعدك.

١٥- عهد الله مع أبرام

وَبَعْدَ هَذِهِ الأُمُورِ قَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا: «لاَ تَخَفْ يَاأَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. وَأَجْرُكَ عَظِيمٌ جِداً». ٢فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ أَيُّ خَيْرٍ فِي مَا تُعْطِينِي وَأَنَا مِنْ غَيْرِ عَقِبٍ وَوَارِثُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟» ٣وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضاً: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلاً، وَهَا هُوَ عَبْدٌ مَوْلُودٌ فِي بَيْتِي يَكُونُ وَارِثِي» ٤فَأَجَابَهُ الرَّبُّ: «لَنْ يَكُونَ هَذَا لَكَ وَرِيثاً، بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِكَ يَكُونُ وَرِيثَكَ». ٥وَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ إِلَى الْخَارِجِ وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ ذَلِكَ». ثُمَّ قَالَ لَهُ: «هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». ٦فَآمَنَ بِالرَّبِّ فَحَسَبَهُ لَهُ بِرّاً، ٧وَقَالَ لَهُ: «أَنَا هُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَتَى بِكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لأُعْطِيَكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِيرَاثاً»..... (١)

وفي اليوم الذي عقد الله فيه ميثاقه مع أبرام ووعده بأن يُكثّر نسله، قال له سأعطي نسلك هذه الأرض الممتدّة من العريش إلى نهر الفرات، وسوف أطرد من أمامهم الْقَيْنِيِّينَ وَالْقَنِزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ.

الوعد بأرض

١٨فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَقَدَ اللهُ مِيثَاقاً مَعْ أَبْرَامَ قَائِلاً: «سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. ١٩أَرْضَ الْقَيْنِيِّينَ

(١) سفر التكوين ١٥.

وَالْقَنِزِّيِّينَ، وَالْقَدْمُونِيِّينَ ٢٠وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ ٢١وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»(١).

زواج أبرام من هاجر

ولمّا رأت زوجةُ أبرام (سارة) أنها لن تستطيع أن تُنْجب له الولد، طلبت منه أن يدخل على جاريتها هاجر لعلّ الله يرزقها منها الولد (وكانت العادة أن ولد الجارية من سيدها يكون لسيدتها وليس للجارية).

١٦- زواج ابرام من هاجر

وَأَمَّا سَارَايُ زَوْجَةُ أَبْرَامَ فَقَدْ كَانَتْ عَاقِراً، وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ تُدْعَى هَاجَرَ. ٢فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ حَرَمَنِي مِنَ الْوِلاَدَةِ، فَادْخُلْ عَلَيْهَا لَعَلَّنِي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِكَلاَمِ زَوْجَتِهِ. ٣وَهكَذَا بَعْدَ إِقَامَةِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، أَخَذَتْ سَارَايُ جَارِيَتَهَا الْمِصْرِيَّةَ هَاجَرَ وَأَعْطَتْهَا لِرَجُلِهَا أَبْرَامَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ(٢).

إذلال هاجر وهروبها

دخل أبرام بهاجر، وحملت منه. عندئذ دبّت الغيرة في نفس سيدتها سارة، واشتكت لأبرام أنها بدأت تتكبّر عليها وتعاملها بغلظة، فقال لها أبرام هي جاريتك فافعلي بها ما تشائين. وتعمّدت سارة إذلال هاجر لدرجة دفعتها إلى الهرب من البيت.

إذلال هاجر وهربها

٤فَعَاشَرَ هَاجَرَ فَحَبِلَتْ مِنْهُ. وَلَمَّا أَدْرَكَتْ أَنَّهَا حَامِلٌ هَانَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا، ٥فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «لِيَقَعْ ظُلْمِي عَلَيْكَ، فَأَنَا قَدْ زَوَّجْتُكَ مِنْ جَارِيَتِي وَحِينَ أَدْرَكَتْ أَنَّهَا حَامِلٌ هِنْتُ فِي عَيْنَيْهَا. لِيَقْضِ الرَّبُّ بَيْنِي

(١) سفر التكوين - ١٥.

(٢) سفر التكوين ١٦.

بينَكَ». ٦فأجَابَهَا أَبْرَامُ: «هَا هِيَ جَارِيَتُك تَحْتَ تَصَرُّفِك، فَافْعَلِي بِهَا مَا يَحْلُو لَكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ حَتَّى هَرَبَتْ مِنْهَا(١).

ملاك الرب وهاجر

وقُرْب عين الماء، وجد ملاك الرب هاجر، فأمرها أن تعود إلى البيت، وبشّرها بمولد إسماعيل، وأمرها أن تخضع لسيدتها، وقال لها أن الرب سوف يكثّر نسلها.

ملاك الرب وهاجر

٧فَوَجَدَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ بِالْقُرْبِ مِنْ عَيْنِ الْمَاءِ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى شُورٍ.
٨فَقَالَ: «يَاهَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ جِئْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟».
فَأَجَابَتْ: «إِنِّي هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ سَيِّدَتِي سَارَايَ». ٩فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ:
«عُودِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي لَهَا». ١٠وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «لأُكَثِّرَنَّ
نَسْلَكِ فَلاَ يَعُودُ يُحْصَى»، ١١وَأَضَافَ مَلاَكُ الرَّبِّ: «هُوَذَا أَنْتِ حَامِلٌ،
وَسَتَلِدِينَ ابْناً تَدْعِينَهُ إِسْمَاعِيلَ (وَمَعْنَاهُ: اللهُ يَسْمَعُ) لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ
شَقَائِكِ(٢).

مولد إسماعيل

وولدت هاجر ابنا لأبرام، فسمّاه إسماعيل. وكان أبرام قد بلغ السادسة والثمانين من العمر.

مولد إسماعيل

١٥ثُمَّ وَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْناً، فَدَعَا أَبْرَامُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ هَاجَرُ
إِسْمَاعِيلَ. ١٦وَكَانَ أَبْرَامُ فِي السَّادِسَةِ وَالثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا وَلَدَتْ لَهُ
هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ(٣).

---

(١) (٢) (٣) سفر التكوين ١٦.

العهد والختان

وفي التاسعة والتسعين من عمر أبرام، ظهر له الرب، وأعلن له أن اسمه لم يعد أبرام (أب عظيم الشأن) بل سوف يكون إبراهيم (أب لشعب كبير)، وأنه سوف يُكثِّر ذريته، ويمنحه أرض الكنعانيين التي تغرّب فيها من أجل الرب. وأمره الرب أن يختتن هو وجميع ذريته وكل وليد يولد في بيته، ويكون ذلك هو العهد بينهم وبين الرب، أما الذكر الذي لا يختتن؛ فإنه يستأصل لأنه نكث بالعهد مع الرب.

١٧- العهد والختان

وَعِنْدَمَا كَانَ أَبْرَامُ فِي التَّاسِعَةِ وَالتِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ، ظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ قَائِلاً: . . . . . . ٤«هَا أَنَا أَقْطَعُ لَكَ عَهْدِي، فَتَكُونُ أَباً لأُمَمٍ كَثِيرَةٍ. ٥وَلَنْ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدَ الآنَ أَبْرَامَ (وَمَعْنَاهُ الأَبُ الرَّفِيعُ) بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ (وَمَعْنَاهُ أَبٌ لِجُمْهُورٍ) لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَباً لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ؛ ٦وَأُصَيِّرُكَ مُثْمِراً جِداً، . . . . . ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِياً. . . . . . ١٠هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ الَّذِي عَلَيْكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ: أَنْ يُخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ مِنْكُمْ. . . . . ١٢تَخْتِنُونَ عَلَى مَدَى أَجْيَالِكُمْ كُلَّ ذَكَرٍ فِيكُمُ ابْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ كَانَ الْمَوْلُودُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ أَمْ كَانَ ابْناً لِغَرِيبٍ مُشْتَرًى بِمَالِكَ مِمَّنْ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. . . . . ١٤أَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لَمْ يُخْتَتَنْ، يُسْتَأْصَلُ مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ لأَنَّهُ نَكَثَ عَهْدِي»(١).

وعد الله لسارة

وقال الرب لإبراهيم أن ساراي (أميرتي) لم يعد اسمها ساراي بل سارة (أميرة)، وأنه سوف يباركها ويعطيها ابنا منها يكون أبا لأمم كبيرة. ولمّا

(١) سفر التكوين ١٧ .

تعجّب إبراهيم من أن تنجب سارة وهي في التسعين من عمرها وهو قد بلغ المائة، طمأنه الرب وقال له أنها سوف تلد إسحاق (ضاحك) في هذا الوقت من العام القادم.

وعد الله لسارة

١٥وَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «أَمَّا سَارَايُ زَوْجَتُكَ فَلاَ تَدْعُوهَا سَارَايَ بَعْدَ الآنَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُهَا سَارَةَ (وَمَعْنَاهُ أَمِيرةٌ). ١٦وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ ابْناً مِنْهَا. سَأُبَارِكُهَا وَأَجْعَلُهَا أُمّاً لِشُعُوبٍ، وَمِنْهَا يَتَحَدَّرُ مُلُوكُ أُمَمٍ». ١٧فَانْطَرَحَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ وَضَحِكَ قَائِلاً فِي نَفْسِهِ: «أَيُولَدُ ابْنٌ لِمَنْ بَلَغَ الْمِئَةَ مِنْ عُمْرِهِ؟ وَهَلْ تُنْجِبُ سَارَةُ وَهِيَ فِي التِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهَا؟» ١٨وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَحْيَا فِي رِعَايَتِكَ». ١٩فَأَجَابَ الرَّبُّ: «إِنَّ سَارَةَ زَوْجَتَكَ هِيَ الَّتِي تَلِدُ لَكَ ابْناً وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحقَ (وَمَعْنَاهُ يَضْحَكُ). وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ وَمَعَ ذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ عَهْداً أَبَدِيّاً[1].

مباركة إسماعيل

لم تُنس هذه البشرى العظيمة إبراهيم أن يطلب من الرب أن يبارك ابنه إسماعيل، فباركه الرب، وقال له أنه سيكثّر ذريته، ويجعله أبا لاثني عشر رئيسا؛ فيصبحون أمة كبيرة.

..... ٢٠أَمَّا إِسْمَاعِيلُ، فَقَدِ اسْتَجَبْتُ لِطِلْبَتِكَ مِنْ أَجْلِهِ. سَأُبَارِكُهُ حَقّاً، وَأَجْعَلُهُ مُثْمِراً، وَأُكَثِّرُ ذُرِّيَّتَهُ جِداً فَيَكُونُ أَباً لاثْنَيْ عَشَرَ رَئِيساً، وَيُصْبِحُ أُمَّةً كَبِيرَةً. ٢١غَيْرَ أَنَّ عَهْدِي أُبْرِمُهُ مَعَ إِسْحقَ الَّذِي تُنْجِبُهُ لَكَ سَارَةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ». ٢٢وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ مُحَادَثَتِهِ فَارَقَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ[2].

(١) (٢) سفر التكوين ١٧.

تنفيذ عهد الختان

لم يتوان إبراهيم في تنفيذ عهد الختان كما أمره الرب، فختن نفسه، وختن ابنه إسماعيل وجميع مواليد بيته، وكان إبراهيم قد بلغ التاسعة والتسعين من العمر وقتها، وإسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة.

تنفيذ عهد الختان

٢٣وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَجَمِيعَ الْمَوْلُودِينَ فِي بَيْتِهِ
وَكُلَّ مَنِ اشْتُرِيَ بِمَالٍ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ كَمَا أَمَرَهُ
الرَّبُّ. ٢٤وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي التَّاسِعَةِ وَالتِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا خُتِنَ فِي لَحْمِ
غُرْلَتِهِ، ٢٥أَمَّا إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ فَقَدْ كَانَ ابْنَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ
غُرْلَتِهِ. . . . (١)

الزائرون الثلاثة

وذات يوم شديد الحرارة؛ كان إبراهيم يجلس تحت شجرة بلوط يستظل بظلها، وإذ به يرى ثلاثة رجال مقبلين عليه، فهشّ لاستقبالهم، وعرض عليهم أن يكونوا في ضيافته، وقدم لهم الماء ليغسلوا أرجلهم (كانت تلك عادة شرقية لإظهار الاحتفاء بالضيف)، وأمر زوجته سارة بإعداد الطعام. وقدّم لهم إبراهيم طعاما طيبا، ووقف في خدمتهم وهم يأكلون حتى انتهوا.

١٨- الزائرون الثلاثة

ثُمَّ ظَهَرَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا وَقْتَ اشْتِدَادِ حَرِّ
النَّهَارِ، ٢فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَإِذَا بِهِ يَرَى ثَلاَثَةَ رِجَالٍ مَاثِلِينَ لَدَيْهِ. فَأَسْرَعَ لاِسْتِقْبَالِهِمْ
مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ. ٣وَقَالَ: «يَاسَيِّدِي، إِنْ كُنْتُ قَدْ حَظِيتُ
بِرِضَاكَ فَلاَ تَعْبُرْ عَنْ عَبْدِكَ. ٤بَلْ دَعْنِي أُقَدِّمُ لَكُمْ بَعْضَ مَاءٍ تَغْسِلُونَ بِهِ

(١) سفر التكوين ١٧.

أَرْجُلَكُمْ وَتَتَّكِئُونَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ٥ثُمَّ آتِي لَكُمْ بِلُقْمَةِ خُبْزٍ تُسْنِدُونَ بِهَا قُلُوبَكُمْ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تُوَاصِلُونَ مَسِيرَتَكُمْ، لأَنَّكُمْ قَدْ مِلْتُمْ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمْ». فَأَجَابُوهُ: «حَسَناً، لِيَكُنْ كَمَا قُلْتَ». ٦فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى دَاخِلِ الْخَيْمَةِ إِلَى زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَقَالَ: «هَيَّا أَسْرِعِي وَاعْجِنِي ثَلاَثَ كَيْلاَتٍ مِنْ أَفْضَلِ الدَّقِيقِ وَاخْبِزِيهَا». ٧ثُمَّ أَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ نَحْوَ قَطِيعِهِ وَاخْتَارَ عِجْلاً رَخْصاً طَيِّباً وَأَعْطَاهُ لِغُلاَمٍ كَيْ يُجَهِّزَهُ. ٨ثُمَّ أَخَذَ زُبْداً وَلَبَناً وَالْعِجْلَ الَّذِي طَبَخَهُ، وَمَدَّهَا أَمَامَهُمْ، وَبَقِيَ وَاقِفاً فِي خِدْمَتِهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهُمْ يَأْكُلُونَ(١).

ولما فرغ الضيوف من الأكل، سألوه عن زوجته سارة، فقال إنها في الخيمة. وبشّره أحدهم (الرب) بأن سارة سوف تلد ابنا في نفس الوقت من العام القادم.

تكرار الوعد لسارة

٩ثُمَّ سَأَلُوهُ: «أَيْنَ زَوْجَتُكَ؟» فَأَجَابَ: «هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ». ١٠فَقَالَ: «إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ فَتَكُونُ سَارَةُ آنَئِذٍ قَدْ وَلَدَتْ لَكَ ابْناً»..... (٢)

إبراهيم في صحبة الرب

ولّما فرغ الرجال من الطعام نهضوا وهم يتطلعون نحو سدوم، ومشى إبراهيم معهم ليودّعهم وهو لا يعرف وجهتهم ولا الهدف منها. وانطلق الرجلان نحو سدوم، وبقي إبراهيم ماثلا أمام الرب.

تصميم الله على دمار سدوم وعمورة

١٦ثُمَّ نَهَضَ الرِّجَالُ وَتَطَلَّعُوا نَحْوَ سَدُومَ. فَمَشَى إِبْرَاهِيمُ مَعَهُمْ لِيُوَدِّعَهُمْ..... ٢٢وَانْطَلَقَ الرَّجُلاَنِ مِنْ هُنَاكَ نَحْوَ سَدُومَ، وَبَقِيَ إِبْرَاهِيمُ مَاثِلاً أَمَامَ الرَّبِّ(٣).

---

(١) (٢) (٣) سفر التكوين ١٨.

شفاعة إبراهيم لقوم لوط

ولما عرف إبراهيم أن الرجلين متوجهان إلى سدوم لإهلاكهم؛ بسبب فسادهم الذي استشرى، حاول إبراهيم أن يتشفّع لهم لدى الرب من أجل البار فيهم؛ حتى لو كانوا خمسين بارا فقط، وطلب من الرب أن يصفح عنهم من أجل هؤلاء الخمسين، فقال الرب لو وجدتُ فيهم خمسين بارا فقط سوف أصفح عنهم جميعا من أجل الخمسين. وازداد طمع إبراهيم في عفو الرب فقال ولو نقص الخمسون بارا خمسة، فقال الرب أصفح عنهم كذلك. ولما قبل الله شفاعته الثانية، ازداد طمعه في عفو الرب، وصار ينقص عدد البارين الذين يتشفّع لهم من أجلهم حتى أوصلهم إلى عشرة فقط، فقال الرب أصفح عنهم من أجل هؤلاء العشرة.

شفاعة إبراهيم

٢٣فَاقْتَرَبَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟ ٢٤لَوْ وُجِدَ فِي
الْمَدِينَةِ خَمْسُونَ بَاراً، فَهَلْ تُدَمِّرُهَا وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهَا مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَاراً
الَّذِينَ فِيهَا؟ ٢٥تَنَزَّهْتَ عَنْ أَنْ تُهْلِكَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونُ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ؛
حَاشَا لَكَ. أَدَيَّانُ الأَرْضِ كُلِّهَا لاَ يُجْرِي عَدْلاً؟» ٢٦فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ
فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَاراً فَإِنَّنِي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». . . . .
٢٨مَاذَا لَوْ نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَاراً خَمْسَةً؟ أَفَتُهْلِكُ الْمَدِينَةَ كُلَّهَا مِنْ أَجْلِ الْخَمْسَةِ؟«
فَأَجَابَهُ: «إِنْ وَجَدْتُ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ بَاراً لاَ أُهْلِكُهَا». . . . . ٣٢وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ:
«لاَ يَغْضَبِ الْمَوْلَى، فَأَتَكَلَّمَ مَرَّةً أُخْرَى: مَاذَا لَوْ وُجِدَ هُنَاكَ عَشَرَةٌ؟». فَأَجَابَهُ
الرَّبُّ: «لاَ أُهْلِكُهَا مِنْ أَجْلِ الْعَشَرَةِ». ٣٣وَعِنْدَمَا فَرَغَ الرَّبُّ مِنْ مُحَادَثَةِ
إِبْرَاهِيمَ مَضَى، وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَانِهِ[1].

---

(١) سفر التكوين ١٨.

إبراهيم وسارة وأبيمالك

انتقل إبراهيم إلى أرض النقب، واستقر في جرار بجوار ملكها أبيمالك، وكما حدث في مصر قال عن زوجته أنها أخته حتى لا يُقتل بسببها. وأرسل أبيمالك من يأتيه بسارة ليضُمَّها إلى جواريه. وفي تلك الليلة التي باتت فيها سارة في بيت أبيمالك، تجلّى الله لأبيمالك في حلمه، وحذّره من أنه سيموت بسبب المرأة التي أخذها من زوجها. ردّ أبيمالك على الله بأن إبراهيم قال أنها أخته وليست زوجته، فقال الله له أرجعها إليه، ولا تمسّها بسوء حتى يصلي الرجل من أجلك فإنه نبي.

٢٠- إبراهيم وسارة وأبيمالك

وَارْتَحَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ النَّقَبِ، وَأَقَامَ بَيْنَ قَادَشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ. ٢وَهُنَاكَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ زَوْجَتِه: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَحْضَرَ سَارَةَ إِلَيْه. ٣وَلَكِنَّ اللَّهَ تَجَلَّى لأَبِيمَالِكَ فِي حُلْمٍ فِي اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ سَتَمُوتُ بِسَبَبِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ». . . . . ٧وَالآنَ، رُدَّ لِلرَّجُلِ زَوْجَتَهُ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّيَ مِنْ أَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ لَمْ تَرُدَّهَا فَإِنَّك وَكُلُّ مَنْ لَكَ حَتْماً تَمُوتُونَ»(١).

استدعى أبيمالك؛ إبراهيم، وسأله لماذا قلت أنها أختك وليست زوجتك؟ فقال إبراهيم خشيت أن أُقتل من أجلها. اعتذر إليه أبيمالك، وأعطاه غنما وبقرا وعبيدا وإماء، وأرجع إليه زوجته، ووهبه ألف قطعة من الفضة تبرئة لها، وطلب من إبراهيم أن يعيش حيث يشاء في أرضه؛ آمنا مطمئنا، لا يتعرّض له أحد بسوء. وصلّى إبراهيم من أجل أبيمالك؛ فشفي أبيمالك، وولدت زوجته وجواريه؛ لأن الله كان قد أصابهن بالعقم بسبب سارة.

---

(١) سفر التكوين ٢٠.

٨فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِي الصَّبَاحِ وَاسْتَدْعَى جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَأَطْلَعَهُمْ عَلَى جَلِيَّةِ الأَمْرِ، فَاعْتَرَاهُمْ خَوْفٌ عَظِيمٌ. ٩ثُمَّ دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟..... ١١فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «لَقَدْ فَعَلْتُ هَذَا لأَنَّنِي ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِأَسْرِهِ خَوْفُ اللهِ فَخَشِيتُ أَنْ تَقْتُلُونِي مِنْ أَجْلِ زَوْجَتِي..... ١٤فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَماً وَبَقَراً وَعَبِيداً وَإِمَاءً وَقَدَّمَهَا لإِبْرَاهِيمَ، وَأَرْجَعَ إِلَيْهِ سَارَةَ زَوْجَتَهُ. ١٥وَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «هَا هِيَ أَرْضِي أَمَامَكَ فَأَقِمْ حَيْثُ طَابَ لَكَ». ١٦وَقَالَ لِسَارَةَ: «هَا قَدْ وَهَبْتُ أَخَاكِ أَلْفَ قِطْعَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ، تَبْرِئَةً لَكِ مِنْ كُلِّ إِسَاءَةٍ أَمَامَ الَّذِينَ مَعَكِ، فَأَنْتِ بَرِيئَةٌ أَمَامَ كُلِّ وَاحِدٍ، وَهَكَذَا تَكُونِينَ قَدْ أُنْصِفْتِ». ١٧فَابْتَهَلَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللهِ، فَشَفَى أَبِيمَالِكَ وَزَوْجَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ. ١٨لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَصَابَ نِسَاءَ بَيْتِ أَبِيمَالِكَ بِالْعُقْمِ مِنْ أَجْلِ سَارَةَ زَوْجَةِ إِبْرَاهِيمَ[1].

مولد إسحاق

وفي الموعد الذي حدّده الرب، حبلت سارة، وولدت لإبراهيم في شيخوخته ابنا أسماه إسحاق، وختنه في اليوم الثامن كما أمر الرب. ولما كبُر إسحاق وفُطم، أقام إبراهيم في يوم فطامه مأدبة كبيرة تعبيرا عن فرحته به.

٢١- مولد إسحق

وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَأَنْجَزَ لَهَا مَا وَعَدَ بِهِ. ٢فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ فِي شَيْخُوخَتِهِ ابْناً، فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَيَّنَهُ اللهُ لَهُ. ٣فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحقَ». ٤وَخَتَنَهُ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ بِمُوجَبِ أَمْرِ اللهِ. ٥وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ بَلَغَ الْمِئَةَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا وُلِدَ لَهُ إِسْحقُ.....
٨وَكَبُرَ إِسْحقُ وَفُطِمَ. فَأَقَامَ إِبْرَاهِيمُ فِي يَوْمِ فِطَامِهِ مَأْدُبَةً عَظِيمَةً[2].

---

(١) سفر التكوين ٢٠.
(٢) سفر التكوين ٢١.

طرد هاجر وإسماعيل

رأت سارة أن إسماعيل بن هاجر المصرية؛ يسخر من ابنها إسحاق، فطلبت من إبراهيم أن يطرد هذه الجارية وابنها. لم يرق ذلك لإبراهيم، لكن الله طمأنه على مصير هاجر وولدها، وأمره أن ينفذ طلب سارة ويطردهما من بيته. نهض إبراهيم في الصباح الباكر، وأخذ خبزا وقربة ماء أعطاها لهاجر، ثم صرفها مع الصبي فهامت على وجهها في برية بئر سبع.

طرد هاجر وإسماعيل

٩وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِنِ ابْنِهَا
إِسْحقَ، ١٠فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، فَإِنَّ ابْنَ الْجَارِيَةِ لَنْ
يَرِثَ مَعَ ابْنِي إِسْحقَ». ١١فَقَبُحَ هَذَا الْقَوْلُ فِي نَفْسِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ.
١٢فَقَالَ اللهُ لَهُ: «لاَ يَسُوءُ فِي نَفْسِكَ أَمْرُ الصَّبِيِّ أَوْ أَمْرُ جَارِيَتِكَ، وَاسْمَعْ
لِكَلاَمِ سَارَةَ فِي كُلِّ مَا تُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ لأَنَّهُ بِإِسْحقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ.
١٣وَسَأُقِيمُ مِنِ ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ». ١٤فَنَهَضَ إِبْرَاهِيمُ فِي
الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ وَأَخَذَ خُبْزاً وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَدَفَعَهُمَا إِلَى هَاجَرَ، وَوَضَعَهُمَا عَلَى
كَتِفَيْهَا، ثُمَّ صَرَفَهَا مَعَ الصَّبِيِّ. فَهَامَتْ عَلَى وَجْهِهَا فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ
سَبْعٍ. . . . .[١]

الأمر بذبح إسحاق

وأراد الرب أن يمتحن إيمان إبراهيم، فأمره أن يأخذ ابنه وحيده إسحاق؛ الذي يحبه ولم يمنحه إيّاه إلا في شيبته، وأن ينطلق به إلى أحد الجبال التي سوف يعيّنها له ليقدّمه محرقة. لم يتوانى إبراهيم في تنفيذ أمر الرب، فاستيقظ مبكرا في صباح اليوم التالي، وأخذ ابنه وغلامين من غلمانه وحمارا عليه حطب؛ ليحرق به ابنه كما أمر الرب.

---

(١) سفر التكوين ٢١.

٢٢- الله يمتحن إبراهيم

وَبَعْدَ هَذَا امْتَحَنَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ، فَنَادَاهُ: «يَاإِبْرَاهِيمُ» فَأَجَابَهُ: «لَبَّيْكَ».
٢فَقَالَ لَهُ: «خُذ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، إِسْحقَ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَانْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا
وَقَدِّمْهُ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَهْدِيكَ إِلَيْهِ». ٣فَاسْتَيْقَظَ إِبْرَاهِيمُ مُبَكِّراً
فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، وَأَسْرَجَ حِمَارَهُ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ، وَابْنَهُ إِسْحقَ.
وَجَهَّزَ حَطَباً لِمُحْرَقَةٍ، وَانْطَلَقَ مَاضِياً إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللهُ
عَنْهُ.....(١)

وفي اليوم الثالث، أمر إبراهيم غلاميه أن يمكثا مع الحمار، وحمّل ابنه إسحاق خشب المحرقة، وانطلقا؛ وبيده السكين. وقال إسحاق لأبيه متعجبا لقد أحضرنا الحطب والسكين ولكن أين خروف المحرقة؟ فردّ عليه إبراهيم أن الله سوف يدبّر بنفسه الخروف للمحرقة، وتابعا سيرهما.

..... ٤وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ تَطَلَّعَ إِبْرَاهِيمُ فَشَاهَدَ الْمَكَانَ مِنْ بَعِيدٍ،
٥فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِغُلاَمَيْهِ: «امْكُثَا هُنَا مَعَ الْحِمَارِ، رَيْثَمَا أَصْعَدُ أَنَا وَالصَّبِيُّ إِلَى
هُنَاكَ لِنَتَعَبَّدَ للهِ ثُمَّ نَعُودَ إِلَيْكُمَا». ٦فَحَمَّلَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحقَ حَطَبَ الْمُحْرَقَةِ،
وَأَخَذَ هُوَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسِّكِّينَ وَذَهَبَا كِلاَهُمَا مَعاً. ٧وَقَالَ إِسْحقُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيهِ:
«يَاأَبِي». فَأَجَابَهُ: «نَعَمْ يَابُنَيَّ». فَسَأَلَهُ: «هَا هِيَ النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلَكِنْ أَيْنَ
خَرُوفُ الْمُحْرَقَةِ؟». ٨فَرَدَّ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ: «إِنَّ اللهَ يُدَبِّرُ لِنَفْسِهِ الْخَرُوفَ لِلْمُحْرَقَةِ
يَاابْنِي». وَتَابَعَا مَسِيرَهُمَا مَعاً(٢).

كبش الفداء لإسحاق

ولمّا بلغا الموضع الذي عيّنه الله لإبراهيم، شيّد إبراهيم لابنه مذبحا، ووضع عليه الحطب، ثم أوثق الغلام ووضعه فوق الحطب، وتناول السكين ليذبحه؛ وإذ بملاك الرب يناديه لا تمُد يدك إلى الصبي لتذبحه، فقد علمت

(١) (٢) سفر التكوين ٢٢.

أنك تخاف الله ولم تمنع ابنك وحيدك عنه. وتطلّع إبراهيم حـوله فرأى كبشا قد رُبط بفـرع شجرة، فأحـضره وأصعـده محرقة عـوضا عن ابنه. ثم رجع بإسحاق إلى حيث ترك الغلامين، وعادوا جميعا إلى بئر سبع.

إسحق هو المحرقة

٩وَلَمَّا بَلَغَا الْمَوْضِعَ الَّذي أَشَارَ إِلَيْه اللهُ شَـيَّدَ إِبْرَاهِيمُ مَذْبَحاً هُنَاكَ، وَنَضَّدَ
الحُطَبَ، ثُمَّ أَوْثَقَ إِسْـحق ابْنَهُ وَوَضَـعَـهُ عَلَى الْمُذْبَحِ فَـوْقَ الحُطَب. ١٠وَمَـدَّ
إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَتَنَاوَلَ السِّكِّينَ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. ١١فَنَادَاهُ مَلاَكُ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاء قَائلاً:
«إِبْرَاهِيمُ، إِبْرَاهِيمُ» فَأَجَـابَ: «نَعَمْ». ١٢فَقَالَ: «لاَ تَمُـدَّ يَدَكَ إِلَى الصَّبِيِّ وَلاَ
تُوقِعْ بِه ضَـرَاً لأَنِّي عَلمْتُ أَنَّكَ تَخَـافُ اللهَ وَلَمْ تَمْنَعِ ابْنَـكَ وَحِيـدَكَ عَنِّي».
١٣وَإِذْ تَطَلَّعَ إِبْرَاهِيمُ حَـوْلَهُ رَأَى خَلْفَهُ كَبْـشاً قَدْ عَلقَ بِـفُرُوعِ أَشْجَـارِ الْغَابَة،
فَذَهَبَ وَأَحْضَـرَهُ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عِـوَضاً عَنِ ابْنه..... ١٩ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ
إِلَى غُلاَمَيْهِ، وَعَادُوا جَميعاً إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ حَيْثُ أَقَامَ إِبْرَاهِيمُ[١].

موت سارة ودفنها

وماتت سـارة بعد أن بلغت من العمر مـائة وسبعا وعـشرين سنة. ولمّا أراد إبراهيم أن يدفنها طلـب من الحثّيين أن يُملّكوه مـدفنا في أرضهم يواري فيه ميّتـه، فعرضوا عليه أن يدفن ميّته في أي قـبر من قبورهم يحب، ولكنه طلب منهم أن يلتمسوا له من عفرون بن صوخـر أن يبيعه مغارة المكفيلة التي في طرف حقله. ولما وافق عـفرون اشتراها منـه إبراهيم، ودفع له ثمنها، ثم قام بدفن زوجته سارة فيها.

٢٣- موت سارة ودفنها

وَعَاشَتْ سَـارَةُ مئَـةً وَسَبْعـاً وَعشْـرِينَ سَنَةً. ٢ثُمَّ مَاتَتْ سَـارَةُ فِي قَرْيَة
أَرْبَعَ، أَيْ حبْرُونَ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ لِيَنْدُبَ سَارَةَ وَيَبْكِيَ عَلَيْهَا.

(١) سفر التكوين ٢٢.

٣ونَهَضَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمَامِ الجُثْمَانِ وَقَالَ لِلْحِثِّيِّينَ: ٤«أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِيلٌ بَيْنَكُمْ، فَمَلِّكُونِي مَعَكُمْ مَدْفَناً أُوَارِي فِيهِ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي». ٥فَأَجَابُوهُ قَائِلِينَ: ٦«أَصْغِ لَنَا يَاسَيِّدِي. أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللهِ فِي وَسَطِنَا، فَادْفِنْ مَيْتَكَ فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا، فَلاَ أَحَدَ مِنَّا يَمْنَعُ قَبْرَهُ عَنْكَ لِتَدْفِنَ مَيْتَكَ». ٧فَنَهَضَ إِبْرَاهِيمُ وَانْحَنَى أَمَامَ الحِثِّيِّينَ أَهْلِ الْبِلاَدِ، ٨وَقَالَ: «إِنْ طَابَتْ نُفُوسُكُمْ أَنْ أَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي، فَاسْمَعُوا لِي وَالْتَمِسُوا لأَجْلِي مِنْ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ، ٩أَنْ يَبِيعَنِي مَغَارَةَ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي فِي طَرَفِ حَقْلِهِ، فَأَشْتَرِيَهَا مِنْهُ لِقَاءَ ثَمَنٍ كَامِلٍ، وَأَمْتَلِكَهَا لِتَكُونَ مَدْفَناً لِي فِي وَسَطِكُمْ». . . . . ١٤فَأَجَابَ عِفْرُونُ إِبْرَاهِيمَ: ١٥ «أَصْغِ لِي يَاسَيِّدِي، إِنَّ الأَرْضَ تُسَاوِي أَرْبَعَ مِئَةِ شَاقِلٍ (حَوَالِي خَمْسَةِ كِيلُو جِرَامَاتٍ مِنَ الْفِضَّةِ)، وَهُوَ (ثَمَنٌ) لاَ قِيمَةَ لَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَادْفِنْ مَيْتَكَ». ١٦فَقَبِلَ إِبْرَاهِيمُ عَرْضَ عِفْرُونَ، وَوَزَنَ لَهُ الْفِضَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي مَسَامِعِ الحِثِّيِّينَ. . . . .
١٩وَبَعْدَ ذَلِكَ دَفَنَ إِبْرَاهِيمُ زَوْجَتَهُ سَارَةَ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ، مُقَابِلَ مَمْرَا. وَهِيَ حَبْرُونُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٢٠فَامْتَلَكَ إِبْرَاهِيمُ مِنَ الحِثِّيِّينَ الحَقْلَ وَالْمَغَارَةَ الَّتِي فِيهِ لِيَكُونَا مَدْفَناً لَهُ[1].

البحث عن زوجة لإسحاق

ولمّا فكر إبراهيم في تزويج ابنه إسحاق، استحلف رئيس عبيده؛ المتولّي جميع شئون بيته، أن لا يأخذ لإسحاق زوجة من بنات الكنعانيين، بل يمضي إلى بلده وعشيرته؛ ليأخذ له زوجة من أهله في حاران.

٢٤- البحث عن زوجة لإسحق

وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ بِهِ الْعُمْرُ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ٢وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِرَئِيسِ عَبِيدِهِ، الْمُتَوَلِّي جَمِيعَ شُؤُونِ بَيْتِهِ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي، ٣فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ لابْنِي زَوْجَةً مِنْ

(١) سفر التكوين - ٢٣.

بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا مُقِيمٌ فِي وَسَطِهِمْ. ٤بَلْ تَمْضِي إِلَى بَلَدِي وَإِلَى عَشِيرَتِي، وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي إِسْحقَ». . . . . ٩فَوَضَعَ الْعَبْدُ يَدَهُ تَحْتَ فَخْذِ سَيِّدِهِ إِبْرَاهِيمَ وَحَلَفَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ(١).

وفاة إبراهيم

وبعد موت سارة، اتخذ إبراهيمُ لنفسه زوجة تدعى قطورة؛ فأنجبت له ستة أولاد. وعاش حتى بلغ من العمر مائة وخمسا وسبعين سنة. وقبل أن يموت ورّث ابنه إسحاق كل ماله، أما بقية أبنائه فقد صرفهم نحو أرض المشرق بعيدا عن ابنه إسحاق. ولما حضرته الوفاة دفنه ابناه إسماعيل وإسحاق في مغارة المكفيلة بجوار زوجته سارة.

٢٥- زواج إبراهيم من قطورة

وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً تُدْعَى قَطُورَةَ، ٢فَأَنْجَبَتْ لَهُ زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحاً. . . . . ٥وَوَرَّثَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحقَ كُلَّ مَالِهِ. ٦أَمَّا أَبْنَاؤُهُ مِنْ سَرَارِيهِ فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ نَحْوَ أَرْضِ الْمَشْرِقِ بَعِيداً عَنْ إِسْحقَ ابْنِهِ(٢).

موت إبراهيم

٧وَعَاشَ إِبْرَاهِيمُ مِئَةً وَخَمْساً وَسَبْعِينَ سَنَةً. ٨ثُمَّ مَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ وَانْضَمَّ إِلَى أَسْلافِهِ، ٩فَدَفَنَهُ ابْنَاهُ إِسْحقُ وَإِسْمَاعِيلُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ، فِي حَقْلِ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْحِثِّيِّ مُقَابِلَ مَمْرَا، ١٠وَهُوَ الْحَقْلُ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنَ الْحِثِّيِّينَ، وَفِيهِ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَزَوْجَتُهُ سَارَةُ(٣).

---

(١) سفر التكوين - ٢٤.　　(٢) (٣) سفر التكوين - ٢٥.

إبراهيم في القرآن
إكرام إبراهيم بالنبوة

اختبر اللهُ صدق إبراهيم؛ بأن كلّفه ببعض التكاليف فقام بأدائها خير قيام، فأكرمه الله بالنبوّة. ولما سأل إبراهيمُ الله أن يجعل النبوّة في ذريته من بعده، بشّره الله بأنها ستكون في بعض ذريته من المتّقين، وسيُحرم منها الكافرون منهم.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة].

كان إبراهيم إماما وقُدْوة؛ جامعا لخصال الخير، مطيعا لله حنيفا؛ مائلا بطبعه عن أي دين يخالف دين الإسلام، ولم يكن أبدا من المشركين بالله، وكان دائم الشكر لأنعم الله الذي اصطفاه من خلقه وهداه إلى صراطه المستقيم. وقد رزقه الله الذكر الطيب في الحياة الدنيا، والدرجات العلى من الجنة في الحياة الآخرة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)﴾ [النحل].

كان إبراهيم على شاكلة نوح في الصلاح والتقوى، وقد رزقه الله قلبا موحّدا شاكرا لأنعمه. ولمّا كانت فطرته تُنكر عبادة غير الله؛ فقد كان ينكر على أبيه وقومه احتفاءهم بها وتزلُّفهم إليها، وكان يقول متهكّما: أي عقول تلك التي لا تفرق بين الحق والباطل! ويسأل قومه: هل تظنون أن الله خالقكم وخالق كل شيء سوف يترككم بلا عقاب على شرككم؟

﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) .... وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)﴾ [الصافات].

دين إبراهيم هو الإسلام

لم يكن إبراهيم يهـوديا كمـا يدّعي اليهـود، ولا نصرانيـا كمـا يدّعي النصارى؛ لكنه كان مسلما، وبعيدا كل البعد عما يخالف دين الإسلام.

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)﴾ [آل عمران].

من يحد عن ملّة إبراهيم يكون قد حطّ من قدر نفسه التي خُلقت لعبادة الله وحده. وقد اصطفى الله إبراهيم من بين خلقه، وكـرّمه بالنبوّة في الحياة الدنيا، وحشره فـي الآخرة مع الصالحين من عباده. وحيثية ذلك أن الله قد أمره أن يُسلم فأسلم دونما تلكؤ، ومن شدة حـرصه على إسلامه، أوصى بنيه إسمـاعيل وإسـحاق أن يتـمسّكوا بالإسـلام طيلة حيـاتهم، وأن يموتوا وهم مسلمون. وكذلك كانت وصيّةُ يعقوب لبنيه.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ [البقرة].

التفكّر في خلق الله

كانت فطرة إبراهيم تنفر من عبادة الأوثان التي يعبدها قومه، وكان دائم التفكُّر في الكون من حوله، ويرى بثاقب فكره أن لهذا الكون خالقا ومُدبّرا، ولابد أن يكون هذا الخالق أقوى وأعظم من كل مـخلوقاته. وذات يوم احتدم الخلاف بينه وبين أبيه بشأن هذه الأصنام التي يصنعها بيديه ثم يقول أنّها آلهة، وتركه مغاضـبا ليختلي بنفسه في الصحـراء المحيطة بالبلدة. وأسند ظهره إلى صخـرة، وتمدّد مسترخـيا وعيناه تمعنان النظر فـيما حـوله. وطال تأمله حتى أسدل الليل أستاره، وازدانت السـماء بالنجوم. تأمل في النجوم، فلفت نظره كوكبا أكثر ضوءا وبهاءً من غيره من الكواكب، لكن الكوكب سرعان ما غاب في كبد السمـاء، فقال متعجبـا: لا يمكن أن يكون هذا ربا، فالرب لا يغيب

أبدا. ولمّا رأى القمر مكتمل الضياء قال: هذا ربي، هذا أكبر؛ لكن القمر خبا نوره واختفى، فقال في نفسه: ولا هذا أيضا يمكن أن يكون ربا كما يدّعون، وطلب من الرب أن يهديه إلى الحقيقة التي غابت عن قومه. فلمّا سطعت الشمسُ على الكون، أخذ يتأملها وهي تزداد قوة وضياء، لكن الشمس بعد أن بلغت غايتها، بدأت تصغر ويخفت نورها حتى اختفت، فقال: وهذه أيضا لا يمكن أن تكون ربّا. وتوجّه إبراهيم إلى قومه قائلا إني بريء ممّا تشركون، إن ربي هو الذي خلق السموات والأرض؛ على غير مثال سابق، وأنا بريء من كل ما تعبدون من دون الله.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾ [الأنعام].

دعوة أبيه للإسلام

كان إبراهيم صادقا في أقواله وأفعاله؛ بالغ الصدق، وكان نبيا من الصالحين، وكان يعيب على قومه عبادة الأصنام، وكان دائم النُصح لأبيه ليترك عبادة تلك الأصنام التي لا تسمع فتجيب من يدعوها، ولا تبصر فترى من يتقرّب إليها، ولا تضر ولا تنفع. وتودّد إلى أبيه، وطلب منه أن يتّبع ما يدعوه إليه من عبادة الله الواحد الأحد، وأخبره أن الله قد وهبه من العلم ما خفي عليه، وأن في اتباعه صلاحُ أمره. ونصحه أن لا يتبع خطوات الشيطان فيُضلّه عن الهدى، ويجعله عاصيا عن طاعة الله؛ فيكون مثله سواء بسواء.

ضاق أبوه به ذرعا، واحتدّ عليه قائلا: لقد عبت آلهتنا، وسفهت أحلامنا، وسوف أمهلك وأصبر عليك حتى تعود إلى رشدك أو أرجمك حتى الموت. وبقلب الابن المشفق على أبيه قال له: سوف أظل أدعو لك

بالهداية، وأستغفر لك ربي بما لي عنده من الود، وسوف أعتزلكم أنتم وأصنامكم، وأدعو ربي أن يجنّبني الشرك، وأن يوفقني إلى ما يسعدني في هذه الدنيا، ويجزل لي العطاء في الآخرة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾ [مريم].

ومن فرط حرص إبراهيم على إيمان أبيه، قال له سوف أستغفر لك ربي، وأسأله أن يهديك. وظل يدعو له طوال حياته، فلما مات أبوه على الشرك تبرّأ منه.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة].

دعوة قومه للإسلام

وهب الله إبراهيم عقلا راجحا يفرّق به بين الحق والباطل. وفي جدله الدائم مع قومه قال لهم ما هذه التماثيل التي تعبدونها من دون الله؟ فكان جواب قومه أنهم يعبدونها كما كان يفعل آباؤهم، وأنهم يقتدون بهم في تقديسها والتقرّب إليها. قال إبراهيم إنكم وآباؤكم في ضلال بيّن، أين عقولكم؟ أليس الله خالق كل شيء أحق بالعبادة من تلك التماثيل التي تنحتونها بأيديكم؟ قالوا منكرين قوله: أتقول الحق أم أنت من الهازئين؟ قال بل ربكم هو رب السموات والأرض الذي خلقهنّ من غير مثال سابق وأنا أشهد بذلك.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنبياء].

وجادله قومه، واتّهموه بالجنون، وقالوا: إن آلهتهم قد غضبت عليه ولا بد أن يسترضيها، فكان ردّه عليهم أنه لا يخاف آلهتهم، وأنه قد فوّض أمره كله إلى الله القادر على أن يضرّه أو ينفعه، وهو الذي قد أحاط علمه بكل شيء. وسخر منهم قائلا: كيف أخاف هؤلاء الذين تعبدون من دون الله وهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم وما تعبدون من دونه؟ فأنتم الأحق بالخوف لا أنا.

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام].

وقد سأل إبراهيم قومه عن هذه الأشياء التي يعبدونها، فقالوا: هي أصنام نعكف على عبادتها لتقرّبنا إلى الله زلفى. قال: وهل تسمع هذه الأصنام دعاءكم لها وتجيب توسلاتكم؟ أو حتى تنفعكم أو تضركم؟ قالوا إننا نفعل ما كان يفعل آباؤنا، ونحن على آثارهم مقتدون. قال أرأيتم هذه الأصنام التي تقدّسونها أنتم وآباؤكم فإني لا أراها إلا عدوا يجب بغضه والتبرؤ منه لا تقديسه، والأولى بالعبادة هو رب العالمين الذي خلقني فأحسن خلقي، وهو الذي يهديني لما فيه الخير، ويشفيني من كل سقم، وفي يده وحده موتي وحياتي.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ

وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء].

ظل إبراهيم يدعو قومه لعبادة الله وحده الذي إليه مرجعهم وبيده رزقهم، وأن يشكروه على نعمائه، وأن يتجنّبوا الشرك وعبادة الأوثان، لكنهم كانوا يعطونه آذانا غير مصغية وقلوبا غير واعية. ولم يؤمن من قومه إلا ابن أخيه لوط.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) .... فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦)﴾ [العنكبوت].

تحطيم إبراهيم لأصنام قومه

لما لم تُفْلح المجادلة والحجج مع قومه؛ أقسم أن يُحطِّم أصنامهم التي يعبدونها من دون الله بعد أن يذهبوا عنها ويتركوها وحدها. ولما حانت الفرصة دخل المعبد الذي جُعلت فيه التماثيل؛ فانهال عليها بفأسه حتى حطّمها جميعا، وترك كبيرَهم سالما، ووضع فأسه على كتفه استهزاء وسخرية. ولما عادوا من عيد لهم ورأوا ما حصل لآلهتهم، فزعوا وقالوا إن من فعل هذا بآلهتنا ظالم ومتعدّ، وتساءلوا من يكون؟ فقال بعضهم: أنه سمع فتى يُدعى إبراهيم يتوعّدهم ولا بد أنه هو الفاعل. أمر كبراؤهم أن يأتوا به ليسألوه أمام جميع أهل القرية فإن كان مذنبا أوقعوا به أشدّ العذاب. ولما أتوا به سألوه إن كان قد فعل ذلك بآلهتهم، فقال باستهزاء بل فعله كبيرهم هذا، ألا ترون أنه لم يصبه ما أصابهم؛ والفأس على كتفه، ولو كانوا ينطقون لأجابوكم. فقالوا بانكسار أنت تعلم أن الأصنام لا تتكلّم، فقال ولماذا تعبدونهم إذا وهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا؟ يا لسوء فعلتكم؛ تعبدون من لا يملك لكم من الله شيئا إن أراد أن يضرّكم أو ينفعكم.

﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾ [الأنبياء].

مواجهة إبراهيم والنمرود

وقامت محاجة بين إبراهيم والنمرود ملك البلاد، فقال النمرود: إن كان ادعاؤك أن هناك إلها غيري حقا فما هو دليلك على ذلك؟ قال إبراهيم: إن الله هو خالق الكون وموُجده، وهو الذي يحيي من شاء ويميت من شاء، فقال النمرود: وأنا أحيي وأميت؛ إذ يؤتى بالرجلين محكوم على كليهما بالقتل، فآمر بقتل هذا فأكون قد أمتّه، وآمر بالعفو عن هذا فأكون قد أحييتَه. فقال إبراهيم إن الله يأتي بالشمس كل يوم من جهة الشرق؛ فإن كنت إلها كما تدعي فأت بها من جهة الغرب، فلم يبد النمرود جوابا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة].

الأمر بحرق إبراهيم

لم تُقنعهم الحجة، ولم يُجد معهم المنطق، فأمروا بحرقه انتصارا لآلهتهم التي عبث بها. وجمعوا له الحطب الكثير، وأضرموا النار فيه، وأوثقوه، ورموه في النار بالمنجنيق من بُعد لكي لا يقتربوا من النار فتُحرقهم.

لم يشعر إبراهيم بحرارة النار، ولم يؤذه لهيبُها لأن الله جعلها بردا وسلاما عليه. وخرج من النار بعد عدة أيام سليما معافى لم يحرق منه إلا القيود التي قيّدوه بها. أرادوا أذيّته لكن الله خيّب تدبيرهم، فتركوه يرحل سالما هو وابن أخيه لوط.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت].

دعوة إبراهيم للبلد الحرام

لما ترك إبراهيم زوجه هاجر ورضيعها إسماعيل عند موضع الحرم كما أمره الله؛ وكانت أرضا قاحلة لا زرع فيها ولا ماء، دعا ربّه أن يجعلها بلدا آمنا لا يُروَّع ساكنها، وأن يرزق من يؤمن من أهلها بالله وباليوم الآخر بالخير الكثير، فأجاب الله دعوته، وزاد عليها أنه سوف يرزق فيها الكافر كذلك، ويمدّ له في رزقه حتى إذا مات على كفره يكون عذابه أليما في النار؛ وياله من مصير.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة].

دعا إبراهيم ربه أن يجعل مكة بلدا آمنا (لا يُسفك فيه دم ولا يُظلم فيه أحد)، وأن يجنّبه وهو وبنيه أن يعبدوا الأصنام ويظلّون على عقيدة التوحيد.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم].

لما ترك إبراهيم زوجه هاجر ورضيعها إسماعيل؛ حيث أمره الله عند موضع البيت الحرام، دعا ربّه أن يجعل جماعة من الناس تأنس إليهم وتألفهم ويألفونها، وأن يرزقهم من خير الدنيا، ويجعلهم من المقيمين للصلاة الشاكرين لأنعم الله.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم].

أمر الله بذبح إسماعيل

لمّا كان إبراهيم قد بلغ من الكبر عتيّا ولم يُرزق الولد؛ فقد دعا الله أن يرزقه الذرية الصالحة، فبشّره الله بغلام سيكون حليما في طبعه؛ بارا بوالديه هو إسماعيل. ورأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل؛ ورؤيا الأنبياء حق، فارتحل إلى حيث ترك ابنه وأمّه عند موضع البيت الحرام. لم يتردّد إبراهيم في إخبار ولده برؤياه، ولم يتردّد إسماعيل في تصديق أبيه، وقال له: يا أبتي افعل ما تؤمر به وأنا إن شاء الله صابر ولا أعصي لك أمرا. وما إن استسلما لتنفيذ أمر الله، حتى قام إبراهيم بطرح ابنه على الأرض، وجعل وجه الغلام ناحية الأرض كي لا تأخذه عاطفة الأبُوّة فيتقاعس عن تنفيذ أمر الله. وأمسك إبراهيم بالسكين وهوى به على رقبة إسماعيل، لكن السكين لم يقطع، وناداه صوت من السماء يا إبراهيم لا تذبح ابنك، لقد فداه الله بكبش عظيم؛ وهذا جزاء تصديقك للرؤيا وصبرك على هذا الابتلاء العظيم. ونظر عن قرب؛ فإذا بكبش أملح يقف تجاهه، فاقتاده إليه، وأرقده مكان إسماعيل وذبحه.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨)

﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾ [الصافات].

البشارة بمولد إسحاق

بعد أن مرّ إبراهيم بهذا الابتلاء العظيم (الأمر بذبح ابنه إسماعيل وافتدائه من قبل الله بذبح عظيم) بشّره الله بمولد إسحاق يكون نبيّا من الصالحين، ويكون له ذرية كثيرة؛ منهم من سيكون مسلما حسن الإسلام، ومنهم من سيكون كافرا بيّن الكفر؛ وهذه هي سنّة الله في خلقه.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ [الصافات].

أرسل الله ملائكته إلى إبراهيم في هيئة بشر ليبشّروه بمولد إسحاق، فاستقبلهم أحسن استقبال كعادته مع الضيوف، وقدّم لهم عجلا سمينا مشويا، ودعاهم إلى الأكل. وتعجّب إبراهيم من أمر ضيوفه لأنهم لم يمدّوا أيديهم إلى الطعام، وتخوّف منهم؛ لكنّهم أخبروه أنهم رسل الله لإهلاك قوم لوط. وكانت امرأته سارة تقف قريبا لخدمتهم، فلمّا سمعت خبر مهلك هؤلاء الطغاة، ضحكت مستبشرة، فبشّروها بمولد إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت متعجّبة أيُعْقل أن ألد وأنا في هذه السن وزوجي شيخ مُسِنّ؟ فردّوا عليها لا تعجبين من أمر الله بل احمديه؛ فهو كريم ومستحق للحمد.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ [هود].

يقول الله عن ضيوف إبراهيم من الملائكة الكرام أنهم أقبلوا عليه وحيّوه بالسلام فرد تحيتهم، وقدّم لهم ما يأكلون فلم يمدّوا أيديهم إلى الطعام، فقال لهم: ما شأنكم؟ إن أمركم مريب، ونحن منكم خائفون. قالوا: اطمئن فنحن رسل ربك، وجئنا لنبشرك بغلام ذي علم كثير من عند الله. قال أي بشرى هذه؟ هل يعقل أن أرزق بغلام وأنا في هذه السن؟ قالوا ما بشّرناك به هو الحق من ربك فلا تكن من الآيسين. قال: صدقتم؛ فلا ييأس من رحمة الله إلا الكافرون.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الحجر].

شفاعة إبراهيم في قوم لوط

لمّا أفاق إبراهيم من المفاجأ التي جاءت بها الرسل؛ وهي إهلاك قوم لوط، وبشارته بمولد إسحاق، ومن فرط رحمته وحرصه على ابن أخيه لوط ومن تبعه من المؤمنين، توجّه إلى الرسل يجادلهم في أمر قوم لوط، ويسألهم العفو عنهم من أجل بعض المؤمنين فيهم. ولما أطال جدالهم قالوا له: لا جدوى من ذلك لأن أمر الله قد صدر في حقهم ولا رادّ لقضائه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾ [هود].

لمّا جاءت رسل الله إبراهيم ليبشروه بمولد إسحاق، أخبروه أن الله قد أمرهم بإهلاك أهل سدوم وعمورة (قوم لوط) لأن ظلمهم استشرى، وطغيانهم زاد عن الحد. وخاف على لوط من الهلاك، فقال لهم: إن فيها

لوطا وهو ليس على شاكلتهم، فقالوا له: نحن أعلم بمن فيها، وسوف ننجيه هو ومن آمن من أهله، إلا امرأته، فسوف يصيبها من العذاب ما يصيبهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت].

بناء الكعبة

أمر الله إبراهيم وابنه إسماعيل؛ أن يُطهِّرا البيت الحرام (الكعبة المشرفة) من الأوثان ليصير البيت لائقا لعبادة الله كما أراده الله، وتهيئته ليكون موضعا يليق بالطواف حوله؛ والاعتكاف فيه، والركوع والسجود لمن يسعى إلى مرضاة الله.

﴿...وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ [البقرة].

لمَّا أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يرفعا قواعد البيت الحرام التي كانت قد طُمرت، إنكبّا على العمل بجد ونشاط؛ وهم يدعون الله أن يتقبّل منهما هذا العمل الجليل، وأن يحييهما على مِلَّة الإسلام ويميتهما عليها، وأن يجعل من ذريتهما أمّة مسلمة، وأن يعلّمهما مناسك دينهما الذي ارتضاه لهما، وأن يتوب عليهما. كما دعوا الله أن يبعث في ذريتهما رسولا منهم، يتلو عليهم آيات الله، ويعلّمهم كتابه وما فيه من الحكمة، ويزكّيهم ويطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة].

أمر الله إبراهيم أن يقيم أركان البيت العتيق على الأسس التي كانت قد انطمرت في الأرض منذ الطوفان، كما أمره أن يطهّره من أي شرك من أجل أن يقيم الناس فيه شعائر العبادة من طواف وركوع وسجود وقيام. وما إن انتهى إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت أمر الله إبراهيم أن يؤذن (ينادي) في الناس بالحج، فقال إبراهيم: يا ربي وإلى أين يصل صوتي؟ فقال له الله: عليك النداء، وعلينا الإبلاغ.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾ [الحج].

تعقيب

تقول التوراةُ أنّ الـربّ أمر أبرام أن يختتن هو وجميع ذريـته وكل وليد يولد في بيـته؛ ويكون ذلك هو العـهد بينهم وبين الربّ، أمـا الذكر الذي لا يُختن؛ فإنه يُسْتأصل. أي أن التوراة قـد جعلت من عدم الختـان؛ جريمة في حق الربّ، ويستحق مرتكبـها القتل. وفي هذا مبالغة شديدة في أمـر اختتان الذكور.

وتُقـدّم لنا التوراةُ ضـيـوفَ إبراهيم الثـلاثة؛ وهـم الرب وملاكـان من ملائكته؛ في هيئة بشرية ويسلكون مسلكا بشريا، تجسّد ذلك في أكلهم الطعام الذي قدّمـه لهم إبراهيم. وهذا مسـتنكر في حق الله وحق ملائـكته الكرام، وغير قابل للتصديق كذلك.

وتقدّم لنا التوراة إبراهيمَ وهو يجـادل مع الرب بسبب توجُّه الملكين إلى سدوم لإهلاك أهلها بصورة فجّة لا تليق بنبي مع ربه.

أما ما ذكـرته التوراة عن كذبة إبراهيم مع أبيمالك بشـأن زوجته؛ وهي تكرار لنفس الكذبة التـي كذبهـا مع المصريين، فـلا تليق بنبي مـؤيّد من عند الله. وتكرارها يدل على نمطية غيـر منطقية اتبعتهـا التوراة في السرد؛ بدليل أنها تكرّرت كذلك مع إسحاق.

أما ما ذكرته التوراة عن صلاة إبراهيم من أجل أبيمالك، ودعائه له بأن يشفيه الله وأن تلد زوجاته وجواريه؛ لأن اللـه كان قد أصابهنّ بالعقم بسبب سارة، فتبدو غير واقعيـة لأن أمراضا مثل العقم لا تلاحظ آثارها إلا بعد فترة طويلة؛ لا تتناسب مع الزمن الذي وقعت فيه قصة سارة وأبيمالك كما ترويها التوراة.

ذكرت التوراة أن إبراهيم قد ختن ابنه إسماعيل وكان قد بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة. كما ذكرت أن إسماعيل تربّى في بيت إبراهيم حتى بعد مولد إسحاق، وأنه كان يسخر من أخيه؛ مما أغضب سارة وجعلها تطلب من إبراهيم أن يطرد هاجر مع ابنها. وهذا لا يتفق مع ما ورد في القرآن من أن هاجر قد طُرِدت بأمر من سارة؛ وإسماعيل لم يزل رضيعا. وقصة هاجر وإسماعيل، وانفجار بئر زمزم تحت قدمي الرضيع إسماعيل؛ كما وردت في القرآن تؤكِّد ذلك.

أما ما ذكرته التوراة من أن إسحاق هو المحرقة، وأنه هو الذي أمر الربُ إبراهيم أن يذبحه، فعليها عدة مآخذ؛ منها:

أولا: أن الرب قال لإبراهيم خذ ابنك وحيدك. ولو سلّمنا بصحة التعبير (وحيدا) كما ورد في التوراة؛ فيكون المقصود هو إسماعيل الذي كان أول أولاد إبراهيم، وترتيب إسحاق هو الثاني؛ ولا يكون وحيدا بوجود إسماعيل قبله.

ثانيا: أن الله وعد إبراهيم في أكثر من موضع أنه سيكثّر ذريته (والتوراة تقصد ذريته من ناحية إسحاق لا من ناحية إسماعيل) ووعد الله لإبراهيم بتكثير ذريته يتناقض موضوعيا مع أمره له بذبح ابنه إسحاق.

ثالثا: ذكر القرآن أن بشارة الله لإبراهيم بإسحاق جاءت بعد ابتلائه بذبح إسماعيل، ومكافأة له بسبب اجتيازه لهذا الابتلاء؛ وهذا أكثر واقعية.

وتقول التوراة أن إبراهيم قبل أن يموت، ورّث ابنه إسحاق كل ماله، أما بقية أبنائه فقد صرفهم نحو أرض المشرق بعيدا عن ابنه إسحاق. وهذا يدل دلالة واضحة على تحيُّز إبراهيم لأحد أبنائه. وليس من صفات نبي أن يظلم

جميع أبنائه لـصالح واحد منهم، فما بالك بأبـي الأنبياء. وأنا أرى في ذلك تحيُّزا واضحا من جانب كاتبي التوراة لإسحاق الذي ينحدرون منه.

ذكر القرآنُ تكسـير إبراهيم للأصنام التي يعبدها قومـه في يوم عيدهم، ومحاجّته معهم بعد عودتـهم من عيدهم ورؤيتهم للأصنام التي كسّرها. كما ذكر القـرآن محـاجة إبراهيم مع النمـرود ملك البلاد وأمْر النمرود بحـرقه، وجمعـهم له حطبا كثيرا، وإشـعاله، ورميه فيـه، وإنجاء الله له من الحريق، وخروجه سـالما من بين النيران. ولم تذكر التـوراة شيئا عن مـثل هذه الأمور الهامة جدا في مسيرة نبي الله إبراهيم.

ذكر القـرآنُ قصة بنـاء كل من إبراهيم وإسماعـيل للكعبـة، ورفعهـما لأساسات البيت الحرام في مكة المكرمة، ولـم تذكر التوراة شيئا عن هذا الأمر الجلل في حياة إبراهيم.

والملاحظ أن التوراة قد سكتت سكوتا مريبا عن جـوانب مهمة من حياة إبراهيم - عليه السـلام -؛ إلا ما يتعلّق ببني إسرائيل؛ فـقد أتحفتنا بتـفاصيل التفاصيل الـتي تبرز كل ما يؤصل لعنصرية القوم، والتأكـيد على تميُّزهم عن غيرهم من شعوب الأرض.

كمـا أن طقوس الحج عند المسـلمين بجمـيع أركانها من طـواف وسعي ورجم وغيرها؛ هي ميراث ثمين من لدن أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-، والتي كانت تُمارَسُ بعضُ أركانها من قبل كـفار العرب حتى من قبل الإسلام باعتـبارها بقايا من بقـايا الحنيفيـة؛ دين إبراهيم - عليه السلام -، مـا كانت لتأتي من فـراغ أو من خيال، لكنها كـانت تُمارس فعـلا من جانب نبي الله إسماعيل - عليه السلام - وورثهـا أبناؤه وأتباعه من بعده. وإن كان قد دخل عليها بعض التحريف، لكنها كانت تشير إلى الأصل بكل جلاء.

الفصل السادس

هاجر وإسماعيل

هاجر وإسماعيل في التوراة
زواج أبرام من هاجر

كانت ساراي (سارة) زوجة أبرام (إبراهيم) عاقرا، ولمّا فقدت الأمل في أن يرزُقـها الربُّ بالـولد، طلبت من أبرام أن يدخل على جـاريتـها المصـرية هاجر؛ لعلّه يُرزق منها بالولد. ولما حملت هاجر من أبرام، بدأت تتدلّل على سيدتها، وشعرت ساراي أنها هانت في عينيـها، وأنها لم تعد تعاملها كسيدة لهـا كمـا كانت تفـعل من قبـل. ولما اشتكت سـاراي لأبرام قال لهـا: هى جاريتك ولك الحق في أن تفعلي بها ما تشـائين، فعملت ساراي على إذلالها وإساءة معاملتها؛ حتى اضطرتها إلى الهرب منها.

١٦- زواج ابرام من هاجر

وَأَمَّا سَـارَايُ زَوْجَةُ أبرام فَقَدْ كَـانَتْ عَاقِراً، وَكَـانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِـصْرِيَّةٌ تُدْعَى هَاجَرَ. ٢فَـقَالَتْ سَارَايُ لأبرام: «هُوَذَا الرَّبُّ قَـدْ حَرَمَنِي مِنَ الْوِلاَدَةِ، فَادْخُلْ عَلَيْهَا لَعَلَّنِي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أبرام لِكَلاَمِ زَوْجَتِه. ٣وَهكَذَا بَعْدَ إِقَامَةِ عَـشْرِ سَنَوَاتٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، أَخَـذَتْ سَارَايُ جَارِيَتَهَا الْمِصْـرِيَّةَ هَاجَرَ وَأَعْطَتْهَا لِرَجُلِهَا أبرام لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ(١).

إذلال هاجر وهربها

٤فَعَاشَـرَ هَاجَرَ فَحَبِلَتْ مِنْهُ. وَلَمَّا أَدْرَكَتْ أَنَّهَا حَـامِلٌ هَانَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْـهَا، ٥فَقَـالَتْ سَارَايُ لأبرام: «لِيَـقَعْ ظُلْمِي عَلَيْكَ، فَأَنَا قَـدْ زَوَّجْتُكَ مِنْ جَـارِيَتِي وَحِينَ أَدْرَكَتْ أَنَّهَـا حَـامِلٌ هِنْتُ فِي عَـيْنَيْـهَـا. لِيَـقْضِ الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». ٦فَأَجَـابَهَا أبرام: «هَا هِيَ جَارِيَتُكِ تَحْتَ تَصَـرُّفِكِ، فَافْعَلِي بِهَـا مَا يَحْلُو لَكِ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ حَتَّى هَرَبَتْ مِنْهَا(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين – ١٦.

ملاك الرب وهاجر

جلست هاجر عند البئر لتستريح وتفكّر في أمرها؛ وإذ بملاك الرب يسألها: من أين جئت يا هاجر وإلى أين أنت ذاهبة؟ فأخبرته أنها هاربة من وجه سيدتها ساراي، فقال لها ملاك الرب: عودي إلى سيدتك واخضعي لها. وبشّرها ملاك الرب أنها سوف تلد ابنا وتُسمّيه إسماعيل (ومعناه الله يسمع)، وسوف يُكثّر الربُّ نسله، وسوف يكون منطلقا كالحمار الوحشي يصعب تذليله، ويكون في صراع دائم مع الجميع، ومتحديّا لجميع إخوته.

ملاك الرب وهاجر

٧فَوَجَدَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ بِالْقُرْبِ مِنْ عَيْنِ الْمَاءِ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى شُورٍ.
٨فَقَالَ: «يَاهَاجَرُ جَارِيَةَ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ جِئْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟».
فَأَجَابَتْ: «إِنَّنِي هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ سَيِّدَتِي سَارَايَ». ٩فَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ:
«عُودِي إِلَى مَوْلاَتِكِ وَاخْضَعِي لَهَا». ١٠وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «لأُكَثِّرَنَّ
نَسْلَكِ فَلاَ يَعُودُ يُحْصَى»، ١١وَأَضَافَ مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حَامِلٌ،
وَسَتَلِدِينَ ابْناً تَدْعِينَهُ إِسْمَاعِيلَ (وَمَعْنَاهُ: اللهُ يَسْمَعُ) لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ
شَقَائِكِ. ١٢وَيَكُونُ إِنْسَاناً وَحْشِيّاً يُعَادِي الْجَمِيعَ وَالْجَمِيعُ يُعَادُونَهُ، وَيَعِيشُ
مُسْتَوْحِشاً مُتَحَدِّياً كُلَّ إِخْوَتِهِ». ١٣فَدَعَتِ اسْمَ الرَّبِّ الَّذِي خَاطَبَهَا: «أَنْتَ اللهُ
الَّذِي رَآنِي» لأَنَّهَا قَالَتْ: «أَحَقّاً رَأَيْتُ هُنَا (خَلْفَ) الَّذِي يَرَانِي؟» ١٤لِذَلِكَ
سُمِّيَتِ الْبِئْرُ «بِئْرَ لَحَيْ رُئِي» (وَمَعْنَاهُ بِئْرُ الْحَيِّ الَّذِي يَرَانِي) وَهِيَ وَاقِعَةٌ بَيْنَ
قَادِشَ وَبَارَدَ[1].

مولد إسماعيل ثم إسحاق

ولدت هاجرُ لأبرام ولدا أسماه إسماعيل كما أمر الرب، وكانت سارة هى الأخرى قد ولدت ولدا أسمته إسحاق. ورأت سارة أن إسماعيل يسخر

(١) سفر التكوين – ١٦.

من ابنها إسحاق، فطلبت من إبراهيم أن يطرد الجـارية وابنها، فلم يستصوب إبراهيم منها ذلك، ولكن الله أمره أن يُنفِّذ كلامهـا، وأخبره أن نسله الحقيقي سيكون من إسحاق، أما ابن الجارية فلن ينساه الله من البركـة.

مولد إسماعيل

١٥ثُمَّ وَلَدَتْ هَاجَرُ لأبـرام ابْناً، فَدَعَا أبرام ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَـبَتْـهُ لَهُ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ(١).

٢١- مولد إسحق

وَافْتَـقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَـا قَالَ، وَأَنْجزَ لَهَـا مَا وَعَدَ بِه. ٢فَحَـبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ فِي شَيْـخُوخَتِـه ابْناً، فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَيَّنَهُ اللهُ لَهُ. ٣فَـدَعَا إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحقَ»(٢).

طرد هاجر وإسماعيل

٩وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِنِ ابْنِهَا إِسْحقَ، ١٠فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِه الْجَـارِيَةَ وَابْنَهَا، فَإِنَّ ابْنَ الْجَارِيَةِ لَنْ يَرِثَ مَعَ ابْنِي إِسْحقَ». ١١فَقَـبُحَ هَذَا الْقَوْلُ فِي نَفْسِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَجْلِ ابْنِه. ١٢فَقَـالَ اللهُ لَهُ: «لاَ يَسُوءُ فِي نَفْسِكَ أَمْـرُ الصَّبِيِّ أَوْ أَمْرُ جَـارِيَتِكَ، وَاسْمَعْ لِكَلاَمِ سَـارَةَ فِـي كُلِّ مَـا تُشِـيرُ بِه عَـلَيْكَ لأَنَّهُ بِإِسْـحقَ يُـدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣وَسَأُقِيمُ مِنِ ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ»(٣).

طرد هاجر وإسماعيل

وفي الصبـاح الباكـر نهض إبراهيم، وأعدّ خبـزا وقربة مـاء وأعطاهما لهاجـر، وأمرها أن تترك البـيت مع ابنها وتذهب إلى حـال سبيلهـا. أخذت هاجر صبيّـها وهامت به على وجهها في برية بئـر سبع. ولما تعبت من المشي

(١) سفر التكوين - ١٦.

(٢) (٣) سفر التكوين - ٢١.

وفرغ الماء من القربة، طرحت الصبيَّ تحت شجرة، وجلست بعيدة عنه تنتظر موته في أي لحظة وهى تبكي.

طرد هاجر وإسماعيل

. . . . . ١٤فَنَهَضَ إِبْرَاهِيمُ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ وَأَخَذَ خُبْزاً وَقِرْبَةَ مَاء وَدَفَعَهُمَا إِلَى هَاجَرَ، وَوَضَعَهُمَا عَلَى كَتِفَيْهَا، ثُمَّ صَرَفَهَا مَعَ الصَّبِيِّ. فَهَامَتْ عَلَى وَجْهِهَا فِي بَرِيَّةِ بِئْرِ سَبْعٍ. ١٥وَعِنْدَمَا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الصَّبِيَّ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، ١٦وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ، عَلَى بُعْدِ نَحْوِ مِئَةِ مِتْرٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: «لاَ أَشْهَدُ مَوْتَ الصَّبِيِّ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ(١).

سمع الله بكاء الصبي، فناداها ملاك الله من السماء، وقال لها: لا تخافي على الصبي لأنني سأجعل منه أمّة عظيمة، ثم تلفتت حولها فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الصبي. واستقرت هاجر بوليدها في صحراء فاران، وكبر الصبي، وبرع في رمي القوس. واتخذت له أمه زوجة من بلدها مصر.

ملاك الله يخاطب هاجر

١٧وَسَمِعَ اللهُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَنَادَى مَلاَكُ الله هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا الَّذِي يُزْعِجُكِ يَاهَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُلْقًى. ١٨قُومِي وَاحْمِلِي الصَّبِيَّ، وَتَشَبَّثِي بِهِ لأَنَّنِي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». ١٩ثُمَّ فَتَحَ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاء، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ وَسَقَتِ الصَّبِيَّ. ٢٠وَكَانَ اللهُ مَعَ الصَّبِيِّ فَكَبُرَ، وَسَكَنَ فِي صَحْرَاءِ فَارَانَ، وَبَرَعَ فِي رَمْيِ الْقَوْسِ. ٢١وَاتَّخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ مِصْرَ(٢).

(١) (٢) سفر التكوين - ٢١.

ذريــة إسماعيــل

ورزق الله إسمـاعيل اثني عشر ولدا كـما وعد الرب، فصـاروا رؤساء لاثنتي عشرة قبـيلة؛ انتشروا من حويلة إلى شور المتاخمـة لمصر. وعاشوا في عداء دائم مع أبناء عمومتهم من إسحاق. ومات إسماعيل وله من العمر مائة وسبع وثلاثون سنة.

ذرية إسماعيل

١٢وَهَذَا سجِلُّ مَوَالِيد إِسْمَاعِـيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ هَاجَرُ الْمِصْرِيَّةُ جَارِيَةُ سَـارَةَ لإِبْرَاهِيمَ. ١٣وَهَذِه أَسْمَاءُ أَبْنَاءِ إِسْـمَاعِيلَ مَـدَوَّنَةً حَسَبَ تَرْتِيب وِلاَدَتِهِمْ: نَبَايُوتُ بِكْرُ إِسْمَاعِيلَ، وَقِيدَارُ وَأَدَبْئِـيلُ وَمِبْسَامُ، ١٤وَمِشْمَاعُ وَدُومَةُ وَمَسَّا، ١٥وَحَدَارُ وَتَيْمَا وَيَطُورُ وَنَافِـيشُ وَقِدْمَةُ. ١٦هَؤُلاَءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ، وَهَذِه هِيَ أَسْمَاؤُهُمْ حَسَبَ دِيَارِهِمْ وَحُصُونِهِمْ، وَقَـدْ صَارُوا اثْنَي عَشَرَ رَئِيساً لاثْنَتَيْ عَشْـرَةَ قَبِيلَةً. ١٧وَمَـاتَ إِسْمَاعِيلُ وَلَهُ مِنَ الْـعُمْرِ مِئَـةٌ وَسَبْعٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً، وَلَحِقَ بِقَوْمِـهِ. ١٨أَمَّا ذُرِّيَّتُهُ فَقَدِ انْتَـشَرَتْ مِنْ حَوِيلَةَ إِلَى شُورَ الْمُتَـاخِمَةِ لِمِصْرَ فِي اتِّجَاهِ أَشُّورَ، وَكَانَتْ عَلَى عَدَاءٍ مَعَ بَقِيَّةِ إِخْوَتِهَا(١).

---

(١) سفر التكوين - ٢٥.

هاجر وإسماعيل في القرآن

مولد إسماعيل

رزق الله إبراهيم بابنه إسماعيل وهو في سن الشيخوخة من سريته هاجر؛ وكان في ذلك فرحة كبيرة له؛ شكر الله عليها شكرا جزيلا. وكان إبراهيم دائم التسبيح بحمد الله، والدعاء لذريته بأن ينشأوا على الصلاح والتقوى.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم].

هاجر وإسماعيل في الصحراء

أمر الله - سبحانه وتعالى -؛ نبيّه إبراهيم - عليه السلام - بأن يأخذ إبنه إسماعيل وأمه هاجر إلى موضع البيت الحرام. استجاب لأمر الله، وسار بهما إلى حيث أمره الله، وتركهما في واد مقفر، وترك معهما جرابا فيه بعض الطعام وقليل من الماء. ولما استدار وتركهما راجعا إلى أرض كنعان، أسرعت هاجرُ خلفه وسألته هل أمرك الله بهذا؟ فقال نعم، فقالت إذا لن يضيّعنا. كان المكان مقفرا لا ماء فيه ولا زرع، موحشا لا إنسان فيه ولا طير.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

دعوة إبراهيم للبلد الحرام

وفي طريق عودته تحرّكت عاطفته نحوهما، فرفع يديه نحو السماء، وانخرط في الدعاء سائلا الله أن يسوق إليهما من يؤنس وحدتهما، وأن يرزقهما من الثمرات رزقا حسنا، وأن يعينهما على حسن عبادته، وعلى شكر نعمته.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ...(١٢٦)﴾ [البقرة].

البحث عن الماء للرضيع

بعد أن ترك إبراهيم زوجته وابنه الرضيع في الصحراء بأيام نفد الماء، وانتهى الطعام، وجف لبن الأم، وبدأ إسماعيل يبكي من شدّة العطش. لم تتحمّل هاجر؛ بكاء الرضيع، فانطلقت تبحث عن ماء حتى وصلت قمة جبل الصفا. ولّما لم تجد أثرا للماء، عادت تقطع الوادي حتى وصلت قمة جبل المروة؛ فلم تجد غير القفر والشمس المحرقة. وكلّما اشتد بكاء طفلها، اشتدّت في سعيها. وتكرر سعيها بين جبلي الصفا والمروة سبع مرات حتى أنهكها التعب؛ وكادت تسقط من الإعياء.

جلست منهكة يائسة بجانب طفلها الذي بُحّ صوته من طول البكاء؛ وهو يتطلع نحوها باستعطاف وقد أصابه الإعياء وبلغ منه العطش كل مبلغ، وهى تنظر إليه بقلب منكسر وعين يائسة. كان الصمت يلف المكان، ولا شيء يوحي بالأمل حولها. رفعت عينيها إلى السماء بأمل ورجاء، ودعت رب الأرباب أن يتغمدهما برحمته، وأن يفيض عليهما بجوده وكرمه. ولّما تقطّعت الأسباب، تدخل ربُّ الأسباب، وأدركتهما رحمة الله، فانفجرت من تحت قدمي الطفل عين ماء فارت مياهها، وانساحت حولها. سارعت هاجر إلى الماء المتدفق تحوزه بذراعيها ولكن أنى لها ذلك وقد فاض الماء غزيرا في كل اتجاه. سقت هاجر طفلها حتى ارتوى، ثم شربت هى الأخرى حتى ذهب عنها ظمؤها ويأسها، ورفعت وجهها إلى السماء وهى تردد : إن الله لن يضيعنا.

ولما كان الماء هو أصل كل حي، فقد كانت البئر التي انفجرت بمشيئة الله سببا في وفود القوافل عليهم، واستقرار بعضهم حولها. وكان ذلك خيرا لهاجر ووليدها، وسببا من أسباب عمران المكان تحقيقا لدعوة إبراهيم - عليه السلام -.

الأمر بذبح إسماعيل

كان إسماعيل يكبر، وقلب أبيه إبراهيم يزداد تعلُّقا به وحدبا عليه؛ فهو ابنه الوحيد الذي انتظره طويلا حتى شاءت إرادة الله أن يرزقه به في شيخوخته. وكان لهذا الحب طبيعة خاصة لأنه يترعرع بعيدا عن عينيه ولا يراه إلا كل حين وحين؛ لبعد المسافة بين موطنيهما.

ويأتي الاختبار القاسي؛ فقد رأى إبراهيم في الرؤيا أنه يذبح ولده وحيده وفلذة كبده. وإبراهيم نبي، ورؤيا الأنبياء وحي. لم يستسلم إبراهيم لعواطفه الأبوية الحانية، ولم يتردّد لحظة في تنفيذ أمر الله له، ولم يتساءل عن حكمة أمر كهذا ليُبتلَى به.

شدّ إبراهيم الرحال إلى أرض الحرم، وما إن رأى إسماعيل حتى أخبره بأمر الله له. فما كان من الإبن البار إلا أن رد على أبيه بقوله: يا أبت افعل ما تؤمر، وسوف أصبر على أمر الله فلا تجزع من ناحيتي. لم يكن الولد بأقل من أبيه حبّا لله وطاعة لأوامره.

ولمّا هم إبراهيم بذبح ابنه، تمدّد إسماعيل على بطنه؛ حتى لا تقع عينا أبيه في عينيه فيرِقّ لحاله أو يضعف، وأمسك إبراهيم بالسكين، واستجمع كل قواه، وهمّ بأن يهوي بها على رقبته، فناداه مناد قائلا: يا إبراهيم لا تفعل، لقد اجتزت الاختبار، فنلت ثواب الطاعة، واستحققت الجائزة، لقد فدينا ابنك الصابر المحتسب بكبش عظيم في الهيئة والمنزلة. وصارت هذه المناسبة منسكا عظيما من مناسك المسلمين تسمّى الأضحية، وسمّي عيد الحج بعيد الأضحى؛ حيث يُقدِّم كل مسلم مقتدر أضحية في هذا اليوم المبارك.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات].

الأمر ببناء الكعبة

لمّا أمر الله نبيه إبراهيم ببناء البيت على قواعده التي طمست منذ أن بناه آدم عليه السلام، جاء إلى موضع البيت، وقال لابنه إسماعيل: أن الله أمره بأمر، فقال له إسماعيل فاصنع ما أمرك به الله. قال إبراهيم: وتعينني؟ قال إسماعيل: نعم. أشار إبراهيم إلى منخفض من الأرض وقال: إن الله أمرني أن ابني هنا له بيتا.

وبدأت المهمة المباركة؛ مهمة بناء البيت التي تحمّل عبئها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -؛ فكان إبراهيم يرصّ الحجر بعضه على بعض، وإسماعيل يجمعه له من الجبال حولهما. ولما تم البناء، أراد إبراهيم حجرا مميزا يكون علامة خاصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة، فأمر ابنه إسماعيل أن يأتيه بحجر يختلف في لونه عن بقية الأحجار التي بُنيت بها الكعبة. بحث إسماعيل عن الحجر المنشود فلم يجد بغيته، وعاد إلى أبيه فرأى حجرا أسودا مميّزا قد استقر في الموضع الذي أراده أبوه. ولما سأل أباه عمّن أتى بالحجر، قال له أنه ملاك الله جبريل عليه السلام.

﴿... وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ..... وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ [البقرة].

تعقيب

تذكر التوراة أن سارة ولدت إسحاق بعد أن ولدت هاجر إسماعيل بفترة قصيرة، بدليل سخرية إسماعيل من أخيه إسحاق؛ وهذا لا يتم إلا بين متقاربين في العمر. وهذا يخالف ما ذكره القرآن من أن ولادة إسحاق جاءت بعض اختبار الله لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل وافتدائه بكبش سمين، وكان إسماعيل وقتها قد بلغ من العمر مبلغ السعي (حوالي الستة عشر عاما).

كما أن في هذا تناقض غريب مع ما ذكرته التوراة عن معجزة البئر التي ظهرت لهاجر بعد أن سمع الله بكاء الصبي. والصبي هنا ترى كم كان عمره!!

كما تقول التوراة في موضع آخر أن عمر إسماعيل كان ثلاث عشرة سنة عندما كان إبراهيم في التاسعة والتسعين وقبل مولد إسحاق، وأن إسحاق قد وُلد وقد تجاوز إبراهيم المائة من العمر بسنة أو اثنتين.

والمرء يتساءل أين البئر التي وجدتها هاجر في برية بئر سبع عندما طردت من بيت إبراهيم هي والصبي إسماعيل حسب رواية التوراة. والرواية الإسلامية عن بئر زمزم لها سند من التاريخ والواقع المعاش؛ فقصة البئر يثبتها التاريخ، وهي قائمة حتى الآن. ومن يُنكر التاريخ لا يمكنه إنكار الواقع الملموس.

وتقول التوراة أن هاجر عاشت بوليدها في صحراء فاران، ولما كبر اتخذت له أمه زوجة من بلدها مصر. وصحراء فاران كما هو معلوم هي البادية العربية، فلماذا زوجة من مصر؟ إذا هي العنصرية التي دأب عليها بنو إسرائيل؛ يأبون إلا أن يلصقوها بهاجر هي الأخرى كما حدث في زواج إسحاق ويعقوب من قبل.

الفصل السادس

لوط

لوط في التوراة
لـوط وإبراهيـم

ذكرنا في قـصة إبراهيم؛ أنّ الله لمّا أمر إبراهيم أن يتـرك موطنه في أور الكلدانيين إلى أرض كنعان، صحب معه ابن أخيه لوط.

وظلّ لوط مرافقا لإبراهيم حتى ضاقت الأرض بأمـلاكهما، ودائما كان يحدث نزاع بين رعاة كل منهما والآخر بسبب الماء والعُشْب. ومنعا لاستمرار تلك المنازعات، عـرض عليه إبراهيم أن يفترقـا متحابّين، وترك له أن يـختار الجهة التي يقصدها ليأخذ هو الجهة الأخرى.

اختار لوط السـهول المحيطة بنهر الأردن والتي كانت تتمـتّع بوفرة المياه والعشب، وظلّ إبراهيم في أرض كنعان. ونصب لوط خـيامه بجوار سدوم. وكان أهل هذه البلاد يرتكبون المنكرات، ولا يؤمنون بالله.

وقامت حروب طاحـنة بين ملوك المنطقة التي يعيش فيـها لوط والمناطق المجاورة؛ انتهت بهـزيمة سدوم وعمورة هزيمة ساحـقة، وتمّ أسر لوط ونهب ممتلكاته.

ولمّا سمع إبراهيم بما جرى للوط، جـرّد حملة من غلمانه المدربين على القتال، وطارد المغتـصبين، وهاجمهم وقهرهم، وفك أسر ابن أخـيه وجميع الأسرى، واستردّ كل الغنائم التي نُهِبت منهم.

ولمّا استمر أهل سدوم وعمـورة في غيّهم ولم يسمعوا لنصح لوط، نزل الله ومعـه ملكان من ملائكتـه ليشهـد بنفسه خطيـئاتهم حتـى يرسل عليهم عذابه. ولما علم إبراهيم بـالأمر حاول أن يتشـفّع لهم، وجادل مع الله كثـيرا من أجلهم، ووعده اللـه أن لا يهلكهم إذا وجد فيـهم عشرة فـقط صالحين، وأمر الله الملكين بالتوجه نحو سدوم لإنفاذ مشيئته فيهم. ولم نشأ أن نستشهد بالآيات من سفر التوراة التي تتناول هذه المرحلة اكتفاء منا بإيرادها في الفصل المتعلق بإبراهيم - عليه السلام - لمن أراد الرجوع إليها.

لوط يستضيف الملكين

لمّا أقبل الملكان على سدوم في المساء؛ كان لوط جالسا عند باب المدينة، فأسرع لاستقبالهما وهو لا يعرف من هما، ولكنه كان يخشى عليهما من أهل المدينة، وانحنى لهما مرحّبا، وعرض عليهما أن ينزلا ضيوفا عليه في بيته فيغسلا أرجليهما ويبيتان عنده حتى الصباح، ولكنهما رفضا وقالا له: سوف نمضي ليلتنا في ساحة المدينة. ولمّا أصرّ عليهما أن يقبلا دعوته، قبلاها وذهبا معه إلى بيته. وأعدّ لهما خبزا وفطيرا فأكلا وشربا.

١٩- لوط يستضيف الملاكين

وَأَقْبَلَ الْمَلاَكَانِ عَلَى سَدُومَ عِنْدَ الْمَسَاءِ. وَكَانَ لُوطٌ جَالِساً عِنْدَ بَابِ
سَدُومَ، فَمَا إِنْ رَآهُمَا حَتَّى نَهَضَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ،
٢وَقَالَ: «يَاسَيِّدَيَّ، انْزِلاَ فِي بَيْتِ عَبْدِكُمَا لِتَقْضِيَا لَيْلَتَكُمَا، وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا،
وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ تَمْضِيَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». لَكِنَّهُمَا قَالاَ: «لاَ، بَلْ نَمْكُثُ
اللَّيْلَةَ فِي السَّاحَةِ». ٣فَأَصَرَّ عَلَيْهِمَا جِداً حَتَّى قَبِلاَ الذَّهَابَ مَعَهُ وَالنُّزُولَ فِي
بَيْتِهِ. فَأَعَدَّ لَهُمَا مَأْدُبَةً وَخَبَزَ فَطِيراً فَأَكَلاَ(١).

وقبل أن يخلد الملكان للنوم، حاصر رجال المدينة بيت لوط، ونادوا على لوط ليخرج ضيفيه ليرتكبوا معهما الفاحشة. وكان هذا ما يخشاه لوط، فخرج إلى أهل المدينة وأحكم إغلاق الباب على الملكين، وقال لهم: يا إخوتي إن كنتم فاعلين فإليكم ابنتاي لم يمسسهما رجل فافعلوا بهما ما شئتم، ولا تمسوا ضيفاي بسوء؛ فهما غريبان وقد لجئا إلي؛ ومن واجبي حمايتهما، فقالوا له: تنحّ عن طريقنا، وهل أنت إلا غريب مثلهما؛ فإن لم تُسلّمهما لنا فسوف ينالك منا شر عظيم. وتدافعوا نحو لوط قاصدين الباب؛ وإذ بالملكين يجتذبان لوطا من بينهم إلى داخل البيت ويغلقان الباب عليه، ويضربان بالعمى كل المتجمّعين من أهل المدينة؛ فصاروا يتخبطون في عماهم فلا يجدون طريقهم إلى الباب.

---

(١) سفر التكوين - ١٩.

فساد أهل سدوم

٤وَقَبْلَ أَنْ يَرْقُدَا، حَاصَرَ رِجَالُ مَدِينَةِ سَدُومَ مِنْ أَحْدَاثٍ وَشُيُوخٍ،
الْبَيْتَ، ٥وَنَادُوا لُوطاً: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ اسْتَضَفْتَهُمَا اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا
لِنُضَاجِعَهُمَا». ٦فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ الْبَابَ خَلْفَهُ، ٧وَقَالَ: «لاَ
تَرْتَكِبُوا شَرّاً يَاإِخْوَتِي. ٨هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ عَذْرَاوَانِ أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا
مَا يَحْلُو لَكُمْ، أَمَّا هَذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تُسِيئُوا إِلَيْهِمَا لأَنَّهُمَا لَجَآ إِلَى حِمَى
مَنْزِلِي». ٩فَقَالُوا: «تَنَحَّ بَعِيداً»، وَأَضَافُوا: «لَقَدْ جَاءَ هَذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ
بَيْنَنَا، وَهَا هُوَ يَتَحَكَّمُ فِينَا. الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرّاً أَكْثَرَ مِنْهُمَا». وَتَدَافَعُوا حَوْلَ
لُوطٍ وَتَقَدَّمُوا لِيُحَطِّمُوا الْبَابَ. ١٠غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَيْنِ مَدَّا أَيْدِيَهُمَا وَاجْتَذَبَا لُوطاً
إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ، وَأَغْلَقَا الْبَابَ. ١١ثُمَّ ضَرَبَا الرِّجَالَ، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ،
الْوَاقِفِينَ أَمَامَ بَابِ الْبَيْتِ بِالْعَمَى، فَعَجَزُوا عَنِ الْعُثُورِ عَلَى الْبَابِ[1].

إنقاذ لوط وعائلته

وسأل الملكان لوطا إن كان له أقرباء في المدينة، وطلبوا منه أن يُعلمْهم بأن المدينة سوف تُدَمّر على ساكنيها، وعليهم أن يخرجوا منها قبل الفجر. وذهب لوط إلى ذوي قرباه ليأخذوا حذرهم؛ فظنّوه يسخر منهم ولم يُصدّقوه. وعند الفجر طلب الملكان من لوط أن يأخذ زوجته وابنتيه ويخرج بهم، ولما تباطئوا في الخروج، دفعوهم دفعا شفقة عليهم أن يصيبهم شيء مما سيحصل لأهل المدينة.

إنقاذ لوط وعائلته

١٢وَقَالَ الرَّجُلاَنِ لِلُوطٍ: «أَلَكَ أَقْرِبَاءُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ؟ أَصْهَارٌ وَأَبْنَاءٌ
وَبَنَاتٌ أَوْ أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ يَمُتُّ إِلَيْكَ بِصِلَةٍ؟ أَخْرِجْهُمْ مِنْ هُنَا، ١٣لأَنَّنَا
عَازِمَانِ عَلَى تَدْمِيرِ هَذَا الْمَكَانِ، إِذْ أَنَّ صُرَاخَ الشَّكْوَى مِنْ شَرِّهِ قَدْ تَعَاظَمَ أَمَامَ

(١) سفر التكوين – ١٩.

الرَّبِّ، فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ لِنُدَمِّرَهُ». ١٤فَمَضَى لُوطٌ وَخَاطَبَ أَصْهَارَهُ أَزْوَاجَ بَنَاتِه، قَائِلاً: «هَيَّا. قُومُوا وَاخْرُجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لأَنَّ الرَّبَّ سَيُدَمِّرُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ». فَبَدَا كَمَازِحٍ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ. ١٥وَمَا إِنْ أَطَلَّ الْفَجْرُ حَتَّى طَفِقَ الْمَلاَكَانِ يَلِحَّانِ عَلَى لُوطٍ قَائِلَيْنِ: «هَيَّا انْهَضْ وَخُذْ زَوْجَتَكَ وَابْنَتَيْكَ اللَّتَيْنِ هُنَا، لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ». ١٦وَإِذْ تَوَانَى لُوطٌ، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَأَيْدِي زَوْجَتِهِ وَابْنَتَيْهِ وَقَادَاهُمْ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ، لأَنَّ الرَّبَّ أَشْفَقَ عَلَيْهِمْ(١).

نجاة لوط وابنتيه

ولما أخرج الملكان لوطا ومن معه، قال أحدهما له: انج بنفسك، لا تلتفت وراءك، واهرب إلى الجبل كي لا تهلك. قال لوط: لا أستطيع اللجوء إلى الجبل فأموت قبل أن أصل إليه، دعني ألجأ إلى تلك المدينة الصغيرة القريبة. وافق الملاك على طلبه، وقال له: أسرع إليها قبل أن ينزل قضاء الله.

لجوء لوط وعائلته إلى صوغر

١٧وَمَا إِنْ أَخْرَجَاهُمْ بَعِيداً حَتَّى قَالَ أَحَدُ الْمَلاَكَيْنِ: «انْجُ بِحَيَاتِكَ. لاَ تَلْتَفِتْ وَرَاءَكَ وَلاَ تَتَوَقَّفْ فِي كُلِّ مِنْطَقَةِ السَّهْلِ. اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ». ١٨فَقَالَ لُوطٌ: «لَيْسَ هَكَذَا يَاسَيِّدُ. ١٩هَا عَبْدُكَ قَدْ حَظِيَ بِرِضَاكَ، وَهَا أَنْتَ قَدْ عَظَّمْتَ لُطْفَكَ إِذْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي، وَأَنَا لاَ أَسْتَطِيعُ اللُّجُوءَ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ يُدْرِكَنِي مَكْرُوهٌ فَأَمُوتَ. ٢٠هَا هِيَ الْمَدِينَةُ قَرِيبَةٌ يَسْهُلُ الْهَرَبُ إِلَيْهَا. إِنَّهَا مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ، فَدَعْنِي أَلْجَأُ إِلَيْهَا. أَلَيْسَتْ هِيَ مَدِينَةً صَغِيرَةً جِداً فَأَنْجُو فِيهَا بِحَيَاتِي؟« ٢١فَقَالَ لَهُ الْمَلاَكُ: «إِنِّي قَدْ قَبِلْتُ طَلْبَتَكَ بِشَأْنِ هَذَا الأَمْرِ، وَلَنْ أُدَمِّرَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ الَّتِي ذَكَرْتَهَا ٢٢أَسْرِعْ، وَاهْرُبْ إِلَيْهَا، لأَنَّنِي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصْنَعَ شَيْئاً إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا». لِذَلِكَ دُعِيَ اسْمُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ صُوغَرَ (وَمَعْنَاهَا صَغِيرَ ةٌ)(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين – ١٩.

هلاك زوجة لوط وجميع قومه

وقبل شروق الشمس كان لوط قد دخل إلى صوغر مع ابنتيه؛ وكانت امرأته لم تسمع نصيحة الملكين، فنظرت خلفها فحوّلها الله إلى عمود من الملح. وأمطرت السماء كبريتا ونارا على مدن سدوم وعمورة وما حولها من سهول وجبال؛ فاحترقت جميعها، وتصاعد الدخان منها إلى عنان السماء.

إهلاك سدوم وعمورة

٢٣وَمَا إِنْ أَشْرَقَت الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى كَانَ لُوطٌ قَدْ دَخَلَ إِلَى
صُوغَرَ، ٢٤فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتاً وَنَاراً، مِنْ عِنْده مِنَ
السَّمَاء. ٢٥وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا، وَالسَّهْلَ الْمُحِيطَ بِهَا وَكُلَّ
مَزْرُوعَاتِ الأَرْضِ. ٢٦وَتَلَفَّتَتْ زَوْجَةُ لُوطَ السَّائِرَةُ خَلْفَهُ وَرَاءَهَا، فَتَحَوَّلَتْ
إِلَى عَمُودٍ مِنَ الْمِلْحِ. ٢٧وَمَضَى إِبْرَاهِيمُ مُبَكِّراً فِي الصَّبَاحِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي
وَقَفَ فِيهِ أَمَامَ الرَّبِّ. ٢٨وَتَطَلَّعَ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَلِسَائِرِ أَرْضِ السَّهْلِ،
فَأَبْصَرَ الدُّخَانَ يَتَصَاعَدُ مِنْهَا كَالأَتُونِ. . . . .(١)

خطيئة ابنتي لوط

وبعد أن اطمأن لوط على نفسه وعلى ابنتيه، ترك مدينة صوغر، وصعد الجبل، ولجأ إلى كهف في الجبل يحتمي فيه مع ابنتيه. وفكّرت ابنة لوط الكبرى في أمرها وأمر أختها الصغرى، وماذا سيكون مصيرهما بعد موت أبيهما وهما وحدهما في هذا العالم بعد هلاك الدور والناس وكل مخلوق حولهما، فقالت لأختها الصغرى؛ تعالي نسقي أبانا خمرا، ونعاشره معاشرة الأزواج؛ فلا تنقطع ذرية أبينا.

خطيئة ابنتي لوط

٣٠وَغَادَرَ لُوطٌ وَابْنَتَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ صُوغَرَ، وَاسْتَقَرُّوا فِي الْجَبَلِ لأَنَّهُ خَافَ
أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَلَجَأَ هُوَ وَابْنَتَاهُ إِلَى كَهْفٍ هُنَاكَ. ٣١فَقَالَتِ الابْنَةُ الْبِكْرُ

(١) سفر التكوين - ١٩.

لأُخْتِـهَا الصَّغِيـرَةِ: «إِنَّ أَبَانَا قَدْ شَاخَ وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ حَـوْلَنَا رَجُلٌ يَتَزَوَّجُنَا كَعَـادَةِ كُلِّ النَّاسِ. ٣٢فَتَعَـالَيْ نَسْقِيهِ خَمْـراً وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ فَـلاَ تَنْقَطِعُ ذُرِّيَّةُ أَبِينَا». . . . . (١)

ونفّذت الأخت الكبرى فكرتهـا الشرِّيرة؛ فسقت أباها خمرا وضـاجعته وهو لا يدري. وفي الليلة التالية قامت الابنة الصغرى بما قامت به الكبرى في الليلة السـابقة؛ وأبوهمـا لا يدري. وحملت الابنتـان من أبيـهما؛ فـولدت الكبرى ولدا أسـمته مُوآبَ (الأب)، وولدت الصـغرى ولدا أسمتـه بَنْ عَمِّي (ابن قومي).

. . . . . ٣٣فَسَقَـتَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَبَاهُمَا خَمْـراً، وَأَقْبَلَتْ الابْنَةُ الْكُبْرَى وَضَاجَعَتْ أَبَاهَا فَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا. ٣٤وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي قَالَتْ الابْنَةُ الْبِكْرُ لأُخْتِهَا الصَّغِيـرَةِ: «إِنِّي قَد اضْطَجَعْتُ مَعَ أَبِي لَيْلَةَ أَمْسِ، فَتَعَالَيْ نَسْقِيـهِ اللَّيْلَةَ أَيْضـاً خَمْـراً ثُمَّ ادْخُلِي وَاضْطَجِعِي مَعَـهُ فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً». ٣٥فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْراً فِي تِلْكَ اللَّيْلَـةِ أَيْضاً وَأَقْبَلَتْ الابْنَةُ الصَّغِيرَةُ وَضَاجَعَتْ أَبَاهَا. فَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِـهَا. ٣٦وَهَكَذَا حَمَلَتْ الابْنَتَان كِلْتَاهُمَا مِنْ أَبِيهِمَـا. ٣٧فَوَلَدَت الْكُبْرَى ابْناً دَعَتْـهُ مُوآبَ (وَمَعْنَاهُ مِنَ الأَبِ)، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ، ٣٨أَمَّا الصُّغْرَى فَـوَلَدَتِ ابْناً وَدَعَتْهُ (بَنْ عَمِّي) (وَمَعْنَاهُ ابْنُ قَوْمِي) وَهُوَ أَبُو بَنِي عَمُّونَ إِلَى الْيَوْمِ(٢).

(١) (٢) سفر التكوين - ١٩.

لوط في القرآن
صلاح لوط

يُخْبر الله جل في علاه؛ عن نبيه لوط، أنه آتاه من العلم والحكمة الشيء الكثير، وحفظه من أن يفعل فعل أهل سدوم من الفواحش والموبقات التي حرّمها الله، وأن الله قد أظلّه بمظلّة رحمته كي لا يعمل عملهم؛ لأنه كان من الصالحين المُحبّين للخير.

ويقول أنه أرسله إلى قومه لهدايتهم، لكنهم لم يهتدوا، فأنجاه الله من كيدهم هو ومن آمن معه من أهله إلا امرأته فإنه قد وقع بها الهلاك مع جميع من بقي على كفره من أهل القرية. وأن الله قد أبقى آثارهم ليراها للناس إذا مرّوا بها ليلا أو نهارا؛ لعلّهم يعتبرون.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ [الأنبياء].

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ [الصافات].

فساد قوم لوط

كان قوم لوط؛ قومَ سوء، يستحلّون أدبار الذكور من بينهم، فيعملون الفاحشة بهم. وكانوا يجهرون بها فلا يخجلون من أن يرى بعضهم بعضا؛ إذ كانوا لا يستترون وهم يرتكبون فعلتهم الشنعاء. وكان الذكر منهم يقضي وطره مع الذكر، ولا يقضيه مع الأنثى؛ تعدّيا لحدود الله وجهلا بعاقبة فعله. ولم يسلم من أذاهم حتى الغرباء الذين كانوا يمرّون بهم في تنقلاتهم حتى أن الناس باتت تتجنب طرقهم.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)﴾ [الأعراف].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ [النمل].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ [العنكبوت].

إنكار لوط لفساد قومه

أنكر لوط على قومه إتيانهم الفاحشة، وجهرهم بها، وكان يحذّرهم من إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ويقول لهم أن في ذلك تجاوز لحدود الله.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)﴾ [النمل].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [العنكبوت].

دعوة لوط لقومه

كان دأب قوم لوط تكذيبَ رسل الله، ومن هؤلاء الرسل نبي الله لوط؛ الذي دعاهم إلى الإقلاع عن الفواحش اتقاءً لغضب الله عليهم وانتقامه منهم. وكان يدعوهم إلى تصديقه فيما يدعوهم إليه، ويقول أنّه رسول إليهم من قبل الله، وأنّه يبلّغهم ما أُرْسل به، ولا يبتغي من وراء ذلك أجرا. وكان يقول لهم متعجبا أيأتي الذكر ذكرا، ويدع ما خلق الله له من الإناث ليسكُن إليهن، ويقضي شهوته فيما أحلّه الله له؟ ويقول لهم أن في هذا تجاوزا لكل ما شرعه الله لعباده، وأنه بريء من عملهم هذا.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨)﴾ [الشعراء].

إنذار لوط لقومه

أنذر لوط قومه وخوّفهم من غضب الله الذي لا يُردّ عن القوم الظالمين، لكنهم تمادوا في تكذيبه والاستخفاف بدعوته.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦)﴾ [القمر].

تهديدُ قومِ لوط له

لم يلق لوط من قومه إلا الصدود والعداوة المفرطة، وكانوا يتواعدون على إخراجه من قريتهم بتهمة الدعوة إلى الطهر والعفاف التي لا تتناسب مع نفوسهم الخبيثة وطبائعهم المنحرفة عن فطرة الله التي فطر الناس عليها. وكانوا يستهزئون بنصحه لهم، ويستخفّون بوعيده إيّاهم؛ فيقولون إن كنت صادقا فأتنا بالعذاب الذي تتوعدنا به.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)﴾ [الأعراف].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦)﴾ [النمل].

﴿... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩)﴾ [العنكبوت].

دعوة لوط على قومه

لما ضاق به قـومُه، هدّدوا بإخـراجه من قـريتهم هو ومن اتبعـه منهم، وضيّقوا عليه الخناق، وألزمـوه بيته لا يخرج منه. ولما يئس من هدايتهم دعى ربه أن ينجيـه وأهله من عملهم، وأن يـنصره على هؤلاء المفسـدين الذين لا ينصحهم ناصح ولا يزجرهم زاجر.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)﴾ [العنكبوت].

رسل العذاب لقوم لوط

لما أتى رسلُ الله إبراهيم لـيبـشّروه بمولد إسـحـاق، سألهم عن سـبب قدومهم إلى هذه البلاد، فأخبروه أن اللـه أرسلهم لهلاك قوم لوط جميعا إلا المؤمنين منهم، وأن امرأته سوف تكون من الهالكين لأن هواها مع الكافرين.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾ [الحجر].

﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣)﴾ [العنكبوت].

ولما أقبل الملائكة على لوط سألهم عن سبب قـدومهم إليه ولـم يسبق له أن عرفهم، فـهدأوا من روعه، وأخبروه أنهم جاءوا بعـذاب الله لهؤلاء القوم الذين كانوا يستـبعدون وقوعه بهم، وقـالوا أن هذا أمر الله وهو واقع بهم لا محالة.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤)﴾ [الحجر].

وكان الله قد أرسل إلى لوط ملائكته في صـورة شباب حسان الوجوه، جميلي الهيئة. ولما كان لوط لا يعرف من أمرهم شيئا، فقد حزن من أجلهم،

واغتمّ لمجيئهم، وخاف عليهم؛ فقد رأى فيهم ما يبتغيه قومُه، ودعا الله أن ينتهي يومهم على خير. وصدق حدسُه بشأن قومه فقد هرعوا إليه وضيّقوا عليه من أجل أن يسلّمهم ضيوفه، فأبى، ونصحهم أن يقضوا شهوتهم في النساء اللائي خلقهن الله من أجل ذلك، وحتى تنتظم سنن الله في الكون فتكون الذرية والتكاثر الذي فيه خير العباد، وأعلن لهم أنه مستعد أن يزوّجهم من بناته إن هم تركوا ضيوفه وشأنهم. واستنجد بمن ظن فيه مروءة منهم فلم ينجده أحد، لكن ردّهم عليه أنك تعلم ما نريد وما لنا في بناتك من غاية. أغلظوا له القول، وقالوا: لقد نهيناك عن استضافة أحد؛ لكنك خالفت أمرنا، وسوف يكون جزاؤك أن نفعل بضيوفك ما نشاء.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود].

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر].

أحسّ لوط بمدى ضعفه أمام هذا الجمع الهائج من أهل قريته، وقال لهم: لو أن لي عشيرة تحميني لما تجرّأتم علي، فقال له الرسل لا تخف إنا رسل ربك ولن يستطيعوا أن يصلوا إليك أو ينالوا منا. وأصاب الله بالعمى أهل القرية فلم يستطيعوا أن يهتدوا إليهم، وكانوا يتخبّطون في طريقهم لا يدرون إلى أين يتجهون.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ .... ﴿٨١﴾﴾ [هود].

هلاك قوم لوط

لما حانت ساعة العقـاب لقوم لوط، أمرت الملائكةُ لوطا أن يخرج بأهله ليلا إلى حيث أمـرهم الله، وأن يسير خلفهم، ولا يلتـفت منهم أحد وراءه؛ حتى لا يصيبه ما يصيب القوم الكافـرين. كما أخبروه أن العذاب واقع بقومه في الصباح فلن ينجو منهم أحدا.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر].

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود].

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت].

وما إن أشرق الصباح حتى أطلق جبريل - عليه السلام - صيحة عظيمة ارتجفت لهـا قلوب الكافرين، وضـرب القرية بأحد أجنحـته فـجعل عاليـها سافلهـا، وأمطرت السماء بدل الـقطر (الماء) حجارة أهلكتـهم جميـعا؛ ولم تخطئ منهم أحـدا. وكان في نجاة لوط وأهلـه نعمة من الله جـزاء لهم على شكرهم لأنعمه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ [القمر].

تعقيب

ذكرت التوراة أن الله نزل بنفسه ليعاين ما يفعله أهل سدوم وعمورة، وهذا يتنافى مع صفة من صفات الله؛ ألا وهي إحاطة علمه بكل شيء وليس مضطرا إلى أن ينزل بنفسه لمثل هذا الأمر، كما أن تجسيد الله بهذه الصورة لا يليق بجلاله ولا بقيّوميّته.

إن مشهد الملكين ولوط يدعوهما للنزول ضيوفا عليه، وهما يرفضان دعوته، ويقولان أنهما سيمضيان ليلتهما في ساحة المدينة؛ مشهد مسرحي فجّ. وهذا يتناقض مع أنهما ملكان، مرسلان من عند الله في مهمّة محدّدة سلفا، ومأموران بأمر جاءا لتنفيذه؛ والأحرى بهما أن يقوما بما أُعِدّ لهما سلفا من قبل الله جلّت قدرته، وليس لإرادتيهما فيه شيء. ويزداد الأَمر عجبا، أن يحاولا النوم في بيت لوط. ترُى أي صنف من الملائكة يكونون!!

ولمّا أخرج الملكان؛ لوطا ومن معه حسب التوراة، وطلبا منه أن يهرب إلى الجبل، خاف أن لا يصل إلى الجبل قبل أن يحل موعد وقوع العقاب بقومه؛ فيصيبه ما يصيبهم، وطلب من الملكين أن يسمحا له باللجوء إلى قرية قريبة، يشير إلى تشكُّك لوط في تقدير الله له، وهذا محال في حق نبي من أنبياء الله.

أما خطيئة ابنتي لوط مع أبيهما كما قدّمتها التوراة فهي مخزية، ولا تليق بابنتي نبيٍّ قد أنجاهما الله من موت محقّق وبمعجزة تستحق الشكر، ثم يفكّران بهذا المنطق المعوجّ؛ حاشاهما.

كما أنني أتساءل أين لهما بالخمر في هذا الوقت العصيب وهما وحيدتان لا أنيس لهما ولا معين بعد هلاك قومهما جميعا. كما أتعجب من رجل في عمر لوط عليه السلام، مخمور كما وصفته التوراة، يضاجع وينجب؛ يا له من فحل لا مثيل له!!

الفصل الثامن

إسحاق

إسحاق في التوراة
البحث عن زوجة لإسحاق

لمّا شاخ إبراهيم وتقـدّم به العمر وأراد أن يُزوِّج ابنه إسـحاق؛ كان حـريصا على عدم تزويجه من بنات الكنعانيين؛ فـأوصى رئيس عبيده أن يمضي إلى حاران ليتخـذ له زوجة من أهله وعشيـرته. أعدّ عبدُ إبراهيم العـدّة للسفر لتنفيـذ وصيّة سيِّده، وتوجّـه إلى أرام النهرين حيث يسكن ناحور أخو إبـراهيم. وعند بئر المياه خارج المدينة أناخ الجمال؛ وكان الوقت مسـاء وقت خروج الفتيات لجلب المياه من البئر. طلب العبدُ من الرب علامة للفتاة الـتي يقع الاختيار عليها، وكانت العلامة هى أن الفتاة التي يطلب منها أن تسقيـه، تقدّم له السقاية، وتعرض عليه أن تسقي جماله كذلك.

عبد إبراهيم في أرض حاران

١٠ وَاخْتَارَ الْعَبْدُ عَشَرَةَ جِمَالٍ وَحَمَّلَهَا مِنْ جَمِيعِ خَيْرَاتِ مَوْلاَهُ الَّتِي فِي يَدِه، وَقَامَ وَانْـطَلَقَ إِلَى أَرَامِ النَّهْرَيْنِ إِلَى مَـدِينَةِ نَاحُورَ. ١١ وَهُنَـاكَ أَنَاخَ الْجِمَـالَ خَارِجَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ بِئْرِ الْمَاءِ وَقْتَ الْمَسَاءِ، فِي مَوْعِدِ خُرُوجِ الْمُسْتَقِيَاتِ مِنَ النِّسَاءِ، ١٢ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهَ سَيِّـدِي إِبْرَاهِيمَ، أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُيَسِّرَ أَمْرِي الْيَوْمَ وَتُسْـدِيَ مَعْرُوفاً لِسَيِّـدِي إِبْرَاهِيمَ. ١٣ هَا أَنَـا وَاقِفٌ عِنْدَ بِئْـرِ الْمَاءِ حَـيْثُ تُقْـبِلُ بَنَـاتُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ١٤ فَلْيَكُنْ أَنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي أَقُـولُ لَهَا: ضَعِي جَرَّتَكِ لأَشْرَبَ مِنْهَا، فَـتُجِيبُ: اشْرَبْ وَأَنَا أَسْقِي جِـمَالَكَ أَيْضاً، تَكُونُ هِيَ الَّتِي اخْتَـرْتَهَا لِعَبْدِكَ إِسْـحاق. وَبِذَلِكَ أُدْرِكُ أَنَّكَ أَسْدَيْتَ مَعْرُوفاً لِسَيِّدِي»(١).

ولم يكد العـبدُ يتمُّ صلاته حـتى أقبلت رفـقة ابنة بتوئيل ابـن ملكة زوجة ناحور. ونزلت الفتاة إلى العين فـملأت جرّتها، وما إن صعدت حـتى أسرع إليها عبدُ إبراهيم وطلب مـنها أن تسقيه، فـأسرعت الفتاة وأنزلت جرّتهـا ليشرب، ثم أسرعت إلى البـئر لتسقي جمـاله؛ وهو يرقبها بإعـجاب ودهشة لجمـالها وحسن

---

(١) سفر التكوين - ٢٤.

خلقها. وعندما انتهت من عملها تناول الرجل خزامة ذهبية وسوارين كانا معه ثم ناولها إياهم وسألها من هي؟ وهل في بيت أبيها موضعا يبيت فيه؟ فأجابت بأن عندهم الكثير من التبن والعلف ومكان ليبيتوا فيه. وهرعت الفتاة إلى بيت أمها لتخبرهم بأمر الضيوف.

رفقة عند البئر

١٥وَقَبْلَ أَنْ يُتِمَّ صَلاَتَهُ إِذَا بِهِ يُشَاهِدُ رِفْقَةَ ابْنَةَ بَتُوئِيلَ ابْنِ مِلْكَةَ زَوْجَةِ نَاحُورَ
أَخِي إِبْرَاهِيمَ مُقْبِلَةً، وَجَرَّتُهَا عَلَى كَتِفِهَا. ١٦وَكَانَتِ الْفَتَاةُ رَائِعَةَ الْجَمَالِ، عَذْرَاءَ لَمْ
يَمَسَّهَا رَجُلٌ. فَنَزَلَتْ إِلَى الْعَيْنِ وَمَلأَتْ جَرَّتَهَا ثُمَّ صَعِدَتْ، ١٧فَرَكَضَ الْعَبْدُ
لِلِقَائِهَا وَقَالَ: «أَرْجُوكِ، اسْقِينِي قَلِيلاً مِنْ مَاءِ جَرَّتِكِ». ١٨فَأَجَابَتِ الْفَتَاةُ: «اشْرَبْ
يَاسَيِّدِي». وَأَسْرَعَتْ وَأَنْزَلَتْ جَرَّتَهَا عَلَى يَدِهَا وَسَقَتْهُ. ١٩وَبَعْدَ أَنْ شَرِبَ قَالَتْ:
«أَسْتَقِي لِجِمَالِكَ أَيْضاً حَتَّى تَرْتَوِيَ». ٢٠وَمَضَتْ مُسْرِعَةً وَأَفْرَغَتْ جَرَّتَهَا فِي
حَوْضِ الْمَاءِ، ثُمَّ رَكَضَتْ نَحْوَ الْبِئْرِ فَاسْتَقَتْ لِكُلِّ جِمَالِهِ. ٢١وَظَلَّ الرَّجُلُ يَتَأَمَّلُهَا
صَامِتاً لِيَعْلَمَ إِنْ كَانَ الرَّبُّ قَدْ وَفَّقَ مَسْعَاهُ أَمْ لاَ. ٢٢وَعِنْدَمَا ارْتَوَتِ الْجِمَالُ تَنَاوَلَ
الرَّجُلُ خِزَامَةً ذَهَبِيَّةً وَزْنُهَا نِصْفُ شَاقِلٍ..... وَسُوَارَيْنِ ذَهَبِيَّيْنِ وَزْنُهُمَا عَشَرَةُ
شَوَاقِلَ.....، ٢٣وَسَأَلَهَا: «ابْنَةُ مَنْ أَنْتِ؟ أَخْبِرِينِي: هَلْ فِي بَيْتِ أَبِيكِ مَوْضِعٌ
نَبِيتُ فِيهِ؟» ٢٤فَأَجَابَتْهُ: «أَنَا ابْنَةُ بَتُوئِيلَ ابْنِ مِلْكَةَ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لِنَاحُورَ، ٢٥عِنْدَنَا
كَثِيرٌ مِنَ التِّبْنِ وَالْعَلَفِ، وَمَكَانٌ لِتَبِيتُوا فِيهِ»..... ٢٨فَهُرِعَتِ الْفَتَاةُ وَأَخْبَرَتْ بَيْتَ
أُمِّهَا بِهَذِهِ الأُمُورِ(١).

وما إن وصلت رفقة إلى البيت وحكت حكاية الرجل معها، حتى أسرع لابان أخو رفقة ناحية البئر، ورحّب بالرجل، ودعاه إلى البيت؛ مخبرا إياه أنه قد أعدّ مكانا لمبيته ومبْركا للجمال كذلك. وفي البيت استقبلوه استقبالا طيِّبا، وقدّموا له ماء ليغسل رجليه هو ومرافقوه، وطعاما ليأكلوا، وعلفا للجمال. وقبل أن يباشر العبدُ الطعام، أخبرهم بمقصده وأنه عبد لسيِّده إبراهيم، وقصّ عليهم ما كان من أمر سيِّده إبراهيم وما صار إليه، وأنه قد أرسله ليختار لابنه إسحاق زوجة من أهله، وسألهم إن كانوا يوافقون على إعطائه رفقة زوجة لإسحاق.

---

(١) سفر التكوين - ٢٤.

عبد إبراهيم في بيت لابان

٢٩وكَانَ لِرِفْقَةَ أَخٌ يُدْعَى لاَبَانَ، فَأَسْرَعَ نَحْوَ الرَّجُلِ عِنْدَ بِئْرِ الْمَاءِ، ٣٠إِذْ كَانَ قَدْ رَأَى الْخِزَامَةَ وَالسِّوَارَيْنِ عَلَى يَدَيْ أُخْتِهِ، وَسَمِعَ حَدِيثَهَا عَنِ الرَّجُلِ؛ فَوَجَدَهُ وَاقِفاً بِالْقُرْبِ مِنَ الْجِمَالِ عِنْدَ الْمَاءِ، ٣١فَقَالَ: «ادْخُلْ أَيُّهَا الْمُبَارَكُ مِنَ الرَّبِّ، لِمَاذَا تَقِفُ خَارِجاً؟ لَقَدْ أَعْدَدْتُ الْبَيْتَ وَكَذَلِكَ مَكَاناً لِلْجِمَالِ». ٣٢فَدَخَلَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَحَلَّ عَنِ الْجِمَالِ، وَقَدَّمَ لَهَا تِبْناً وَعَلَفاً، وَأَتَى لاَبَانُ بِمَاءٍ لِغَسْلِ رِجْلَيْهِ وَأَرْجُلِ مُرَافِقِيهِ. ٣٣ثُمَّ وَضَعَ الطَّعَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَأْكُلَ. لَكِنَّهُ قَالَ: «لَنْ آكُلَ حَتَّى أُخْبِرَكُمْ بِمَا يَجِبُ أَنْ أَقُولَهُ». فَقَالَ لَهُ: «تَكَلَّمْ». ٣٤فَقَالَ: «أَنَا عَبْدُ إِبْرَاهِيمَ، . . . . . ٣٧وَقَد اسْتَحْلَفَنِي سَيِّدِي أَلاَّ آخُذَ زَوْجَةً لاِبْنِهِ مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ يَسْكُنُ أَرْضَهُمْ، ٣٨بَلْ أَذْهَبُ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِ وَعَشِيرَتِهِ وَآخُذُ لاِبْنِهِ مِنْهُمْ زَوْجَةً. . . . . ٤٩وَالآنَ إِنْ كُنْتُمْ تُبْدُونَ لُطْفاً وَأَمَانَةً لِسَيِّدِي فَأَجِيبُوا مُلْتَمَسِي، وَإِلاَّ فَأَخْبِرُونِي لأَتَّجِهَ يَمِيناً أَوْ شِمَالاً»(١).

وردًا على سؤاله، أجابه أخوها لابان وأبوها بتوئيل بأنهما لا يملكان رفض أمر كهذا قد صدر من الرب، فأخرج عبدُ إبراهيم ما كان معه من جواهر وثياب وأعطاها لرفقة، وقدّم لأخيها وأبيها تحفا وهدايا أيضا، وأكل وشرب هو ومن معه، وقضوا ليلتهم في سرور وانشراح. وفي الصباح طلب منهم أن يسمحوا لهم بالعودة برفقة ليدخلوا السرور على قلب إبراهيم وإسحاق، ولكنهم طلبوا منه أن يمهلهم عشرة أيام. وأمام إصراره على الرحيل؛ توجّهوا بالسؤال إلى رفقة ليعرفوا رأيها، فأجابت بالموافقة، فجهّزوها للسفر، ودعوا لها بالذرية الصالحة، وأرسلوا معها مُربِّيتها وبعض الجواري.

لابان وبتوئيل يوافقان على زواج رفقة

٥٠فَأَجَابَ لاَبَانُ وَبَتُوئِيلُ: «قَدْ صَدَرَ هَذَا الأَمْرُ مِنَ الرَّبِّ، وَلاَ نَقْدِرُ أَنْ نَقُولَ لَكَ خَيْراً أَوْ شَرّاً. ٥١هَا هِيَ رِفْقَةُ أَمَامَكَ، خُذْهَا وَامْضِ. لِتَكُنْ لاِبْنِ سَيِّدِكَ كَمَا قَالَ الرَّبُّ». ٥٢فَمَا إِنْ سَمِعَ عَبْدُ إِبْرَاهِيمَ كَلاَمَهُمْ حَتَّى خَرَّ عَلَى الأَرْضِ

---

(١) سفر التكوين - ٢٤.

سَاجِداً لِلرَّبِّ، ٥٣ثُمَّ أَخْرَجَ جَوَاهِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَمِنْ ذَهَبٍ وَثِيَاباً وَأَعْطَاهَا لِرِفْقَةَ، وَأَهْدَى أَيْضاً أَخَاهَا وَأُمَّهَا تُحَفاً ٥٤وَأَكَلَ وَشَرِبَ هُوَ وَرِجَالُهُ، وَقَضَوْا لَيْلَتَهُمْ هُنَاكَ. وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظُوا فِي الصَّبَاحِ قَالَ: «أَطْلِقُونِي لأَعُودَ إِلَى سَيِّدِي». ٥٥فَأَجَابَ أَخُوهَا وَأُمُّهَا: «دَعِ الْفَتَاةَ تَمْكُثُ مَعَنَا عَشَرَةَ أَيَّامٍ أَوْ نَحْوَهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَنْطَلِقُ». ٥٦فَقَالَ لَهُمْ: «لاَ تُعِيقُونِي فَالرَّبُّ وَفَّقَ مَسْعَايَ، أَطْلِقُونِي لأَمْضِيَ إِلَى سَيِّدِي». ٥٧فَقَالاَ: «نَدْعُو الْفَتَاةَ وَنَسْأَلُهَا رَأْيَهَا». ٥٨فَدَعَيَا رِفْقَةَ وَسَأَلاَهَا: «أَتَذْهَبِينَ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ؟» فَأَجَابَتْ: «أَذْهَبُ». ٥٩فَصَرَفُوا رِفْقَةَ أُخْتَهُمْ وَمَعَهَا مُرَبِّيَتَهَا وَعَبْدَ إِبْرَاهِيمَ وَرِجَالَهُ، ٦٠وَبَارَكُوا رِفْقَةَ قَائِلِينَ لَهَا: «أَنْتِ أُخْتُنَا، فَلْتَتَكَاثَرِي لِتَصِيرِي أُلُوفَ أُلُوفٍ وَلْتَرِثْ ذُرِّيَّتُكِ مُدُنَ مُبْغِضِيهَا»[١].

زواج إسحاق من رفقة

نهضت رفقة وفتياتها اللواتي سوف يصحبنها فركبن الجمال، وانطلق العبد بهم إلى حيث يقيم سيِّده. ولمّا وصل الركب قرب المساء؛ كان إسحاق يسير في الحقل مُتأملا، ولمّا رأى الجمال مقبلة اتجه نحوها فشاهدته رفقة وقد ترجّلت عن الجمل. سألت رفقة العبد عنه فأخبرها أنه سيِّده إسحاق، فغطت وجهها حياء. واستقبلهم إسحاق هاشًا باشًا، وسمع من العبد حكايته من أولها لآخرها، ثم أدخَل رفقة إلى خيمة أمه سارة فدخل بها. وكان في زواجه من رفقة عزاء له عن فقد أمه.

زواج إسحاق من رفقة

٦١فَنَهَضَتْ رِفْقَةُ وَفَتَيَاتُهَا وَرَكِبْنَ الْجِمَالَ وَتَبِعْنَ الرَّجُلَ. فَانْطَلَقَ الْعَبْدُ بِرِفْقَةَ وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ. ٦٢وَكَانَ إِسحاق الْمُقِيمُ آنَئِذٍ فِي النَّقَبِ قَدْ عَادَ مِنْ طَرِيقِ بِئْرِ«لَحَيْ رُئِي». ٦٣فَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ إِلَى الْحَقْلِ مُتَأَمِّلاً، وَإِذْ تَطَلَّعَ حَوْلَهُ شَاهَدَ جِمَالاً مُقْبِلَةً، ٦٤وَرَفَعَتْ رِفْقَةُ كَذَلِكَ عَيْنَيْهَا وَرَأَتْ إِسحاق فَتَرَجَّلَتْ عَنِ الْجَمَلِ، ٦٥وَسَأَلَتِ الْعَبْدَ: «مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الْمَاشِي فِي الْحَقْلِ لِلِقَائِنَا؟» فَقَالَ الْعَبْدُ: «هُوَ

---

(١) سفر التكوين - ٢٤.

سَيِّدِي». فَتَنَاوَلَت الحِجَابَ وَتَغَطَّتْ. ٦٦ثُمَّ حَـدَّثَ الْعَبْدُ إسحاق بِكُلِّ الأُمُورِ الَّتِي قَامَ بِهَا. ٦٧فَأَدْخَلَ إسحاق رِفْقَةَ إِلَى خَيْمَةِ أُمِّهِ سَارَةَ، وَتَزَوَّجَهَا وَأَحَبَّهَا وَتَعَزَّى بِهَا بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ(١).

مولد عيسو ويعقوب

كان إسحاق في الأربعين من عـمره عندما تزوّج رفقة، وكان مـتشوّقا للولد لكن حمل زوجته تأخر كثيرا حتى بلغ الستين من العمر؛ فصلّى للرب من أجلها. واستجاب الرب دعاءه فحـملت زوجته بتوأمين اثنين. ولما حان وقت الوضع خرج منها غـلامان؛ الأول مكسوا بالشـعر وكأنه يرتدي فـروة حمراء فـسمّوه عيـسو، والآخر نزل ويده قابضة على عقب أخيه فسمّوه يعقوب.

مولد عيسو ويعقوب

١٩وَهَذَا سجلُّ مَوَالِيد إسحاق بْنِ إِبْرَاهِيمَ. أَنْجَبَ إِبْرَاهِيمُ إسحاق. ٢٠وكَانَ إسحـاق فِي الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْـرِه عِنْدَمَا تَزَوَّجَ رِفْـقَةَ بِنْتَ بَتُوئِيـلَ الأَرَامِيِّ مِنْ سَهْلِ أَرَامَ، وَأُخْتَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ. ٢١وَصَلَّى إسـحاق إِلَـى الرَّبِّ مِنْ أَجْلِ امْرَأَتِه لأَنَّهَـا كَانَتْ عَاقِراً، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَمَلَتْ رِفْقَةُ زَوْجَتُهُ..... ٢٤وَعِنْدَمَا اكْتَمَلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي أَحْـشَائِهَا تَوْأَمَان. ٢٥فَخَرَجَ الأَوَّلُ مَكْسُواً بِالـشَّعْرِ وَكَأَنَّهُ يَرْتَدِي فَرْوَةً حَمْـرَاءَ، فَدَعَوْهُ عِيسُـو (وَمَعْنَاهُ أَشْعَرُ). ٢٦ثُمَّ خَرَجَ أَخُـوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ عَلَى عَقِبِ عِيسُو فَـدَعَوْهُ يَعْقُوبَ (وَمَعْنَاهُ مُتَعَقِّبٌ). وَكَانَ إسـحاق فِي السِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا أَنْجَبَتْهُمَا لَهُ رِفْقَةُ(٢).

وعمّت المجـاعة البلاد، فـارتحل إسحاق إلى مـدينة جرار ليـعيش في كنف أبيمالك ملك الفلسطينيين، ولم يذهب إلى مصر كما فعل أبوه إبراهيم من قبل في مثل هذه الحالة؛ لأن الرب أمـره أن لا يذهب إلى مصر بل يمكث في الأرض التي يعيّنهـا له الرب لأن الرب سوف يعطيـه إيّاها له ولذريته، ويبـارك لهم فيهـا وفاء لعهده مع أبيه إبراهيم.

---

(١) سفر التكوين - ٢٤.
(٢) سفر التكوين - ٢٥.

٢٦- إسحاق يقيم في مدينة جرار

وَحَـدَثَ فِي الأَرْضِ جُـوعٌ غَيْـرُ الجُـوعِ الأَوَّلِ الَّذِي كَـانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ،
فَارْتَحَلَ إسحاق إِلَى مَدِينَةِ جَرَارَ حَيْثُ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. ٢فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ
قَائِلاً: «لاَ تَمْضِ إِلَى مِصْرَ، بَلُ امْكُثْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أُعَيِّنُهَا لَكَ. ٣أَقِمْ فِي هَذِهِ
الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنِّي أُعْطِي لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعَ هَذِهِ الأَرْضِ وَفَاءً
بِقَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. ٤وَأُكَثِّرُ ذُرِّيَّتَكَ كَنُجُـومِ السَّمَاءِ وَأَهَبُهَا جَمِيعَ
هَذِهِ الْبِـلاَدِ. وَتَتَبَـارَكُ فِي نَسْلِكَ جَـمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ. ٥لأَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَطَاعَ قَـوْلِي،
وَحَفِظَ أَوَامِرِي وَوَصَايَايَ وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي»..... (١)

إسحاق في مدينة جرار

أقام إسحاق في مدينة جرار؛ ولما سألوه عن زوجته قال أنها أخته لأنه خشي أن يغلبوه عليها بسبب جمـالها الأخّاذ. وذات يوم أطل أبيمالك من نافـذة قصـره فرأى إسحاق يداعب زوجته بطريقة لا يفعلها الأخ مع أخته، فاستدعاه وسأله عن ذلك، فاعترف له إسـحاق بالحقيقة. لامه أبيمـالك قائلا هب أن أحدا من الشعب ضاجعها لأنهـا ليست متزوِّجة فيكون قد ارتكب إثما عظيـما بغير علم منه. وأنذر أبيمالك شعبه أن لا يمسّوا إسحاق بسوء.

..... ٦فَأَقَـامَ إسحـاق فِي مَدِينَةِ جَـرَارَ. ٧وَعِنْدَمَا سَـأَلَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَنْ
زَوْجَته قَالَ: «هِيَ أُخْتِي« لأَنَّهُ خَـافَ أَنْ يَقُولَ: «هِيَ زَوْجَتِي« لِئَلاَّ يَقْتُلَهُ أَهْلُ الْمَدِينَة
مِنْ أَجْلِ رِفْقَةَ، لأَنَّهَا كَانَتْ رَائِعَـةَ الجَمَال. ٨وَحَدَثَ بَعْدَ أَنْ طَالَ مُكُوثُهُ هُنَاكَ، أَنَّ
أَبِيمَالِكَ مَلِكَ الْفِلِسْطِينِـيِّينَ أَطَلَّ مِنَ النَّافِذَةِ، فَشَاهَدَ إسحاق يُدَاعِبُ امْـرَأَتَهُ رِفْقَةَ.
٩فَاسْتَـدْعَاهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّهَا بِالْحَـقِيقَة زَوْجَتُكَ، فَكَيْفَ قُلْتَ هِيَ أُخْـتِي؟« فَأَجَابَ
إسحاق: «لأَنِّي قُلْتُ: لَعَلِّي أُقْتَلُ بِسَبَبِهَا». ١٠فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتَ
بِنَا؟ لَقَدْ كَـانَ يَسِيراً عَلَى أَيٍّ وَاحِـدٍ مِنَ الشَّعْبِ أَنْ يَضْطَجِعَ مَعَ زَوْجَتِكَ فَـتَجْلِبُ

(١) سفر التكوين - ٢٦.

بِذَلِكَ عَلَيْنَا إِثْماً». ١١وَأَنْذَرَ أَبِيمَالِكُ كُلَّ الشَّعْبِ قَائِلاً: «كُلُّ مَنْ يَمَسُّ هَذَا الرَّجُلَ أَوْ زَوْجَتَهُ فَحَتْماً يَمُوتُ»(١).

وعاش إسحاق بينهم يزرع ويحصد، ويبارك الله زرعه أضعاف أضعاف؛ حتى عظُم شأنُه، وزاد غناه ونفوذه بينهم. وحسده الفلسطينيون، وردموا جميع الآبار التي كان قد حفرها عبيد أبيه إبراهيم من قبل، وانقلب عليه أبيمالك وأمره بأن يرحل عنهم. انصرف إسحاق من جوار أبيمالك وضرب خيامه في الوادي بعيدا عنهم.

..... ١٢وَزَرَعَ إِسْحَاق فِي تِلْكَ الأَرْضِ، فَحَصَدَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِئَةَ ضِعْفٍ لأَنَّ اللهَ بَارَكَهُ. ١٣وَعَظُمَ شَأْنُ الرَّجُلِ، وَتَزَايَدَ غِنَاهُ وَأَصْبَحَ وَاسِعَ الثَّرَاءِ وَالنُّفُوذِ. ١٤وَصَارَتْ لَهُ مَاشِيَةٌ، غَنَمٌ وَقُطْعَانُ بَقَرٍ وَعَبِيدٌ كَثِيرُونَ. فَحَسَدَهُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ. ١٥وَرَدَمَ الْفِلِسْطِينِيُّونَ بِالتُّرَابِ جَمِيعَ الآبَارِ الَّتِي حَفَرَهَا عَبِيدُ أَبِيهِ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ. ١٦وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِسْحَاق: «ارْحَلْ عَنَّا لأَنَّكَ أَصْبَحْتَ أَكْثَرَ قُوَّةً مِنَّا». ١٧فَانْصَرَفَ إِسْحَاق مِنْ هُنَاكَ وَضَرَبَ خِيَامَهُ فِي وَادِي جَرَارَ حَيْثُ أَقَامَ(٢).

لم تتوقف النزاعات بين رعاة إسحاق ورعاة أبيمالك حول آبار المياه، وكلّما حفر رعاة إسحاق بئرا نازعهم عليها رعاة أبيمالك. انتقل إسحاق بأمواله وماشيته إلى بئر سبع ليبتعد عن مناطق نفوذ أبيمالك؛ فتجلّى له الرب هناك وقال له: لا تخف فأنا معك، أنا هو إله إبراهيم أبيك وسوف أباركك وأُكثّر ذرّيتك، فشيّد مذبحا للرب، ونصب خيمته، وحفر عبيده بئرا لم ينازعهم عليها عبيد أبيمالك.

النزاع بين إسحاق ورعاة أبيمالك

١٨وَأَعَادَ إِسْحَاق حَفْرَ آبَارِ الْمِيَاهِ الَّتِي كَانَ قَدْ تَمَّ حَفْرُهَا فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ وَرَدَمَهَا الْفِلِسْطِينِيُّونَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ، وَدَعَاهَا بِالأَسْمَاءِ الَّتِي أَطْلَقَهَا عَلَيْهَا أَبُوهُ. ١٩وَعِنْدَمَا حَفَرَ عَبِيدُ إِسْحَاق فِي الْوَادِي وَعَثَرُوا عَلَى بِئْرِ مَاءٍ جَارٍ، ٢٠خَاصَمَ رُعَاةُ

(١) (٢) سفر التكوين – ٢٦.

مَدينَة جرَارَ رُعَاةَ إسحاق قَائلينَ: «هَذَا المَاءُ لَنَا». فَدَعَا الْبِئْرَ «عسق» لأَنَّهُمْ نَازَعُوهُ
عَلَيْهَا. ٢١ثُمَّ حَفَرُوا بِئْراً أُخْرَى وَتَخَاصَمُوا عَلَيْهَا، فَدَعَاهَا «سطْنَةَ» (وَمَعْنَاهَا
عَدَاوَةٌ). ٢٢وَانْتَقَلَ بَعْدَ ذَلكَ منْ هُنَاكَ وَحَفَرَ بِئْراً أُخْرَى وَلَمْ يَتَنَازَعُوا عَلَيْهَا، فَدَعَا
اسْمَهَا «رَحُوبُوتَ». (وَمَعْنَاهَا الأَمَاكنُ الرَّحْبَةُ) قَائلاً: «لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْحَبَ الآنَ لَنَا
وَأَثْمَرْنَا في الأَرْضِ». ٢٣ثُمَّ مَضَى منْ هُنَاكَ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ. ٢٤فَتَجَلَّى لَهُ الرَّبُّ في
تلْكَ اللَّيْلَة وَقَالَ: «أَنَا هُوَ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ وَأُبَارِكُكَ وَأُكَثِّرُ
ذُرِّيَّتَكَ منْ أَجْلِ عَبْدي إِبْرَاهِيمَ». ٢٥فَشَيَّدَ إسحاق هُنَاكَ مَذْبَحاً وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ،
ثُمَّ نَصَبَ هُنَاكَ خَيْمَتَهُ، وَحَفَرَ عَبِيدُهُ بِئْراً[١].

الميثاق بين إسحاق وأبيمالك

وفوجئ إسحاق بمقدم أبيمالك ومستشاره ورئيس جيشه عليه في مقره الجديد في بئر سبع؛ فتوجّس من مقدمهم، وسألهم ما الذي أتى بهم وقد ابتعد عنهم لتجنُّب النزاع معهم؟ فأجابوه بأنهم قد أتوا ليعقدوا معه معاهدة عدم اعتداء فيما بينهم لا يسيء إليهم ولا يسيئون إليه لأنهم تيقّنوا أنه مبارك ومؤيّد من الرب، ويخشون من غضبه عليهم. وباتوا ليلتهم عنده وأكلوا وشربوا، ثم غادروه في الصباح بعد أن أقسموا فيما بينهم أن لا يعتدي أحدهم على الآخر.

الميثاق بين إسحاق وأبيمالك

٢٦وَأَقْبَلَ عَلَيْه منْ مَدينَة جرَارَ أَبِيمَالكُ وَأَحُزَّاتُ مُسْتَشَارُهُ، وَفِيكُولُ رَئِيسُ
جَيْشه. ٢٧فَقَالَ لَهُمْ إسحاق: «مَا بَالُكُمْ قَدْ أَتَيْتُمْ إِلَيَّ، وَأَنْتُمْ قَدْ أَبْغَضْتُمُونِي
وَصَرَفْتُمُونِي منْ عنْدكُمْ؟» ٢٨فَأَجَابُوهُ: «لَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الرَّبَّ مَعَكَ، فَقُلْنَا: ليَكُنْ
بَيْنَنَا حَلْفٌ وَلْنَقْطَعْ مَعَكَ عَهْداً: ٢٩أَنْ لاَ تُسِيءَ إِلَيْنَا كَمَا لَمْ نَمَسَّكَ بِشَرٍّ وَلَمْ
يُصِبْكَ منَّا سوَى الْخَيْرِ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ بِسَلاَمٍ. وَهَا أَنْتَ الآنَ مُبَارَكٌ منَ الرَّبِّ».
٣٠فَأَقَامَ لَهُمْ مَأْدُبَةً فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا. ٣١ثُمَّ بَكَّرُوا في الصَّبَاحِ وَحَلَفَ بَعْضُهُمْ
لبَعْضٍ، وَشَيَّعَهُمْ إسحاق فَانْصَرَفُوا بِسَلاَمٍ.....[٢]

(١) (٢) سفر التكوين - ٢٦.

خدعة يعقوب وأمه رفقة

لما شاخ إسحاق وضعُف بصرُه؛ طلب من ابنه الأكبر عيسو أن يُعدّ له طعاما شهيا من صيد يده ليأكله فتطيب نفسه ويباركه قبل أن تحين منيّته.

٢٧- إسحاق يتأهب لمباركة عيسو

وَلَمَّا شَاخَ إسحاق وَضَعُفَ بَصَرُهُ اسْتَدْعَى ابْنَهُ الأَكْبَرَ عيسو وَقَالَ لَهُ: «يَابُنَيَّ»،
٢هَا أَنَا قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ مَتَى يَحِينُ يَوْمُ وَفَاتِي. ٣فَالآنَ خُذْ عُدَّتَكَ:
جُعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ، وَامْضِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَاقْتَنِصْ لِي صَيْداً. ٤وَجَهِّزْ لِي طَعَاماً شَهِيّاً
كَمَا أُحِبُّ وَائْتِنِي بِهِ لآكُلَ، لِتُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ»(١).

وسمعت رفقة كلام إسحاق لعيسو. ولما كانت تميل ليعقوب أكثر من عيسو، فقد لجأت إلى حيلة خبيثة لتحصل على بركة إسحاق ليعقوب بدلا من عيسو. وطلبت من يعقوب أن يُسرع بذبح جديين من القطيع لتُجهّز لإسحاق الأكلة التي طلبها من عيسو فيُقدِّمها له يعقوب فينال بركته. ولما كان عيسو رجلا أشعر ويعقوب رجلا أملس، فقد ألبسته ثياب أخيه عيسو، وغطّت يديه وعنقه بجلد الجديين ليصير كأنه عيسو فلا يتعرّف عليه إسحاق.

مؤامرة رفقة

٥وَسَمِعَتْ رِفْقَةُ حَدِيثَ إسحاق لابْنِه عيسو. فَعِنْدَمَا انْطَلَقَ عيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ
لِيَصْطَادَ صَيْداً وَيَأْتِيَ به. ٦قَالَتْ رِفْقَةُ لابْنِهَا يَعْقُوبَ: «سَمِعْتُ أَبَاكَ يَقُولُ لعيسو
أَخِيكَ ٧اقْتَنِصْ لِي صَيْداً، وَجَهِّزْ لِي أَطْعِمَةً شَهِيَّةً لآكُلَ وَأُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ
مَوْتِي». ٨وَالآنَ يَابُنَيَّ أَطِعْ قَوْلِي فِي مَا آمُرُكَ بِه، ٩وَاذْهَبْ إِلَى قَطِيعِ الْمَاشِيَةِ،
وَاخْتَرْ جَدْيَيْنِ لأُجَهِّزَ لأَبِيكَ أَطْعِمَةً شَهِيَّةً كَمَا يُحِبُّ، ١٠تُقَدِّمُهَا لأَبِيكَ لِيَأْكُلَ،
فَيُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاته». . . . . ١٤فَذَهَبَ وَاخْتَارَهُمَا وَأَحْضَرَهُمَا لأُمِّه، فَأَعَدَّتْ رِفْقَةُ
الأَطْعِمَةَ الْمُطَيَّبَةَ كَمَا يُحِبُّ أَبُوهُ ١٥وَتَنَاوَلَتْ ثِيَابَ بِكْرِهَا عيسُو الْفَاخِرَةَ الْمَوْجُودَةَ
عِنْدَهَا فِي الْبَيْتِ وَأَلْبَسَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ، ١٦وَكَذَلِكَ غَطَّتْ يَدَيْهِ وَمَلاَسَةَ
عُنُقِه بِجِلْدِ الْجَدْيَيْنِ. ١٧وَأَعْطَتْهُ مَا أَعَدَّتْهُ مِنَ الأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ وَالْخُبْزِ(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين - ٢٧.

يعقوب يسرق البركة

وأقبل يعقـوب على أبيه بالطعام الذي أعدّته أمُّه رفقـة، ولما دنا يعقوب من أبيه وجسّـه بيديه لأن نظره كان قد ضـعف فلا يرى جيدا، قـال: الصوت صوت يعقوب أما اليدان فهما يدا عيسو. ثم أكل وشرب وباركه.

يعقوب يسرق البركة

١٨فَـأَقْبَلَ عَلَـى أَبِيهِ وَقَـالَ: «يَاأَبِي». فَـأَجَابَـهُ: «نَعَمْ يَا ابْنِي، مَنْ أَنْتَ؟«
١٩فَقَالَ يَـعْقُوبُ: «أَنَا عِيـسُو بِكْرُكَ. وَقَدْ فَعَلْتُ كَـمَا طَلَبْتَ، وَالآنَ قُمْ وَاجْلِسْ
وَكُلْ مِنْ صَيْدِي حَتَّى تُبَارِكَنِي»...... ٢١وَقَـالَ إِسحاق: «اقْتَرِبْ مِنِّي لأَجُسَّكَ يَا
ابْنِي لأَرَى إِنْ كُنْتَ حَقّاً ابْنِي عِيسُو أَمْ لاَ». ٢٢فَدَنَا يَعْقُوبُ مِنْ أَبِيهِ إسحاق فَجَسَّهُ
وَقَالَ: «الصَّوْتُ صَوْتُ يَعْـقُوبَ، أَمَّا الْيَدَانِ فَهُمَا يَدَا عِـيسُو»...... ٢٥ثُمَّ قَالَ:
«قَدِّمْ لِي مِنْ صَيْدِكَ حَتَّى آكُلَ وَأُبَارِكَكَ». فَأَحْضَرَ يَعْقُوبُ إِلَيْهِ الطَّعَامَ فَأَكَلَ ثُمَّ قَدَّمَ
لَهُ خَمْراً فَشَرِبَ، ٢٦فَقَالَ لَهُ إسحاق أَبُوهُ: «تَعَالَ وَقَبِّلْنِي يَاوَلَدِي». ٢٧فَاقْتَرَبَ مِنْهُ
وَقَبَّلَهُ، فَـتَنَسَّمَ رَائِحَةَ ثِيَابِـهِ وَبَارَكَهُ قَائِلاً: «هَا إِنَّ رَائِحَـةَ ابْنِي كَرَائِحَةِ حَـقْلٍ بَارَكَهُ
الرَّبُّ، ٢٨فَلْيُنْعِمْ عَلَيْكَ الرَّبُّ مِنْ نَدَى الـسَّمَاءِ وَمِنْ خَـيْرَاتِ الأَرْضِ، فَيُـكَثِّرُ لَكَ
الْحِنْطَةَ وَالْخَمْـرَ. ٢٩لِتَخْدُمْكَ الشُّـعُوبُ، وَتَسْجُـدْ لَكَ الْقَبَائِلُ، لِتَكُنْ سَـيِّداً عَلَى
إِخْـوَتِـكَ. وَبَنُو أُمِّكَ لَكَ يَنْـحَنُونَ. وَلْيَكُنْ لاَعِنُـوكَ مَلْعُـونِـينَ، وَمُـبَـارِكُـوكَ
مُبَارَكِينَ»(١).

ولمّا رجع عيسو من صيده، جهّـز الطعام الذي طلبه أبوه وأحضره إليه ليأكل فسـأله يعقوب من أنت؟ ولما عـرف أنه عيـسو ارتعد وصـرخ قائلا ومن هو الذي باركته من قبل؟ ومـا إن عرف عيسو بالمؤامرة حتى صرخ صـرخة هائلة وقال لأبيه باركني أنا أيضا يا أبي، فأجـاب إسحاق لقد مكر بي أخوك وسـرق بركتك. وقال عيـسو بمرارة لقـد سرقني مـرتين؛ مرة حين أخـذ بكورتي، وها هو يسلبني الآن بركتي. وأجهش عيسو بالبكاء.

---

(١) سفر التكوين - ٢٧.

٣٠ولَمَّا فَرَغَ إسحاق مِنْ مُبَارَكَةِ يَعْـقُوبَ، وَخَرَجَ يَعْقُوبُ مِنْ عِنْدِ أَبِيهِ، رَجَعَ عِيسُو مِنْ صَيْدِهِ، ٣١فَجَهَّزَ هُوَ أَيْضاً أَطْعِـمَةً طَيِّبَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ: «لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ فَتُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢فَقَالَ إسحاق: «مَنْ أَنْتَ؟» فَأَجَابَهُ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ٣٣فَارْتَعَـدَ إسحاق بِعُنْفٍ وَقَالَ: «مَنْ هُوَ إِذاً الَّذِي اصْطَادَ صَيْداً وَأَحْضَرَهُ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ وَحَقّاً يَكُونُ مُبَارَكاً». ٣٤فَمَا إِنْ سَمِعَ عِيسُو كَلاَمَ أَبِيهِ حَتَّى أَطْلَقَ صَرْخَةً هَائِلَةً وَمُرَّةً جِداً وَقَالَ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَاأَبِي». ٣٥فَأَجَابَ: «لَقَدْ مَكَرَ بِي أَخُوكَ وَسَلَبَ بَرَكَتَكَ». ٣٦فَقَالَ: «أَلَمْ يُدْعَ اسْـمُهُ يَعْـقُوبَ؟ لَقَـدْ تَعَـقَّبَنِي مَـرَّتَيْنِ: أَخَذَ بَكُـورِيَّتِي، وَهَا هُوَ يَسْلُبُنِي الآنَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا احْتَفَظْتَ لِي بِبَرَكَةٍ؟» ٣٧فَأَجَابَ إسحاق: «لَقَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّداً لَكَ، وَصَيَّرْتُ جَمِـيعَ إِخْوَتِهِ لَهُ خُدَّاماً، وَبِالْحِنْطَةِ وَالْخَمْرِ أَمْـدَدْتُهُ. فَمَاذَا أَفْعَلُ لَكَ الآنَ يَا وَلَدِي؟». ٣٨فَقَالَ عِـيسُو: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَـقَطْ يَاأَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَاأَبِي». وَأَجْهَشَ عِيـسُو بِالْبُكَاءِ بِصَوْتٍ عَالٍ. ٣٩فَأَجَـابَهُ أَبُوهُ: «هَا مَسْكَنُكَ يَكُونُ فِي أَرْضٍ جَدْبَاءَ لاَ يَهْطُلُ عَلَيْـهَا نَدَى السَّمَـاءِ. ٤٠بِسَيْفِكَ تَعِـيشُ وَلأَخِيكَ تَكُونُ عَبْداً، وَلَكِنْ حِينَ تَجْمَحُ تُحَطِّمُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ»(١).

يعقوب يهرب إلى حاران

كان من شدّة سخط عيسو على أخيـه يعقوب بسبب ما سرقه منه؛ يقول في نفســه قريبا يموت أبـي فأقتله جـزاء له على ما سلبه مـني. وأحسّت أمه رفـقة بما تُحدّثه به نفســه فخافت على يعقوب. ومن أجل أن لا تخـسر ولديها، طلبت من يعقـوب أن يهرب من وجه أخـيه، ويقصـد أخاها لابان في حاران فـيمكث عنده حتى تهدأ ثائرةُ أخيه.

(١) سفر التكوين - ٢٧.

تصميم عيسو على قتل اخيه

٤١وَحَقَدَ عِيسُو عَلَى يَعْقُوبَ مِنْ أَجْلِ مَا نَالَهُ مِنْ بَرَكَةِ أَبِيهِ. فَنَاجَى نَفْسَهُ: «قَرِيباً يَمُوتُ أَبِي، وَبَعْدَئِذٍ أَقْتُلُ أَخِي يَعْقُوبَ». ٤٢فَبَلَغَ رِفْقَةَ وَعِيدُ عِيسُو ابْنِهَا الأَكْبَرِ، فَأَرْسَلَتْ وَاسْتَدْعَتْ يَعْقُوبَ ابْنَهَا الأَصْغَرَ وَقَالَتْ لَهُ: «عِيسُو يُخَطِّطُ لِقَتْلِكَ». ٤٣وَالآنَ يَاابْنِي أَصْغِ لِقَوْلِي، وَقُمِ اهْرُبْ إِلَى أَخِي لاَبَانَ إِلَى حَارَانَ، ٤٤وَأَمْكُثْ عِنْدَهُ أَيَّاماً قَلاَئِلَ رَيْثَمَا يَهْدَأُ سُخْطُ أَخِيكَ. ٤٥وَمَتَى سَكَنَ غَضَبُهُ وَنَسِيَ مَا صَنَعْتَ بِهِ، عِنْدَئِذٍ أَبْعَثُ إِلَيْكَ لِتَعُودَ مِنْ هُنَاكَ. فَلِمَاذَا أُحْرَمُ مِنْكُمَا كِلَيْكُمَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟ »[(١)].

وقبل رحيل يعقوب إلى سهل آرام حيث يقيم خاله لابان، باركه إسحاق وأوصاه أن يتزوّج من إحدى بنات خاله.

٢٨- إسحاق يرسل يعقوب إلى لابان

فَاسْتَدْعَى إسحاق يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ قَائِلاً: «لاَ تَتَزَوَّجْ مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢قُمِ انْطَلِقْ إِلَى سَهْلِ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَتَزَوَّجْ إِحْدَى بَنَاتِ خَالِكَ لاَبَانَ. ٣وَلْيُبَارِكْكَ اللهُ الْقَدِيرُ وَيُنَمِّكَ وَيُكَثِّرْكَ لِتَكُونَ أُمَّةً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، . . . .[(٢)].

موت إسحاق

وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة. ولما مات، دفنه ابناه عيسو ويعقوب في حبرون حيث تغرّب معظم عمره مثل أبيه إبراهيم.

موت إسحاق

٢٧وَقَدِمَ يَعْقُوبُ عَلَى إسحاق أَبِيهِ إِلَى مَمْرَا فِي قَرْيَةِ أَرْبَعَ الْمَعْرُوفَةِ بِحَبْرُونَ حَيْثُ تَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ وَإسحاق. ٢٨وَعَاشَ إسحاق مِئَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً، ٢٩ثُمَّ أَسْلَمَ رُوحَهُ وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ شَيْخاً طَاعِناً فِي السِّنِّ وَدَفَنَهُ ابْنَاهُ عِيسُو وَيَعْقُوبُ[(٣)].

(١) سفر التكوين – ٢٧. (٢) سفر التكوين – ٢٨. (٣) سفر التكوين – ٣٥.

إسحاق في القرآن
ذريـة إبراهيـم

رزق الله إبراهيم؛ إسحاق، ثم رزقه من إسحاق يعقوب، وكثّر من ذريته، وبارك فيهم، وجعل منهم الأنبياء والرسل؛ كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، كما جعل منهم من أفرط على نفسه وبالغ في عصيانه فاستحق عقاب الله.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)﴾ [الأنعام].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢)﴾ [الأنبياء].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [العنكبوت].

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ [الصافات].

وكان إبراهيم دائم الحمد لربه على أن رزقه في شيخوخته بالذرية، ومتّعه برؤية الولد بعد طول العمر؛ فقد رُزق بإسماعيل من سريته هاجر، وبإسحاق من زوجته سارة؛ وقد بلغ سنه المائة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم].

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ [مريم].

الملائكة تبشر بإسحاق

لما جاءت ملائكة الله إلى إبراهيم تُبشّره بمولد إسحاق؛ وسمعت زوجته سارة بالبشرى، ضحكت وانتشت، ثم تساءلت مستغربة: أيُعْقل أن ألد وأنا في هذه السن وزوجي قد شاخ، أليس هذا بالشيء العجيب؟ فقالت الملائكة: ولم تعجبين من هذا الأمر؟ أوليس الله بقادر على كل شيء؟ ورحمته وسعت كل شيء؟

ولما تعجّب إبراهيم من هذا الأمر، قالوا له إنها بشرى حقّ، ودعوه أن لا يكون من الآيسين من رحمة الله، فقال وهل ييأس من رحمة الله إلا الكافرون.

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣)﴾ [هود].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ [الحجر].

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠)﴾ [الذاريات].

إلى إسحاق تُنْسَب نفس الكذبة التي نُسِبَت إلى أبيه إبراهيم من قبل بشأن زوجته، حيث ذهب ليعيش بجوار أبيمالك في مدينة جرار وقال عنها أنها أختُه. والمرء يحار من التكرار الرتيب وتشابه الأحداث والمواقف مع اختلاف فقط في المكان والزمان والأشخاص. وهذا ما نلمسه جليّا في أحداث التوراة.

وما ذكرته التوراة عن مؤامرة رفقة من أجل أخذ البركة من زوجها إسحاق لابنها يعقوب بدلا من ابنها عيسو، وإلباس يعقوب ملابس عيسو، وتغطية يديه وعنقه بجلد الجديين ليصير كأنه عيسو فلا يتعرف عليه إسحاق؛ تبدو غريبة جدا. فأي أب يتوه عن ولد من أولاده حتى لو كان هذا الأب غيرَ مُبْصر؛ خاصة لو كانا ولدين اثنين وليس أكثر.

ويزداد الأمر غرابة حينما يعرف إسحاق بالمؤامرة، فلا يصدُر منه أي رد فعل سوى الصراخ والاستسلام لما حدث؛ وكأن البركة شيء مادي ملموس وفريد؛ يُعطى لواحد فقط، ولا يمكن استرداده منه حتى لو أخذه بغير حق. وهنا يُلِح تساؤل على قلب كل مؤمن حقّا؛ أين عدالة الله ومشيئته؟ ثم أليست البركة من الأب لابنه تأتي بالدعاء؟ فما الذي يمنع الأب من أن يدعو لجميع أبنائه فلا تقتصر بركته على أي منهما؟ والاستغراب في حالتنا هذه يكون أكيدا؛ خاصة أن إسحاق كان ينوي مباركة عيسو وليس يعقوب.

وما ورد في القرآن بشأن إسحاق من معلومات قليل جدا لأن قصص القرآن التي تتناول شخصيات بعينها أو أحداث بعينها لا تأتي تأريخا لشخص أو لحدث، بل تتناول بعض الجوانب دون ذكر كثير من التفاصيل، فالهدف من القصص القرآني هو استخلاص الحكمة والموعظة من خلال الحدث أو القصة التي يأتي ذكرها.

الفصل التاسع

يعقوب

يعقوب في التوراة

مولد عيسو ويعقوب

حملت رفقة زوجة إسحاق بتوأمين اثنين. ولمّا كانت تشتكي من صعوبة الحمل، كان الرب يطمئنها ويبشّرها بأنها سوف تلد غلامين يتفرع منهما شعبان كبيران؛ شعب يستقوي على شعب، وشعب صغير يستعبد شعبا كبيرا. ولما حان وقت الوضع خرج منها غلامان؛ الأول مكسوّا بالشعر وكأنه يرتدي فروة حمراء؛ فسمّوه عيسو، والآخر نزل ويده قابضة على عقب أخيه فسُمّي يعقوب.

مولد عيسو ويعقوب

. . . . . ٢١وَصَلَّى إِسْحقُ إِلَى الرَّبِّ مِنْ أَجْلِ امْرَأَتِه لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِراً، فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ، فَحَمَلَتْ رِفْقَةُ زَوْجَتُهُ. ٢٢وَإِذْ تَصَارَعَ الطِّفْلاَنِ فِي بَطْنِهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ الأَمْرُ هكَذَا فَمَا لِي وَالْحَبَلُ؟» وَمَضَتْ لِتَسْتَفْهِمَ مِنَ الرَّبِّ ٢٣فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي أَحْشَائِكِ أُمَّتَانِ، يَتَفَرَّعُ مِنْهُمَا شَعْبَانِ. شَعْبٌ يَسْتَقْوِي عَلَى شَعْبٍ، وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ». ٢٤وَعِنْدَمَا اكْتَمَلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي أَحْشَائِهَا تَوْأَمَانِ. ٢٥فَخَرَجَ الأَوَّلُ مَكْسُواً بِالشَّعْرِ وَكَأَنَّهُ يَرْتَدِي فَرْوَةً حَمْرَاءَ، فَدَعَوْهُ عِيسُو (وَمَعْنَاهُ أَشْعَرُ). ٢٦ثُمَّ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ عَلَى عَقِبِ عِيسُو فَدَعَوْهُ يَعْقُوبَ (وَمَعْنَاهُ مُتَعَقِّبٌ). وَكَانَ إِسْحقُ فِي السِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا أَنْجَبَتْهُمَا لَهُ رِفْقَةُ(١).

عيسو يبيع بكوريته ليعقوب

كبر الوليدان، وأصبح عيسّو رجل صيد يعيش على ما يصطاده من البرية، أما يعقوب فقد كانت طبيعته تميل إلى الهدوء والإقامة في الخيام عكس أخيه. وكان إسحاق يحب عيسو أكثر من أخيه؛ بعكس رفقة التي كان قلبها أكثر ميلا ليعقوب.

---

(١) سفر التكوين – ٢٥.

ذات يوم عاد عيسو من البرية مُرْهقا وجائعا؛ وكان يعقوب قد أعدّ أكلة عدس، فطلب منه عيسو أن يطعمه منها. ساومه يعقوب على الأكل؛ مستغلاّ جوعه، وطلب منه أن يبيعه بكوريته مقابل ذلك. وكانت البكورية في عرفهم تعني امتيازات كبيرة للبكر عن بقية إخوته فيما يتعلق بالميراث والبركة وغيرها. ولمّا كان عيسو جائعا؛ ولم يكن يأمل في طول العمر، فقد استخفّ بطلب أخيه، وتنازل له عن بكوريته. أعطاه يعقوب الأكل، فأكل وشرب ومضى إلى حال سبيله؛ غير مكترس كثيرا بما فعل.

عيسو يبيع بكوريته

٢٧وَكَبُرَ الْوَلَدَانِ، فَأَصْبَحَ عِيسُو صَيَّاداً مَاهِراً وَرَجُلَ بَرِّيَّةٍ، بَيْنَمَا كَانَ
يَعْقُوبُ رَجُلاً هَادِئاً يُقِيمُ فِي الْخِيَامِ. ٢٨وَأَحَبَّ إِسْحقُ عِيسُو لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ
مِنْ صَيْدِهِ، أَمَّا رِفْقَةُ فَقَدْ أَحَبَّتْ يَعْقُوبَ. ٢٩وَذَاتَ مَرَّةٍ عَادَ عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ
مُرْهَقاً فَوَجَدَ يَعْقُوبَ قَدْ طَبَخَ طَعَاماً، ٣٠فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ
هَذَا الطَّبِيخِ الأَحْمَرِ لأَنَّنِي جَائِعٌ جِداً». لِهَذَا دُعِيَ عِيسُو بِأَدُومَ. ٣١فَقَالَ
يَعْقُوبُ: «بِعْنِي أَوَّلاً امْتِيَازَاتِ بَكُورِيَّتِكَ». ٣٢فَقَالَ عِيسُو: «أَنَا لاَبُدَّ مَائِتٌ،
فَأَيُّ نَفْعٍ لِي مِنْ بَكُورِيَّتِي؟» ٣٣فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِي أَوَّلاً». فَحَلَفَ
لَهُ، وَبَاعَ امْتِيَازَاتِ بَكُورِيَّتِهِ لِيَعْقُوبَ. ٣٤عِنْدَئِذٍ أَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُو خُبْزاً
وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ ثُمَّ قَامَ وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ. وَهكَذَا احْتَقَرَ عِيسُو
امْتِيَازَاتِ الْبَكُورِيَّةِ(١).

لمّا شاخ إسحاق وضعُف بصره، طلب من ابنه الأكبر عيسّو أن يعدّ له طعاما شهيا من صيد يده ليأكله؛ فتطيب نفسه ويباركه قبل أن تحين منيّته. ولما سمعت زوجة إسحاق بالأمر، احتالت فجعلت ابنها يعقوب يحلّ مكان ابنها عيسو في تقديم الطعام لأبيه لنيل بركته بدلا من عيسّو. ولما رجع عيسو من صيده، وجهّز الطعام لأبيه، وأحضره إليه، اكتشف أن عيسو قد سبقه بالطعام إلى أبيه ونال بركته بدلا منه. وخشيت رفقة من انتقام عيسو، وخافت على

(١) سفر التكوين - ٢٥.

يعقوب، فطلبت منه أن يهرب من وجه أخيه، ويقصد أخاها لابان في حاران؛ فيمكث عنده حتى تهدأ ثائرة أخيه (تفاصيل أكثر في سيرة إسحاق في الفصل الثامن).

حلم يعقوب في بيت إيل

في طريقه من بئر سبع إلى حاران؛ وفي موضع يدعى لوز، بات يعقوب ليلته فرأى في حلمه سلّما قائما على الأرض ورأسُه في السماء وملائكة الله صاعدة نازلة، ورأى الربَّ نفسَه واقفا فوق السلم ويقول له: أنه معه يرعاه، وأنه سوف يُعطي الأرض التي يرقد عليها له ولذريته، وأنه سوف يُكثِّر ذرّيته ويباركها. ولمّا أفاق من نومه، اعتراه خوف شديد وقال لا بد وأن هذا المكان هو بيت الله، وأن ما رآه في حلمه هو باب السماء، وسَمَّى المكان بيت إيل (بيت الله).

حلم يعقوب في بيت إيل

١٠أَمَّا يَعْقُوبُ فَتَوَجَّهَ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ نَحْوَ حَارَانَ، ١١فَصَادَفَ مَوْضِعاً
قَضَى فِيهِ لَيْلَتَهُ لأَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ قَدْ غَابَتْ، فَأَخَذَ بَعْضَ حِجَارَةِ الْمَوْضِعِ
وَتَوَسَّدَهَا وَبَاتَ هُنَاكَ. ١٢وَرَأَى حُلْماً شَاهَدَ فِيهِ سُلَّماً قَائِمَةً عَلَى الأَرْضِ
وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَمَلاَئِكَةُ الله تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا، ١٣وَالرَّبُّ نَفْسُهُ
وَاقِفٌ فَوْقَهَا يَقُولُ: «أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحقَ. إِنَّ الأَرْضَ
الَّتِي تَرْقُدُ عَلَيْهَا الآنَ أُعْطِيهَا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، ١٤الَّتِي سَتَكُونُ كَتُرَابِ الأَرْضِ،
وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً، وَشَمَالاً وَجَنُوباً، وَتَتَبَارَكُ بِكَ وَبِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعُ شُعُوبِ
الأَرْضِ. . . . . ١٦ثُمَّ أَفَاقَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «حَقّاً إِنَّ الرَّبَّ فِي هَذَا
الْمَوْضِعِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ!» ١٧وَاعْتَرَاهُ خَوْفٌ وَقَالَ: «مَا أَرْهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا
سِوَى بَيْتِ الله وَهَذَا هُوَ بَابُ السَّمَاءِ». . . . . ١٩وَدَعَا الْمَكَانَ «بَيْتَ إِيلَ»
(وَمَعْنَاهُ: بَيْتُ اللهِ) وَكَانَ اسْمُ الْمَدِينَةِ أَوَّلاً «لُوزَ»(١).

(١) سفر التكوين - ٢٨.

يعقوب في حاران

وصل يعقوب أرض حاران، وقرب بئر الماء وجد بعض الرعاة ينتظرون، فسألهم إن كانوا يعرفون لابان بن ناحور، فقالوا نعم وأشاروا إلى فتاة مقبلة قائلين ها هي ابنته راحيل قادمة. وسألهم لماذا لا تسقون؟ فقالوا ننتظر حتى يجتمع بقية الرعيان لنتعاون على دحرجة الحجر عن البئر؛ فنسقي الغنم.

٢٩- رحلة يعقوب

وَتَابَعَ يَعْقُوبُ رِحْلَتَهُ حَتَّى وَصَلَ أَرْضَ حَارَانَ. ٢وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ فَشَاهَدَ بِئْراً فِي الْحَقْلِ، تَرْبِضُ عِنْدَهَا ثَلاَثَةُ قُطْعَانِ غَنَمٍ، . . . . . ٤فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: «يَاإِخْوَتِي مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟» فَأَجَابُوا: «نَحْنُ مِنْ حَارَانَ». ٥فَسَأَلَهُمْ: «أَتَعْرِفُونَ لاَبَانَ بْنَ نَاحُورَ؟» فَأَجَابُوا: «نَعْرِفُهُ». ٦فَقَالَ لَهُمْ: «أَهُوَ بِخَيْرٍ؟». فَأَجَابُوهُ: «هُوَ بِخَيْرٍ، وَهَا هِيَ رَاحِيلُ ابْنَتُهُ مُقْبِلَةٌ مَعَ الْغَنَمِ»(١).

ولمّا أقبلت راحيل بالغنم، دحرج يعقوبُ الحجر وحده عن فم البئر، وسقى غنم خاله لابان، واتجه إلى راحيل وهو يجهش بالبكاء، وعرّفها بنفسه. عندها ركضت راحيل لتخبر أباها؛ الذي أسرع للقاء يعقوب وعانقه وقبّله، واستضافه في بيته نحو شهر من الزمان.

. . . . . ٧فَقَالَ لَهُمْ: «هُوَ ذَا النَّهَارُ مَا زَالَ طَوِيلاً، وَلَيْسَ هَذَا أَوَانَ اجْتِمَاعِ الْمَوَاشِي، فَاسْقُوا الْغَنَمَ وَامْضُوا بِهَا إِلَى الْمَرَاعِي». ٨فَقَالُوا: «لاَ يُمْكِنُنَا ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ تَجْتَمِعَ جَمِيعُ الْقُطْعَانِ وَرُعَاتُهَا فَيُدَحْرِجُوا الْحَجَرَ عَنْ فَمِ الْبِئْرِ، فَنَسْقِي الْغَنَمَ»(٢).

لقاء يعقوب براحيل

٩وَفِيمَا هُوَ يُكَلِّمُهُمْ أَقْبَلَتْ رَاحِيلُ مَعَ غَنَمِ أَبِيهَا لأَنَّهَا كَانَتْ رَاعِيَةً أَيْضاً.
١٠وَعِنْدَمَا رَآهَا يَعْقُوبُ، تَقَدَّمَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنْ فَمِ الْبِئْرِ وَسَقَى غَنَمَ خَالِهِ

(١) (٢) سفر التكوين – ٢٩.

لاَبَانَ. ١١وَقَبَّلَ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ وَأَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ، ١٢ثُمَّ أَخْبَرَهَا أَنَّهُ قَرِيبُ وَالِدِهَا وَأَنَّهُ ابْنُ رِفْقَةَ. فَرَكَضَتْ وَأَخْبَرَتْ أَبَاهَا. ١٣فَعِنْدَمَا سَمِعَ لاَبَانُ بِخَبَرِ ابْنِ أُخْتِهِ أَسْرَعَ لِلِقَائِهِ وَعَانَقَهُ وَقَبَّلَهُ وَأَحْضَرَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ. فَقَصَّ يَعْقُوبُ عَلَى لاَبَانَ جَمِيعَ هَذِهِ الأُمُورِ. ١٤فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «حَقّاً إِنَّكَ عَظْمِي وَلَحْمِي». وَأَقَامَ عِنْدَهُ نَحْوَ شَهْرٍ مِنَ الزَّمَانِ(١).

يعقوب في خدمة لابان

بعد أن انقضت فترة الضيافة، قال لابان ليعقوب ليس من العدل أن تخدُمَني بلا مقابل، فأيُّ مقابل تريده مني مقابل خدمتك لي؟ أجابه يعقوب أخدمك سبع سنين مقابل زواجي من ابنتك الصغرى راحيل فوافق. وباشر يعقوب عمله في خدمة خاله مقابل تزويجه من راحيل، وكان حبه لراحيل يُهوِّن عليه مرور الأيام وما يتكبَّده من تعب ومشقَّة.

زواج يعقوب من ليئة وراحيل

١٥وَقَالَ لاَبَانُ لِيَعْقُوبَ: «هَلْ لأَنَّكَ قَرِيبِي تَخْدُمُنِي مَجَّاناً؟ أَخْبِرْنِي مَا أُجْرَتُكَ؟» ١٦وَكَانَ لِلاَبَانَ ابْنَتَانِ، اسْمُ الْكُبْرَى لَيْئَةُ وَاسْمُ الصُّغْرَى رَاحِيلُ، ١٧وَكَانَتْ لَيْئَةُ ضَعِيفَةَ الْبَصَرِ، وَأَمَّا رَاحِيلُ فَكَانَتْ جَمِيلَةَ الصُّورَةِ وَحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ. ١٨فَأَحَبَّ يَعْقُوبُ رَاحِيلَ. وَأَجَابَ يَعْقُوبُ خَالَهُ: «أَخْدُمُكَ سَبْعَ سِنِينَ لِقَاءَ زَوَاجِي بِرَاحِيلَ ابْنَتِكَ الصُّغْرَى». ١٩فَقَالَ لاَبَانُ: «أَنْ أُزَوِّجَهَا مِنْكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ أُزَوِّجَهَا مِنْ رَجُلٍ آخَرَ، فَامْكُثْ عِنْدِي». ٢٠فَخَدَمَ يَعْقُوبُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ لِيَتَزَوَّجَ مِنْ رَاحِيلَ بَدَتْ فِي نَظَرِهِ كَأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ لَهَا(٢).

خدعة لابان ليعقوب

وما إن انتهت فترة السبع سنين المُتَّفق عليها، طلب يعقوب من خاله أن يُزوِّجه من راحيل كما اتفق؛ فأعد لابان مأدبة عظيمة بهذه المناسبة. وفي المساء زفَّ إليه ابنته ليئة التي كانت أكبر سنا من راحيل وأقل جمالا منها. ولما

(١) (٢) سفر التكوين - ٢٩.

اكتشف يعقوب الخدعة، سأل خاله لماذا فعلت بي ذلك؟ فقال لابان ليس من عادتنا أن نُزوِّج الصغرى قبل الكبرى، لكن أكمل أسبوعك مع ليئة، وسوف أُزوِّجُك راحيل كذلك مقابل أن تخدمني سبع سنين أخرى. وبعد مرور أسبوع دخل يعقوب براحيل، واستمر في خدمة خاله سبع سنين أخرى؛ لأنه كان يحب راحيل أكثر من ليئة.

٢١ثُمَّ قَالَ يَعْقُوبُ لِلاَبَانَ: «أَعْطِنِي زَوْجَتِي لأَنَّ خِدْمَتِي قَدْ كَمُلَتْ فَأَدْخُلَ عَلَيْهَا». ٢٢فَجَمَعَ لاَبَانُ سَائِرَ أَهْلِ النَّاحِيَةِ وَأَقَامَ لَهُمْ مَأْدُبَةً. ٢٣وَعِنْدَمَا حَلَّ الْمَسَاءُ حَمَلَ ابْنَتَهُ لَيْئَةَ وَزَفَّهَا إِلَيْهِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا ٢٤وَوَهَبَ لاَبَانُ زِلْفَةَ جَارِيَتَهُ لِتَكُونَ جَارِيَةً لاِبْنَتِهِ لَيْئَةَ. ٢٥وَفِي الصَّبَاحِ اكْتَشَفَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ بِلَيْئَةَ، فَقَالَ لِلاَبَانَ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِي؟ أَلَمْ أَخْدِمْكَ سَبْعَ سَنَوَاتٍ لِقَاءَ زَوَاجِي مِنْ رَاحِيلَ؟ فَلِمَاذَا خَدَعْتَنِي؟». ٢٦فَأَجَابَهُ لاَبَانُ: «لَيْسَ مِنْ عَادَةِ بِلاَدِنَا أَنْ نُزَوِّجَ الصَّغِيرَةَ قَبْلَ الْبِكْرِ. ٢٧أَكْمِلْ أُسْبُوعَ لَيْئَةَ ثُمَّ نُزَوِّجُكَ مِنْ رَاحِيلَ، لِقَاءَ خِدْمَتِكَ لِي سَبْعَ سِنِينَ أُخَرَ». ٢٨فَوَافَقَ يَعْقُوبُ، وَأَكْمَلَ أُسْبُوعَ لَيْئَةَ، فَأَعْطَاهُ لاَبَانُ رَاحِيلَ ابْنَتَهُ زَوْجَةً أَيْضاً. ٢٩وَوَهَبَ لاَبَانُ بِلْهَةَ جَارِيَتَهُ لِتَكُونَ جَارِيَةً لاِبْنَتِهِ رَاحِيلَ. ٣٠فَدَخَلَ يَعْقُوبُ عَلَى رَاحِيلَ أَيْضاً، وَأَحَبَّ رَاحِيلَ أَكْثَرَ مِنْ لَيْئَةَ. وَخَدَمَ خَالَهُ سَبْعَ سِنِينَ أُخَرَ(١).

ابناء يعقوب

ولما كانت ليئة مكروهة من يعقوب؛ فقد جعلها الرب مُنجبة، وجعل راحيل عاقرا؛ فأنجبت ليئة رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ثم توقّفت عن الحمل.

ابناء يعقوب

٣١وَعِنْدَمَا رَأَى الرَّبُّ أَنَّ لَيْئَةَ مَكْرُوهَةٌ جَعَلَهَا مُنْجِبَةً، أَمَّا رَاحِيلُ فَكَانَتْ عَاقِراً. ٣٢فَحَمَلَتْ لَيْئَةُ وَأَنْجَبَتِ ابْناً دَعَتْهُ رَأُوبَيْنَ (وَمَعْنَاهُ: هُوَذَا ابْنٌ) لأَنَّهَا

(١) سفر التكوين - ٢٩.

قَالَتْ: «حقّـاً قَدْ نَظَرَ الرَّبُّ إِلَى مَذَلَّتِي، فَالآنَ يُحِبُّنِي زَوْجِي». ٣٣وَحَمَلَتْ مَرَّةً أُخْرَى وأَنْجَبَت ابْناً، فَقَالَتْ: «لأَنَّ الرَّبَّ سَمِعَ أَنِّي كُنْتُ مكْرُوهَةً رزَقَني هذَا الابْنَ أَيْضاً». فَدَعَتْهُ شمعُونَ (وَمَعْنَاهُ: سَمِيعٌ) ٣٤ثُمَّ حَمَلَتْ مَرَّةً ثَالِثَةً وَأَنْجَبَت ابْناً فَقَالَتْ: «الآنَ فِي هَذه المَرَّة يَتَّحِدُ بي زَوْجِي، لأَنَّنِي أَنْجَبْتُ لَهُ ثَلاثَةَ بَنِينَ». لذَلكَ دُعِيَ اسْمُهُ لاَوِي (وَمَعْنَاهُ: مُتَّحِدٌ) ٣٥وَحَبِلَتْ مَرَّةً رَابِعَةً وَأَنْجَبَت ابْناً فَقَالَتْ: «فِي هَذه المَرَّة أَحْمَدُ الرَّبَّ». لِذَلكَ دَعَتْهُ يَهُوذَا (وَمَعْنَاهُ: حَمْدٌ). ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عَنِ الْوِلاَدَةِ(١).

أحسّت راحيل بالغيرة من أختها، فطلبت من يعقوب أن يهبها الولد؛ وإلا فإنها سوف تموت من الغم، ووهبت له جاريتها بلهة فأنجبت ليعقوب دان ونفتالي. وكما كانت العادة عندهم فإن أبناء الجارية يصيرون أبناء لسيدتها كأنها هي التي ولدتهم.

وَعِنْدَمَا تَبَيَّنَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا عَاقِرٌ، غَارَتْ منْ أُخْتِهَا وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: «هَبْ لِي بَنِينَ وَإِلاَّ فَإِنِّي أَمُوتُ». ٢فَاحْتَدَمَ غَضَبُ يَعْقُوبَ عَلَى رَاحِيلَ وَقَالَ: «أَلَعَلِّي أَقُومُ مَقَامَ الله الَّذي حَرَمَك منَ الإِنْجَابِ؟» ٣فَقَالَتْ لَهُ: «هَا هِيَ جَارِيَتِي بِلْهَةُ، عَاشِرْهَا فَتَلِدَ وَيَكُونَ لِي منْهَا بَنُونَ». ٤وَأَعْطَتْهُ بِلْهَةَ زَوْجَةً فَدَخَلَ عَلَيْهَا يَعْقُوبُ. ٥وَحَمَلَتْ بِلْهَةُ وَأَنْجَبَتْ لِيَعْقُوبَ ابْناً. ٦فَقَالَتْ رَاحِيلُ: «قَدْ قَضَى اللهُ لِي وَأَصْغَى لصَوْتِي وَرَزَقَنِي ابْناً». لذَلكَ دَعَتْهُ «دَاناً» (وَمَعْنَاهُ: قَاضٍ). ٧ثُمَّ حَمَلَتْ بِلْهَةُ جَارِيَةُ رَاحِيلَ مَرَّةً أُخْرَى وَأَنْجَبَتْ لِيَعْقُوبَ ابْناً ثَانِياً، ٨فَقَالَتْ رَاحِيلُ: «قَدْ تَصَارَعْتُ مَعَ أُخْتِي مُصَارَعَاتٍ عَنِيفَةً وَظَفِرْتُ». وَدَعَتْهُ نَفْتَالِي (وَمَعْنَاهُ: مُصَارَعَتِي)(٢).

ولما رأت ليئة أنها توقفت عن الحمل، أعطت جاريتها زلفة ليعقوب زوجة، فأنجبت له جاد وأشير.

---

(١) سفر التكوين - ٢٩.

(٢) سفر التكوين - ٣٠.

٩ولَمَّا رأَتْ لَيْئَـةُ أنَّها كَفَّتْ عَنِ الْوِلادَة، أَخَذَتْ جَـارِيَتَها زِلْفَةَ وأَعْطَتْـها لِيَعْقُـوبَ زَوْجَةً، ١٠فَأَنْجَبَتْ زِلْفَـةُ جَارِيَةُ لَيْئَةَ لِيَـعْقُوبَ ابْناً ١١فقَـالَتْ لَيْئَةُ: «يَالحُـسْنِ الحَظِّ!» وَدَعَتْـهُ جَـاداً (وَمَعْنَاهُ: فَـأْلٌ حَسَنٌ، أَوْ كَـتِـيبَـةٌ قَادمَـةٌ). ١٢وأَنْجَبَتْ زِلْفَةُ جَـارِيَةُ لَيْئَةَ ابْناً ثَانِياً لِيَـعْقُوبَ، ١٣فَقَالَتْ لَيْـئَةُ: «يَالَغِبْطَتِي، لأَنَّ النِّسَاءَ سَيَدْعُونَنِي المَغْبُوطَةَ». وَسَمَّتْهُ أَشِيرَ (وَمَعْنَـاهُ: سَعِيدٌ أَوْ مَغْبُوطٌ)(١).

وشاء الله أن تحـمل ليئة ثانية وتنـجب ليعقوب؛ يسـاكر وزبولون، ثم ختمت بابنة أسمتها دينة.

١٤وذَهَبَ رَأُوبَيْنُ فِي مَوْسِمِ حَـصَادِ الْقَمْحِ إِلَى الحُـقْلِ، فَعَثَرَ فِـيهِ عَلَى نَبَاتِ اللُّفَّـاحِ وَجَاءَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ لَيْـئَةَ. فَقَـالَتْ رَاحِيلُ لِلَيْئَـةَ: «أَعْطِنِي مِنْ لُفَّاحِ ابْنِك». ١٥فَأَجَـابَتْهَا: «أَلَمْ يَكْفِ أَنَّكِ أَخَـذْتِ مِنِّي زَوْجِي، وَالآنَ تُرِيدِينَ أَنْ تَأْخُذِي لُفَّـاحَ ابْنِي أَيْضاً؟» فَـأَجَابَتْهَـا رَاحِيلُ: «إِذاً يُعَـاشِرُكِ اللَّيْلَةَ لقَـاءَ لُفَّاحِ ابْنِك». ١٦وَعِنْدَمَـا رَجَعَ يَعْقُـوبُ مِنَ الحَقْلِ فِي الْمَسَـاءِ خَرَجَتْ لَيْـئَةُ لِلِقَـائِهِ وَقَالَتْ لَهُ: «إِلَيَّ تَجِيءُ اللَّيْلَةَ لأَنَّنِي قَد اسْتَأْجَـرْتُكَ بِلُفَّاحِ ابْنِي». فَعَاشَرَهَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. ١٧وَاسْتَجَـابَ اللهُ لِلَيْئَةَ فَحَـمَلَتْ وَأَنْجَبَتْ لِيَعْقُوبَ ابْناً خَـامساً. ١٨فَقَالَتْ لَيْئَةُ: «قَدْ أَعْطَانِي اللهُ أُجْرَتِي لأَنَّنِي وَهَبْتُ جَارِيَتِي لِزَوْجِي». وَدَعَتْهُ يَسَّاكَرَ (وَمَعْنَاهُ: يَعْمَلُ بِأُجْرَة) ١٩وَحَبِلَتْ لَيْئَةُ مَرَّةً أُخْرَى فَأَنْجَبَتْ لِيَعْقُوبَ ابْناً سَادساً. ٢٠وَقَالَتْ لَيْئَةُ: «قَـدْ وَهَبَنِي اللهُ هِبَةً ثَمِينَةً، وَالآنَ يُقِيمُ مَعِي زَوْجِي لأَنِّي أَنْجَبْتُ لَهُ سِتَّةَ بَنِينَ». وَدَعَتْـهُ زَبُولُونَ (وَمَعْنَاهُ إِقَامَةٌ). ٢١ثُمَّ أَنْجَبَتِ ابْنَةً دَعَتْهَا «دِينَةَ»(٢).

وشاء الله لراحيل أن تحمل وتنجب ولدا أسـمته يوسف (ومعناه يزيد)؛ رجاء منها أن يهبها الله المزيد من الأولاد.

(١) (٢) سفر التكوين - ٣٠.

٢٢وَذَكَرَ اللهُ رَاحِيلَ وَاسْتَجَابَ لَهَا وَفَتَحَ رَحِمَهَا، ٢٣فَحَمَلَتْ وَأَنْجَبَتِ ابْناً وَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللهُ عَنِّي عَارِي». ٢٤وَدَعَتْهُ يُوسُفَ (وَمَعْنَاهُ يَزِيدُ) قَائِلَةً: «لِيَزِدْنِي الرَّبُّ ابْناً آخَرَ»(١).

طلب يعقوب من خاله الرحيل

ولمّا ولدت راحيل يوسف، قال يعقوب لخاله لابان أرجو أن تسمح لي بأن آخذ نسائي وأولادي وأعود إلى بلدي وأرضي؛ فقد أديتُ واجبي تجاهك، وخدمتُك بكل ما أوتيت من طاقة. فقال لابان يصعب عليّ فراقك لنا فقد رأيت الخير على يديك وباركني الرب بفضلك، وإذا كنت مُصراً على مغادرتنا؛ فاطلب ما شئت من الأجر أعطيه لك عن طيب خاطر.

مساومة يعقوب للابان

٢٥وَعِنْدَمَا وَلَدَتْ رَاحِيلُ يُوسُفَ، قَالَ يَعْقُوبُ للاَبَانَ: «أَخْلِ سَبِيلِي فَأَنْطَلِقَ إِلَى بَلَدِي وَإِلَى أَرْضِي، ٢٦وَأَعْطِنِي نِسَائِي وَأَوْلاَدِي الَّذِينَ خَدَمْتُكَ بِهِمْ، وَدَعْنِي أَمْضِي، فَأَنْتَ تُدْرِكُ أَيَّةَ خِدْمَةٍ خَدَمْتُكَ». ٢٧فَقَالَ لَهُ لاَبَانُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ حَظِيتُ بِرِضَاكَ فَأَرْجُوكَ أَنْ تَمْكُثَ مَعِي، لأَنَّنِي عَرَفْتُ بِالتَّفَاؤُلِ بِالْغَيْبِ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ بَارَكَنِي بِفَضْلِكَ». ٢٨وَأَضَافَ: «عَيِّنْ لِي أُجْرَتَكَ فَأُعْطِيَكَ إِيَّاهَا»(٢).

خدعة يعقوب لخاله

قال يعقوب لخاله؛ أمرُ تحديد الأجر يرجع إليك، ولا يخفى عليك كيف كنتُ أخدمك وأرعى غنمك بكل جد وإخلاص، وانظر كيف تضاعفت أعداد غنمك أضعافا كثيرة بسببي. فقال لابان: حدِّد الأجر الذي تريده وأنا أعطيه لك، فقال يعقوب: أعطني فقط من بين أغنامك ما هو أسود اللون أو ما هو منقط أو يشوبه سواد، واحتفظ لنفسك بباقي الغنم سليمة البياض.

(١) (٢) سفر التكوين - ٣٠.

وكانت هذه القسمة تبدو ظالمة ليعقوب ومُنصفة لخاله؛ لأن أغلب الغنم يكون لونه أبيض. ومن هذا المنطلق وافق لابان دون تردُّد، وتمّت قسمة الغنم على هذا الأساس، وجعل يعقوب مسافة بين غنمه وغنم خاله حتى لا تختلط الأغنام مع بعضها. واستمر يعقوب في خدمة لابان فترة من الزمن.

٢٩فَقَالَ لَهُ يَعْقُوبُ: «أَنْتَ تَعْلَمُ كَيْفَ خَدَمْتُكَ، وَمَاذَا آلَتْ إِلَيْهِ مَوَاشِيكَ تَحْتَ رِعَايَتِي، ٣٠فَالْقَلِيلُ الَّذِي كَانَ لَكَ قَبْلَ مَجِيئِي ازْدَادَ أَضْعَافاً كَثِيرَةً، فَبَارَكَكَ الرَّبُّ مُنْذُ أَنْ قَدِمْتُ عَلَيْكَ، وَالآنَ مَتَى أَشْرَعُ فِي تَحْصِيلِ رِزْقِ عَائِلَتِي؟» ٣١فَسَأَلَهُ: «مَاذَا أُعْطِيكَ؟» فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «لاَ تُعْطِنِي شَيْئاً. وَلَكِنْ إِنْ أَرَدْتَ، فَاصْنَعْ لِي هَذَا الأَمْرَ الْوَاحِدَ فَأَذْهَبَ وَأَرْعَى غَنَمَكَ وَأَعْتَنِيَ بِهَا: ٣٢دَعْنِي أَمُرُّ الْيَوْمَ بَيْنَ مَوَاشِيكَ كُلِّهَا، فَتَعْزِلَ مِنْهَا كُلَّ شَاةٍ رَقْطَاءَ وَبَلْقَاءَ وَسَوْدَاءَ مِنْ بَيْنِ الْخِرْفَانِ، وَكُلَّ بَلْقَاءَ وَرَقْطَاءَ بَيْنَ الْمِعْزَى، فَتَكُونُ هَذِهِ أُجْرَتِي . . . . . ٣٤فَقَالَ لاَبَانُ: «لِيَكُنْ وَفْقاً لِقَوْلِكَ». ٣٥وَعَزَلَ لاَبَانُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ التُّيُوسَ الْمُخَطَّطَةَ وَالْبَلْقَاءَ، وَكُلَّ عَنْزٍ رَقْطَاءَ وَبَلْقَاءَ، كُلَّ مَا فِيهِ بَيَاضٌ وَكُلَّ خَرُوفٍ أَسْوَدَ. وَعَهِدَ بِهَا إِلَى أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ. ٣٦وَجَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَعْقُوبَ مَسَافَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ، وَاسْتَمَرَّ يَعْقُوبُ يَرْعَى مَوَاشِيَ لاَبَانَ[١].

ولجأ يعقوب إلى حيلة ماكرة لتكثير غنمه؛ بأن استغل طبيعة الوحم عند الغنم كما هي عند النساء، فعمد إلى فروع الشجر يقلّمها برسم الخطوط والنقاط عليها كي تراها الغنم التي في فترة الحمل فتتوحّم وتلد أغناما منقطة وغير خالصة البياض لتكون من نصيبه. كما جعل مقدّمة غنمه في مواجهة كل ما هو مخطط وأسود من غنم خاله لابان لنفس الغرض؛ فكثُرت مواشيه جدا، وزاد غناه، وكثرت جواريه وعبيده.

٣٧وَأَخَذَ يَعْقُوبُ قُضْبَاناً خَضْرَاءَ مِنْ أَشْجَارِ اللُّبْنَى وَاللَّوْزِ وَالدُّلْبِ وَقَلَّمَهَا بِخُطُوطٍ بَيْضَاءَ كَاشِفاً عَمَّا تَحْتَ الْقِشْرَةِ مِنْ بَيَاضٍ، ٣٨وَنَصَبَ

(١) سفر التكوين – ٣٠.

الْقُضْبَانَ الَّتِي قَلَّمَهَا تجاهَ الْغَنَمِ فِي أَجْرَانِ مَسَاقِي الْمَاءِ حَيْثُ تَرِدُ الْمَوَاشِي، فَتَتَوَحَّمُ عَلَيْهَا إِذَا مَا أَقْبَلَتْ لِتَشْرَبَ. ٣٩فكَانَت الْغَنَمُ تَتَوَحَّمُ عِنْدَ الْقُضْبَانِ، فَتَلِدُ غَنَماً مُخَطَّطَةً وَرَقْطَاءَ وَبَلْقَاءَ. ٤٠وَفَرَزَ يَعْقُوبُ الْحُمْلاَنَ، وَجَعَلَ مُقَدِّمَةَ الْمَوَاشِي فِي مُوَاجَهَةِ كُلِّ مَا هُوَ مُخَطَّطٌ وَأَسْوَدُ مِنْ غَنَمِ لاَبَانَ، . . . . .
٤٣فَاغْتَنَى الرَّجُلُ جِداً، وَكَثُرَتْ مَوَاشِيهِ وَجَوَارِيهِ وَعَبِيدُهُ وَجِمَالُهُ وَحَمِيرُهُ(١).

هرب يعقوب من خاله

ولاحظ يعقوب أن معاملة خاله له قد تغيّرت عن ذي قبل، كما كان يسمع من أولاد خاله أنه لا حق له فيما تحت يده من ثروة؛ لأنها من الأصل ثروة أبيهم. وقال له الرب: عد إلى أرض آبائك وأنا معك أؤيدك وأنصرك.

٣١- يعقوب يخطط للهرب

وَسَمِعَ يَعْقُوبُ مَا يُرَدِّدُهُ أَبْنَاءُ لاَبَانَ قَائِلِينَ: «لَقَد اسْتَوْلَى يَعْقُوبُ عَلَى كُلِّ مَا لأَبِينَا، وَجَمَعَ ثَرْوَتَهُ مِمَّا يَمْلِكُهُ وَالِدُنَا». ٢ورَأَى يَعْقُوبُ أَنَّ مُعَامَلَةَ لاَبَانَ لَهُ قَدْ طَرَأَ عَلَيْهَا تَغْيِيرٌ فَاخْتَلَفَتْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ سَابِقاً. ٣وَقَالَ الرَّبُّ لِيَعْقُوبَ: «عُدْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكَ وَإِلَى قَوْمِكَ وَأَنَا أَكُونُ مَعَكَ»(٢).

لمّا نوى يعقوب مغادرة خاله والعودة إلى أرض الآباء والأجداد، استدعى زوجتيه راحيل وليئة، وشكى لهما من تغير أبيهما معه، وأخبرهما أن إله آبائه قد أمره بالرحيل، وأنه وعده بأن لا يتركه وحده. وكان رد راحيل وليئة مؤيّدا له؛ قائلين أن أباهما قد باعهما وأكل من ثمنهما، وأنه كان يستعملهما كعبدتين في داره.

٤فَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ وَاسْتَدْعَى رَاحِيلَ وَلَيْئَةَ إِلَى الْحَقْلِ حَيْثُ يَرْعَى الْمَاشِيَةَ.
٥وَقَالَ لَهُمَا: «إِنِّي أَرَى أَنَّ أَبَاكُمَا لَمْ يَعُدْ يُعَامِلُنِي كَالْعَهْدِ بِهِ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنْ إِلَهُ أَبِي كَانَ وَمَازَالَ مَعِي. ٦أَنْتُمَا تَعْلَمَانِ أَنَّنِي خَدَمْتُ أَبَاكُمَا بِكُلِّ قُوَايَ.

(١) سفر التكوين - ٣٠.
(٢) سفر التكوين - ٣١.

٧أَمَّا أَبُوكُمَا فَقَدْ غَدَرَ بِي وَغَيَّرَ أُجْرَتِي عَشْرَ مَرَّاتٍ. لَكِنَّ اللهَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ بِأَنْ
يُسِيءَ إِلَيَّ. ٨فَإِنْ قَالَ: لِتَكُنِ الْغَنَمُ الرُّقْطُ أُجْرَتَكَ، وَلَدَتْ كُلُّ الْغَنَمِ رُقْطاً.
وَإِنْ قَالَ: لِتَكُنِ الْغَنَمُ الْمُخَطَّطَةُ أُجْرَتَكَ، وَلَدَتْ كُلُّ الْغَنَمِ مُخَطَّطَةً. ٩لَقَدْ
سَلَبَ اللهُ مَوَاشِيَ أَبِيكُمَا وَأَعْطَانِي إِيَّاهَا. ١٠وَرَأَيْتُ فِي مَوْسِمِ تَلاَقُحِ الْغَنَمِ
حُلْماً: أَنَّ جَمِيعَ الْفُحُولِ الصَّاعِدَةَ عَلَى الْغَنَمِ مُخَطَّطَةٌ وَرَقْطَاءُ وَمُنَمَّرَةٌ.
١١وَقَالَ لِي مَلاَكُ اللهِ فِي الْحُلْمِ: يَايَعْقُوبُ، ١٢تَطَلَّعْ حَوْلَكَ وَانْظُرْ، فَتَرَى أَنَّ
جَمِيعَ الْفُحُولِ الصَّاعِدَةَ عَلَى الْغَنَمِ هِيَ مُخَطَّطَةٌ وَرَقْطَاءُ وَمُنَمَّرَةٌ. فَإِنِّي رَأَيْتُ
مَا يَصْنَعُهُ بِكَ لاَبَانُ. ١٣أَنَا إِلَهُ بَيْتِ إِيلَ، حَيْثُ مَسَحْتَ عَمُوداً، وَحَيْثُ
نَذَرْتَ لِي نَذْراً. الآنَ قُمْ وَامْضِ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ وَارْجِعْ إِلَى أَرْضِ مَوْلِدِكَ».
١٤فَقَالَتْ رَاحِيلُ وَلَيْئَةُ: «هَلْ بَقِيَ لَنَا نَصِيبٌ وَمِيرَاثٌ فِي بَيْتِ أَبِينَا؟ ١٥أَلَمْ
يُعَامِلْنَا كَأَجْنَبِيَّتَيْنِ لأَنَّهُ بَاعَنَا وَأَكَلَ ثَمَنَنَا أَيْضاً؟ ١٦إِنَّ كُلَّ الثَّرْوَةِ الَّتِي سَلَبَهَا اللهُ
مِنْ أَبِينَا هِيَ لَنَا وَلأَوْلاَدِنَا، وَالآنَ افْعَلْ كُلَّ مَا قَالَهُ اللهُ لَكَ»(١).

لابان يطارد يعقوب

استغل يعقوب ذهاب خاله ليجُزّ غنمه وغيابه عن المكان، فحمل أولاده ونساءه على الجمال وجميع مقتنياته، وساق ماشيته، وعبر بهم النهر متجهاً نحو جبل جلعاد. وفي اليوم الثالث من هروب يعقوب؛ علم لابان بالأمر، فجمع إخوته، وتعقّبه حتى أدركه في جبل جلعاد بعد مسيرة سبعة أيام. وتجلّى الله للابان، وهدّده إن هو تعرّض ليعقوب، فنصب خيامه مقابل خيام يعقوب في الجبل.

هرب يعقوب مع عائلته

١٧فَقَامَ يَعْقُوبُ وَحَمَلَ أَوْلاَدَهُ وَنِسَاءَهُ عَلَى الْجِمَالِ، ١٨وَسَاقَ كُلَّ
مَاشِيَتِهِ أَمَامَهُ وَجَمِيعَ مُقْتَنَيَاتِهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا فِي سَهْلِ أَرَامَ وَاتَّجَهَ إِلَى إِسْحقَ أَبِيهِ

(١) سفر التكوين - ٣١.

فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ١٩وَكَانَ لاَبَانُ قَدْ مَضَى لِيَجُزَّ غَنَمَهُ، فَسَرَقَتْ رَاحِيلُ أَصْنَامَ أَبِيهَا. ٢٠وَكَذَلِكَ خَدَعَ يَعْقُوبُ لاَبَانَ الأَرَامِيَّ فَلَمْ يُخْبِرْهُ بِقَرَارِهِ ٢١فَهَرَبَ هُوَ وَكُلُّ مَا مَعَهُ، وَانْطَلَقَ عَابِراً النَّهْرَ مُتَوَجِّهاً نَحْوَ جَبَلِ جِلْعَادَ(١).

لابان يطارد يعقوب

٢٢فَأُخْبِرَ لاَبَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَنَّ يَعْقُوبَ قَدْ هَرَبَ. ٢٣فَصَحِبَ إِخْوَتَهُ مَعَهُ وَتَعَقَّبَهُ مَسِيرَةَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ حَتَّى أَدْرَكَهُ فِي جَبَلِ جِلْعَادَ. ٢٤فَتَجَلَّى اللهُ لِلاَبَانَ الأَرَامِيِّ فِي حُلْمٍ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ: «إِيَّاكَ أَنْ تُخَاطِبَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ». ٢٥وَحِينَ أَدْرَكَ لاَبَانُ يَعْقُوبَ كَانَ يَعْقُوبُ قَدْ ضَرَبَ خَيْمَتَهُ فِي الْجَبَلِ، فَخَيَّمَ لاَبَانُ وَإِخْوَتُهُ فِي جَبَلِ جِلْعَادَ(٢).

وتوجّه لابان إلى يعقوب وخاطبه بلطف قائلا؛ لماذا خدعتني وهربت خفية وأخذت ابنتاي كسبايا الحرب؟ لو أخبرتني بنيّتك لكنت قد شيّعتُك بالطبول والغناء، لكنك حرمتني حتى من تقبيل أحفادي وابنتاي. لقد كنتُ أنوي إيذاءك لكن إله أبيك قد حذّرني من إيذائك، لكن لماذا سرقت آلهتي؟ وكانت راحيل قد سرقت تماثيل آلهة أبيها وأخفت الأمر عن يعقوب، فأنكر يعقوب وقال له فتّش عن آلهتك؛ ومن تجدها عنده فالموت هو جزاؤه.

٢٦وَقَالَ لاَبَانُ لِيَعْقُوبَ: «مَاذَا دَهَاكَ حَتَّى إِنَّكَ خَدَعْتَنِي وَسُقْتَ ابْنَتَيَّ كَسَبَايَا السَّيْفِ؟ ٢٧لِمَاذَا هَرَبْتَ خِفْيَةً وَخَدَعْتَنِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي فَكُنْتُ أُشَيِّعُكَ بِفَرَحٍ وَغِنَاءٍ وَدُفٍّ وَعُودٍ؟ ٢٨وَلَمْ تَدَعْنِي أُقَبِّلُ أَحْفَادِي وَابْنَتَيَّ؟ إِنَّكَ بِغَبَاوَةٍ تَصَرَّفْتَ. ٢٩إِنَّ فِي مَقْدُورِي أَنْ أُؤْذِيَكَ، وَلَكِنَّ إِلَهَ أَبِيكَ أَمَرَنِي لَيْلَةَ أَمْسِ قَائِلاً: إِيَّاكَ أَنْ تُخَاطِبَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ. ٣٠وَالآنَ أَنْتَ تَمْضِي لأَنَّكَ اشْتَقْتَ إِلَى بَيْتِ أَبِيكَ، وَلَكِنْ لِمَاذَا سَرَقْتَ آلِهَتِي؟ ». ٣١فَأَجَابَ يَعْقُوبُ: «لأَنَّنِي خِفْتُ أَنْ تَغْتَصِبَ ابْنَتَيْكَ مِنِّي. ٣٢وَالآنَ، مَنْ تَجِدُ آلِهَتَكَ مَعَهُ فَالْمَوْتُ

(١) (٢) سفر التكوين – ٣١.

عِقَابُهُ. فَتِّشْ أَمَامَ إِخْوَتِنَا كُلَّ مَا مَعِي. إِنْ وَجَدْتَ لَكَ شَيْئاً فَخُذْهُ». وَلَمْ يَكُنْ يَعْقُوبُ يَعْلَمُ أَنَّ رَاحِيلَ قَدْ سَرَقَتِ الآلِهَةَ(١).

قام لابان بتفتيش كل الخيام فلم يجد شيئا، وكانت راحيل قد أخفت الأصنام في رحل الجمل، وجلست عليها، واعتذرت عن القيام بسبب عادة النساء التي عرضت لها؛ فلم يتمكّن لابان من العثور على أصنامه. ولم يجد لابان بُدّا من التصالح مع يعقوب، فقال له لنقطع عهدا بيننا اليوم، وليكن إله إبراهيم وإله ناحور حكما بيننا، فحلف يعقوب بهيبة أبيه إسحاق، وقدّم لهم طعاما فأكلوه وقضوا ليلتهم معا. وفي الصباح المبكر قبّل لابان أحفاده وابنتيه وباركهم وودّعهم عائدا إلى محل إقامته.

راحيل تسرق اصنام ابيها

٣٣فَدَخَلَ لاَبَانُ خَيْمَةَ كُلٍّ مِنْ يَعْقُوبَ وَلَيْئَةَ وَالجَارِيَتَيْنِ فَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ خِبَاءِ لَيْئَةَ وَدَلَفَ إِلَى خَيْمَةِ رَاحِيلَ. ٣٤وَكَانَتْ رَاحِيلُ قَدْ أَخَذَتِ الأَصْنَامَ وَأَخْفَتْهَا فِي رَحْلِ الجَمَلِ وَجَلَسَتْ عَلَيْهَا، فَبَحَثَ فِي كُلِّ الخَيْمَةِ دُونَ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى شَيْءٍ. ٣٥وَقَالَتْ لأَبِيهَا «لاَ يَسُؤْكَ يَاسَيِّدِي عَدَمُ اسْتِطَاعَتِي الْوُقُوفَ أَمَامَكَ لأَنَّ عَادَةَ النِّسَاءِ قَدْ عَرَضَتْ لِي». وَعِنْدَمَا بَحَثَ لاَبَانُ وَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً.....(٢)

الميثاق بين يعقوب ولابان

٤٣فَأَجَابَ لاَبَانُ: «الْبَنَاتُ بَنَاتِي، وَالأَبْنَاءُ أَبْنَائِي وَالْغَنَمُ غَنَمِي، وَكُلُّ مَا تَرَاهُ هُوَ لِي. وَلَكِنْ مَاذَا أَفْعَلُ بِبَنَاتِي وَأَوْلاَدِهِنَّ الآنَ؟ ٤٤فَلْنَقْطَعْ عَهْداً بَيْنَنَا الْيَوْمَ، فَيَكُونَ شَاهِداً بَيْنِي وَبَيْنَكَ»..... ٥٣وَلْيَكُنْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ نَاحُورَ وَإِلَهُ أَبِيهِمَا حَاكِماً بَيْنَنَا». فَحَلَفَ يَعْقُوبُ بِهَيْبَةِ أَبِيهِ إِسْحقَ. ٥٤ثُمَّ قَدَّمَ يَعْقُوبُ قُرْبَاناً فِي الجَبَلِ وَدَعَا أَقْرِبَاءَهُ لِيَأْكُلُوا طَعَاماً، فَأَكَلُوا وَقَضَوْا لَيْلَتَهُمْ فِي الجَبَلِ(٣).

---

(١) (٢) (٣) سفر التكوين - ٣١.

عودة لابان إلى حاران

٥٥وَفِي الصَّبَاحِ الْمُبَكِّرِ نَهَضَ لاَبَانُ وَقَبَّلَ أَحْفَادَهُ وَابْنَتَيْهِ وَبَارَكَهُمْ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعاً، إِلَى مَحَلِّ إِقَامَتِهِ[1].

استعدادات يعقوب للقاء أخيه عيسو

وفي طريق عودته، فكّر يعقوب في أخيه عيسو؛ وماذا عساه أن يفعل به عند ملاقاته، فأرسل إليه رسلا يتذلّلون له عنده، ويخبرونه بعودته، وأنّه وكل ما يمتلكه سوف يكونون رهن إرادته. وعادت الرسل فأخبرته أن أخيه عيسو مقبل إليه وفي صحبته أربعمائة رجل، فاعتراه خوف شديد، وقسّم من معه من العبيد والمواشي إلى جماعتين وفصل كل جماعة عن الأخرى، حتى إذا صادفت إحدى الجماعتين شرا؛ نجت الأخرى. ولجأ يعقوب إلى الرب يطلب عونه وحمايته من أي شر يُنزله به أخوه عيسو.

استعدادات يعقوب للقاء عيسو

٣وَبَعَثَ يَعْقُوبُ قُدَّامَهُ رُسُلاً إِلَى أَخِيهِ عِيسُو فِي أَرْضِ سَعِيرَ بِلاَدِ أَدُومَ.
٤وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «هذَا مَا تَقُولُونَهُ لِسَيِّدِي عِيسُو: هكَذَا يَقُولُ عَبْدُكَ يَعْقُوبُ:
لَقَدْ تَغَرَّبْتُ عِنْدَ لاَبَانَ وَمَكَثْتُ هُنَاكَ إِلَى الآنَ، ٥وَاقْتَنَيْتُ بَقَراً وَحَمِيراً وَغَنَماً
وَعَبِيداً وَإِمَاءً وَأَرْسَلْتُ لأُعْلِمَ سَيِّدِي لَعَلَّنِي أَحْظَى بِرِضَاكَ». ٦فَرَجَعَ الرُّسُلُ
إِلَى يَعْقُوبَ قَائِلِينَ: «لَقَدْ قَدِمْنَا عَلَى أَخِيكَ عِيسُو وَهَا هُوَ مُقْبِلٌ إِلَيْكَ، وَمَعَهُ
أَرْبَعُ مِئَةِ رَجُلٍ». ٧فَاعْتَرَى يَعْقُوبَ خَوْفٌ وَكَرَبٌ عَظِيمَانِ وَقَسَّمَ الْقَوْمَ الَّذِينَ
مَعَهُ وَالْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَالْجِمَالَ إِلَى جَمَاعَتَيْنِ. ٨وَقَالَ: «إِنْ صَادَفَ عِيسُو إِحْدَى
الْجَمَاعَتَيْنِ وَأَهْلَكَهَا، تَنْجُ الْجَمَاعَةُ الْبَاقِيَةُ»[2].

(١) سفر التكوين – ٣١.	(٢) سفر التكوين – ٣٢.

صلاة يعقوب

٩وَصَلَّى يَعْقُوبُ: «يَاإِلَهَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهَ أَبِي إِسْحقَ، أَيُّهَا الرَّبُّ الَّذِي
قَالَ لِي: ارْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ وَإِلَى قَوْمِكَ فَأُحْسِنَ إِلَيْكَ. ١٠أَنَا لاَ أَسْتَحِقُّ
جَمِيعَ إِحْسَانَاتِكَ وَأَمَانَتِكَ الَّتِي أَبْدَيْتَهَا نَحْوَ عَبْدِكَ، فَقَدْ عَبَرْتُ الأُرْدُنَّ وَلَيْسَ
مَعِي سِوَى عَصَايَ، وَهَا أَنَا أَعُودُ وَقَدْ أَصْبَحْتُ جَيْشَيْنِ. ١١نَجِّنِي مِنْ يَدِ
أَخِي عِيسُو لأَنِّي خَائِفٌ أَنْ يَقْدِمَ عَلَيَّ فَيُهْلِكَنِي وَيُهْلِكَ مَعِي الأُمَّهَاتِ وَالْبَنِينَ.
١٢وَأَنْتَ قُلْتَ: إِنِّي أُحْسِنُ إِلَيْكَ وَأَجْعَلُ ذُرِّيَّتَكَ كَرَمْلِ الْبَحْرِ فَلاَ تُحْصَى
لِكَثْرَتِهَا»(١).

أعدّ يعقوبُ هديّة عظيمة مما يملك من البقر والغنم والماعز والنوق والحمير، وقسّمها إلى قطعان حسب نوعها، وأمر عبيده أن يتقدّموا بها، وأن يجعلوا بين كل قطيع والآخر مسافة. وأوصاهم إذا لقوا أخاه عيسو وسألهم لمن هذه القطعان أن يقولوا له إنها هدية عبدك يعقوب لك، وهو قادم خلفنا بأهله وكل ماله.

هدية يعقوب لعيسو

١٣وَبَاتَ هُنَاكَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَانْتَقَى مِمَّا لَدَيْهِ هَدِيَّةً لأَخِيهِ عِيسُو.
١٤فَكَانَتْ مِئَتَيْ عَنْزٍ وَعِشْرِينَ تَيْساً وَمِئَتَيْ نَعْجَةٍ وَعِشْرِينَ كَبْشاً، ١٥وَثَلاَثِينَ
نَاقَةً مُرْضِعَةً مَعَ أَوْلاَدِهَا، وَأَرْبَعِينَ بَقَرَةً وَعَشَرَةَ ثِيرَانٍ وَعِشْرِينَ أَتَاناً وَعَشَرَةَ
حَمِيرٍ، ١٦وَعَهِدَ بِهَا إِلَى أَيْدِي عَبِيدِهِ، كُلُّ قَطِيعٍ عَلَى حِدَةٍ. وَقَالَ لِعَبِيدِهِ:
«تَقَدَّمُونِي، وَاجْعَلُوا بَيْنَ كُلِّ قَطِيعٍ وَقَطِيعٍ مَسَافَةً». ١٧وَأَوْصَى طَلِيعَتَهُمْ
قَائِلاً: «إِذَا لَقِيتَ أَخِي عِيسُو وَسَأَلَكَ: لِمَنْ أَنْتَ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟ وَمَنْ هُوَ
صَاحِبُ الْقَطِيعِ الَّذِي أَمَامَكَ؟ ١٨أَنَّكَ تُجِيبُ: هِيَ لِعَبْدِكَ يَعْقُوبَ، هَدِيَّةٌ بَعَثَ
بِهَا لِسَيِّدِي عِيسُو. وَهَا هُوَ قَادِمٌ خَلْفَنَا». . . . . وَكَانَ يَعْقُوبُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ:
«أَسْتَعْطِفُهُ بِالْهَدَايَا الَّتِي تَتَقَدَّمُنِي، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أُشَاهِدُ وَجْهَهُ لَعَلَّهُ يَرْضَى
عَنِّي». . . . .(٢)

(١) (٢) سفر التكوين - ٣٢.

يعقوب يصارع في فينيئيل

وبعـد أن انطلقت القطعـان في طريقهـا، قـام يعقـوب بنقل زوجـتيـه وجاريتيه وأولاده وعبر بهم مخاضـة "يبوق"، ورجع إلى بقية الحلال والعبيد فمكث ليلته. وفي الليل وجـد نفسه يصارع الله في صورة إنسـان، ويصارعه الله حتى قرب مطلع الفجر. ولمـا لم يقدر الله عليه، طلب منه أن يطلقه قبل طلوع الفجر. ولما رفض أن يطلقه ضربه الله ضربة على فخذه خلعت مفصل الفخذ، فقـال يعقوب لا أطلقك حتى تباركني، فسأله الله عن اسـمه، فقال يعقوب، فقال له الرب لا تدعى بعـد ذلك يعقوب ولكن إسرائيل (جاهد مع الله).

يعقوب يصارع في فنيئيل

٢٢ثُمَّ قَامَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَصَحِبَ مَعَهُ زَوْجَتَـيْهِ وَجَارِيَتَيْهِ وَأَوْلاَدَهُ الأَحَدَ
عَشَـرَ، وَعَبَرَ بِهِمْ مَـخَاضَةَ يَبُّـوقَ، ٢٣وَلَمَّا أَجَازَهُمْ وَكُلَّ مَا لَهُ عَـبْرَ الْوَادِي،
٢٤وَبَقِيَ وَحْـدَهُ، صَارَعَهُ إِنْسَـانٌ حَتَّى مَطْلَعِ الْـفَجْرِ. ٢٥وَعِنْدَمَـا رَأَى أَنَّهُ لَمْ
يَتَغَلَّبْ عَلَى يَعْقُوبَ، ضَرَبَهُ عَلَى حُقِّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ مِفْصَلُ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي
مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. ٢٦وَقَالَ لَهُ: «أَطْلِقْنِي، فَقَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «لاَ
أُطْلِقُكَ حَـتَّى تُبَـارِكَنِي». ٢٧فَسَـأَلَهُ: «مَـا اسْمُكَ؟» فَـأَجَـابَ: «يَعْقُـوبُ».
٢٨فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْـقُوبَ، بَلْ إِسْرَائِيلَ (وَمَعْنَاهُ: يُجَاهِدُ
مَعَ اللهِ)، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ»...... (١)

لقاء يعقوب بأخيه عيسو

ولمّا رأى يعقـوبُ أخاه عيـسو مقبـلا نحوه في جمْع من رجـاله، فرّق أولاده على أمهاتهم، وتقدّمـهم نحو أخيه، فسجد أمامـه سبع سجدات وهو في هلع شديد. لكن عـيسو أقبل عليـه، وجذبه إليه وعانقه وقـبّله، ثم بكيا

(١) سفر التكوين - ٣٢.

كلاهما. وتلفّت عيسو نحو النساء والأولاد وسأله من هؤلاء؟ فقال هؤلاء قد أنعم الله بهم على عبدك يعقوب، وتقدموا جميعا وانحنوا أمام عيسو. وسأله عيسو ما هو قصدك من هذه القطعان التي سبقتك؟ فقال يعقوب إنها هدية عبدك يعقوب، فقال عيسو احتفظ بها لنفسك فلدي الكثير منها. لكن يعقوب أصرّ عليه أن يقبلها منه؛ فقبِلها.

٣٣- لقاء يعقوب وعيسو

وَتَطَلَّعَ يَعْقُوبُ مِنْ بَعِيد، فَرَأَى عِيسُو مُقْبِلاً وَمَعَهُ أَرْبَعُ مِئَة رَجُلٍ، فَفَرَّق
أَوْلاَدَهُ عَلَى لَيْئَةَ وَرَاحِيلَ وَالْجَارِيَتَيْنِ..... ٣وَتَقَدَّمَهُمْ، وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ
سَبْعَ مَرَّات حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْ أَخِيه. ٤فَأَسْرَعَ عِيسُو لِمُلاَقَاته وَعَانَقَهُ وَقَبَّلَهُ،
وَبَكَيَا. ٥وَتَلَفَّتَ عِيسُو حَوْلَهُ فَشَاهَدَ النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ فَقَالَ: «مَنْ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ
مَعَكَ؟» فَأَجَابَ: «هُمُ الأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ بِهِمْ عَلَى عَبْدِكَ». ٦ثُمَّ دَنَت
الْجَارِيَتَان مَعَ أَوْلاَدهمَا وَانْحَنَوْا أَمَامَ عِيسُو. ٧وَبَعْدَهُمْ اقْتَرَبَتْ لَيْئَةُ وَأَوْلاَدُهَا
وَانْحَنَوْا أَيْضاً، وَأَخِيراً تَقَدَّمَتْ رَاحِيلُ وَيُوسُفُ وَانْحَنَيَا أَمَامَهُ. ٨وَسَأَلَ عِيسُو:
«مَا هُوَ قَصْدُكَ مِنْ كُلِّ هَذِه الْقُطْعَانِ الَّتِي صَادَفْتُهَا؟». فَأَجَابَ يَعْقُوبُ: «هِيَ
لِكَيْ أَحْظَى بِرِضَى سَيِّدِي». ٩فَقَالَ عِيسُو: «إِنَّ لَدَيَّ كَثِيراً يَاأَخِي. فَاحْتَفِظْ
لِنَفْسِكَ بِمَا لَكَ». ١٠فَقَالَ يَعْقُوبُ: «لاَ. إِنْ كُنْتُ قَدْ حَظِيتُ بِرِضَاكَ، فَأَرْجُو
مِنْكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنِّي هَدِيَّتِي لأَنِّي رَأَيْتُ وَجْهَكَ كَمَا يُرَى وَجْهُ الله، فَرَضِيتَ
عَنِّي. ١١فَأَطْلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَ بَرَكَتِي الَّتِي حَمَلْتُهَا إِلَيْكَ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَغْدَقَ
عَلَيَّ، وَلَدَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». وَأَلَحَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَبِلَ[١].

وقال عيسّو ليعقوب هيّا نرحل وسوف أسير أمامك وتتبعني، لكن يعقوب اعتذر متعلّلا بالإنهاك الذي أصاب الأولاد والماشية، وطلب من أخيه عيسو أن يسبقهم برجاله لأنه سوف يتحرّك على مهل. وعرض عليه عيسّو أن يترك معه بعض رجاله للمساعدة، ولكنه شكره قائلا يكفيني رضاك عني. ومضى عيسو إلى سعير، ومضى يعقوب إلى سكوت، ثم واصل طريقه حتى

(١) سفر التكوين - ٣٣.

وصل إلى شكيم. ونصب يعقوب خيامه مقابل المدينة على أرض اشتراها من أبناء حمّور، وشيّد مذبحا للرب.

الافتراق السلمي

١٢وَقَالَ عِيسُو: «لِنَرْتَحِلْ فَأَسِيرَ أَمَامَكَ وَتَتْبَعَنِي». ١٣فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ:
«يَاسَيِّدِي أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الأَوْلاَدَ مَا بَرِحُوا أَطْرِيَاءَ الْعُودِ، وَغَنَمِي وَبَقَرِي
مُرْضِعَةٌ، فَإِنْ أَجْهَدْتُهَا يَوْماً وَاحِداً فَإِنَّ كُلَّ الْغَنَمِ تَمُوتُ. ١٤فَلْيَتَقَدَّمْ مَوْلاَيَ
عَبْدَهُ، وَأَنَا أَسْتَاقُ مُتَمَهِّلاً فِي إِثْرِ الْمَاشِيَةِ الَّتِي أَمَامِي، وَفِي إِثْرِ الأَوْلاَدِ أَيْضاً،
إِلَى أَنْ أُقْبِلَ عَلَى سَيِّدِي فِي سَعِيرَ». ١٥فَقَالَ لَهُ عِيسُو: «إِذاً أَتْرُكُ مَعَكَ بَعْضَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ مَعِي». فَأَجَابَهُ: «وَأَيُّ حَاجَةٍ لِذَلِكَ؟ إِنَّ كُلَّ مَا أَطْلُبُهُ هُوَ أَنْ
أَحْظَى بِرِضَى سَيِّدِي». ١٦فَمَضَى عِيسُو فِي طَرِيقِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ رَاجِعاً إِلَى
سَعِيرَ. ١٧أَمَّا يَعْقُوبُ فَارْتَحَلَ إِلَى سُكُّوتَ، وَبَنَى لِنَفْسِهِ بَيْتاً وَصَنَعَ لِمَوَاشِيهِ
مَظَلاَّتٍ. لِذَلِكَ دُعِيَ ذَلِكَ الْمَكَانُ بِاسْمِ سُكُّوتَ (وَمَعْنَاهُ: الْمَظَلاَّتُ). ١٨ثُمَّ
وَصَلَ يَعْقُوبُ سَالِماً مَدِينَةَ شَكِيمَ (وَهِيَ نَابُلُسُ) الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، عَلَى
طَرِيقِهِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى سَهْلِ أَرَامَ، وَنَصَبَ خِيَامَهُ مُقَابِلَ الْمَدِينَةِ، ١٩وَاشْتَرَى الأَرْضَ
الَّتِي نَصَبَ عَلَيْهَا خَيْمَتَهُ، مِنْ أَبْنَاءِ حَمُورَ أَبِي شَكِيمَ بِمِئَةِ قِطْعَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ.
٢٠وَشَيَّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً دَعَاهُ إِيلَ (وَمَعْنَاهُ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ)(١).

انتهاك شرف دينة

وعاش يعقوب بين جيرانه من الكنعانيين فترة من الزمن في وئام تام، حتى كانت حادثة انتهاك شرف ابنته دينه. وتم ذلك عن طريق شكيم ابن حمور الذي رآها تتجوّل وحدها في الحقول فهام بها، ولم تتوقّف مشاعره عند هذا الحد، بل قام باغتصابها ثم طلب من أبيه أن يُزوِّجها له. وعلم يعقوب بالأمر لكنه سكت حتى يرجع أولاده من الحقل ليستشيرهم فيه.

---

(١) سفر التكوين – ٣٣.

٣٤- انتهاك شرف دينة

وَخَرَجَتْ دِينَةُ ابْنَةُ لَيْئَةَ الَّتِي أَنْجَبَتْهَا لِيَعْقُوبَ لِتَتَعَرَّفَ عَلَى بَنَاتِ الْمِنْطَقَةِ
الْمُحِيطَةِ، ٢فَرَآهَا شَكِيمُ بْنُ حَمُورَ الْحِوِّيِّ، رَئِيسِ الْمِنْطَقَةِ، فَأَخَذَهَا وَاغْتَصَبَهَا
وَلَوَّثَ شَرَفَهَا، ٣وَأُغْرِمَ قَلْبُهُ بِدِينَةَ وَلاَطَفَهَا. ٤وَقَالَ شَكِيمُ لِحَمُورَ أَبِيه: «خُذْ
لِي هَذِه الْفَتَاةَ زَوْجَةً». ٥وَسَمِعَ يَعْقُوبُ أَنَّهُ قَدْ لَوَّثَ شَرَفَ ابْنَتِه دِينَةَ. وَكَانَ
بَنُوهُ آنَئِذٍ يَرْعَوْنَ مَوَاشِيَهِ فِي الْحَقْلِ، فَسَكَتَ حَتَّى رَجَعُوا(١).

وما إن علم إخوة دينة بالأمر حتى استشاطوا غضبا على من ارتكب تلك الفاحشة مع أختهم. ولم يلبث أن قدم عليهم حمور يستسمحهم في أن يزوِّجوا ابنتهم لابنه الذي تعلقت بها نفسُه. وعرض عليهم المهر الذي يطلبونه لها، وأن يساكنوهم في أرضهم، ويقيموا معهم أحسن العلاقات. وتظاهر أبناء يعقوب بالموافقة، لكنهم اشترطوا عليهم لكي يكونوا شعبا واحدا كما يريدون أن يختتنوا ليكونوا مثلهم، وإلا فإنهم سوف يرحلون من جوارهم.

محاولة مصاهرة يعقوب

٦وَوَفَدَ حَمُورُ وَالِدُ شَكِيمَ عَلَى يَعْقُوبَ لِيُخَاطِبَهُ بِشَأْنِ دِينَةَ ٧وَأَتَى بَنُو
يَعْقُوبَ مِنَ الْحَقْلِ عِنْدَمَا سَمِعُوا بِالأَمْرِ، وَقَدِ اسْتَشَاطُوا غَضَباً وَغَيْظاً لأَنَّ
شَكِيمَ قَدِ ارْتَكَبَ فَاحِشَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِمُضَاجَعَةِ ابْنَةِ يَعْقُوبَ، وَهُوَ أَمْرٌ
مَحْظُورٌ. ٨وَقَالَ حَمُورُ: «لَقَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُ ابْنِي شَكِيمَ بِابْنَتِكُمْ، فَأَطْلُبُ
إِلَيْكُمْ أَنْ تُزَوِّجُوهُ مِنْهَا. ٩صَاهِرُونَا، وَزَوِّجُونَا بَنَاتِكُمْ، وَتَزَوَّجُوا مِنْ بَنَاتِنَا،
١٠وَاسْكُنُوا مَعَنَا، فَهَا هِيَ الأَرْضُ أَمَامَكُمْ. أَقِيمُوا بِهَا وَاتَّجِرُوا وَتَمَلَّكُوا
فِيهَا». ١١وَقَالَ شَكِيمُ لأَبِيهَا وَإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَحْظَى بِرِضَاكُمْ، وَكُلُّ مَا
تَسْأَلُونَهُ أُعْطِيه. ١٢أَغْلُوا عَلَيَّ الْمَهْرَ وَالْهَدِيَّةَ فَأَبْذُلَهُمَا كَمَا تَطْلُبُونَ، إِنَّمَا
زَوِّجُونِي مِنَ الْفَتَاةِ». ١٣وَأَجَابَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ شَكِيمَ وَأَبَاهُ حَمُورَ بِدَهَاءٍ، لأَنَّهُ
كَانَ قَدْ لَوَّثَ شَرَفَ أُخْتِهِمْ، ١٤وَقَالُوا لَهُمَا: «لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ هَذَا الأَمْرُ

---

(١) سفر التكوين ٣٤.

فَنُعْطِيَ أُخْتَنَا لأَغْلَفَ، لأَنَّ هَذَا عَارٌ عَلَيْنَا. ١٥غَيْرَ أَنَّنَا نُوَافِقُ عَلَى طَلَبِكُمْ إِنْ صِرْتُمْ مِثْلَنَا، وَاخْتَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ مِنْكُمْ، ١٦عِنْدَئِذٍ نُزَوِّجُكُمْ بَنَاتِنَا، وَنَتَزَوَّجُ مِنْ بَنَاتِكُمْ، فَنُقِيمُ بَيْنَكُمْ وَنُصْبِحُ شَعْباً وَاحِداً، ١٧وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لَنَا وَتَخْتَتِنُوا، نَأْخُذُ ابْنَتَنَا وَنَمْضِي»(١).

الانتقام لدينة

استحسن حمور وولده كلامهم وذهبا إلى مجلس المدينة، وعرضا عليهم الأمر ورغّبوهم فيه؛ حتى وافقوا جميعا على أن يختتنوا؛ طمعا فيما عند يعقوب من ماشية وأموال، واختتنوا جميعا امتثالا لأمر حمور. وفي اليوم الثالث من اختتان أهل المدينة، دخل عليهم كل من شمعون ولاوي ابنا يعقوب؛ وهم في حالة من الوهن بسبب الختان، وقتلوا كل ذكر منهم بحد السيف، ثم أقبل بقية إخوتهما فنهبوا كل ما في المدينة، وسبوا النساء والأطفال. ولمّا علم يعقوب بالأمر، قال لأبنائه: لقد جلبتم عليّ الشقاء وعرّضتموني لغضب أهل البلاد ولا أدري ماذا سيفعلون بنا، فقالوا له: ليست أختنا التي تعامل معاملة الزانية.

الانتقام لدينة

١٨فَاسْتَحْسَنَ حَمُورُ وَوَلَدُهُ شَكِيمُ كَلاَمَهُمْ، ١٩وَلَمْ يَتَوَانَ الشَّابُّ عَنْ تَنْفِيذِ الأَمْرِ، لأَنَّهُ كَانَ مُغْرَماً بِابْنَةِ يَعْقُوبَ، وَكَانَ أَكْرَمَ جَمِيعِ بَيْتِ أَبِيهِ.
٢٠فَجَاءَ حَمُورُ وَشَكِيمُ ابْنُهُ إِلَى مَجْلِسِ الْمَدِينَةِ وَقَالاَ لِرِجَالِهَا: ٢١ «إِنَّ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ مُسَالِمُونَ لَنَا، فَلْنَدَعْهُمْ يُقِيمُونَ فِي الأَرْضِ وَيَتَّجِرُونَ فِيهَا، فَالأَرْضُ رَحْبَةٌ أَمَامَهُمْ، وَلْنَتَزَوَّجْ بَنَاتِهِمْ وَهُمْ يَتَزَوَّجُونَ بَنَاتِنَا. ٢٢وَقَدِ اشْتَرَطُوا لِلإِقَامَةِ بَيْنَنَا وَأَنْ نُصْبِحَ شَعْباً وَاحِداً، أَنْ يَخْتَتِنَ كُلُّ ذَكَرٍ كَمَا هُمْ ٢٣عِنْدَ ذَلِكَ تُصْبِحُ مَاشِيَتُهُمْ وَمُقْتَنَيَاتُهُمْ وَكُلُّ بَهَائِمِهِمْ مِلْكاً لَنَا. فَلْنُوَافِقْهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَيُقِيمُوا مَعَنَا». ٢٤فَوَافَقَ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ فِي مَجْلِسِ الْمَدِينَةِ عَلَى كَلاَمِ حَمُورَ وَابْنِهِ

---

(١) سفر التكوين - ٣٤.

شكيمَ، فَاختَتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ فِي المُدينَة. ٢٥وَفـي اليَوْمِ الثَّالث، بَيْنَمَا هُمْ مَا زَالُوا
مُتَوَجِّـعينَ، تَقَلَّدَ كُلٌّ مِنْ شمعُـونَ وَلاَوِي ابْنَي يَعْقُوبَ وَأَخَوَيْ دِينَةَ، سَـيْفَهُ،
وَدَخَلاَ المُدينَةَ بِجَـرَاءَة وَقَتَلاَ كُلَّ الذُّكُورِ. ٢٦وَقَـتَلاَ أَيْضاً حَمُـورَ وَشَكِيمَ بِحَدِّ
السَّيْفِ، وَأَنْقَـذَا دِينَةَ مِنْ بَيْت شَكِيمَ وَخَرَجَـا. ٢٧ثُمَّ أَقْبَلَ بَنُو يَعْـقُوبَ عَلَى
القَتْلَى وَنَـهَبُوا المُدِينَةَ لأَنَّهُمْ لَوَّثُـوا شَرَفَ أُخْتِـهِمْ، ٢٨وَاسْتَوْلَوْا عَلَـى غَنَمِهِمْ
وَبَقَرِهِـمْ وَحَمِيـرِهِمْ وَعَلَى كُلِّ مَا فـي المُدِينَةِ وَفي الحَقْلِ، ٢٩وَسَـبَوْا وَنَهَـبُوا
جَمِيعَ ثَرْوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَـالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَكُلَّ مَا فِي البُيُوت. ٣٠فَـقَالَ يَعْقُوبُ
لِشَمْـعُونَ وَلاَوِي: «لَقَدْ جَلَـبْتُمَـا عَلَيَّ الشَّقَاءَ وَكَـرَاهِيَةَ الكَنْعَـانِيِّينَ وَالفِرِزِّيِّينَ
السَّاكِنِينَ فِي هَذِه البِلاَدِ. وَهَا أَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ، فَيَتَأَلَّبُونَ عَلَيَّ وَيَقْتُلُونَنِي، فَأَبِيدُ أَنَا
وَبَيْتِي». ٣١فَقَالاَ لَهُ: «أَنَظِيرَ زَانِيَةٍ يُعَامِلُ أُخْتَنَا؟»(١).

وفي تلك الظروف الصعبة قال الله ليعقوب، اصعد إلى بيت إيل، وابن مذبحا للرب في الموضع الذي ظهرتُ لك فيه هناك عندما كنت هاربا من أمام أخيك عيسو. أمر يعقوب جميع أهل بيته أن يستعدّوا للرحيل، وأن يتخلّصوا من أي تماثيل لآلهة تكون معهم، وأن يتطهّروا ويُبدِّلوا ثيابهم. وجمع يعقوب كل الأصنام التي كانت معـهم، والأقراط التي في آذانهم؛ فطمرها تحت التلّة التي في شكيم قـبل أن يرحلوا. ورحلوا دون أن يسـعى وراءهم أحد؛ فـقد هيمن رعبُ الله على كل ما حولهم.

٣٥- رجوع يعقوب إلى بيت إيل

ثُمَّ قَالَ اللهُ لِيَعْقُوبَ: «اصْعَدْ إِلَى بَيْتِ إِيلَ وَاسْكُنْ هُنَاكَ، وَشَيِّدْ مَذْبَحاً
لله الَّذِي ظَهَرَ لَكَ عِنْدَمَا كُنْتَ هَارِباً مِـنْ أَمَامِ أَخِيكَ عِيسُو». ٢فَأَمَـرَ يَعْقُوبُ
أَهْلَ بَيْـته، وَكُلَّ مَنْ كَـانَ مَعَـهُ: «تَخَلَّصُـوا مِنَ الآلِهَةِ الغَـرِيبَـةِ الَّتِي بَيْنَكُمْ،
وَتَطَهَّرُوا وَأَبْدِلُوا ثِيَابَكُمْ، ٣ثُمَّ تَعَالَوْا لِنَذْهَبَ إِلَى بَيْـتِ إِيلَ لأُشَيِّدَ هُنَاكَ مَذْبَحاً
لِلهِ الَّذِي اسْتَجَـابَ لِي فِي يَوْمِ ضِيقَتِي، وَرَافَقَنِي فِي الطَّـرِيقِ الَّتِي سَلَكْتُهَا».

(١) سفر التكوين - ٣٤.

٤فَسَلَّمُوا يَعْقُوبَ كُلَّ الآلِهَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ لَدَيْهِمْ وَالأَقْرَاطَ الَّتِي فِي آذَانِهِمْ، فَطَمَرَهَا يَعْقُوبُ تَحْتَ الْبُطْمَةِ الَّتِي فِي شَكِيمَ. ٥ثُمَّ ارْتَحَلُوا، فَهَيْمَنَ رُعْبُ اللهِ عَلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَهُمْ، فَلَمْ يَسْعَوْا وَرَاءَهُمْ[(١)].

موت راحيل

واصل يعقوب رحيله إلى بيت إيل. وفي الطريق إلى أفراته (بيت لحم) أدرك راحيل المخاض وآلام الوضع. وكانت ولادتها متعسّرة، فلفظت أنفاسها وهي تلد بنيامين. دفنها يعقوب في الطريق وأقام على قبرها عمودا.

مولد بنيامين وموت راحيل

١٦ثُمَّ ارْتَحَلُوا مِنْ بَيْتِ إِيلَ. وَإِذْ كَانُوا بَعْدُ عَلَى مَسَافَةٍ مِنْ أَفْرَاتَةَ شَعَرَتْ رَاحِيلُ بِالْمُخَاضِ وَتَعَسَّرَتْ وِلاَدَتُهَا. ١٧وَإِذْ كَانَتْ تُقَاسِي فِي وِلاَدَتِهَا قَالَتْ لَهَا الْقَابِلَةُ: «لاَ تَخَافِي، فَإِنَّ هَذَا أَيْضاً ابْنٌ آخَرُ لَكِ». ١٨وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَلْفِظُ أَنْفَاسَهَا عِنْدَ مَوْتِهَا دَعَتْهُ «بَنْ أُونِي» (وَمَعْنَاهُ: ابْنُ حُزْنِي) غَيْرَ أَنَّ أَبَاهُ دَعَاهُ «بِنْيَامِينَ» (وَمَعْنَاهُ: ابْنُ يَمِينِي). ١٩ثُمَّ مَاتَتْ رَاحِيلُ وَدُفِنَتْ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى أَفْرَاتَةَ، أَيْ بَيْتِ لَحْمٍ. ٢٠وَأَقَامَ يَعْقُوبُ عَمُوداً عَلَى قَبْرِهَا، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِعَمُودِ قَبْرِ رَاحِيلَ إِلَى الْيَوْمِ[(٢)].

استقر المقام بيعقوب في أرض كنعان، وكان الله قد رزقه من الأبناء اثنا عشر ولدا عاش بينهم يتمتع بحمايتهم ورعايتهم، لكن كانت عواطفه تميل أكثر ليوسف، وكان يؤثره على بقية إخوته (أحيل القارئ الكريم إلى الفصل العاشر من هذا الكتاب الذي يتناول تفاصيل قصة يوسف).

ومن خلال متابعتنا لقصة يوسف (في الفصل العاشر) مع إخوته الذين وفدوا إلى مصر من أجل القمح، وما تم من مساجلات ومداولات بينه وبينهم، نجد أنه قد عرّفهم بنفسه في نهاية المطاف وزوّدهم بالمركبات ليحضروا

---

(١) (٢) سفر التكوين ٣٥.

أباه وأهلهم أجمعين ليعيشوا بجواره في مصر، وأن الفرعون قد رحّب بذلك أيّما ترحيب.

ولما أقبلوا على أبيهم وأخبروه أن يوسف حي لم يصدّقهم في مبدأ الأمر، لكنه لما عاين العربات التي أرسلها يوسف معهم، انتعشت روحه، وقال الحمد لله أن يوسف حي، وأنني سوف أراه قبل أن أموت.

الرجوع إلى أرض كنعان

٢١فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هكَذَا، وَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ عَرَبَاتٍ حَسَبَ أَمْرِ
فِرْعَوْنَ وَمَؤُونَةً لِلطَّرِيقِ. ٢٢وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حُلَلَ ثِيَابٍ. أَمَّا بِنْيَامِينُ
فَخَصَّهُ بِثَلاَثِ مِئَةِ قِطْعَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَخَمْسِ حُلَلِ ثِيَابٍ. ٢٣وَأَرْسَلَ إِلَى أَبِيهِ
عَشَرَةَ حَمِيرٍ مُحَمَّلَةٍ بِأَفْضَلِ خَيْرَاتِ مِصْرَ وَعَشْرَ أُتُنٍ مُثْقَلَةٍ بِالْحِنْطَةِ وَخُبْزاً
وَطَعَاماً يَقْتَاتُ مِنْهَا فِي الطَّرِيقِ. ٢٤وَهكَذَا صَرَفَ إِخْوَتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْصَاهُمْ: «لاَ
تَتَخَاصَمُوا فِي الطَّرِيقِ». ٢٥وَانْطَلَقُوا مِنْ مِصْرَ حَتَّى أَقْبَلُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ
إِلَى أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ. ٢٦فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّ يُوسُفَ مَازَالَ حَيّاً، وَهُوَ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى
كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». فَغُشِيَ عَلَى قَلْبِ يَعْقُوبَ لأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ. ٢٧ثُمَّ حَدَّثُوهُ
بِكَلاَمِ يُوسُفَ. وَعِنْدَمَا عَايَنَ يَعْقُوبُ الْعَرَبَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِتَنْقُلَهُ،
انْتَعَشَتْ رُوحُهُ، ٢٨وَقَالَ: «كَفَى! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ، سَأَذْهَبُ لأَرَاهُ قَبْلَ
أَنْ أَمُوتَ»(١).

رحيل يعقوب إلى مصر

شدّ يعقوب الرحال بجميع أهله وممتلكاته إلى مصر، ولمّا وصل إلى بئر سبع، قدّم الذبائح للرب، ودعى الله أن يوفّقه في رحلته، وأن يجمعه بابنه يوسف الذي اشتاقت إليه نفسه. وفي الرؤية خاطبه الرب قائلا لا تخف من الذهاب إلى مصر لأنني سأكون معك، وسأجعل منك أمة عظيمة، وسوف

(١) سفر التكوين - ٤٥.

يُغمض يوسفُ أجفانَك بيديه، وسوف أُرجعك أيضا إلى الأرض التي أنا واهبها لذريتك.

٤٦- يعقوب يرتحل إلى مصر

وَارْتَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَكُلُّ مَا لَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بِئْرِ سَبْعٍ، فَقَدَّمَ ذَبَائِحَ إِلَى إِلَهِ أَبِيهِ إِسْحقَ. ٢وَقَالَ اللهُ لإِسْرَائِيلَ فِي رُؤَى اللَّيْلِ: «يَعْقُوبُ، يَعْقُوبُ». فَأَجَابَ: «هَا أَنَا» ٣فَقَالَ: «أَنَا هُوَ اللهُ، إِلَهُ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى مِصْرَ لأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. ٤أَنَا أَصْحَبُكَ إِلَى مِصْرَ، وَأَنَا أُرْجِعُكَ أَيْضاً، وَيُغْمِضُ يُوسُفُ أَجْفَانَكَ بِيَدَيْهِ عِنْدَ مَوْتِكَ». ٥فَانْطَلَقَ يَعْقُوبُ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ. وَحَمَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ أَبَاهُمْ وَأَوْلاَدَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمْ فِي الْعَرَبَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا فِرْعَوْنُ لِنَقْلِهِ. ٦وَأَخَذُوا مَعَهُمْ مَوَاشِيَهُمْ وَمُقْتَنَيَاتِهِمِ الَّتِي اقْتَنَوْهَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَجَاءُوا جَمِيعاً إِلَى مِصْرَ، ٧فَقَدْ صَحِبَ يَعْقُوبُ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ أَبْنَاءَهُ وَأَحْفَادَهُ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، وَسَائِرَ ذُرِّيَّتِهِ[1].

ذرية يعقوب

وكان عدد الأشخاص الذين وفدوا إلى مصر من صلب يعقوب ستة وستين شخصا؛ ما عدا زوجات أبنائه، يضاف إليهم ابنا يوسف اللذان ولدا في مصر، فيكون الجميع سبعين نفسا؛ بما فيهم يعقوب نفسه ويوسف.

ذرية يعقوب

٨وَهَذِهِ أَسْمَاءُ أَبْنَاءِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ قَدِمُوا مَعَهُ إِلَى مِصْرَ. يَعْقُوبُ وَأَبْنَاؤُهُ:..... ٢٦فَكَانَ عَدَدُ جَمِيعِ الأَشْخَاصِ الْخَارِجِينَ مِنْ صُلْبِ يَعْقُوبَ، مِمَّنْ وَفَدُوا إِلَى مِصْرَ، سِتَّةً وَسِتِّينَ شَخْصاً مَاعَدَا زَوْجَاتِ أَبْنَائِهِ. ٢٧وَابْنَا يُوسُفَ اللَّذَانِ وُلِدَا لَهُ فِي مِصْرَ هُمَا شَخْصَانِ. فَيَكُونُ عَدَدُ نُفُوسِ بَيْتِ يَعْقُوبَ الَّتِي قَدِمَتْ إِلَى مِصْرَ سَبْعِينَ نَفْساً[2].

(١) (٢) سفر التكوين ٤٦.

الاستيطان في مصر

لما وصل يعقوب إلى أرض مصر، طلب من ابنه يهوذا أن يسبقهم إلى يوسف ليخبره بوصولهم لأنه اشتاق لرؤيته. وما إن أقبل عليه يوسف حتى عانقه بحرارة وأجهش بالبكاء وقال ليوسف: لو مت الآن فسوف أموت مطمئنا لأنني رأيتك حيا.

الاستيطان في مصر

٢٨وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ يَهُوذَا أَمَامَهُ إِلَى يُوسُفَ لِيَدُلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى
جَاسَانَ. ٢٩فَأَعَدَّ يُوسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لِلِقَاءِ أَبِيهِ إِسْرَائِيلَ فِي جَاسَانَ. وَمَا إِنْ
أَقْبَلَ عَلَيْهِ حَتَّى عَانَقَهُ يُوسُفُ وَبَكَى زَمَاناً طَوِيلاً. ٣٠وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ:
«دَعْنِي أَمُوتُ الآنَ إِذْ قَدْ أَبْصَرْتُ وَجْهَكَ وَرَأَيْتُ أَنَّكَ مَازِلْتَ حَيّاً»[1].

أقام بنو إسرائيل في مصر خير مُقام بسبب سلطة يوسف، وتكاثروا واقتنوا الأملاك. وكانت الفترة التي قضاها يعقوب في مصر سبع عشرة سنة حتى وصل من العمر مائة وسبعة وأربعين. ولما أحس بدُنُوٍّ أجله، استدعى ابنه يوسف وأوصاه أن لا يدفنه في مصر، وأقسم عليه أن يدفنه مع آبائه إبراهيم وإسحاق.

وعد يوسف ليعقوب

٢٧وَأَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَاقْتَنَوْا فِيهَا أَمْلاَكاً
وَأَثْمَرُوا وَتَكَاثَرُوا. ٢٨وَعَاشَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ مِصْرَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى بَلَغَ
مِنَ الْعُمْرِ مِئَةً وَسَبْعَةً وَأَرْبَعِينَ عَاماً. ٢٩وَعِنْدَمَا قَرُبَ يَوْمُ وَفَاتِه، اسْتَدْعَى ابْنَهُ
يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ حَظِيتُ بِرِضَاكَ، فَضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي،
وَأَسْدِ لِي مَعْرُوفاً وَأَمَانَةً: لاَ تَدْفِنِّي فِي مِصْرَ ٣٠بَلْ دَعْنِي أَضْطَجِعُ إِلَى جِوَارِ

(١) سفر التكوين ٤٦.

آبَائِي. انْقُلْنِي مِنْ مِصْرَ وَوَارِنِي فِي مَدْفَنِهِمْ»، فَقَالَ: «أَنَا أَفْعَلُ حَسَبَ قَوْلِكَ». ٣١فَقَالَ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِي». فَحَلَفَ لَهُ، فَسَجَدَ يَعْقُوبُ (شَاكِراً) عَلَى رَأْسِ السَّرِيرِ(١).

وفاة يعقوب

وفي أواخر أيام يعقوب بارك أبناءه جميعا، ودعا لهم، وأوصاهم بأن يدفنوه إلى جوار آبائه في مغارة حقل عفرون الحثّي. ولما فرغ من وصيته تمدّد على سريره، وضمّ رجليه معا، وأسلم روحه في سكينة ووقار.

وفاة يعقوب

٢٩ثُمَّ أَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «قَرِيباً أَنْضَمُّ إِلَى آبَائِي، فَادْفُنُونِي إِلَى جُوَارِهِمْ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ. ٣٠الَّتِي فِي حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ الْمُوَاجِهَةِ لِمَمْرَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي اشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ مَعَ الْحَقْلِ مِنْ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ مَدْفَناً خَاصّاً. ٣١فِيهَا دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَزَوْجَتُهُ سَارَةُ، ثُمَّ إِسْحقُ وَزَوْجَتُهُ رِفْقَةُ، وَأَيْضاً دَفَنْتُ لَيْئَةَ. ٣٢وَقَدِ اشْتَرَى إِبْرَاهِيمُ الْحَقْلَ وَالْمَغَارَةَ الَّتِي فِيهِ مِنَ الْحِثِّيِّينَ.» ٣٣وَلَمَّا فَرَغَ يَعْقُوبُ مِنْ تَوْصِيَةِ أَبْنَائِهِ تَمَدَّدَ عَلَى سَرِيرِهِ، وَضَمَّ رِجْلَيْهِ مَعاً، ثُمَّ أَسْلَمَ رُوحَهُ وَلَحِقَ بِآبَائِهِ(٢).

دفن يعقوب في كنعان

قبّله يوسف باكيا، ثم أمر الأطباء بتحنيط جثته. ولما انتهت فترة التحنيط، استأذن من فرعون أن يدفن أباه حسب وصيته، فأذن له فرعون. وانطلق يوسف ليدفن أباه في موكب عظيم، ودفنوه في مغارة حقل المكفيلة بجوار آبائه ثم قفلوا راجعين إلى مصر.

(١) سفر التكوين - ٤٧.	(٢) سفر التكوين ٤٩.

٥٠- تحنيط جثمان يعقوب

فَأَلْقَى يُوسُفُ بِنَفْسِهِ عَلَى جُثْمَانِ أَبِيهِ، وَبَكَى وَقَبَّلَهُ. ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ عَبِيدَهُ الأَطِبَّاءَ أَنْ يُحَنِّطُوا أَبَاهُ. ٣وَقَدِ اسْتَغْرَقَ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْماً، وَهِيَ الأَيَّامُ الْمَطْلُوبَةُ لاِسْتِكْمَالِ التَّحْنِيطِ. وَبَكَى الْمِصْرِيُّونَ عَلَيْهِ سَبْعِينَ يَوْماً(١).

دفن يعقوب في كنعان

٤وَبَعْدَمَا انْقَضَتْ أَيَّامُ النُّوَاحِ عَلَيْهِ، قَالَ يُوسُفُ لأَهْلِ بَيْتِ فِرْعَوْنَ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ حَظِيتُ بِرِضَاكُمْ، فَتَكَلَّمُوا فِي مَسَامِعِ فِرْعَوْنَ قَائِلِينَ: ٥لَقَدِ اسْتَحْلَفَنِي أَبِي وَقَالَ: أَنَا مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ، فَادْفِنِّي فِي الْقَبْرِ الَّذِي حَفَرْتُهُ لِنَفْسِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَاسْمَحْ لِيَ الآنَ بِأَنْ أَمْضِيَ لأَدْفِنَ أَبِي ثُمَّ أَعُودَ». ٦فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «امْضِ وَادْفِنْ أَبَاكَ كَمَا اسْتَحْلَفَكَ». ٧فَانْطَلَقَ يُوسُفُ لِيَدْفِنَ أَبَاهُ، وَرَافَقَتْهُ حَاشِيَةُ فِرْعَوْنَ مِنْ أَعْيَانِ بَيْتِهِ وَوُجَهَاءِ مِصْرَ، ٨وَكَذَلِكَ أَهْلُ بَيْتِهِ وَإِخْوَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِ أَبِيهِ. وَلَمْ يُخَلِّفُوا وَرَاءَهُمْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ سِوَى صِغَارِهِمْ وَغَنَمِهِمْ وَقُطْعَانِهِمْ. ٩وَصَاحَبَتْهُ أَيْضاً مَرْكَبَاتٌ وَفُرْسَانٌ، فَكَانُوا مَوْكِباً عَظِيماً. . . . . ١٢وَنَفَّذَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ وَصِيَّةَ أَبِيهِمْ، ١٣فَنَقَلُوهُ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ وَدَفَنُوهُ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ مُقَابِلَ مَمْرَا الَّتِي اشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ مَعَ الْحَقْلِ مِنْ عِفْرُونَ الْحِثِّيِّ لِتَكُونَ مَدْفَناً خَاصّاً. ١٤وَبَعْدَ أَنْ دَفَنَ يُوسُفُ أَبَاهُ، رَجَعَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ وَسَائِرُ الَّذِينَ رَافَقُوهُ إِلَى مِصْرَ(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين - ٥٠.

يعقوب في القرآن

بعـد أن بلغ إبراهيم من الكبر عـتيّـا، وشاخت زوجـته سـارة دون أن تُنجب؛ بشّرهما الله بمولد إسـحاق، وبحفيد لهما من إسـحاق هو يعقوب، وبأنه سيكون من ذرِّيتـهما أنبيـاء ورسل، يسارعون في عمل الخـيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ويعبدون الله حق عبادته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾ [الأنبياء].

وعاش يعـقوب عـمرا طويلا، ورزق من الأولاد الذرية الصـالحة. ولمّا حضرته الوفـاة كان حريصا على أن يسيـر أبناؤه في طريق الصلاح الذي دأب على تربيتهم عليه، فـجمعهم حوله وسألهم ما هو معبـودكم الذي ستعبدونه بعـد وفاتي؟ فـقالوا جـمـيعـا نعبـد الله الواحـد؛ إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وسنظل له مسلمين، ملتزمين طريقه، عاملين بشرائعه.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ [البقرة].

وسـوف يجد القـارئ الكريم المزيد عن نـبي الله يعقـوب في الفـصل العاشر من هذا الكتاب الذي يتناول قصة يوسف عليه السلام.

تعقيب

إن استغلال يعقوب لجوع أخيه عيسو، ومساومته له أن يطعمه مقابل أن يبيعه بكوريّته؛ لأمر مؤسف بين أخوين، وليتهما أخوان عاديان، بل هما ابنا نبي، وأحدهما سيصير نبيا. كما أن هذه الواقعة تؤكد لنا اتجاه التوراة نحو تنحية كل ذرية إبراهيم؛ من غير إسحاق؛ عن شرف الانتماء إليه بصفتهم أقل شأنا من بني إسرائيل، وسحب كل سمات الطهر والقداسة منهم تأصيلا لنزعة التعصّب عندهم. وقد ظهر ذلك جليا في موقف إبراهيم نفسه كما أوردته التوراة من إقصائه لابنه إسماعيل وبقية أبنائه من النسوة اللائي تزوّج بهن بعد موت سارة. ولم يقتصر الأمر على أبناء إبراهيم، بل تعداه إلى عيسو أخو يعقوب، ولم تُقدِّم لنا التوراة أي مبرر يقبله العقل لذلك.

ودحرجة يعقوب للحجر عن البئر؛ الذي لا يقدر عليه إلا الرعاةُ مجتمعين، سوف تتكرّر مع موسى عليه السلام؛ كشأن كثير من قصص التوراة التي تشبه بعضها بعضا مع اختلاف الزمان والمكان والأشخاص.

أما قصة إنجاب يعقوب لأبنائه، والطريقة التي كانت تتصرّف بها كل زوجة من زوجتيه للحصول على الولد منه؛ فتدلُ على حيوانية لا مثيل لها بين البشر، فالزوجة التي تريد الولد تعطيه جاريتها ليُنجب لها الولد الذي تريد، فيكون كالثور الذي يطأ ما يُقدَّم إليه من البقر وقتما يريد صاحبه. وآسف للمثال الذي قدّمتُه، لكن هل هناك توصيف غير ذلك لتلك العملية التي أُنزّه عنها ذلك من بيوت النُبُوَّة؛ بيت يعقوب عليه السلام.

أما الحيلة التي لجأ إليها يعقوب لتكثير غنمه بعد اتفاقه على القسمة مع خاله لابان؛ فهي حيلة ماكرة خبيثة لا يلجأ إليها نبي. وكُتَّاب التوراة الذين لم يوقِّروا الله نفسه، فهل يوقِّرون أحدا من البشر!!

أما الرعب الذي تملّك يعقوب من أخيه عيسو عند عودته من عند خاله لابان، فلا يستقيم أبدا مع إعلان الله عن تأييده له قبل مغادرته أرض حاران، وتشجيعه إيّاه على الرحيل إلى أرض آبائه وأجداده.

وأعجب العجائب أن تخبرنا التوراة أن يعقوب قضى ليلته يصارع رجلا نكتشف فيما بعد أنه الله في صورة رجل. ويشتدّ عجبنا حينما نرى أن الله لا يقدر على أن يُخلِّص نفسه من بين يدي يعقوب، بل ويرجوه أن يطلقه، ويأبى يعقوب، فيضطّر الله أن يضربه ضربة على فخذه تخلع مفصل الفخذ.

ويبرّر المفسرون ذلك بأن الله أراد أن يشجّعه على الصراع مع البشر، وعلى أن يتخلّى عن طبيعته المسالمة. والتساؤل الملح هنا؛ هل الله مضطر لأن يفعل مثل هذه الأفعال البشرية بنفسه؟ حاشاه.

ولا تتوقّف المفاجآت؛ فعيسو لم يكن شريرا مع أخيه يعقوب كما توقّع يعقوب. ورغم حسن مقابلة أخيه له، فقد ظل يتوجّس منه؛ بدليل أنه لم يقبل منه أن يصاحبه بقية الطريق، كما رفض أن يُبقي أخوه معه بعض جنوده لحراسته. أي نفوس تلك التي تُقدِّمها لنا التوراة؟ وأين كل ذلك من صدق التوكّل على الله، والثّقة في تقديره التي يجب أن يتحلى بها الصالحون من الناس، وما بالك بالأنبياء!!

أما انتهاك شرف دينة ابنة يعقوب، وانتقام إخوتها لها بهذه الطريقة الساذجة، فلا يُصدّقها عقل، ولا تقدر عليها جماعة لاجئة كما هو حال يعقوب وأولاده بين أهل البلاد الأصليين. وإذا حصلت بالشكل الذي ورد في التوراة، فكيف تمُرّ بهذه السهولة على بقيّة شعوب المنطقة؟

وفي نهاية الأمر، يتدخّل الرب لحماية هذه الجماعة المدلّلة كما تقدمها لنا التوراة، ويأمرهم بالرحيل من شكيم إلى بيت إيل للتخلص من تلك المشكلة. ويرحلون دون أن يقتفي أثرهم أحد. وتبرر التوراة ذلك بأن خوف الله قد أوقع الرعب على كل من حولهم فلم يلحقهم أحد، وهذا غير مقبول عقلا.

أما وعـد الله لبني إسرائيل بالأرض؛ فنراه فـضفاضـا جدا. فقـد كان الوعد لإبراهيم ولم يتحقّق منه شيء في عهـده، ثم لإسحاق ولم يتحقّق منه شيء في عهده كذلك، وفي عهد يعقوب صار العهد لذريته وليس له.

اقـتصـر لقاء يعـقـوب بابنه يوسف على العناق والبكاء بحـرارة. وهنا يتناقض مع ما ذكره القـرآن عن أن يعقوب وبنيه قد سـجدوا ليوسف؛ تأويلا للحلم الذي كـان قد قصّـه على أبيه قبل أن يُلقي بـه إخوتُه في الجب والذي يؤيد ما ذكره القرآن الكريم.

الفصل العاشر

يوسف

يوسف في التوراة
حلم يوسف

استقر المُقام بيعقوب في أرض كنعان. ولمّا كان يُحب يوسفَ أكثر من بقية إخوته؛ فقد كان يميّزه عنهم برعايته له وحدبه عليه، ويخُصُّه بالملابس الملوّنة التي كانت تُعدّ في زمانهم دليل تميُّز وتدليل. كما كان يوسف مُتَّهما بأنه ينقل إلى أبيه كل ما يقوله إخوته في حق أبيهم؛ وكان ذلك يُسبِّب كُره إخوته له، وحقدهم عليه.

٣٧- حلم يوسف وحسد إخوته

وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، حَيْثُ تَغَرَّبَ أَبُوهُ، ٢وَهَذَا سجلٌّ بسيرة يَعْقُوبَ. إِذْ كَانَ يُوسُفُ غُلاَماً فِي السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِه، رَاحَ يَرْعَى الْغَنَمَ مَعَ إِخْوَته أَبْنَاء بِلْهَةَ وَزِلْفَةَ زَوْجَتَيْ أَبيه، فَأَبْلَغَ يُوسُفُ أَبَاهُ بِنَميمَتهِم الرَّديئَة. ٣وَكَانَ إِسْرَائيلُ يُحبُّ يوسُفَ أَكْثَرَ مِنْ بَقيَّة إِخْوَته، لأَنَّهُ كَانَ ابْنَ شَيْخُوخَته، فَصَنَعَ لَهُ قَميصاً مُلَوَّناً. ٤وَلَمَّا رَأَى إِخْوَتُهُ أَنَّ أَبَاهُمْ يُحبُّهُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ كَرِهُوهُ وَأَسَاءُوا إِلَيْه بِكَلاَمِهِمْ[1].

وذات يوم قصّ يوسفُ حلمَه على إخوته؛ الذي رأى فيه أنه وإخوته كانوا في يوم حصاد وقد حزم كل منهم حزمته، وإذ به يرى حزمته تقف في وسط الحقل، وحزم إخوته تلتف حولها وتنحني لها. وقص عليهم حلما آخر يقول فيه أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا يسجدون له، فسخروا منه وقالوا : هل تظن أنه يأتي يوم تتملّك علينا وتتحكم فينا؟ وكان كرهُهم يزداد له بسبب تلك الأحلام. ولمّا قصّ حلمه الأخير على أبيه زجره أبوه، وسخر منه أمام إخوته حتى يهدئ من جزوة نار حسدهم له.

---

(١) سفر التكوين – ٣٧.

٥وحَلُمَ يُوسُفُ حُلْماً قَصَّهُ عَلَى إخوَته، فَازْدَادُوا لَهُ بُغْضاً. ٦قَالَ لَهُمْ:
«اسْمَعُوا هَذَا الحُلْمَ الَّذي حَلُمتُهُ. ٧رَأَيْتُ وَكَأَنَّنَا نَحزِمُ حُزَماً فِي الحُقُلِ، فَإذَا
بحزْمَتي وَقَفَتْ ثُمَّ انْتَصَبَتْ، فَأَحَاطَتْ بِهَا حُزَمُكُمْ وَانْحَنَتْ لَهَا». ٨فَقَالَ لَهُ
إخْوَتُهُ: «أَلَعَلَّكَ تَملكُ عَلَيْنَا أَوْ تَحكُمُنَا؟» وَزَادَ بُغْضُهُمْ لَهُ بِسَبَبِ أَحْلاَمه
وَكَلاَمه. ٩ثُمَّ حَلُمَ حُلْماً آخَرَ سَرَدَهُ عَلَى إخوَته، قَالَ: «حَلُمْتُ حُلْماً آخَرَ،
وَإذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً سَاجِدَةٌ لي». ١٠وَقَصَّهُ عَلَى أَبيه
وَإخْوَته، فَأَنَّبَهُ أَبُوهُ وَقَالَ: «أَيُّ حُلْم هَذَا الَّذي حَلُمْتَهُ؟ أَتَظُنُّ حَقّاً أَنَّني وأُمَّكَ
وَإخْوَتَكَ سَنَأْتي وَنَنْحَني لَكَ إِلَى الأَرْضِ؟» ١١فَحَسَدَهُ إخْوَتُهُ. أَمَّا أَبُوهُ فَأَسَرَّ
هَذَا الْكَلاَمَ فِي قَلْبِه(١).

أرسل يعقوب ابنه يوسف إلى إخوته وهم يرعــون الغنم ليأتيه بخبرهم، ويطمئنه عليــهم وعلى الماشية. اتجه يوسف إلى شكيم حــيث إخوته ولكنه لم يجدهم، وأخــبره أحد الــرجال الذين صادفــهم بأنهم قد توجّــهوا إلى دوثان فانطلق إليهم.

التآمر علي حياة يوسف

١٢وَانْطَلَقَ إخْوَتُهُ ليَرْعَوْا غَنَمَ أَبيهِمْ عنْدَ شَكيمَ، ١٣فَقَالَ إسْرَائيلُ
ليُوسُفَ: أَلاَ يَرْعَى إخْوَتُكَ الْغَنَمَ عنْدَ شَكيمَ؟ تَعَالَ لأُرْسلَكَ إلَيْهِمْ. ١٤اذْهَبْ
وَاطْمَئنَّ عَلَى إخْوَتكَ وَعَلَى الْمَوَاشي، ثُمَّ عُدْ وَأَخْبِرْني عَنْ أَحْوَالهمْ، فَمَضَى
منْ وَادي حَبْرُونَ حَتَّى أَقْبَلَ إلَى شَكيمَ. ١٥وَالْتَقَاهُ رَجُلٌ فَوَجَدَهُ تَائهاً في
الْحُقُول، فَسَأَلَهُ: «عَمَّنْ تَبْحَثُ؟» ١٦فَأَجَابَهُ: «أَبْحَثُ عَنْ إخْوَتي. أَرْجُوكَ أَنْ
تُخْبرَني أَيْنَ يَرْعَوْنَ مَوَاشيَهُمْ؟» ١٧فَقَالَ الرَّجُلُ: «لَقَدِ انْتَقَلُوا منْ هُنَا،
وَسَمعْتُهُمْ يَقُولُونَ: لنَذْهَبْ إلَى دُوثَانَ». فَانْطَلَقَ يُوسُفُ فِي إثْرِ إخْوَته حَتَّى
قَدمَ عَلَيْهِمْ فِي دُوثَانَ(٢).

(١) (٢) سفر التكوين – ٣٧.

التآمر على حياة يوسف

وما إن رآه إخوتُه قادما عليهم حتى فكّروا في قتله ليتخلّصوا منه ومن تدليل أبيه له الذي يغيظهم ويثير حقدهم عليه، لكن أخاهم الأكبر رأوبين أشار عليهم أن يلقوا به في بئر جافة لا يستطيع الخروج منها؛ مجنّبين أنفسهم جريمة سفك دمه. وكان رأوبين يقول في نفسه أنه سوف يأتي لينقذه بعد أن يتركوه ويذهبوا بعيدا عنه. ولما قدم يوسف على إخوته، نزعوا عنه قميصه الملوّن، وألقوا به في البئر.

. . . . ١٨وَمَا إِنْ رَأَوْهُ مِنْ بَعِيد، وَقَبْلَ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُمْ حَتَّى تَآمَرُوا
عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ. ١٩وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «هَا هُوَ صَاحِبُ الأَحْلاَمِ مُقْبِلٌ.
٢٠هَيَّا نَقْتُلْهُ وَنُلْقِ بِهِ فِي إِحْدَى الآبَارِ، وَنَدَّعِ أَنَّ وَحْشاً ضَارِياً افْتَرَسَهُ، لِنَرَى
مَاذَا تُجْدِيهِ أَحْلاَمُهُ». ٢١وَإِذْ سَمِعَ رَأُوبَيْنُ حَدِيثَهُمْ، أَرَادَ أَنْ يُنْقِذَهُ فَقَالَ: «لاَ
نَقْتُلُهُ، ٢٢وَلاَ تَسْفِكُوا دَماً، بَلِ اطْرَحُوهُ فِي هَذِهِ الْبِئْرِ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَلاَ تَمُدُّوا
إِلَيْهِ يَداً بِأَذًى». وَقَدْ أَشَارَ رَأُوبَيْنُ بِهَذَا لأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْهُمْ وَيَرُدَّهُ إِلَى
أَبِيهِ. ٢٣وَعِنْدَمَا قَدِمَ عَلَى إِخْوَتِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ قَمِيصَهُ الْمُلَوَّنَ الَّذِي كَانَ يَرْتَدِيهِ،
٢٤وَأَخَذُوهُ وَأَلْقَوْا بِهِ فِي الْبِئْرِ. وَكَانَتِ الْبِئْرُ فَارِغَةً مِنَ الْمَاءِ(١).

بيع يوسف لقافلة من المديانيين

جلس إخوة يوسف إلى طعامهم بعد أن ألقوا بأخيهم في البئر؛ وإذا بهم يرون قافلة قادمة من جلعاد في طريقها إلى مصر، فاقترح يهوذا على إخوته أن يُخرجوا يوسف من البئر ويبيعوه إلى أحد التجار في القافلة فيتخلّصون منه دون أن يضطروا لإزهاق روحه. وقاموا بإخراجه من البئر، وباعوه إلى أحد التجار بعشرين قطعة فضة، وأخذه التاجر معه في طريقه إلى مصر. ولما ذهب رأوبين إلى البئر لينقذ أخاه ولم يجده، رجع إلى إخوته مذعورا وهو يقول الولد ليس في البئر، تُراه أين ذهب؟ فأخبروه بخبره.

---

(١) سفر التكوين - ٣٧.

٢٥وَحِينَ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا شَاهَدُوا عَنْ بُعْد قَافلَةً منَ الإِسْمَاعِيلِيِّينَ قَادمِينَ منْ جِلْعَادَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مِصْرَ، وَجِمَالُهُمْ مُثَقَّلَةٌ بِالتَّوَابِلِ وَالْبَلَسَانِ وَاللاذَنِ. ٢٦فَقَالَ يَهُوذَا لإِخْوَتِه: «مَا جَدْوَى قَتْلِ أَخِينَا وَإِخْفَاء دَمه؟ ٢٧تَعَالَوْا نَبِيعُهُ إِلَى الإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَنُبَرِّىءُ أَيْدِينَا منْ دَمه لأَنَّهُ أَخُونَا وَمنْ لَحْمِنَا». فَوَافَقَ إِخْوَتُهُ عَلَى رَأيه. ٢٨وَعِنْدَمَا دَنَا مِنْهُمُ التُّجَّارُ الْمِدْيَانِيُّونَ، سَحَبُوا يُوسُفَ مِنَ الْبِئْرِ وَبَاعُوهُ لَهُمْ بِعِشْرِينَ قِطْعَةً مِنَ الْفِضَّة، فَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ. ٢٩ثُمَّ ذَهَبَ رَأُوبَيْنُ إِلَى الْبِئْرِ لِيُنْقِذَ يُوسُفَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَمَزَّقَ ثِيَابَهُ، ٣٠وَرَجَعَ إِلَى إِخْوَتِه يَقُولُ: «الْوَلَدُ لَيْسَ مَوْجُوداً، وَأَنَا الآنَ إِلَى أَيْنَ أَتَوَجَّهُ؟»(١).

وذبح إخوة يوسف تيسا من القطيع، وغمسوا القميص في دمه، ثم أخذوا القميص إلى أبيهم يعقوب، وقدّموه له عندما سألهم عن أخيهم، وقالوا له: لقد وجدنا هذا القميص في البريّة؛ تحقق منه إن كان قميص ابنك أم لا. ولما رأى يعقوب القميص؛ عرف أنه قميص يوسف؛ فاستيقن أن وحشا من وحوش البرية قد افترسه، وشقّ يعقوب ثيابه حزنا، وناح على يوسف، ولما أراد أبناؤه أن يُعزّوه في يوسف، رفض تعزيتهم له، وأقسم أن يظل يبكي عليه حتى نهاية العمر.

٣١فَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ الْمُلَوَّنَ، وَذَبَحُوا تَيْساً مِنَ الْمِعْزَى وَغَمَسُوا الْقَمِيصَ فِي الدَّمِ، ٣٢وَأَرْسَلُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ قَائِلِينَ: لَقَدْ وَجَدْنَا هَذَا الْقَمِيصَ، فَتَحَقَّقْ مِنْهُ، أَهُوَ قَمِيصُ ابْنِكَ أَمْ لاَ؟» ٣٣فَتَعَرَّفَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «هَذَا قَمِيصُ ابْنِي. وَحْشٌ ضَارٍ افْتَرَسَهُ وَمَزَّقَهُ أَشْلاَءً». ٣٤فَشَقَّ يَعْقُوبُ ثِيَابَهُ، وَارْتَدَى الْمُسُوحَ عَلَى حَقْوَيْهِ، وَنَاحَ عَلَى ابْنِه أَيَّاماً عَدِيدَةً. ٣٥وَعِنْدَمَا قَامَ جَمِيعُ أَبْنَائِه لِيُعَزُّوهُ أَبَى أَنْ يَتَعَزَّى وَقَالَ: «إِنِّي أَمْضِي إِلَى ابْنِي نَائِحاً إِلَى الْهَاوِيَةِ». وَبَكَى عَلَيْهِ أَبُوهُ. وَبَاعَ الْمِدْيَانِيُّونَ يُوسُفَ فِي مِصْرَ لِفُوطِيفَارَ خَصِيِّ فِرْعَوْنَ رَئِيسِ الْحَرَسِ(٢).

---

(١) (٢) سفر التكوين – ٣٧.

وبيع يوسف في مصر إلى فوطيفار؛ خصيٍ فرعون ورئيس حرسه. وحظي يوسف برضا سيده؛ لما وجده فيه من حسن الخُلق والإخلاص في خدمته، فجعله وكيلا على كل أمور بيته، متصرّفا في كل شئونه.

٣٩- يوسف في بيت فوطيفار

وَأَخَذَ الإِسْمَاعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ مِصْرِيٌّ يُدْعَى
فُوطِيفَارَ، كَانَ خَصِيَّ فِرْعَوْنَ وَرَئِيسَ الْحَرَسِ. ٢وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ،
فَأَفْلَحَ فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ. ٣وَرَأَى مَوْلاَهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ
وَأَنَّهُ يُكَلِّلُ كُلَّ مَا تَصْنَعُهُ يَدَاهُ بِالنَّجَاحِ، ٤فَحَظِيَ يُوسُفُ بِرِضَى سَيِّدِهِ، فَجَعَلَهُ
وَكِيلاً عَلَى بَيْتِهِ وَوَلاَّهُ عَلَى كُلِّ مَالَهُ. ٥وَبَارَكَ الرَّبُّ بَيْتَ الْمِصْرِيِّ وَكُلَّ مَالَهُ
مِنْ مُقْتَنَيَاتٍ فِي الْبَيْتِ وَالْحَقْلِ بِفَضْلِ يُوسُفَ. ٦فَعَهَدَ بِكُلِّ مَالَهُ إِلَى يُوسُفَ.
وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَهُ شَيْئاً إِلاَّ الْخُبْزَ الَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ جَمِيلَ الْهَيْئَةِ
وَسِيمَ الْوَجْهِ[١].

يوسف يقاوم زوجة فوطيفار

كان يوسف بجانب حُسن خُلُقه؛ يتمتع بحُسن الهيئة وجمال الخلقة؛ مما جعل زوجة سيده تعشقه وتُغْرم به لدرجة دفعتها إلى أن تطلبَ منه أن يعاشرها معاشرة الزوج للزوجة، لكن نفسه العفيفة أبت ذلك ولسان حاله يقول: كيف أخون الرجل الذي ائتمنني على جميع ما في بيته؟ وكانت تلحّ عليه وهو يرفض.

٧ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ أُغْرِمَتْ بِهِ زَوْجَةُ مَوْلاَهُ فَقَالَتْ: «اضْطَجِعْ مَعِي».
٨فَأَبَى وَقَالَ لَهَا: «هُوَذَا سَيِّدِي قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَلَمْ
يَشْغَلْ نَفْسَهُ بِأَيِّ شَأْنٍ فِيهِ. ٩وَلَيْسَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنِّي. وَلَمْ
يَمْنَعْ عَنِّي شَيْئاً غَيْرَكِ لأَنَّكِ زَوْجَتُهُ. فَكَيْفَ أَقْتَرِفُ هَذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ
إِلَى اللهِ؟» ١٠وَلَمْ يُذْعِنْ يُوسُفُ لَهَا مَعَ أَنَّهَا كَانَتْ تُلِحُّ عَلَيْهِ يَوْماً بَعْدَ
آخَرَ[٢].

---

(١) (٢) سفر التكوين - ٣٩.

سجن يوسف

وفي يوم خلا البيت ممّن فيه؛ إلا من سيدة البيت ويوسف، فأمسكته من قميصه، وجذبته إليها جذبا، لكنه هرب من أمامها وقد انخلع قميصه في يدها من شدّة تمسّكها به. جُنّ جنون المرأة وصرخت بأعلى صوتها، وصارت تُحدِّث من اجتمع لها من أهل البيت قائلة : أرأيتم ما فعل هذا العبد العبراني؟ لقد اقتحم عليّ مخدعي، وحاول أن يفعل بي الفاحشة، ولما صرختُ مستغيثة هرب وترك قميصه معي.

. . . . . ١١وَحَدَثَ يَوْماً أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَقُومَ بِعَمَلِه، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمَنْزِلِ أَحَدٌ، ١٢فَأَمْسَكَتْهُ مِنْ رِدَائِه وَقَالَتْ: «اضْطَجِعْ مَعِي». فَتَرَكَ رِدَاءَهُ بِيَدِهَا وَهَرَبَ خَارِجاً تَارِكاً رِدَاءَهُ بِيَدِهَا ١٣وَعِنْدَمَا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ رَفَضَ وَهَرَبَ خَارِجاً تَارِكاً رِدَاءَهُ بِيَدِهَا ١٤نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا وَقَالَتْ: «انْظُرُوا مَا جَرَى؟ هَذَا الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جَاءَ بِه زَوْجِي إِلَى الْبَيْتِ. شَرَعَ يُرَاوِدُنِي عَنْ نَفْسِي. دَخَلَ غُرْفَتِي وَحَاوَلَ اغْتِصَابِي، فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. ١٥وَعِنْدَمَا سَمِعَنِي قَدْ رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، تَرَكَ رِدَاءَهُ مَعِي وَهَرَبَ خَارِجاً»(١).

ولما قدم زوجُها، قصّت عليه نفس القصة التي لفّقتها عنه، فغضب زوجها غضبا شديدا، وأمر بالقبض على يوسف والزج به في السجن. وفي السجن حظي يوسف برضا رئيس السجن وعطفه عليه.

. . . . . ١٦وَأَلْقَتْ رِدَاءَهُ إِلَى جَانِبِهَا حَتَّى قَدِمَ مَوْلاَهُ إِلَى بَيْتِه، ١٧فَقَصَّتْ عَلَيْه مِثْلَ هَذَا الْحَدِيث قَائِلَةً: «دَخَلَ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتَ بِه إِلَيْنَا لِيُرَاوِدَنِي عَنْ نَفْسِي، ١٨وَحِينَ رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَفَرَّ خَارِجاً». ١٩فَلَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلاَمَ زَوْجَتِه وَمَا اتَّهَمَتْ بِه يُوسُفَ احْتَدَمَ غَضَبُهُ، ٢٠فَقَبَضَ عَلَى يُوسُفَ وَزَجَّهُ فِي السِّجْنِ، حَيْثُ كَانَ أَسْرَى الْمَلِك مُعْتَقَلِينَ، فَمَكَثَ هُنَاكَ. ٢١وَلَكِنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَ يُوسُفَ، فَأَغْدَقَ عَلَيْه

(١) سفر التكوين - ٣٩.

رَحْمَتَهُ، فَنَـالَ رِضَى رَئِيسِ السِّجْنِ، ٢٢حَتَّى عَهِدَ إِلَى يُوسُفَ بِكُلِّ الْمَسَاجِينِ الْمُعْتَقَلِينَ، وَجَعَلَهُ مَسْئُولاً عَنْ كُلِّ مَا يَجْرِي هُنَاكَ[1].

وحـدث أن اثنين من خاصـة فرعـون قـد زُجّ بهمـا في السجن لجُـرم اقترفاه؛ وهما رئيس سُقاة الملك ورئيس خبّازيه. وفي ليلة من الليالي رأى كل منهما حلما كـدّره. ولما رأى يوسف حالهما سألهما عمّـا يكدّرهما، فأجاباه بأن كلا منهـما رأى حلما ويريد مـن يُفسِّره له، فـقال يوسف فليخـبرني كل منكما بحلمه، وأنا أفسّره له إن شاء الله.

٤٠- ساقي فرعون وخبازه في السجن

وَاتَّفَقَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ سَـاقِيَ مَلِك مصْرَ وَالْخَـبَّازَ أَذْنَبَا إِلَى سَيِّـدِهِمَا مَلِك مصْـرَ، ٢فَسَـخِطَ فِرْعَـوْنُ عَلَى خَصِـيَّيْـهِ: رَئِيسِ السُّقَـاة وَرَئِيسِ الْخَبَّـازِينَ، ٣وَزَجَّهُـمَا فِي مُـعْتَقَلِ بَيْت رَئِـيسِ الْحَرَسِ فِي السِّجْنِ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوسُفُ مَـحْبُوسـاً فِيـه. ٤فَوَلَّى رَئِيسُ الْحَرَسِ يُوسُفَ أَمْرَهُـمَا، فَقَـامَ عَلَى خِدْمَتِهِمَا، فَمَكَثَا فِي الْمُعْـتَقَلِ أَيَّاماً. ٥وَحَلُمَ كُلٌّ مِنْ سَاقِي مَلِك مصْرَ وَخَبَّازِه الْمُعْتَقَلَيْنِ فِي السِّجْنِ حُلْماً فِي لَيْلَة وَاحِدَة. وَكَانَ لِحُلْمِ كُلٍّ مِنْهُمَا مَعْنَاهُ الْخَاصُّ بِصَاحِبِه. ٦فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمَا يُوسُفُ فِي الصَّبَـاحِ فَوَجَدَهُمَا مُكْتَئِبَيْنِ. ٧فَسَأَلَهُمَا: «لِمَاذَا وُجُوهُكُمَا مُكْمَدَّةٌ فِـي هَذَا الْيَوْمِ؟» ٨فَأَجَابَاهُ: «حَلُمَ كُلٌّ مِنَّا حُلْماً وَلَيْسَ مَنْ يُفَسِّرُهُ». فَقَالَ يُوسُفُ: «أَلَيْسَتْ تَفَاسِيرُ الأَحْلاَمِ لِلهِ؟ حَدِّثَانِي بِهِمَا»[2].

يوسف يفسر حلمي ساقي فرعون وخبازه

قال رئيس السقاة رأيت في حلمي كَرْمة (شجرة عنب) يخرج منها ثلاثة أغصان ما لبـثت أن أثمرت عنبا ناضجا، فأخـذتُ أعصر من العنب في كأس فرعـون وأقدّمـه له في يده. وفسّر يوسـف الحلم بأنّه سوف يعود إلـى عمله السابق لدى فرعون بـعد ثلاثة أيام. وطلب منه يوسف إذا خرج ولقي حظوة

(١) سفر التكوين - ٣٩.

(٢) سفر التكوين - ٤٠.

عند فرعون أن يذكُرَه بالخير لديه عساه أن يأمر بإخراجه من هذا السجن الذي زُجَّ فيه ظلما، كما أخبره بما فعله به إخوته ليرقِّق قلبه عليه.

يوسف يفسر حلم ساقي فرعون

٩فَسَرَدَ رَئِيسُ السُّقَاة حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ. قَالَ: «رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي، ١٠فِيهَا ثَلاَثَةُ أَغْصَانٍ أَفْرَخَتْ ثُمَّ أَزْهَرَتْ، وَمَا لَبِثَتْ عَنَاقِيدُهَا أَنْ أَثْمَرَتْ عِنَباً نَاضِجاً. ١١وكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَتَنَاوَلْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ وَوَضَعْتُ الْكَأْسَ فِي يَده». ١٢فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «إِلَيْكَ تَفْسِيرَهُ: الثَّلاَثَةُ أَغْصَان هِيَ ثَلاَثَةُ أَيَّام. ١٣بَعْدَ ثَلاَثَة أَيَّام يَرْضَى عَنْكَ فِرْعَوْنُ، وَيَرُدُّكَ إِلَى مَنْزِلَتِكَ حَيْثُ تُنَاوِلُ فِرْعَوْنَ كَأْسَهُ، تَمَاماً كَمَا كُنْتَ مُعْتَاداً أَنْ تَفْعَلَ عِنْدَمَا كُنْتَ سَاقِيَهُ. ١٤إِنَّمَا إِذَا أَصَابَكَ خَيْرٌ فَاذْكُرْنِي وَأَحْسِنْ إِلَيَّ. اذْكُرْنِي لَدَى فِرْعَوْنَ وَأَخْرِجْنِي مِنْ هَذَا السِّجْنِ، ١٥لأَنَّنِي حُمِلْتُ عَنْوَةً مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَهُنَا أَيْضاً لَمْ أَجْنِ شَيْئاً لِيَزُجُّوا بِي فِي هَذَا السِّجْنِ»(١).

وقال رئيس الخبّازين: لقد رأيتني في الحلم أحمل ثلاث سلال بيضاء على رأسي بها طعام من الطعام الذي كُنت أعدُّه لفرعون والطيرُ تأكل منه. فقال له يوسف: بعد ثلاثة أيام يأمر فرعون بقطع رأسك، وتُعلّق على خشبة؛ فتنهش الطير لحمك.

يوسف يفسر حلم خباز فرعون

١٦وَعِنْدَمَا رَأَى رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ أَنَّ يُوسُفَ أَحْسَنَ التَّفْسِيرَ، قَالَ لَهُ: «رَأَيْتُ أَنَا أَيْضاً حُلْماً، وَإِذَا بِثَلاَثَة سلاَل بَيْضَاءَ عَلَى رَأْسِي. ١٧وكَانَ السَّلُّ الأَعْلَى مَلِيئاً مِنْ طَعَامِ فِرْعَوْنَ مِمَّا يُعِدُّهُ الْخَبَّازُ، إِلاَّ أَنَّ الطُّيُورَ كَانَتْ تَلْتَهِمُهُ مِنَ السَّلِّ الَّذِي عَلَى رَأْسِي». ١٨فَقَالَ يُوسُفُ: «إِلَيْكَ تَفْسِيرَهُ: الثَّلاَثَةُ السِّلاَلُ هِيَ

(١) سفر التكوين - ٤٠.

ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ ١٩بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّـامٍ يَقْطَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيُعَلِّقُكَ عَلَى خَـشَبَةٍ فَـتَأْكُلُ الطُّيُورُ لَحْمَكَ»(١).

وفي اليوم الثالث تحقّـقت تأويلات يوسف لحلميهما، فقـد أقام فرعون مأدبة بمناسبة عيد ميلاده حضرها جـميع حاشيته، وأمـر بإحضار رئيس السُّقاة ورئيس الخبّـازين من السجن، فـأعاد رئيس السُّـقاة إلى عملـه، وأمر بصلب رئيس الخبّازين.

..... ٢٠وَكَانَ الْيَوْمُ الثَّـالِثُ هُوَ يَوْمُ عِيدِ مِيلاَدِ فِرْعَـوْنَ، فَأَقَامَ مَأْدُبَةً لِجَمِـيعِ رِجَالِه، وَأَحْضَـرَ مِنَ السِّجْنِ رَئِيسَ السُّقَـاةِ وَرَئِيسَ الْخَبَّازِينَ أَمَـامَهُمْ. ٢١وَرَدَّ رَئِيسَ السُّقَاةِ إِلَى عَمَلِه، فَصَارَ يُقَدِّمُ الْكَأْسَ لِيَدِ فِرْعَوْنَ. ٢٢أَمَّا رَئِيسُ الْخَبَّازِينَ فَقَدْ عَلَّقَهُ (عَلَى خَشَبَةٍ) مِثْلَمَـا فَسَّرَ لَهُمَا يُوسُفُ حُلْمَيْهِمَا. ٢٣وَلَكِنَّ رَئِيسَ السُّقَاةِ لَمْ يَذْكُرْ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ(٢).

أحلام فرعون وتفسير يوسف لها

وبعد انقضاء سنتين على تأويل يـوسف لحلمي كل من الساقي والخبّاز، رأى فرعون فـي الحلم سبعَ بقرات جمـيلة المنظر ممتلئة البدن قد صـعدت من النهر لـترعى في المرج على شـاطئ النهر، وبعد فـترة وجـيزة خـرجت سبعُ بقرات قـبيحات المـنظر هزيلات البدن فالتـهمت البقـرات الجميلات، فـأفاق فرعون من حلمه منزعجا. ولمّا نام ثانـية رأى في حلمه سبع سُنْبلات يانعات ومن خلفهـما سبع سُنْبلات عجـاف، وراعه أن السنبلات العجـاف قد أكلت السنبلات اليانعات، فأفاق فرعـون من حلمه الثاني منزعجا جدا، وعقله يرى في الحلمين إشارة ما لا بد من تفسيرها له.

٤١- أحلام فرعون

وَبَعْدَ انْقِضَاءِ سَنَتَيْنِ رَأَى فِـرْعَوْنُ حُلْماً، وَإِذَا بِهِ وَاقِفٌ بِجُوَارِ نَهْرِ النِّيلِ ٢وَإِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ حِسَانِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَاتِ الأَبْدَانِ، صَاعِدَاتٍ مِنَ النَّهْرِ أَخَذَتْ

(١) (٢) سفر التكوين – ٤٠.

تَرْعَى فِي الْمَرْجِ، ٣ثُمَّ إِذَا بِسَبْعِ بَقَرَاتٍ أُخْرَى قَبِيحَاتِ الْمَنْظَرِ وَهَزِيلاَتٍ تَصْعَدُ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ وَتَقِفُ إِلَى جِوَارِ الْبَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ. ٤وَالْتَهَمَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَاتُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحُسَنَاتِ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَاتِ. وَأَفَاقَ فِرْعَوْنُ. ٥ثُمَّ نَامَ، فَحَلُمَ ثَانِيَةً، وَإِذَا بِسَبْعِ سَنَابِلَ نَابِتَةٍ مِنْ سَاقٍ وَاحِدَةٍ زَاهِيَةٍ وَمُمْتَلِئَةٍ ٦ثُمَّ رَأَى سَبْعَ سَنَابِلَ عَجْفَاءَ قَدْ لَفَحَتْهَا الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ نَابِتَةً وَرَاءَهَا، ٧فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الْعَجْفَاءُ السَّبْعَ السَّنَابِلَ الزَّاهِيَةَ الْمُمْتَلِئَةَ. وَأَفَاقَ فِرْعَوْنُ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ حُلْمٌ(١).

أرسل فرعون يستدعي كل سحرة مصر وحكمائها ليقدِّموا له تفسيرا لهذين الحلمين حتى تهدأ نفسه وتبتعد عنه هواجسه؛ لكنه لم يجد عند أي منهم تفسيرا لحلميه، وقالوا أضغاث أحلام. عندئذ فقط تذكّر رئيس السُقاة يوسفَ، وذكر لفرعون تفسيره لحلمه وحلم الخبّاز، وتحقُّق الحلمين وفق تفسيره لهما.

. . . . . ٨وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ اسْتَوْلَى الانْزِعَاجُ عَلَى فِرْعَوْنَ فَأَرْسَلَ وَاسْتَدْعَى جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَكُلَّ حُكَمَائِهَا، وَسَرَدَ عَلَيْهِمْ حُلْمَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُفَسِّرُهُ لَهُ. ٩عِنْدَئِذٍ قَالَ رَئِيسُ السُّقَاةِ لِفِرْعَوْنَ: «إِنِّي أَذْكُرُ الْيَوْمَ ذُنُوبِي. ١٠لَقَدْ سَخِطَ فِرْعَوْنُ عَلَى عَبْدَيْهِ، فَزَجَّنِي وَرَئِيسَ الْخَبَّازِينَ فِي مُعْتَقَلِ بَيْتِ رَئِيسِ الْحَرَسِ. ١١فَحَلُمَ كُلٌّ مِنَّا حُلْماً فِي نَفْسِ اللَّيْلَةِ، وَكَانَ تَفْسِيرُ كُلِّ حُلْمٍ يَتَّفِقُ مَعَ أَحْوَالِ رَائِيهِ. ١٢وَكَانَ مَعَنَا هُنَاكَ غُلاَمٌ عِبْرَانِيٌّ، عَبْدٌ لِرَئِيسِ الْحَرَسِ، فَسَرَدْنَا عَلَيْهِ حُلْمَيْنَا فَفَسَّرَهُمَا لِكُلٍّ مِنَّا حَسَبَ تَعْبِيرِ حُلْمِهِ. ١٣وَقَدْ تَمَّ مَا فَسَّرَهُ لَنَا. فَرَدَّنِي فِرْعَوْنُ إِلَى وَظِيفَتِي وَأَمَّا ذَاكَ فَعَلَّقَهُ (عَلَى خَشَبَةٍ)»(٢).

بعث فرعون من يأتي بيوسف من السجن ليفسِّر له حلميه، فأتوا به على عجل. ولما مثُل أمام فرعون قال له فرعون: لقد سمعتُ أنك تستطيع تفسير الأحلام، وقد رأيتُ حلمين أزعجاني ولم أجد من يفسرهما لي فهل تستطيع أنت ذلك؟ فردّ يوسف بأن الله هو صاحب الفضل عليه في ذلك،

(١) (٢) سفر التكوين -٤١.

وسوف يساعده على تفسيرهما. ارتاح فرعون لكلام يوسف، وبدأ يسرُد عليه حلميه وهو متشوّق لتفسيره لهذين الحلْمين اللذيْن أرّقا مضجعه.

فرعون يقص احلامه على يوسف

١٤فَبَعَثَ فِرْعَوْنُ وَاسْتَدْعَى يُوسُفَ، فَأَسْرَعُوا وَأَتَوْا بِهِ مِنَ السِّجْنِ فَحَلَقَ وَاسْتَبْدَلَ ثِيَابَهُ وَمَثَلَ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. ١٥فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ حُلْماً وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يُفَسِّرُهُ، وَقَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ حَدِيثاً أَنَّكَ إِنْ سَمِعْتَ حُلْماً تَقْدِرُ أَنْ تُفَسِّرَهُ». ١٦فَأَجَابَ يُوسُفُ: «لاَ فَضْلَ لِي فِي ذَلِكَ، بَلْ إِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُعْطِي فِرْعَوْنَ الْجَوَابَ الصَّائِبَ». ١٧فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: ...... وَلَقَدْ سَرَدْتُ عَلَى السَّحَرَةِ هَذَيْنِ الْحُلْمَيْنِ، فَلَمْ أَجِدْ بَيْنَهُمْ مَنْ يُفَسِّرُهُمَا لِي»[(١)].

وفي معرض تفسير يوسف لحلمي فرعون قال له: إن حُلْمَيْ سيدي هما حُلم واحد، فالسبع بقرات والسبع سنبلات هنّ سبع سنين، أما البقرات الحسان والسنبلات الزاهيات فهنّ سبع سنين من الرخاء العظيم يعُم البلاد، أما البقرات العجاف والسنبلات القبيحات فهنّ سبع سنين قحط وجوع تُنسي الناس ما سبقهم من رخاء، ويكون الجوع شديدا والبلاء عظيما. أما تكرار الحلم مرتين فلأن الله قد قدّر لهذا الأمر أن يقع، وسوف يكون وقوعهما قريبا.

يوسف يفسر احلام فرعون

٢٥فَقَالَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ: «حُلْمَا فِرْعَوْنَ هُمَا حُلْمٌ وَاحِدٌ. وَقَدْ أَطْلَعَ اللهُ فِرْعَوْنَ عَمَّا هُوَ فَاعِلٌ. ٢٦السَّبْعُ الْبَقَرَاتُ الْحِسَانُ هِيَ سَبْعُ سَنَوَاتٍ. وَالسَّبْعُ السَّنَابِلُ الزَّاهِيَاتُ هِيَ أَيْضاً سَبْعُ سَنَوَاتٍ. فَالْحُلْمَانِ هُمَا حُلْمٌ وَاحِدٌ. ٢٧وَالسَّبْعُ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَاتُ الْهَزِيلاَتُ الَّتِي صَعِدَتْ وَرَاءَهَا هِيَ سَبْعُ سَنَوَاتٍ. وَالسَّبْعُ السَّنَابِلُ الْفَارِغَاتُ الْمَلْفُوحَاتُ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ سَتَكُونُ سَبْعَ سَنَوَاتِ جُوعٍ ٢٨وَالأَمْرُ هُوَ كَمَا أَخْبَرْتُ بِهِ فِرْعَوْنَ: فَقَدْ أَطْلَعَ اللهُ فِرْعَوْنَ عَمَّا هُوَ صَانِعٌ

(١) سفر التكوين - ٤١.

٢٩هُوَذَا سَبْعُ سِنِينَ رَخَاء عَظِيم قَـادِمَةٌ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ، ٣٠تَعْقُبُـهَا سَبْعُ سَنَوَات جُـوعٍ، حَتَّى يَنْسَى النَّاسُ كُلَّ الرَّخَـاء الَّذِي عَمَّ أَرْضَ مِصْـرَ، وَيُتْلِفُ الْجُوعُ الأَرْضَ، ٣١وَيَخْتَـفِي كُلُّ أَثَرٍ لِلرَّخَاء فِي الْبِلاَدِ مِنْ جَرَّاءِ الْمَـجَاعَةِ الَّتِي تَعْقُبُهُ، لأَنَّهَـا سَتَكُونُ قَاسِيَةً جِداً ٣٢أَمَّا تَكْرَارُ الْحُلْمِ عَـلَى فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ فَلأَنَّ الأَمْرَ قَدْ حَتَمَهُ اللهُ، وَلاَبُدَّ أَنْ يُجْرِيَهُ سَرِيعاً(١).

وفي وضع الناصح لفـرعون؛ قال يوسف : ليـبحث سـيدي عن رجل حكيم يوليه أمـر البلاد في الأعوام القادمـة، وليعيّن نظارا لجبـاية خُمُس غلة الأرض في سنوات الرخاء، ويأمرهم بجمع كل ما يمكن جمعه من قمح، وأن يحفظوه في مخـازن آمنة استعدادا لسنوات الجوع التي سـوف تسود البلاد كي لا يهلك الناس من شدة الجوع.

..... ٣٣وَالآنَ لِيَـبْحَثْ فِـرْعَوْنُ عَنْ رَجُلٍ بَصِـيرٍ حَكِيمٍ يُوَلِّيـهِ عَلَى الْبِلاَدِ، ٣٤وَلْيُـقِمْ فِرْعَـوْنُ نُظَّاراً عَلَى أَرْضِ مِصْـرَ يَجْبُـونَ خُمْسَ غَلَّتِـهَا فِي سَنَوَاتِ الرَّخَاءِ السَّبْعِ. ٣٥وَلْيَجْمَعُـوا كُلَّ طَعَامِ سَنَوَاتِ الْخَيْرِ الْمُقْبِلَةِ، وَيَخْزِنُوا الْقَمْحَ بِتَفْوِيضٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَيَحْفَظُوهُ فِي الْمُدُنِ لِيَكُونَ طَعَاماً، ٣٦وَمَؤُونَةً لأَهْلِ الأَرْضِ فِي سَنَوَاتِ الْمَجَـاعَةِ السَّـبْعِ الَّتِي سَتَسُـودُ أَرْضَ مِـصْرَ فَـلاَ يَهْلِكُونَ جُوعاً»(٢).

يوسف يصبح حاكم مصر

استحسن فرعون وكلُّ حاشيتـه كلام يوسف، وقال فرعون لحاشيته: إن هذا الرجل مبـارك ومؤيّد من الله، ثم قال ليوسف من حـيث أنك مُؤيّد من الله، وتملك كل هذه المعـرفة والحكمـة فليس هناك نظير لك يقـوم بمثل تلك المهمة، لذلك فـإنني قد قرّرت أن أوليك أمر بيتي وشعـبي وكل أرض مصر، وتكون مطاعا في كـل ما تأمر به. ونزع فـرعون خاتمه من إصـبعه، وألبـسه

(١) (٢) سفر التكوين - ٤١.

إصبع يوسف، وطوّق عنقه بطوق من ذهب، وأمر له بملابس فاخرة، ومنحه مركبته الثانية تكون له خاصة، وأمر الشعب أن يركع له كما يركع لفرعون، وأقامه واليا على كل أرض مصر. وأطلق فرعون على يوسف اسما مصريا، وزوّجه من ابنة كاهن الإله أون معبود المصريين.

يوسف يصبح حاكم مصر

٣٧فَاسْتَحْسَنَ فِرْعَوْنُ وَرِجَالُهُ جَمِيعاً هَذَا الْكَلاَمَ، ٣٨وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِه: «هَلْ نَجِدُ نَظِيرَ هَذَا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ اللهِ؟» ٣٩ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «مِنْ حَيْثُ أَنَّ اللهَ قَدْ أَطْلَعَكَ عَلَى كُلِّ هَذَا، فَلَيْسَ هُنَاكَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ نَظِيرَكَ. ٤٠لِذَلِكَ أُوَلِّيكَ عَلَى بَيْتِي، وَيُذْعِنُ شَعْبِي لِكُلِّ أَمْرٍ تُصْدِرُهُ، وَلَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْكَ سِوَايَ أَنَا صَاحِبِ الْعَرْشِ». ٤١ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «هَا أَنَا قَدْ وَلَّيْتُكَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٤٢وَنَزَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَوَضَعَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ كَتَّانٍ فَاخِرَةً وَطَوَّقَ عُنُقَهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ، ٤٣وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادُوا: «ارْكَعُوا أَمَامَهُ». وَأَقَامَهُ وَالِياً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٤وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ، وَلاَ أَحَدَ يُمْكِنُ أَنْ يُحَرِّكَ سَاكِناً فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ غَيْرِ إِذْنِكَ». ٤٥وَدَعَا فِرْعَوْنُ اسْمَ يُوسُفَ صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ (وَمَعْنَاهُ بِالْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مُخَلِّصُ الْعَالَمِ أَوْ حَافِظُ الْحَيَاةِ). وَزَوَّجَهُ مِنْ أَسْنَاتَ بِنْتِ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ، فَذَاعَ اسْمُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ(١).

كان يوسف في الثلاثين من عمره عندما تولّى أمر مصر. وطبقا للخطة التي انتهجها يوسف، تمّ جمع كل ما توفر من طعام في سنوات الرخاء، وتخزينه؛ حتى أنه تم ادّخار كميات هائلة من الطعام؛ توقفوا عن إحصائها لكثرتها.

(١) سفر التكوين - ٤١.

سبع سنوات الخير

٤٦وكَانَ يُوسُفُ فِي الثَّلاَثِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا مَثَلَ أَمَامَ فِرْعَوْنَ مَلِك مِصْرَ. وَبَعْدَ أَنْ خَرَجَ مِنْ حَضْرَةِ فِرْعَوْنَ شَرَعَ يَجُولُ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْبِلاَدِ. ٤٧وَفِي سَنَوَاتِ الْخِصْبِ السَّبْعِ غَلَّتِ الأَرْضُ بِوَفْرَةٍ، ٤٨فَجَمَعَ كُلَّ طَعَامِ السَّبْعِ سَنَوَاتِ الْمُتَوَافِرِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَخَزَنَهُ فِي الْمُدُنِ، فَاخْتَزَنَ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ غَلاَتِ مَا حَوْلَهَا مِنْ حُقُولٍ. ٤٩وَادَّخَرَ يُوسُفُ كَمِّيَّاتٍ هَائِلَةً مِنَ الْقَمْحِ حَتَّى كَفَّ عَنْ إِحْصَائِهَا لِوَفْرَتِهَا الْعَظِيمَةِ(١).

أبنـاء يوسـف

وفي سنوات الرخاء رُزق يوسف من زوجته المصرية ابنان؛ الأول أسماه مَنَسَّى، والثاني أسماه أفْرَايِمَ.

أبناء يوسف

٥٠وَأَنْجَبَتْ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ لِيُوسُفَ ابْنَيْنِ قَبْلَ حُلُولِ سَنَوَاتِ الْجُوعِ. ٥١فَدَعَا يُوسُفُ اسْمَ الْبِكْرِ مَنَسَّى (وَمَعْنَاهُ: مَنْ يَنْسَى أَوِ الْمُنْسِيُّ) وَقَالَ: «لأَنَّ اللهَ أَنْسَانِي كُلَّ مَشَقَّتِي وَكُلَّ بَيْتِ أَبِي». ٥٢أَمَّا الثَّانِي فَدَعَا اسْمَهُ أَفْرَايِمَ (وَمَعْنَاهُ: الْمُثْمِرُ مُضَاعَفاً) وَقَالَ: «لأَنَّ اللهَ جَعَلَنِي مُثْمِراً فِي أَرْضِ مَذَلَّتِي»(٢).

انتهت سنوات الرخاء، وحلّت سنوات الجوع. لم تكن المجاعة في مصر وحدها بل عمّت فيمن حولها من الشعوب، وجاء الناس من جميع الأنحاء يطلبون الطعام بأي ثمن، فأمر يوسف بفتح المخازن وبيع الطعام للناس.

بداية سبع سنوات الجوع

٥٣ثُمَّ انْتَهَتْ سَبْعُ سَنَوَاتِ الرَّخَاءِ الَّذِي عَمَّ أَرْضَ مِصْرَ. ٥٤وَحَلَّتْ سَبْعُ سَنَوَاتِ الْمَجَاعَةِ كَمَا أَنْبَأَ يُوسُفُ. فَحَدَثَتْ مَجَاعَةٌ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ. أَمَّا أَرْضُ

(١) (٢) سفر التكوين -٤١.

مصْرَ فَقَدْ تَوَافَرَ فِيهَا الخُبْزُ. ٥٥وَعِنْدَمَا عَمَّت الْمجَاعَةُ جَمِيعَ أَرْضِ مِصْرَ صَرَخَ الشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ طَالِبِينَ الخُبْزَ، فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِكُلِّ الْمِصْرِيِّينَ: «اذْهَبُوا إِلَى يُوسُفَ وَافْعَلُوا كَمَا يَقُولُ لَكُمْ». ٥٦وَطَغَت الْمجَاعَةُ عَلَى كُلِّ أَرْجَاءِ الْبِلاَدِ فَفَتَحَ يُوسُفُ الْمخَازِنَ وَبَاعَ الطَّعَامَ لِلْمِصْرِيِّينَ. وَلَكِنَّ وَطْأَةَ الجُوعِ اشْتَدَّتْ فِي أَرْضِ مِصْرَ. ٥٧وَأَقْبَلَ أَهْلُ الْبُلْدَانِ الأُخْرَى إِلَى مِصْرَ، إِلَى يُوسُفَ، لِيَبْتَاعُوا قَمْحاً لأَنَّ الْمجَاعَةَ كَانَتْ شَدِيدَةً فِي كُلِّ الأَرْضِ(١).

إخوة يوسف في مصر

لمّا سمع يعقوب أن القمح متوفّر في مصر، أمر أبناءه أن يتوجّهوا إلى مصر لشراء ما يحفظ حياتهم من القمح، فتوجّه عشرةٌ من إخوة يوسف إلى مصر من أجل شراء القمح. ومن شدّة حرص يعقوب على بنيامين؛ الأخ الشقيق ليوسف، لم يرسله مع إخوته خوفا من أن يناله مكروه كما حدث لأخيه من قبل.

٤٢- إخوة يوسف في مصر

وَعِنْدَمَا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّ الْقَمْحَ مُتَوَافِرٌ فِي مِصْرَ، قَالَ لأَبْنَائِه: «مَا بَالُكُمْ تَنْظُرُونَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ ٢لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْقَمْحَ مُتَوَافِرٌ فِي مِصْرَ. فَانْحَدِرُوا إِلَى هُنَاكَ وَاشْتَرُوا لَنَا قَمْحاً لِنَبْقَى عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ وَلاَ نَمُوتَ». ٣فَذَهَبَ عَشَرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِيَشْتَرُوا قَمْحاً مِنْ مِصْرَ، ٤أَمَّا بَنْيَامِينُ أَخُو يُوسُفَ فَلَمْ يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَنَالَهُ مَكْرُوهٌ(٢).

قدم أبناء يعقوب إلى مصر من أجل شراء القمح بسبب المجاعة التي عمّت أرض كنعان. ولمّا كان يوسف هو المسئول عن بيع القمح، فقد دخلوا عليه، وسجدوا له تحية تعظيم وإجلال. ولما رآهم يوسف، عرف أنّهم إخوته، لكنهم لم يعرفوه لأن الزمن كان قد غيّر من هيئته؛ إضافة إلى الجاه والمنصب والزي الذي يرتديه واللغة التي كان يتحدث بها إليهم.

(١) سفر التكوين - ٤١.　　(٢) سفر التكوين - ٤٢.

لقاء يوسف الأول بإخوته

٥فَقَدِمَ أَبْنَاءُ إِسْرَائِيلَ إِلَى مِصْرَ مَعَ جُمْلَةِ الْقَادِمِينَ لِيَشْتَرُوا قَمْحاً، لأَنَّ الْمَجَاعَةَ كَانَتْ قَدْ أَصَابَتْ أَرْضَ كَنْعَانَ أَيْضاً. ٦وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى مِصْرَ، وَالْقَائِمُ عَلَى بَيْعِ الْقَمْحِ لأَهْلِهَا جَمِيعاً. فَأَقْبَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى الأَرْضِ. ٧فَلَمَّا رَآهُمْ عَرَفَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَنَكَّرَ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِجَفَاءٍ وَسَأَلَهُمْ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟» فَأَجَابُوهُ: «مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنَشْتَرِيَ طَعَاماً». ٨وَمَعَ أَنَّ يُوسُفَ عَرَفَهُمْ، إِلاَّ أَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوهُ(١).

عودة إخوة يوسف بدون شمعون

جالت بخاطر يوسف الأحداث المؤلمة التي مرّت به مع إخوته؛ وكيف كانت معاملتهم له، وحقدهم عليه، وبيعهم إيّاه بثمن بخس، فتعمّد أن يكون جافّا معهم، ووجّه إليهم تهمة الجاسوسية، وأنّهم قدموا لاكتشاف نقاط الضعف في الثغور من أجل تبليغها للأعداء الذين يتربّصون بمصر. أجابوه أنهم أبناء رجل واحد يقيم في أرض كنعان، وأنه قد بقي أخوهم الأصغر معه، وأنّ لهم أخا آخر مفقودا منذ زمن. قال لهم يوسف: الدليل الوحيد الذي يثبت صدقكم؛ أن تأتوني بأخيكم الأصغر، فليذهب أحدكم ليأتيني به، وتمكثون بقيتكم في السجن حتى يثبُت لي صدقكم. وأقسم بحياة فرعون أنهم جواسيس، وزجّ بهم في السجن ثلاثة أيام.

يوسف يستجوب إخوته

٩ثُمَّ تَذَكَّرَ يُوسُفُ أَحْلاَمَهُ الَّتِي حَلُمَهَا بِشَأْنِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ، وَقَدْ جِئْتُمْ لاكْتِشَافِ ثُغُورِنَا غَيْرِ الْمَحْمِيَّةِ» ١٠فَقَالُوا لَهُ: «لاَ يَاسَيِّدِي إِنَّمَا قَدِمَ عَبِيدُكَ لِشِرَاءِ الطَّعَامِ، ١١فَنَحْنُ كُلُّنَا أَبْنَاءُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، نَحْنُ أُمَنَاءُ وَلَيْسَ عَبِيدُكَ جَوَاسِيسَ». ١٢وَلَكِنَّهُ قَالَ لَهُمْ: «لاَ! أَنْتُمْ قَدْ جِئْتُمْ لاكْتِشَافِ ثُغُورِنَا غَيْرِ الْمَحْمِيَّةِ» ١٣فَأَجَابُوهُ: «إِنَّ عَبِيدَكَ اثْنَا عَشَرَ أَخاً، أَبْنَاءُ

(١) سفر التكوين - ٤٢.

رَجُلٍ وَاحد مُقِيم فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَقَدْ بَقِيَ أَخُونَا الصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِينَا الْيَوْمَ، وَالآخَرُ مَفْقُودٌ». ١٤فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ الأَمْرَ كَمَا قُلْتُ لَكُمْ! أَنْتُمْ جَوَاسِيس. ١٥وَحَيَاة فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَنْ تُغَادِرُوا هُنَا حَتَّى تَأْتُوا بِأَخِيكُمُ الأَصْغَرِ، وَبِذَلِكَ تُثْبِتُونَ صِدْقَكُمْ. ١٦أَوْفِدُوا وَاحِداً مِنْكُمْ لِيَأْتِيَ بِأَخِيكُمْ، أَمَّا بَقِيَّتُكُمْ فَتَمْكُثُونَ فِي السِّجْنِ حَتَّى تَثْبُتَ صِحَّةُ كَلاَمِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَإِلاَّ فَوَحَيَاة فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ سِوَى جَوَاسِيسَ». ١٧وَطَرَحَهُمْ فِي السِّجْنِ مَعاً ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ[1].

وفي اليوم الثالث قال لهم يوسف سوف يبقى واحد منكم رهينة ويذهب الآخرون بالقمح من أجل أهليكم الجائعين؛ على أن تأتوني بأخيكم الأصغر لتحفظوا حياتكم، ثم أخذ أخاهم شمعون وقيّده أمام أعينهم.

...... ١٨وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِث قَالَ لَهُمْ: «افْعَلُوا مَا أَطْلُبُهُ مِنْكُمْ فَتَحْيَوْا، فَأَنَا رَجُلٌ أَتَّقِي اللهَ. ١٩إِنْ كُنْتُمْ حَقّاً صَادِقِينَ فَلْيَبْقَ وَاحِدٌ مِنْكُمْ رَهِينَةً، بَيْنَمَا يَأْخُذُ بَقِيَّتُكُمُ الْقَمْحَ وَيَنْطَلِقُونَ إِلَى بُيُوتِكُمُ الْجَائِعَة. ٢٠وَلَكِنْ إِيتُونِي بِأَخِيكُمُ الأَصْغَرِ فَأَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ مِنْ صِدْقِكُمْ وَلاَ تَمُوتُوا». فَوَافَقُوا عَلَى ذَلِكَ......، وَأَخَذَ شِمْعُونَ وَقَيَّدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ[2].

أمر يوسف عمّاله بأن يملئوا أكياسهم بالقمح، وأن يجعلوا الفضة التي دفعها كل واحد منهم في عدْله[3]، وأن يعطوهم زادا للطريق. ولما اكتشف أحدهم الفضة في عدله تطلّع بعضهم إلى بعض مندهشين وقد تملّكهم رعب شديد خوفا من أن يُتَّهموا بالسرقة.

عودة أبناء يعقوب إلى أبيهم

٢٥ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ مُوَظَّفِيهِ أَنْ يَملأُوا أَكْيَاسَهُمْ بِالْقَمْحِ، وَأَنْ يَرُدُّوا فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى عِدْلِهِ، وَأَنْ يُعْطُوهُمْ زَاداً لِلطَّرِيقِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ.

---

(١) (٢) سفر التكوين - ٤٢.

(٣) العدل هو الكيس الذي توضع فيه الحمولة على ظهر الدابة.

٢٦فَحَمَّلُوا حَـمِيرَهُمُ الْقَمْحَ وَانْطَلَقُوا مِنْ هُنَاكَ. ٢٧وَحِينَ فَـتَحَ أَحَدُهُمْ عِدْلَهُ فِي الْخَانِ لِيَـعْلِفَ حِمَارَهُ، لَمَحَ فِـضَّتَهُ لأَنَّهَا كَـانَتْ مَوْضُوعَـةً فِي فَمِ الْعِدْلِ. ٢٨فَقَالَ لإِخْوَتِهِ: «لَقَدْ رُدَّتْ إِلَيَّ فِضَّتِي، انْظُرُوا هَا هِيَ فِي عِدْلِي». فَغَاصَتْ قُلُوبُهُمْ، وَتَطَلَّعَ بَعْضُـهُمْ إِلَى بَعْضٍ مُرْتَعِدِينَ وَقَالُوا: «مَـا هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ اللهُ بِنَا؟»(١).

ولّما قدموا على أبيـهم في أرض كنعان؛ قصّوا عليه قـصتهم مع الرجل المُتسلّط على مصر، وأخبـروه أنه اتهمهم بأنهم جواسيس، وأنهم اضطروا أن يعرّفـوه بأنفسـهم وبأنهم أبناء رجل واحد، وبأن لهم أخـا أصغـر تركوه عند أبيهم، وقـالوا له أنه طلب منهم إحضـار أخيهم الأصـغر لإثبات صـدقهم. انزعج أبوهم وقـال لقد أثكلتمـوني في أولادي؛ فهـا هو يوسف مفـقود من قبل، وشـمعون مـفقود أيضـا، وتريدون أن تأخذوا بنيامين كـذلك، ما هذه الدواهي التي أوقـعتـموها بي !! ولكي يُـطَمْئِن رأوبين قلب أبيـه من ناحيـة بنيامين، قـال: أوكل أمره إلي، وإذا لـم أردّه إليك أقتل ابني عقـابا لي. قال يعقـوب: لن أرسله معكم لأنه لو ناله مكروه في الطريق فإنني سـوف أموت غمّا وكمدا بسببه.

..... ٢٩وَعِنْدَمَا قَـدِمُوا عَلَى أَبِيهِمْ يَعْـقُوبَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ قَـصُّوا عَلَيْهِ مَـا حَلَّ بِهِمْ، وَقَالُوا: ٣٠ «الرَّجُلُ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى مِـصْرَ خَاطَبَنَا بِجَـفَاءٍ، وَظَنَّ أَنَّنَا جَوَاسِـيسُ عَلَى الأَرْضِ، ٣١فَقُلْنَا لَهُ: نَحْنُ أُمَنَاءُ وَلَسْنَا جَـوَاسِيسَ. ٣٢نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ أَخـاً أَبْنَاءُ أَبِينَا. أَحَدُنَا مَفْقُودٌ، وَالأَصْـغَرُ بَقِيَ الْيَوْمَ مَعَ أَبِينَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. ٣٣فَـقَالَ لَنَا الرَّجُلُ سَـيِّدُ الْبِلاَدِ: لِكَيْ أَتَحَـقَّقَ أَنَّكُمْ أُمَنَاءُ. دَعُوا أَخاً وَاحِـداً مِنْكُمْ عِنْدِي رَهِينَةً وَخُذُوا طَعَامـاً لِبُيُوتِكُمُ الْجَائِعَـةِ وَامْضُوا، ٣٤ثُمَّ أَحْضِرُوا لِي أَخَـاكُمُ الأَصْغَرَ، وَبِذَلِكَ أَعْرِفُ أَنَّكُمْ لَسْـتُمْ جَوَاسِيسَ بَلْ قَوْمـاً أُمَنَاءَ، فَأُطْلِـقَ لَكُمْ أَخَاكُمْ وَتَتَّـجِرُونَ فِي الأَرْضِ». ٣٥وَإِذْ شَـرَعُوا فِي

(١) سفر التكوين -٤٢.

تَفْرِيغِ عِدَالِهِمْ وَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِـضَّتَهُ فِي عِدْلِهِ، وَمَا إِنْ رَأَوْا هُمْ وَأَبُوهُمْ ذَلِكَ حَتَّى اسْتَبَدَّ بِهِمِ الْخَوْفُ. ٣٦فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: «لَقَدْ أَثْكَلْتُمُونِي أَوْلاَدِي. يُوسُفُ مَفْقُـودٌ، وَشِمْعُونُ مَـفْقُودٌ، وَهَا أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ بِنْيَامِـينَ بَعِيداً! كُلُّ هَذِهِ الدَّوَاهِي حَلَّتْ بِي!» ٣٧فَـقَالَ لَهُ رَأُوبَيْنُ: «اقْـتُلِ ابْنَيَّ إِنْ لَمْ أَرْجِعْ بِهِ إِلَيْكَ. اعْهَـدْ بِهِ إِلَيَّ وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ». ٣٨فَقَالَ: «لَنْ يَـذْهَبَ ابْنِي مَعَكُمْ، فَقَـدْ مَاتَ أَخُوهُ، وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ. فَإِنْ نَالَهُ مَكْرُوهٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَذْهَبُـونَ فِيهَا، فَإِنَّكُمْ تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى قَبْرِي»(١).

ومع تفاقم المجـاعة في أرض كنعان، ونـفاد القمح الذي أحـضره أبناء يعقـوب من مصر، طلب منهم أبـوهم أن يرجعوا إلى مـصر من أجل جلب بعض الطعام لسدّ جـوعهم، فذكّر يهوذا أباه بإصـرار الرجل المتسلّط على أمر القمح في مصر بأن يحضروا أخـاهم معهم أو لا يرينّه وجوههم. ولما عاتبهم أبوهم لأنهم أخبروه أن لهم أخا آخر، قـالوا: إن الرجل دقّق في استجوابنا، وكنا مضطرين أن نجيبـه حتى لا يأمر بقتلنا بتهمة أننا جـواسيس. واستعطف يهوذا أباه من أجل أن يسمح لهم باصطحاب بنيـامين معهم من أجل الطعام، وقال له: كـفاهم مـا مر من الوقت لأن مـرور الوقت يزيد من حدة المجـاعة ومن شدة معاناتهم من آثارها.

٤٣- التأهب للرحلة الثانية إلى مصر

وَتَفَاقَمَتِ الْمَجَاعَةُ فِي الأَرْضِ. ٢وَلَمَّا اسْتَهْلَكُوا الْقَمْحَ الَّذِي أَحْضَرُوهُ مِنْ مِصْرَ، قَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: «ارْجِعُوا وَاشْتَرُوا لَنَا قَلِيلاً مِنَ الطَّعَامِ». ٣فَقَالَ يَهُوذَا: «لَقَدْ حَـذَّرَنَا الرَّجُلُ أَشَدَّ تَـحْذِيرٍ وَقَالَ: لَنْ تَرَوْا وَجْـهِي مَا لَمْ يَكُـنْ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ. ٤فَإِنْ كُنْتَ تُرْسِلُ أَخَـانَا مَعَنَا، نَمْضِي وَنَشْتَـرِي لَكَ طَعَاماً ٥وَإِلاَّ فَلَنْ نَذْهَبَ لأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لاَ تَرَوْا وَجْهِي مَا لَمْ يَكُنْ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ». ٦فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: «لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ فَأَخْبَرْتُمُ الرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخاً أَيْضاً؟» ٧فَأَجَابُوا: «إِنَّ

(١) سفر التكوين – ٤٢.

الرَّجُلَ قَدْ دَقَّقَ فِي اسْتِجْوَابِنَا عَنْ أَنْفُسِنَا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا سَائِلاً: هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ بَعْدُ؟ هَلْ لَكُمْ أَخٌ؟ فَأَجَبْنَاهُ حَسَبَ أَسْئِلَتِهِ. فَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّهُ سَيَقُولُ: أَحْضِرُوا أَخَاكُمْ إِلَى هُنَا؟ » ٨وَقَالَ يَهُوذَا لإِسْرَائِيلَ أَبِيهِ: «أَرْسِلِ الْغُلاَمَ مَعِي فَنَقُومَ وَنَذْهَبَ فَنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ نَحْنُ وَأَنْتَ وَأَوْلاَدُنَا جَمِيعاً. ٩وَأَنَا ضَامِنٌ لَهُ. مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ. فَإِنْ لَمْ أُرَدَّهُ إِلَيْكَ وَأُوقِفْهُ أَمَامَكَ، أَكُنْ مُذْنِباً إِلَيْكَ كُلَّ الأَيَّامِ. ١٠فَلَوْ لَمْ نَتَوَانَ فِي السَّفَرِ لَكُنَّا قَدْ رَجَعْنَا مَرَّتَيْنِ»(١).

ولمّا لم يجد يعقوب بدّا من الموافقة على أخذهم بنيامين معهم، سمح لهم بالرحيل، وأوصاهم بأن يأخذوا معهم من نتاج أرضهم على سبيل الهدية للرجل المسئول، وأن يأخذوا مزيدا من الفضة بجانب الفضة التي وُجدت في عدالهم خشية أن يكون هناك سهو أو خطأ ما لم يُحسب حسابه. ولدى رحيلهم قام يعقوب فباركهم، ودعا لهم بالتوفيق في رحلتهم، وأن يعودوا سالمين غانمين ومعهم أخواهم شمعون وبنيامين.

. . . . . ١١فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ: «إِنْ كَانَ لاَبُدَّ مِنْ ذَلِكَ فَافْعَلُوا. وَخُذُوا مَعَكُمْ هَدِيَّةً لِلرَّجُلِ: وَامْلأُوا أَوْعِيَتَكُمْ مِنْ خَيْرِ جَنَى الأَرْضِ وَقَلِيلاً مِنَ الْبَلَسَانِ وَالْعَسَلِ وَالْكَثِيرَاءِ وَاللاَّذَنِ وَالْفُسْتُقِ وَاللَّوْزِ. ١٢وَخُذُوا مَعَكُمْ فِضَّةً أُخْرَى، وَالْفِضَّةَ الْمَرْدُودَةَ فِي أَفْوَاهِ عِدَالِكُمْ وَأَعِيدُوهَا. فَلَعَلَّ فِي الأَمْرِ سَهْواً. ١٣وَاسْتَصْحِبُوا مَعَكُمْ أَيْضاً أَخَاكُمْ وَقُومُوا ارْجِعُوا إِلَى الرَّجُلِ. ١٤وَلْيُنْعِمْ عَلَيْكُمُ اللهُ الْقَدِيرُ بِالرَّحْمَةِ لَدَى الرَّجُلِ، فَيُطْلِقَ لَكُمْ أَخَاكُمُ الآخَرَ وَبَنْيَامِينَ أَيْضاً. وَأَنَا إِنْ ثَكِلْتُهُمَا، أَكُونُ قَدْ ثَكِلْتُهُمَا»(٢).

بنيامين في مصر مع إخوته

ولما رأى يوسف إخوته ومعهم بنيامين، انشرح صدرُه لمرآه، وأمر مُدبّر بيته أن يُعدّ لهم ذبيحة، وأن يُدْخلهم إلى بيته لكي يتناولوا معه طعام الغداء.

---

(١) (٢) سفر التكوين - ٤٣.

أحسّ إخـوة يوسف بالخوف حين عرفوا أنه أمر بإدخالهم إلى بيته، وظنّوا أنه ينوي بهم شـرا بسبب الفـضة التـي وجدوها في عـدالهم في المرّة السابقـة، وحاولوا شرح الأمر لمدبّر بيتـه، فطمأنهم الرجل. ولمّا أدخلهم البيت، أخرج لهم أخـاهم شمعـون لتطمئن نفـوسهم، وقـدّم لهم الماء ليغـسلوا أرجلهم، والعليق لأكل حـميـرهم. ولمّا عـرفوا أنهم سـوف يتناولون الطعـام في بيت المتسلّط على أمر مصر، جهّزوا الهدية التي جاءوا بها معهم لتقديمها له.

عودة إخوة يوسف مع بنيامين إلى مصر

١٥فَأَخَذَ الرِّجَالُ تِلْكَ الْهَدِيَّةَ، وَضِعْـفَ الْفِضَّةِ، وَبَنْيَامِينَ، وَسَافَرُوا إِلَى
مِصْـرَ وَمَثَلُوا أَمَامَ يُوسُفَ. ١٦وَعِنْدَمَا شَـاهَدَ يُوسُفُ بَنْيَامِينَ مَعَـهُمْ قَالَ لِمُدَبِّرِ
بَيْتِـهِ: «أَدْخِلِ الرِّجَالَ إِلَـى الْبَيْتِ وَاذْبَحْ ذَبِيـحَةً وَهَيِّـئْهَا، لأَنَّ هَـؤُلاَءِ الرِّجَالَ
سَيَتَنَاوَلُونَ مَعِي الطَّعَامَ فِي سَاعَـةِ الْغَدَاءِ». ١٧فَفَعَلَ الرَّجُلُ كَمَا أَمَرَ يُوسُفُ،
وَأَدْخَلَ الرِّجَـالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ. ١٨وَلَمَّا أُدْخِلُوا إِلَى بَيْتِ يُـوسُفَ اعْتَـرَاهُمُ
الْخَـوْفُ وَقَالُوا: «لَقَـدْ جِيءَ بِنَا إِلَى هُنَا لِيَـهْـجُمَ عَلَيْنَا وَيَقَعَ بِنَا وَيَسْـتَـعْبِـدَنَا
وَيَسْتَوْلِيَ عَلَى حَمِيرِنَا، بِسَبَبِ الْفِـضَّةِ الأُولَى الْمَرْدُودَةِ فِي عِدَالِنَا». ١٩فَتَقَدَّمُوا
إِلَى مُدَبِّرِ بَيْتِ يُوسُفَ وَقَالُوا لَهُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْبَابِ: ٢٠«اسْـتَمِعْ يَاسَيِّدِي، لَقَدْ
قَدِمْنَا إِلَى هُنَا فِي الْمَرَّةِ الأُولَى لِنَشْـتَرِيَ طَعَامـاً، ٢١وَلَكِنَّنَا حِينَ نَزَلْنَا فِي الْخَانِ
وَفَـتَحْنَا عِـدَالَنَا عَثَـرَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا عَلَى فِـضَّتِـهِ بِكَامِلِ وَزْنِهَا فِي فَمِ عِـدْلِهِ،
فَأَحْضَرْنَاهَا مَـعَنَا لِنَرُدَّهَا. ٢٢وَجِئْنَا مَعَنَا بِفِضَّةٍ أُخْرَى لِنَشْـتَرِيَ طَعَاماً. وَلَسْنَا
نَدْرِي مَنْ وَضَعَ فِضَّتَنَا فِـي عِدَالِنَا». ٢٣فَقَالَ: «سَلاَمٌ لَكُمْ، لاَ تَخَـافُوا، فَإِنَّ
إِلَهَكُمْ وَإِلَهَ أَبِيكُمْ قَدْ وَهَبَكُمْ كَنْزاً فِي عِدَالِكُمْ، أَمَّا فِضَّتُكُمْ فَقَدْ وَصَلَتْ إِلَيَّ».
ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ شِمْـعُونَ. ٢٤وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَقَدَّمَ لَهُمْ
مَاءً لِيَغْسِـلُوا أَرْجُلَهُمْ، وَعَلِيقاً لِحَمِيرِهِمْ. ٢٥وَأَعَـدُّوا الْهَدِيَّةَ فِي انْتِظَارِ مَجِيءِ
يُوسُفَ عِنْدَ الظُّهْرِ، لأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُمْ سَيَتَنَاوَلُونَ الطَّعَامَ هُنَاكَ[١].

(١) سفر التكوين - ٤٣.

وقدم يوسف إلى البيت، فسارعوا بتقديم هديّتهم إليه، وانحنوا لتحيته، فسألهم عن أحوالهم وعن أبيهم الشيخ، ثم تلفت إلى أخيه بنيامين وقال: أهذا هو أخوكم الأصغر؟ ثم ربّت على كتفه ودعا له. ولم يتمالك نفسه، فأسرع بعيدا عنهم وأجهش بالبكاء.

يوسف يأكل مع إخوته

٢٦فَلَمَّا أَقْبَلَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي حَمَلُوهَا مَعَهُمْ إِلَى الْبَيْتِ، وَانْحَنَوْا أَمَامَهُ إِلَى الأَرْضِ. ٢٧فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ أَبُوكُمُ الشَّيْخُ الَّذِي أَخْبَرْتُمْ عَنْهُ بِخَيْرٍ؟ أَمَازَالَ حَيّاً؟» ٢٨فَأَجَابُوا: «عَبْدُكَ أَبُونَا بِخَيْرٍ، وَهُوَ مَازَالَ حَيّاً». وَانْحَنَوْا وَسَجَدُوا. ٢٩وَتَلَفَّتَ فَرَأَى أَخَاهُ الشَّقِيقَ بَنْيَامِينَ، فَقَالَ: «أَهَذَا أَخُوكُمُ الأَصْغَرُ الَّذِي أَخْبَرْتُمُونِي عَنْهُ؟» ثُمَّ قَالَ: «لِيُنْعِمِ اللهُ عَلَيْكَ يَاابْنِي». ٣٠وَانْدَفَعَ يُوسُفُ إِلَى مُخْدَعِهِ وَبَكَى هُنَاكَ لأَنَّ عَوَاطِفَهُ حَنَّتْ إِلَى أَخِيهِ(١).

ولمّا هدأت مشاعر يوسف، تماسك، وغسل وجهه، ثم خرج إليهم، وأمر بتقديم الطعام. وجلس يوسف في ركن وحده حسب المراسيم، وجلس المصريون من حاشيته في ركن آخر، وجلس إخوته في ركن مستقل؛ إذ كان المصريون يعتبرون العبرانيين نجسا فلا يقتربون منهم أو يجالسونهم (بسبب أنهم كانوا رعاة وهم يكرهون الرعاة). وكان يوسف يُقدِّم لإخوته حصصا من الطعام من على مائدته الخاصة، ويُقدِّم لبنيامين خمسة أضعاف ما يُقدِّمه لكل منهم؛ وهم مذهولون من تصرفاته معهم.

. . . . . ٣١ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَخَرَجَ وَتَجَلَّدَ، وَقَالَ: «قَدِّمُوا الطَّعَامَ». ٣٢فَقَدَّمُوا لَهُ وَحْدَهُ، وَلَهُمْ وَحْدَهُمْ، وَلِلْمِصْرِيِّينَ الآكِلِينَ مَعَهُ وَحْدَهُمْ، إِذْ أَنَّهُ مَحْظُورٌ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ أَنْ يَأْكُلُوا مَعَ الْعِبْرَانِيِّينَ، لأَنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ عِنْدَهُمْ. ٣٣فَجَلَسُوا فِي مَحْضَرِهِ، كُلٌّ وَفْقاً لِعُمْرِهِ، مِنَ الْبِكْرِ حَتَّى الصَّغِيرِ. فَنَظَرُوا

(١) سفر التكوين - ٤٣.

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مَبْهُوتِينَ. ٣٤وَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ حِصَصاً مِنْ مَائِدَتِه، فَكَانَتْ حِصَّةُ بَنْيَامِينَ خَمْسَةَ أَضْعَافِ حِصَصِ إِخْوَتِهِ. وَاحْتَفُوا وَشَرِبُوا مَعَهُ(١).

الكأس الفضيّة المسروقة

أمر يوسف؛ مُدبّر بيته أن يملأ عِدالهم على آخرها بالطعام، وأن يردّ فضة كل منهم إلى عِدله، وأن يضع الكأس الفضية في عِدل الصغير. وما إن أشرق الصباح حتى انطلقوا عائدين إلى ديارهم فرحين بما حقّقوه من نجاح، وبعودة شمعون وبنيامين معهم، ويتفكّرون في مدى السرور الذي سيستشعره أبوهم بعودة أبنائه جميعا. وما إن ابتعدوا عن المدينة قليلا حتى فوجئوا بمن ينادي عليهم، ويطالبهم بردّ الكأس التي سرقوها من بيت سيّدهم، ويتّهمهم بأنهم قابلوا الإحسان بالإساءة بفعلتهم هذه.

٤٤- الكأس الفضية المفقودة

وَأَمَرَ يُوسُفُ مُدَبِّرَ بَيْتِه قَائِلاً: «امْلأْ عِدَالَ الرِّجَالِ بِالطَّعَامِ بِقَدْرِ وُسْعِهَا، وَرُدَّ فِضَّةَ كُلِّ رَجُلٍ إِلَى فَمِ عِدْلِه. ٢وَضَعْ فِي فَمِ عِدْلِ الصَّغِيرِ كَأْسِيَ الْفِضِّيَّةَ وَثَمَنَ قَمْحِه». فَنَفَّذَ أَمْرَ يُوسُفَ. ٣وَمَا إِنْ أَشْرَقَ الصَّبَاحُ حَتَّى انْطَلَقَ الرِّجَالُ، هُمْ وَحَمِيرُهُمْ. ٤وَمَا كَادُوا يَبْتَعِدُونَ عَنِ الْمُدِينَةِ قَلِيلاً حَتَّى قَالَ يُوسُفُ لِمُدَبِّرِ بَيْتِه: «اسْعَ خَلْفَ الرِّجَالِ، وَمَا إِنْ تُدْرِكْهُمْ حَتَّى تَقُولَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُكَافِئُونَ الْخَيْرَ بِالشَّرِّ؟ ٥أَلَيْسَتْ هَذِه هِيَ الْكَأْسُ الَّتِي يَشْرَبُ فِيهَا سَيِّدِي وَيَتَفَاءَلُ بِالْغَيْبِ؟ لَشَدَّ مَا أَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ»(٢).

وما إن أدركهم المنادي حتى سارعوا إليه يدفعون عن أنفسهم تُهْمة السرقة، وطلبوا منه أن يفتّش عِدل كل منهم؛ ومن وُجِدَتْ الكأسُ في عِدله يحكم عليه بالموت، ويكونون جميعا عبيدا لسيّدهم. وبدأ الرجل عملية تفتيش عِدل الأكبر منهم فالأصغر، منتهيا بعِدل بنيامين، وأخرج الكأس من

(١) سفر التكوين – ٤٣.
(٢) سفر التكوين – ٤٤.

عدل بنيامين. لم يُصـدِّق إخوتُه الأمر، فمزّقوا ثيـابهم، وعادوا برحالهم إلى المدينة.

العثور على الكأس في عدل بنيامين

٦فَلَمَّا أَدْرَكَهُمْ خَاطَبَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ، فَأَجَابُوهُ: ٧«لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي بِمِثْلِ هَذَا الْكَلاَمِ؟ حَاشَا لِعَبِيدِكَ أَنْ يَرْتَكِبُوا هَذَا الأَمْرَ. ٨هُوَذَا الْفِضَّةُ الَّتِي عَثَرْنَا عَلَيْهَا فِي أَفْوَاهِ عِدَالِنَا رَدَدْنَاهَا لَكَ مَعَنَا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، فَكَيْفَ نَسْرِقُ فِضَّةً أَوْ ذَهَباً مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ؟ ٩مَنْ تَجِدْ مَعَهُ الْكَأْسَ مِنْ عَبِيدِكَ يَمُتْ، وَنَكُنْ نَحْنُ أَيْضاً عَبِيداً لِسَيِّدِي». ١٠فَقَالَ: «فَلْيَكُنْ كَمَا تَقُولُونَ. فَالَّذِي أَجِدُهَا مَعَهُ يُصْبِحُ عَبْداً لِي، وَالْبَاقُونَ يَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ». ١١فَبَادَرَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَى عِدْلِهِ وَحَطَّهُ عَلَى الأَرْضِ وَفَتَحَهُ، ١٢فَفَتَّشَ مُبْتَدِئاً مِنْ عِدْلِ الْكَبِيرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عِدْلِ الصَّغِيرِ، فَعَثَرَ عَلَى الْكَأْسِ فِي عِدْلِ بِنْيَامِينَ. ١٣فَمَزَّقُوا ثِيَابَهُمْ وَحَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ عِدْلَهُ عَلَى حِمَارِهِ وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ[1].

ولما دخلوا على يوسف، ارتموا أمامه متـذلّلين، فقال لهم: ماذا فعلتم؟ أما علمتم مدى أهمية هذه الكـأس عندي؟ فقال يهوذا: ما وقع قد وقع، ولا نملك أن نبرئ أنفسنا، ونحن جميعـا عبيد لسيـدنا يفعل بنا ما يشـاء. فقال يوسف: حاشاي أن أفعـل ذلك، فالذنب ذنب من وجدنا الكأس عنده، وهو الذي يصير عبدا لنا، أما أنتم فتعودون إلى أبيكم بأمان.

إخوة يوسف يسجدون له

١٤وَدَخَلَ يَهُوذَا وَإِخْوَتُهُ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ إِذْ كَانَ مَا بَرِحَ هُنَاكَ، فَارْتَمَوا أَمَامَهُ إِلَى الأَرْضِ. ١٥فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: «أَيُّ جِنَايَةٍ اقْتَرَفْتُمْ؟ أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ رَجُلاً مِثْلِي يَسْتَخْدِمُ كَأْسَهُ فِي مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ؟» ١٦فَقَالَ يَهُوذَا: «مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي، وَبِمَاذَا نُخَاطِبُهُ، وَكَيْفَ نُبَرِّئُ أَنْفُسَنَا؟ إِنَّ اللهَ قَدْ فَضَحَ إِثْمَ عَبِيدِكَ.

(١) سفر التكوين – ٤٤.

فَنَحْنُ وَمَنْ عُثِرَ مَعَهُ عَلَى الْكَأْسِ عَبِيدٌ لِسَيِّدِي». ١٧فَقَالَ: «حَاشَا لِي أَنْ أَفْعَلَ هَذَا؛ إِنَّمَا الرَّجُلُ الَّذِي عُثِرَ مَعَهُ عَلَى الْكَأْسِ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْداً، أَمَّا أَنْتُمْ فَامْضُوا إِلَى أَبِيكُمْ بِأَمَانٍ»(١).

حاول يهوذا أن يستسمح يوسف من أجل بنيامين، فقال: إن له أبا شيخا، وقد مات أخوه الشقيق من أمه، وأبوه يحبّه جدا، ولو عدنا من غيره فسوف يموت حزنا عليه، وأنا قد عاهدت أبي أن أُعيد له الغلام، وأرجو أن تأخذني بدلا منه، وتدع الغلام يعود مع إخوته؛ فلا يمكنني أن أرجع إلى أبي بدونه.

يهوذا يتشفع لبنيامين

١٨فَتَقَدَّمَ مِنْهُ يَهُوذَا وَقَالَ: «يَاسَيِّدِي، دَعْ عَبْدَكَ يَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ فِي مَسْمَعِ سَيِّدِي، وَلاَ يَحْتَدِمْ غَضَبُكَ عَلَى عَبْدِكَ، لأَنَّ سُلْطَتَكَ مُمَاثِلَةٌ لِسُلْطَةِ فِرْعَوْنَ. ١٩لَقَدْ سَأَلَ سَيِّدِي عَبِيدَهُ: أَلَكُمْ أَبٌ أَوْ أَخٌ؟ ٢٠فَأَجَبْنَا سَيِّدِي: لَنَا أَبٌ شَيْخٌ، وَابْنُ شَيْخُوخَةٍ صَغِيرٌ مَاتَ أَخُوهُ الشَّقِيقُ وَبَقِيَ هُوَ وَحْدَهُ مِنْ أُمِّهِ، وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ..... ٣٠فَإِذَا عُدْتُ إِلَى عَبْدِكَ أَبِي الَّذِي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِنَفْسِ الْغُلاَمِ، وَلَمْ يَكُنِ الْغُلاَمُ مَعَنَا، ٣١وَرَأَى أَنَّ الْغُلاَمَ مَفْقُودٌ، فَإِنَّهُ يَمُوتُ، وَيُوَارِي عَبِيدُكَ شَيْبَةَ عَبْدِكَ أَبِيهِمْ بِشَقَاءٍ فِي الْقَبْرِ. ٣٢لأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْغُلاَمَ لأَبِي، وَقُلْتُ: إِنْ لَمْ أُرْجِعْهُ إِلَيْكَ أَكُنْ مُذْنِباً إِلَيْكَ مَدَى الْحَيَاةِ. ٣٣فَأَرْجُو مِنْ سَيِّدِي أَنْ يَتَّخِذَنِي عَبْداً لَهُ بَدَلاً مِنَ الْغُلاَمِ، وَدَعِ الْغُلاَمَ يَمْضِي مَعَ بَقِيَّةِ إِخْوَتِهِ، ٣٤إِذْ كَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَبِي وَالْغُلاَمُ لَيْسَ مَعِي وَأَشْهَدَ مَا يَحِلُّ بِهِ مِنَ الشَّرِّ؟»(٢).

يوسف يكشف عن نفسه لإخوته

لم يستطع يوسف أن يُسيْطر على مشاعره، فصرخ في الجميع أن يخرجوا ما عدا إخوته، وقال وهو يبكي: أنا يوسف فكيف حال أبي؟ هل لا

(١) (٢) سفر التكوين - ٤٤.

زال حيا؟ أجيبوني. لم يستطع أحد منهم أن يردّ عليه؛ رعبا منه، وفزعا من المفاجأة.

٤٥- يوسف يكشف عن نفسه

فَلَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَتَمَالَكَ نَفْسَهُ أَمَامَ الْمَاثِلِينَ أَمَامَهُ، فَصَرَخَ: «لِيَخْرُجِ الْجَمِيعُ مِنْ هُنَا». فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مَعَ يُوسُفَ حِينَ كَشَفَ عَنْ نَفْسِهِ لإِخْوَتِهِ. ٢وَبَكَى بِصَوْتٍ عَالٍ فَسَمِعَ الْمِصْرِيُّونَ كَمَا سَمِعَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ. ٣وَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «أَنَا يُوسُفُ. فَهَلْ أَبِي مَازَالَ حَيّاً؟» فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِخْوَتُهُ أَنْ يُجِيبُوهُ لأَنَّهُمُ امْتَلأُوا رُعْباً مِنْهُ[1].

قال يوسف لإخوته: أدنوا مني وأنصتوا لما سأقول، ليس هذا هو وقت الأسف على كل ما فعلتموه بي؛ فهذا أمر الله الذي شاءت إرادته أن يكون ذلك سببا لبقاء حياتكم. لقد بقي من زمن المجاعة خمس سنوات؛ لا زرع ولا حصاد، فهيا أسرعوا إلى أبي وأخبروه بالأمر، واطلبوا منه أن يأتي بجميع أهله ليقيم في مصر بجانبي وتحت رعايتي. وعانق بنيامين وبكيا، ثم قبّل إخوته وبكوا جميعا.

. . . . . ٤فَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «اُدْنُوا مِنِّي». فَاقْتَرَبُوا مِنْهُ، فَقَالَ: «أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ٥فَلاَ تَتَأَسَّفُوا الآنَ، وَلاَ يَصْعُبْ عَلَيْكُمْ أَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا، لأَنَّ اللهَ أَرْسَلَنِي أَمَامَكُمْ حِفَاظاً عَلَى حَيَاتِكُمْ. ٦فَقَدْ صَارَ لِلْمَجَاعَةِ فِي هَذِهِ الأَرْضِ سَنَتَانِ، وَبَقِيَتْ خَمْسُ سَنَوَاتٍ لَنْ يَكُونَ فِيهَا فَلاَحَةٌ وَلاَ حَصَادٌ. ٧وَقَدْ أَرْسَلَنِي اللهُ أَمَامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأَرْضِ وَيُنْقِذَ حَيَاتَكُمْ بِخَلاَصٍ عَظِيمٍ. ٨فَلَسْتُمْ إِذاً أَنْتُمُ الَّذِينَ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللهُ، الَّذِي جَعَلَنِي مُسْتَشَاراً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ، وَمُتَسَلِّطاً عَلَى جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ. ٩فَأَسْرِعُوا وَارْجِعُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: ابْنُكَ يُوسُفُ يَقُولُ: لَقَدْ أَقَامَنِي اللهُ سَيِّداً عَلَى كُلِّ مِصْرَ. تَعَالَ وَلاَ تَتَبَاطَأْ. ١٠فَتُقِيمَ فِي

(١) سفر التكوين - ٤٥.

أَرْضِ جَاسَانَ لِتَكُونَ قَرِيباً مِنِّي أَنْتَ وَبَنُوكَ وَأَحْفَادُكَ وَغَنَمُكَ وَبَقَرُكَ وَكُلُّ مَالَكَ. ١١وَأَعُولُكَ هُنَاكَ لأَنَّ الْجُوعَ سَيَسْتَمِرُّ خَمْسَ سَنَوَاتٍ أُخْرَى، فَلاَ تَحْتَاجُ أَنْتَ وَعَائِلَتُكَ وَبَهَائِمُكَ. . . . . ١٤ثُمَّ تَعَانَقَ يُوسُفُ وَبِنْيَامِينُ وَبَكَيَا ١٥وَقَبَّلَ يُوسُفُ بَاقِي إِخْوَتِهِ وَبَكَى مَعَهُمْ. وَعِنْدَئِذٍ فَقَطْ تَجَرَّأَ إِخْوَتُهُ عَلَى مُخَاطَبَتِهِ[1].

وعرف فرعون بخبرهم فسرّه ذلك، وأمر يوسف أن يحُضّ إخوته على الرجوع إلى أرض كنعان ليحضروا أباهم وجميع أهلهم، وأن لا يكترثوا لأي شيء يتركوه خلفهم؛ لأنه سوف يعطيهم أفضل الأرض ليستمتعوا بخيراتها. وأمر فرعون لهم بمركبات تحملهم وتحمل أمتعتهم وحاجياتهم. وأعطاهم يوسف العربات ومئونة للطريق وثيابا فاخرة، وخصّ أخاه بنيامين بالمزيد من الثياب والفضة، وأرسل لأبيه الدواب المحمّلة بالطعام الوفير، وأوصاهم أن لا يتخاصموا في الطريق.

. . . . . ١٦وَسَرَى الْخَبَرُ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَقِيلَ قَدْ جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ، فَسَرَّ ذَلِكَ فِرْعَوْنَ، وَعَبِيدَهُ أَيْضاً. ١٧وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «اطْلُبْ مِنْ إِخْوَتِكَ أَنْ يُحَمِّلُوا دَوَابَّهُمْ بِالْقَمْحِ وَيَرْجِعُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، ١٨لِيُحْضِرُوا أَبَاهُمْ وَأُسَرَهُمْ وَيَجِيئُوا إِلَيَّ، فَأُعْطِيَهُمْ أَفْضَلَ أَرْضِ مِصْرَ لِيَسْتَمْتِعُوا بِخَيْرَاتِهَا. ١٩وَقَدْ صَدَرَ أَمْرٌ إِلَيْكَ أَنْ يَأْخُذُوا لَهُمْ عَرَبَاتٍ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ لِيَنْقُلُوا عَلَيْهَا أَوْلاَدَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمْ وَأَبَاهُمْ وَيَحْضُرُوا إِلَى هُنَا. ٢٠لاَ يَكْتَرِثُوا لِمَا يُخَلِّفُونَهُ مِنْ مَتَاعٍ، فَخَيْرَاتُ أَرْضِ مِصْرَ كُلِّهَا هِيَ لَهُمْ»[2].

ولمّا أقبلوا على أبيهم وأخبروه أن يوسف حي، لم يصدقهم في مبدأ الأمر، لكنه لما عاين العربات التي أرسلها يوسف معهم، انتعشت روحه، وقال: الحمد لله أن يوسف حي وأنني سوف أراه قبل أن أموت.

---

(١) (٢) سفر التكوين - ٤٥.

٢١فَـفَعَلَ بَنُـو إِسْرَائِيلَ هكَذَا، وَأَعْـطَاهُمْ يُوسُفُ عَـرَبَاتٍ حَسَبَ أَمْـرِ فِرْعَوْنَ وَمَـؤُونَةً لِلطَّرِيقِ. ٢٢وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حُلَلَ ثِيَابٍ. أَمَّـا بِنْيَامِينُ فَخَصَّهُ بِثَـلاَثِ مِئَةِ قِطْعَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَخَـمْسِ حُلَلِ ثِيَابٍ. ٢٣وَأَرْسَلَ إِلَى أَبِيهِ عَشَـرَةَ حَمِيرٍ مُـحَمَّلَةً بِأَفْضَلِ خَيْـرَاتِ مِصْرَ وَعَـشْرَ أُتُنٍ مُثْقَلَةً بِالْحِنْطَةِ وَخُـبْزاً وَطَعَاماً يَقْتَاتُ مِنْهَا فِي الطَّرِيقِ. ٢٤وَهكَذَا صَرَفَ إِخْوَتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْصَاهُمْ: «لاَ تَتَخَاصَـمُوا فِي الطَّرِيقِ». ٢٥وَانْطَلَقُوا مِنْ مِصْرَ حَـتَّى أَقْبَلُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى أَبِيهِمْ يَعْقُـوبَ. ٢٦فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّ يُوسُفَ مَازَالَ حَيّـاً، وَهُوَ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». فَغُشِيَ عَلَى قَلْبِ يَعْـقُوبَ لأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ. ٢٧ثُمَّ حَدَّثُوهُ بِكَلاَمِ يُوسُفَ. وَعِنْدَمَـا عَايَنَ يَعْـقُوبُ الْعَـرَبَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَـا يُوسُفُ لِتَنْقُلَهُ، انْتَعَشَتْ رُوحُهُ، ٢٨وَقَالَ: «كَـفَى! يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدُ، سَأَذْهَبُ لأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ»(١).

يعقوب في مصر

شدّ يعقوب الرحال بجميع أهله وممتلكاته إلى مصر، ولمّا وصل إلى بئر سبع قـدّم الذبائح للرب، ودعا الله أن يوفّـقه في رحلتـه، وأن يجمـعه بابنه يوسف الذي اشتاقت إليه نفســه. وفي الرؤية خاطبه الربُ قائلا لا تخف من الذهاب إلى مصر لأنني سـأكون معك، وسأجعل منك أمة عظـيمة، وسوف يُغْـمض يوسف أجفـانك بيديه، وســوف أُرجعك أيضـا إلى الأرض التي أنا واهبها لذريتك.

٤٦- يعقوب يرتحل إلى مصر

وَارْتَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَكُلُّ مَا لَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بِئْـرِ سَبْعٍ، فَقَدَّمَ ذَبَائِحَ إِلَى إِلَهِ أَبِيهِ إِسْحقَ. ٢وَقَـالَ اللهُ لإِسْرَائِيلَ فِي رُؤَى اللَّيْلِ: «يَعْقُـوبُ، يَعْقُوبُ».

(١) سفر التكوين – ٤٥.

فَأَجَابَ: «هَا أَنَا» ٣فَـقَالَ: «أَنَا هُوَ اللهُ، إِلَهُ أَبِيكَ. لاَ تَخَفْ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى مِصْرَ لأَنِّي أَجْـعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. ٤أَنَا أَصْحَبُكَ إِلَى مِـصْرَ، وَأَنَا أُرْجِعُكَ أَيْضاً، وَيُغْمِضُ يُوسُفُ أَجْفَانَكَ بِيَدَيْهِ عِـنْدَ مَوْتِكَ». ٥فَانْطَلَقَ يَعْقُوبُ مِنْ بِئْرِ سَبْعٍ. وَحَمَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ أَبَاهُمْ وَأَوْلاَدَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمْ فِي الْعَرَبَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا فِرْعَـوْنُ لِنَقْلِهِ. ٦وَأَخَذُوا مَعَهُمْ مَـوَاشِيَهُمْ وَمُقْتَنَيَـاتِهِمِ الَّتِي اقْتَنَوْهَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَجَاءُوا جَمِيـعاً إِلَى مِصْرَ، ٧فَقَدْ صَحِبَ يَعْقُـوبُ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ أَبْنَاءَهُ وَأَحْفَادَهُ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، وَسَائِرَ ذُرِّيَّتِهِ(١).

لمّا علم يوسف بوصـول أبيه وأهله إلى مـصر، أعدّ مـركبـته، وصـعد للقائهم في جـاسان، وما إن لقي يوسفُ أباه حتى عـانقه طويلا وهو يبكي، وقال يعقوب لا يهـمني أن أموت الآن بعد أن رأيتُك واطمأننت أنك لا زلتَ حيّا.

الاستيطان في مصر

٢٨وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ يَهُوذَا أَمَامَهُ إِلَى يُوسُفَ لِيَدُلَّهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى جَاسَانَ. ٢٩فَأَعَدَّ يُوسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعَدَ لِلِقَاءِ أَبِيهِ إِسْرَائِيلَ فِي جَاسَانَ. وَمَا إِنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ حَتَّى عَانَقَـهُ يُوسُفُ وَبَكَى زَمَاناً طَوِيلاً. ٣٠وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «دَعْنِي أَمُوتُ الآنَ إِذْ قَدْ أَبْصَرْتُ وَجْهَكَ وَرَأَيْتُ أَنَّكَ مَازِلْتَ حَيّاً»(٢).

وقال يوسـف لإخوته أنه ذاهب إلى فـرعون ليـخبره بوصـولهم، وأنه سوف يقـول لفرعون أنهم رعـاة، وأنهم قد أحضـروا معهم غنمـهم وبقرهم ليمارسوا حـرفتهم التي تعوّدوا عليهـا من أجل أن يعطيكم أرض جاسان لكم خالصة دون المصريين الذي لا يحبون الرعاة ويعتبرونهم نجسا.

. . . . . ٣١وَخَـاطَبَ يُوسُفُ إِخْـوَتَهُ وَبَيْتَ أَبِيـهِ: «أَنَا مَـاضٍ الآنَ إِلَى فِرْعَوْنَ لأُخْبِـرَهُ أَنَّ إِخْوَتِي وَبَيْتَ أَبِي الْمُقِيمِينَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ قَـدْ قَدِمُوا إِلَيَّ.

(١) (٢) سفر التكوين - ٤٦.

٣٢وَهُمْ رُعَاةُ غَنَمٍ، وَحِرْفَتُهُمْ رِعَايَةُ الْمَوَاشِي، لِذَلِكَ أَحْضَرُوا مَعَهُمْ غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَكُلَّ مَا لَهُمْ. ٣٣فَإِذَا دَعَاكُمْ وَسَأَلَكُمْ: مَا حِرْفَتُكُمْ؟ ٣٤قُولُوا: حِرْفَتُنَا رِعَايَةُ الْمَوَاشِي مُنْذُ صِبَانَا إِلَى الآنَ، كَذَلِكَ نَحْنُ وَهَكَذَا كَانَ آبَاؤُنَا جَمِيعاً. لِكَيْ تُقِيمُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ؛ لأَنَّ كُلَّ رَاعِي غَنَمٍ نَجِسٌ لَدَى الْمِصْرِيِّينَ»(١).

مَثُل يوسف أمام فرعون ومعه خمسة من إخوته، وقال لفرعون أن أباه وإخوته قد جاءوا بكل ما يمتلكونه من أرض كنعان من أجل أن يعيشوا في كنفه، واستسمحه أن يأذن لهم بالإقامة في أرض جاسان.

٤٧- لقاء إخوة يوسف بفرعون

وَمَثَلَ يُوسُفُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ جَاءَ أَبِي وَإِخْوَتِي مَعَ قُطْعَانِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهَا هُمُ الآنَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ». ٢وَأَخَذَ خَمْسَةً مِنْ إِخْوَتِهِ وَقَدَّمَهُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ. ٣فَسَأَلَهُمْ فِرْعَوْنُ: «مَا هِيَ حِرْفَتُكُمْ؟» فَأَجَابُوهُ: «عَبِيدُكَ وَآبَاؤُهُمْ رُعَاةُ غَنَمٍ. ٤وَلَقَدْ جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ إِذْ لَيْسَ لِغَنَمِ عَبِيدِكَ مَرْعًى مِنْ جَرَّاءِ وَطْأَةِ الْجُوعِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَدَعْ عَبِيدَكَ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ»(٢).

قال فرعون: دعهم يقيمون في أرض جاسان، وإن كان بينهم من له خبرة بشئون المواشي فاعهد إليه بالإشراف على المواشي الخاصة بنا. ثم أحضر يوسف أباه يعقوب أمام فرعون ليقدِّم له الشكر على ضيافته لهم، فمثُل يعقوب أمام فرعون ودعى له بالبركة. وخرجوا من عند فرعون إلى الأرض التي وهبها لهم بناء على توصيات يوسف؛ وكانت من أجود الأرض. وكان يوسف يمُدُّهم بالطعام وبكل احتياجاتهم من خزائن فرعون.

لقاء يعقوب بفرعون

٥فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «لَقَدْ جَاءَ إِلَيْكَ أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ، ٦وَأَرْضُ مِصْرَ أَمَامَكَ، فَأَنْزِلْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ. دَعْهُمْ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ

---

(١) سفر التكوين -٤٦.   (٢) سفر التكوين -٤٧.

جَاسَانَ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَيْنَهُمْ ذَوِي خِبْرَةٍ فَاعْهَدْ إِلَيْهِمْ فِي الإِشْرَافِ عَلَى مَوَاشِيَّ». ٧ثُمَّ أَحْضَرَ يُوسُفُ أَبَاهُ يَعْقُوبَ وَأَوْقَفَهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ، فَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ. ٨وَسَأَلَ فِرْعَوْنُ يَعْقُوبَ: «كَمْ هُوَ عُمْرُكَ؟» ٩فَأَجَابَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ: «سَنَوَاتُ غُرْبَتِي مِئَةٌ وَثَلاَثُونَ سَنَةً، قَلِيلَةٌ وَشَاقَّةٌ، وَلَمْ تَبْلُغْ سِنِي غُرْبَةِ آبَائِي». ١٠ثُمَّ بَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ وَخَرَجَ مِنْ لَدُنْه. ١١وَأَنْزَلَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ فِي مِصْرَ وَمَلَّكَهُمْ فِي رَعَمْسِيسَ أَجْوَدَ الأَرْضِ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. ١٢وَأَمَدَّ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ أَبِيهِ بِالطَّعَامِ عَلَى حَسَبِ عِيَالِهِمْ[1].

سياسة يوسف الزراعية

اتبع يوسف سياسة صارمة في مواجهة المجاعة، فقايض القمح بالفضة التي مع الناس؛ حتى نفذت الفضة من أيدي الناس. ثم قايض الناس على مواشيهم؛ حتى نفذت كلها وصارت ملكا لفرعون. ثم قايضهم على أراضيهم وأبدانهم؛ فصاروا عبيدا لفرعون.

ولما صارت البلاد والعباد ملكا لـلفرعون، قدّم لهم يوسف البذور ليزرعوا الأرض شريطة أن يقدّموا خمس نتاجها لفرعون ويحتفظوا بالباقي من أجل أكلهم وأكل مواشيهم والبذور للعام التالي. وهكذا صارت الأمور في مصر بسبب سياسة يوسف التي اتبعها.

سياسة يوسف الزراعية

١٣وَنَفَدَ الخُبْزُ فِي جَمِيعِ الْبِلاَدِ لِشِدَّةِ الْمَجَاعَةِ، وَأَقْحَلَتْ أَرْضُ مِصْرَ وَأَرْضُ كَنْعَانَ مِنَ الجُوعِ. ١٤فَقَايَضَ يُوسُفُ الْقَمْحَ الَّذِي بِيعَ بِكُلِّ الْفِضَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَفِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَحَمَلَهَا إِلَى خَزِينَةِ فِرْعَوْنَ. ١٥وَعِنْدَمَا نَفَدَتِ الْفِضَّةُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَمِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ أَقْبَلَ جَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ إِلَى يُوسُفَ قَائِلِينَ: «أَعْطِنَا خُبْزاً، فَلِمَاذَا نَمُوتُ أَمَامَ عَيْنَيْكَ؟ إِنَّ فِضَّتَنَا قَدْ

(١) سفر الخروج - ٣ فقط.

نَفَدَتْ». ١٦فَـأَجَابَهُمْ: «إِنْ نَفَدَتْ فِـضَّتُكُمْ، فَهَـاتُوا مَوَاشِيَكُمْ أُقَـايِضُكُمْ بِهَا طَعَاماً». ١٧فَـأَتَوْا بِمَوَاشِيهِمْ، فَـقَايَضَهُمْ يُوسُفُ خُبْزاً بِالْخَـيْلِ وَمَوَاشِي الْغَنَمِ وَالْبَـقَرِ وَالْحَـمِيرِ. وَهَـكَذَا قَايَضَ جَـمِيعَ مَـوَاشِيـهِمْ بِالْخُبْـزِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ. ١٨وَعِنْدَمَا انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنَةُ، أَقْبَلُوا إِلَيْـهِ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ قَائِلِينَ: «لاَ نُخْفِي عَنْ سَيِّدِي أَنَّ فِضَّتَنَا قَدْ نَفَدَتْ، وَأَنَّ مَوَاشِيَ الْبَهَائِمِ قَدْ أَصْبَحَتْ عِنْدَ سَيِّدِي، وَلَمْ يَبْقَ أَمَـامَـهُ إِلاَّ أَبْدَانُنَا وَأَرَاضِينَـا، ١٩فَلِمَاذَا نَمُـوتُ نَحْنُ، وَأَرْضُنَا أَمَـامَ عَيْنَيْكَ، اشْتَرِنَا نَحْنُ وَأَرْضَنَا لِقَاءَ الْخُبْزِ فَنُصْـبِحَ نَحْنُ وَأَرَاضِينَا عَبِيداً لِفِرْعَوْنَ. وَأَعْطِنَا بُذُوراً لِنَزْرَعَهَا فَنَحْيَا وَلاَ نَمُوتَ وَلاَ تَصِـيرَ أَرَاضِينَا مُقْفِرَةً». ٢٠وَهَكَذَا اشْتَرَى يُوسُفُ لِفِـرْعَوْنَ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّ جَمِيعَ الْمِصْرِيِّينَ بَـاعُوا حُقُولَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ الْمَجَاعَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهِمْ، وَصَـارَتْ كُلُّ الأَرْضِ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ. ٢١أَمَّا الشَّعْبُ فَقَدْ نَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى حُدُود مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهَا. . . . . ٢٣ثُمَّ قَـالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ: «هَا قَـدِ اشْتَـرَيْتُكُمُ الْيَـوْمَ أَنْتُمْ وَأَرْضَكُمْ فَصِـرْتُمْ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ، فَـإِلَيْكُمُ الْبِذَارَ لِتَزْرَعُوا الأَرْضَ. ٢٤وَيَكُونُ فِي مَـوْسِمِ الْحَصَادِ أَنَّكُمْ تُقَدِّمُونَ لِفِرْعَوْنَ خُمْسَ الْغَلَّةِ وَتَحْـتَفِظُونَ لَكُمْ بِالأَرْبَعَةِ الأَخْمَاسِ لِتَكُونَ بِذَاراً لِلْحَقْـلِ وَطَعَاماً لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلأَوْلاَدِكُمْ»(١).

موت يعقوب

ولمّا مات يعـقوب، خـاف إخوة يوسف أن تسوء مـعاملته لـهم بسبب خطيئتهم معه؛ موقنين أنه لم ينـسها، وأنه ربما كان وجود أبيهم هو سبب في تأجيل عقابهم عليـها. لذلك أرسلوا إليه من يسترحمه ويذكّـره بوصية أبيه له بأن يحسن إلى إخـوته، وجاءوا إليـه فانطرحوا أمـامه وهم يقولون له اغـفر لعبيدك خطيئتهم مـعك وكن رحيما بهم. بكى يوسف من التأثّر وقال لهم لا تخافوا فلست أنا من يقوم بحسـابكم؛ بل الله. وقد نويتم لي شرا قصد الله به خيرا كثيـرا، وكان سببا في إحياء شعبنا بنجـاته من المجاعة. وطمأنهم من ناحيته، ووعدهم بأنه سوف يظل يرعاهم هم وأولادهم.

---

(١) سفر التكوين - ٤٧.

١٥ولَمَّا رأى إخوةُ يوسفُ أنَّ أباهُمْ قدْ ماتَ قالُوا: «لَعَلَّ يُوسُفَ الآنَ يَشرَعُ في اضطهادنا ويَنتَقمُ منَّا لإساءَتِنَا إليه؟» ١٦فبعثُوا إليه رسُولاً قائلينَ: «لَقَدْ أوصى أبوكَ قبلَ موته وقالَ: ١٧هكذا تقولُونَ ليُوسُفَ: اغفرْ لإخوتكَ ذنبَهُمْ وخطيئتَهُمْ، فإنَّهُمْ قدْ أساءُوا إليكَ. فالآنَ اصفَحْ عنْ إثمِ عبيدِ إلهِ أبيكَ». فلَمَّا بلغَتهُ رسالَتُهُمْ بكَى يُوسُفُ. ١٨وجاءَ إخوتُهُ أيضاً وانطَرحُوا أمامَهُ وقالُوا: «ها نحنُ عبيدُكَ». ١٩فقالَ لهُمْ: «لاَ تخافُوا: هلْ أنا أقُومُ مقامَ اللهِ؟ ٢٠أنتُمْ نَويتُمْ لي شَرّاً، ولكنَّ اللهَ قَصدَ بالشَّرِّ خيراً، ليُنجِزَ ما تمَّ اليومَ، لإحياءِ شعبٍ كثيرٍ. ٢١لذلكَ لاَ تخافُوا، فأنا أعولُكُمْ أنتُمْ وأولادَكُمْ». فطمأنَهُمْ وهدَّأ روعَهُمْ(١).

موت يوسف

وعاش يوسف حتى بلغ مائة وعشرة سنة من عمره. ولمّا قرُبت منيتُه، قال لإخوته إن الله سيُخْرِجكم من هذه الأرض إلى الأرض التي وعدها آباءكم إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأستحلفكم بالله أن تنقلوا رفاتي معكم عند خروجكم وتدفنوها مع آبائي. ولما مات يوسف حنّطوا جثته وحفظوها في تابوت.

٢٢وأقامَ يُوسُفُ في مصرَ هُوَ وأهلُ بَيْتِ أبيه. وعاشَ يُوسُفُ مئةً وعشرَ سنينَ، ٢٣حتَّى شهدَ الجيلَ الثَّالثَ منْ ذُرِّيَّةِ أفرايمَ، وكذلكَ أولادَ ماكيرَ بنِ منسَّى الَّذينَ احتضنَهُمْ عندَ ولادَتهِمْ. ٢٤ثُمَّ قالَ يُوسُفُ لإخوته: «أنا مُوشكٌ عَلَى المَوتِ، ولكنَّ اللهَ سيَفتقدُكُمْ ويُخرجُكُمْ منْ هذه الأرضِ ويَردُّكُمْ إلَى الأرضِ الَّتي وعدَ بها بقَسَمٍ لإبراهيمَ وإسحقَ ويَعقُوبَ». ٢٥واستَحلَفَ يُوسُفُ أبناءَ إسرائيلَ قائلاً: «إنَّ اللهَ سيَفتَقدُكُمْ فانقُلُوا عظامي منْ هُنا»(٢).

موت يوسف

٢٦ثُمَّ ماتَ يُوسُفُ وقدْ بلَغَ منَ العُمرِ مئةً وعشرَ سنينَ. فحنَّطُوهُ ووضعُوهُ في تابُوتٍ في مصرَ(٣).

(١) (٢) (٣) سفر التكوين – ٥٠.

يوسف في القرآن
حلم يوسف

رأى يوسف في حلمه أن الشمس والقمر وحولهما أحد عشر كوكبا قد سجدوا له، فلما قصّ على أبيه الحلم، خاف عليه من إخوته، وحذّره من أن يحكي لهم حلمه خوفا من أن يوسوس لهم الشيطان فيقدموا على إيذائه والكيد له. وقال له أبوه: لعلّ الله أن يختارك من بينهم، ويفضّلك عليهم بتعبير الرؤى وتفسيرها، ويُتم نعمته عليك بالنبوة مثل أبويك إبراهيم وإسحاق.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾ [يوسف].

حقد إخوة يوسف عليه

كان إخوة يوسف يحقدون عليه وعلى أخيه من أمه؛ بنيامين لزعمهم أن أباهم يعقوب يحبّهما أكثر منهم جميعا ويخصُّهما بحنان مفرط، وكانوا يتّهمونه بعدم العدل فيما بينهم. وقادهم تفكيرهم المعوجّ هذا أن يقتلوه، أو يلقوا به في مكان بعيد؛ ليستأثروا بحب أبيهم واهتمامه بهم. وقال أحدُهم لا نقتل أخانا، ويكفي أن نُلقي به في بئر؛ لنضمن أن لا يلحق بنا، وعسى أن تمرّ قافلة من القوافل التي تجوب المنطقة، فيستخرجوه من البئر، ويأخذوه بعيدا عنا.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ⑦ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ⑨ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ⑩﴾ [يوسف].

إلقاء يوسف في البئر

ولمّا أجمعوا أمرهم وقرّروا التخلص من يوسف، طلبوا من أبيهم ذات ليلة أن يرسله معهم غدا وهم ذاهبون للرعي؛ وكان يعقوب لا يترك يوسف يبتعد عنه أبدا حدبا به وحرصا عليه، فقال لهم: إني أخاف أن تسهوا عنه برعي غنمكم فيأكله الذئب ولا ينقذه منه أحد منكم. فقالوا مستنكرين: أيُعقل أن يأكله الذئب وهو بيننا وتحت سمعنا وأبصارنا؟ والله لئن أكله الذئب من بيننا فلسنا رجالا نستحق ثقتك. وألحّوا على أبيهم كثيرا حتى وافق على كره منه. ولمّا ذهبوا بيوسف إلى حيث ترعى أغنامُهم، قيّدوه، وألقوا به في قاع بئر بعيد الغور. وألقى الله سكينته على يوسف، وأوحى إليه أنه سيخرج من البئر سالما، وسوف يأتي اليوم الذي يحاسبهم فيه على ما فعلوه به.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ⑪ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑫ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ⑬ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ⑭ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑮﴾ [يوسف].

وعادوا في المساء يبكون، وقالوا لأبيهم: أنهم ذهبوا يلعبون لعبة السباق، وتركوا يوسف يحرُس أغراضهم ويباشر الغنم نيابة عنهم، ولما عادوا وجدوا أن الذئب قد أكله ولم يبق منه غير قميصه وعليه دمه. وتأكيدا لكذبتهم، قدّموا له قميصه وعليه دم شاة مذبوحة. لم يُصدِّق يعقوب مقولتهم، وقال: الله أعلم أصدقتم أم كذبتم، وسوف أصبر حتى يُظهر الله لي ما خفي من أمركم.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [يوسف].

ومرّت قافلة متجهة إلى مصر، فأناخوا إبلهم للراحة قرب البئر الذي أُلقي فيه يوسف، وأرسلوا أحد رجالهم ليأتيهم بالماء لشربهم وشرب دوابِّهم. ولما أدلى دلوه في البئر تعلّق به يوسف، فلما أخرجه من البئر فرح به واستبشر. وجاء إخوتُه فقالوا: هذا عبد لنا هرب من خدمتنا ولكننا لا نرغب فيه، فإن شئتم اشتريتموه بقليل من المال. دفع لهم الرجل بعض الدراهم ليتركوه له، وأخذه معه إلى مصر. وفي مصر عرضه للبيع، فاشتراه أحد كبار موظفي فرعون.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)﴾ [يوسف].

يوسف وامرأة العزيز

فرح العزيز أيّما فرح بيوسف، واستبشر به خيرا؛ لما رآه فيه من دماثة الخلق وحسن المُحيّا، وأوصى زوجته بأن تُحسن معاملته، وتكون حانية عليه، عطوفة معه مثل ولد لها. ويقال أنّهما لم يرزقا أطفالا، فكان في رعايتهم كابن لهم. وكبر في بيت العزيز حتى بلغ مبلغ الرجال، وآتاه الله حسن الفصل في الأمور كلها، وغاية الكمال في العلم والتفقّه في الدين. وكانت أموره تسير من حسن إلى أحسن في بيت مولاه، وكان يتعامل مع سيِّده كأب، ومع سيِّدته كأم. لكن شاءت إرادة الله أن تنقلب حياتُه رأسا على عقب؛ فمن كان ينظر إليها كأم، كانت ترقب شبابه المتفجِّر، وحيويته المتوهِّجة نظرة المرأة إلى الرجل. وكانت تزداد به مع الأيام كلفا، ومع

الساعات شوقا وهياما. ولمّا لم تجد منه ما يطفئ شوقها إليه، ويشبع رغبتها فيه، عرضت عليه نفسها صراحة. وانتهزت فرصة خلو البيت إلا منهما، فغلّقت جميع الأبواب، وأقبلت عليه قائلة هلمّ إلي لتطفئ نار شوقي. وجذبته إليها، وكاد أن يضعُف أمام فتنتها وحرارة لهفتها لولا أن عصمه الله، فصدّها عنه، وقال: أعوذ بالله أن أخون ثقة من أولاني ثقته، وأن أرتكب ما حرّمه الله.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف].

وتخلّص يوسف من قبضة ذراعيها، وجرى ناحية الباب وهي تجري خلفه لتلحق به حتى أمسكت بقميصه. لم يتوقف عن الجري حتى تمزّق قميصه بيدها القابضة عليه، وفوجئا بالعزيز مقبلا. صرخت باكية شاكية، وقالت لزوجها: ما جزاء هذا الخائن الذي أراد أن يعتدي على عرضك وعلى حرمة بيتك؟ ألا يستحق السجن جزاء عمله المشين، أو يُعذّب عقابا له؟ وتجمّع كل من في البيت مندهشين غير مصدقين، وقال يوسف مدافعا عن شرفه: أنها هي التي تعرّضت له، وأنه حاول التملُّص منها لكنها لاحقته. وشهد شاهد من حكماء أهل البيت إن كان قميصُه قد تمزّق من الأمام؛ فهذا يدل على أنها كانت في حالة دفاع عن نفسها ضد تهجّمه عليها؛ فيكون مذنبا، وإن كان العكس؛ يكون هو من حاول أن يهرُب من وجهها وهي التي لحقت به وأمسكت بقميصه لتوقفه. ولما رأى العزيز أن قميصه قد تمزّق من الخلف تأكّدت له براءته، وطلب منه أن يكتم الأمر، ولام زوجته.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾ [يوسف].

شاع الخبر في المدينة، وتناقلته النسوة، وعابوا على زوجة العزيز فعلتها. ولما عرفت ما يقوله النسوة عنها دعتهم لزيارتها، وهيّأت لهن مجلسا. وأمرت يوسف أن يدخل عليهن ليشاهدن بأنفسهن حسن محيّاه وجمال مبناه. وما إن رأينه حتى ذهلن جميعا، ولم ينتبهن للسكين تقطع أيديهن وهنّ ينظرن إليه مبهورات؛ وهن يرددن: هذا ليس بشرا ولكنه ملاك كريم. عندها قالت لهن: هذا هو الذي لُمْتُنَّني بسببه، وأنا التي عرضتُ عليه نفسي لكنه أبى، ولن أتركه حتى يفعل ما أريده منه أو يكون مصيره السجن لا يخرج منه أبدا. أشفقت عليه النسوة فقلن له نفذ ما تأمرك به لتُنقذ نفسك، فرد عليهن السجن أحبّ إلي من أن أرتكب تلك المعصية، ودعا ربه أن يصرف عنه كيدها وينجيه من مكرها، فاستجاب الله له.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾ [يوسف].

يوسف في السجن

ورغم وضوح دلائل براءته؛ قرروا أن يسجنوه لإسكات ألسنة الناس، وحتى تنمحي الحكاية من الأذهان. وكان معه في السجن رجلان؛ أحدهما

كان يعمل ساقيا لفرعون، والآخر كان يعمل خبّازا؛ سجنا لخطأ ارتكباه في حق فرعون. وكان يوسف قد اشتهر في السجن بالصلاح والتقوى، وعُرف عنه براعته في تفسير الأحلام. وأراد الرجلان أن يختبرا قدرته على تفسير الأحلام، فقال له أحدهما: أنه رأى نفسه في الحلم يعصر خمرا، وقال الآخ:ر أنه رأى نفسه في الحلم يحمل فوق رأسه خبزا والطير تأكل منه، وطلبوا منه تفسير حلميهما. طمأنهما يوسف وقال لهما: أنه قادر على أن ينبئهما حتى بما قد يرزقهما الله به من طعام لأن الله ربّه علّمه ذلك، وقال لهم يوسف أنه مؤمن بالله، وعلى ملّة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ [يوسف].

وانتهزها فرصة ليدعوهما لعبادة الله الواحد الأحد رغم محنة السجن التي هو فيها، فخاطبهما برفق قائلا يا صاحباي في هذا السجن استمعا إلي، أمن الأفضل للإنسان أن يصرف عبادته لرب واحد قادر، أم يعبد أربابا عديدين لا يملكون له ضرا ولا نفعا؟ إن ما تعبدونه من دون الله ليس إلا من صنعكم أنتم وآباؤكم ولم يأمر به الله خالق كل شيء. إن العبادة الحقّة لا تكون إلا لله وحده، وليت الناس يعرفون ذلك.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ [يوسف].

ولما انتهى من موعظته، وهيّأ الأذهان للاستماع إليه، قال مفسرا حلميهما: أما ساقي الملك فسوف يعود مرة أخرى ساقيا للملك يُقدّم له

شرابه، أما خبّاز الملك فسوف يحكُم عليه الملك بالإعدام، ويُصلب، وتُترك جثته على الصليب حتى تأكل الطير من رأسه. وما إن سمع الخبّاز ذلك حتى قال مستهزئا، ما حلمنا وما رأينا شيئا، لكننا كنا نمتحنك. فردّ عليه يوسف قائلا انتهى الأمر، وسوف يقع ما أخبرتكما به سواء كذبتماني أم صدقتماني. ومن حرص يوسف على الخروج من السجن قال لساقي فرعون: اذكر قصّتي عند فرعون علّه يأمر بخروجي من السجن، لكن الساقي نسي الأمر، وظل يوسف في السجن بضع سنين بعدها. وكان ذلك امتحانا من الله ليوسف لأنّه طلب العون من غيره.

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف].

حلم فرعون

رأى فرعون في منامه سبع بقرات عجفاوات ضامرة الجلد؛ تفترسن سبع بقرات سمان وتأكلهن، وسبع سنبلات يابسات تلتففن على سبع سنبلات خُضر وتعتصرهُنّ. طلب الملك من مستشاريه وكهّانه أن يفسروا له رؤياه، فكان جوابهم أن ما رآه لا تفسير له وما هي إلا رؤى مختلطة لا رابط بينها. ولما رأى ساقي الملك الذي فسر له يوسف حلمه ما هم فيه من حيرة، تذكّر يوسف فقال للملك: أنا أعرف من يُفسّره لك؛ فاسمح لي أن أذهب إليه في سجنه لأعرف منه تفسير رؤياك، فسمح له الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف].

يوسف يُفسّر حلم فرعون

ولمّا قابل ساقي فرعون؛ يوسف قال له أيها الصِدِّيق هل تستطيع أن تفسّر لي رؤيا الملك كي أرجع إليه لعله يطمئن وتهدأ نفسه؟ وقص رؤيا الملك على يوسف، فقال له يوسف البقرات السمان والسنبلات الخضر هن سبع سنوات رخاء، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات هن سبع سنين شدّة، وأنا أنصح لكم بأن توفِّروا من سنوات الرخاء لسنين الشدة؛ حتى تنتهي فترة الامتحان هذه ويأتي الرخاء.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف].

أُعْجِب الملك بفطنة يوسف وحكمته، وأرسل من يأتي به من السجن لمقابلته، لكن يوسف قال لرسول الملك اطلب منه أن يتحرّى عن قصته مع امرأة العزيز، ويسأل النسوة اللاتي قطّعن أيديهن لمّا رأينه. جمعهُنّ الملك وسألهن عن خبر يوسف فقلن للملك والله ما عرفنا عنه سوء الخلق، وقالت امرأة العزيز لم يعد هناك مجال للإنكار، أنا من طلب منه ارتكاب الفاحشة لكنه أبى واستعصم، وهو بريء. عندها هدأت نفس يوسف، واطمأن أن أُعلنت براءته، وأن سيِّده قد تأكّد أنه لم يخنه في غيبته.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [يوسف].

يوسف يتولى أمر خراج مصر

أرسل الملك من يأتي بيوسف من السجن، فاغتسل، وألبسوه ملابس مناسبة لمقابلة الملك، ولما مثُل بين يدي الملك، قال له الملك سوف تكون لك مكانة عظيمة بيننا، وستكون مؤتمنًا على كلٍّ أمورنا؛ فماذا ترى؟ قال يوسف: أعطني مسئولية خراج الأرض والتصرُّف في نتاجها وسترى مني أمانة عليها وحكمة في تدبيرها إن شاء الله.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾ [يوسف].

وبدّل الله حال يوسف، من ذل العبودية والسجن، إلى أعلى المناصب لدى فرعون، وأعطاه فرعون من الصلاحيات ما جعله الآمر الناهي في كل أمور مصر؛ أغنى أرض الله في حينها. ويقال أنه تزوّج امرأة العزيز بعد موت زوجها؛ فوجدها عذراء، وولدت له ولدين.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾ [يوسف].

إخوة يوسف في مصر

عمّت المجاعةُ أرض كنعان، فأرسل يعقوب أبناءه إلى مصر ليبتاعوا القمح بعد أن سمعوا أن عزيز مصر يُعطي الطعام بثمنه لمن يحتاجه ولا يمنعه عن أحد. ودخل إخوة يوسف عليه يسألونه أن يبيعهم القمح؛ فعرفهم لكنهم لم يعرفونه لتغيُّر هيأته منذ أن رموا به في البئر.

ومن أجل أن يطمئن على أبيه وعلى أخيه بنيامين، تعمّد أن يستفزّهم ليعرف منهم ما يريد أن يعرفه، فقال لهم: لماذا أتيتم إلى بلادنا؟ قالوا: من

أجل الميرة (الطعام). قال لا أظنكم إلا عيونا علينا أرسلكم أعداؤنا للتجسس علينا. قالوا: بل نحن أبناء رجل واحد هو يعقوب نبي الله. فقال يوسف وهل له أولاد غيركم؟ قالوا: أخ لنا هلك في البرية، وشقيقه لا يفرّط أبوه فيه أبدا.

ولما اطمأن على أبيه وعلى أخيه، أكرمهم وأنزلهم في ضيافته حتى يُجهِّزوا لهم حاجياتهم. وأمر يوسف غلمانه أن يجهّزوهم بالطعام الذي طلبوه، وأن يضعوا الدراهم التي دفعوها ثمنا لبضاعتهم في رحالهم زيادة في إكرامهم وتشجيعا لهم على العودة مرة أخرى.

وعند توديعهم قال لهم يوسف: في المرة القادمة أحضروا معكم أخاكم الأصغر، وسوف أزيد لكم في الكيل، وأكرم وفادتكم، ولأتأكد من أنكم صدقتموني، وإن لم تأتوني به فلا ترجعوا إلي تجنُّبا للأذى الذي سوف ينالكم مني. قالوا: سوف نعمل جهدنا مع أبينا لعلّه يوافق على أن يرسله معنا.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾ [يوسف].

ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم، فحكوا له قصتهم مع العزيز، وتهديده لهم بأن لا يبيعهم الطعام في المرة القادمة إذا لم يأتوا بأخيهم الأصغر معهم، وطلبوا منه أن يرسله معهم ليزدادوا حمولة بعير، وتعهّدوا له بأنهم سوف يحفظونه ولا يفرِّطون فيه. لم يكن يعقوب قد نسي أبدا ما حصل ليوسف من قبل؛ فقال لهم: لن آمنكم عليه فيحصل له ما حصل لأخيه، وأسأل الله أن يحفظه من كل سوء.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ [يوسف].

ولمّا فتحوا رحالهم، وجدوا الطعـام الذي اشتروه والدراهم التي دفعوها ثمنا له، فأسرعوا إلى أبيهم فرحين، وأخبروه بما وجدوا، وأعادوا طلبهم إليه أن يرسل مـعـهم أخاهم بـنيامين مـن أجل أن يأتوا بالمزيد من الطعـام الذي يحتاجه أهليهم؛ مؤكّدين له أنهم لن يضيّعوا أخاهم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾ [يوسف].

ولمّا لم يجد يعقـوب مهربا من إلحاحهم، قـال لهم لن أرسله معكم إلا إذا أقسمتم بالله أن تأتوا به سليما معافى؛ إلا أن يحدث لكم ما لا طاقة لكم به. أقـسمـوا له أن يأتوا به، وأشهـدوا الله على ذلك؛ فـوافق. وعند توديع يعقوب لأبنائه أوصـاهم أن لا يدخلوا مصر جميعا من بـاب واحد خوفا منه عليهم من الحسد؛ فقد كانوا أحد عشر رجلا.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ [يوسف].

حيلة كأس الملك

لمّا دخلوا على يوسف ومـعهم أخاهم بنيـامين؛ فرح جـدا. وفي غفلة منهم ضمّ إليه أخاه وعرّفه بنفسـه، وطلب منه أن لا يخبرهم بالأمر، وطمأنه بأنه سوف يحـتال ليـبقيـه معه ولا يفـارقه. ولما انتهى غلـمانُه من تجهـيزهم للرحيل، أمر أحدهَم أن يضع السقاية (كأس ثمين كان يشرب فيه يوسف) في رحل أخيـه بنيامين، ومـا إن شرعوا فـي الرحيل حتى أمـر يوسف من ينادي فيـهم أنهم سارقون. اندهشـوا وأقبلوا عليـهم مذعورين وهم يقـولون: ماذا سرقنا؟ قـالوا سرقتم كأس الملك، ومن يـأت به سوف نعطيه حمل بعـير من

الطعام. قال إخوة يوسف والله ما جئنا هذه البلاد لنسرق وما سرقنا قط. قال غلمان يوسف: فإن وجدنا الكأس في متاع أحدكم فما هو جزاؤه؟ قال إخوة يوسف جزاؤه أن يؤخذ عبدا جزاء سرقته (كانت تلك شرعة آل يعقوب وآل فرعون).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)﴾ [يوسف].

قام يوسف بالتفتيش بنفسه، فبدأ بأوعية إخوته وانتهى بوعاء أخيه، واستخرج الكأس من وعاء أخيه. ولما وجد إخوة يوسف أن الكأس المسروقة قد وُجدت في وعاء بنيامين قالوا ليوسف: لا نستبعد منه ذلك لأن أخاه فعلها من قبل. اتهموا يوسف بالسرقة في وجهه وعلى مسمع منه، فكظم غيظه وقال في نفسه: أنتم أسوأ مما توقعت، والله أعلم بما تتقوّلونه علي. وتم ليوسف ما أراده؛ فقد أخذ أخاه كعبد للملك ليكون في مَعيَّته.

﴿بَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ [يوسف].

حاول إخوة يوسف أن يسترحموه ليعفو عنه، أو أن يأخذ أحدَهم مكانه؛ رحمة بأبيه الشيخ الذي لا يستطيع أن يتحمّل وقع الخبر، فكان ردّه عليهم؛ ليس من العدل أن نترك الجاني، ونعاقب غيره؛ فنكون من المعتدين.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾ [يوسف].

ولما يئسوا من تخليص أخيهم من سلطة العزيز، تنحّوا جانبا يتناجون في أمرهم، فقال أخوهم الأكبر: ماذا نفعل مع أبينا الذي عاهدناه أن نعود بأخينا، لا بد وأن يصدُق ظنُّه بنا بسبب ما فعلناه من قبل مع يوسف، لن أغادر هذه البلاد حتى يأذن لي أبي، أو يحكم الله في أمري وهو خير الحاكمين. وقال لهم: ارجعوا إلى أبيكم وأخبروه بما حصل، وأقسموا له أنكم صادقون، وأخبروه أن لو كنّا نعلم أنه يسرق ما جئنا به.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١)﴾ [يوسف].

ورجعوا إلى أبيهم من غير أخيهما الأكبر والأصغر، وأخبروه بما حدث لهم، وأقسموا له بكل الأيمان أنهم صادقون، وطلبوا منه أن يسأل أهل مصر الذين شهدوا ما حصل، وأن يسأل رجال القافلة التي أتوا معها إن لم يُصدِّقهم. قال يعقوب إن نفوسكم الخبيثة قد زيّنت لكم أمرا، وأسأل الله أن يلهمني الصبر، وأن يأتيني بهم جميعا؛ فهو القادر على كل شيء.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [يوسف].

تجدّد حزن يعقوب على يوسف، واشتدت لوعته لفراق ابنيه الأخريين، وابيضّت عيناه من الحزن فلا يُرى فيهما سواد. وكان يكظم غيظه فلا يظهره لأحد ممّن حوله. لكن مظهره كان يفضحه من شدّة ما يعانيه؛ فيقولون له رفقا بنفسك حتى لا تهلك من طول المعاناة، وتكون نهايتك الموت كمدا.

وكان يقول لهم إن شكواي لله وحـده، وإني أعلم من الله ما لا تعلمونه أنتم (كـان الله قد أوحى إليـه أن رؤية يوسف صـادقـة؛ لذلك كان واثقـا من أن يوسف حي).

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ [يوسف].

دفعت قناعة يعـقوب أن يوسف حي إلى أن يطلب من أبنائه أن يعودوا إلى مصر يتـحسّسون الأخـبار لعلّهم يعثرون على أخويـهم، ونصحهم أن لا ييأسـوا من رحمة الله. ورحلوا إلى مـصر كمـا أمرهم أبوهم، ودخلوا على يوسف خاضعين مـتوسّلين، وشكوا إليه ما أصابهم من شـدة بسبب القحط، وسألوه أن يعطيهم الطعـام مقابل بضاعة بائرة أحضروها مـعهم، وأن يتصدّق عليهم بما يزيد عن قيمتها لأنهم تركوا أهلهم جوعى.

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)﴾ [يوسف].

يوسف يعاتب إخوته

عندها تحرّكت مـشاعـر الأُخوة في قلب يوسف، وتوجّه إلـيهم معـاتبا أتذكرون ما فعلتم بأخيكم يوسف ببيعه بأبخس الأثمان، وما فعلتم بأخيه من بعده من ظلم واضطهاد؟ فنطقوا في صـوت واحد: أنت يوسف، فقال: نعم أنا يوسف، وهذا أخي قد أنعم الله علينا وجمع شملنا. فقالوا في ذلة: والله لقد فضّلك الله علينا وآتاك من الملك ما تستـحقه، وقد أخطأنا في حقك وما كان لنا أن نفعل ما فعلناه معك. فقال يوسف لا لوم عليكم اليوم، وأرجو أن يغفر الله لكم ويرحمكم برحمته.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف].

أمر يوسف بتجهيز إخوته للرجوع إلى أرض كنعان لنقل البُشرى إلى أبيه، وأعطاهم قميصا له، وأمرهم أن يلقوه على وجه أبيه ليعود إليه بصره بإذن الله، وأمرهم أن يأتوا جميعا إلى مصر بأهليهم وكل ما يملكون ليعيشوا بجواره. وما إن خرجت قافلتهم من حدود مصر متجهة إلى أرض كنعان؛ حتى تهلل يعقوب وقال لمن حوله: إنني أشتمُّ في أنفي رائحة يوسف حتى لو لم تصدقوني فأنا موقن من أنه قادم إلينا، فقالوا ساخرين: إن فرط حبك ليوسف هو الذي يجعلك تتوهم قرب لقياه. وما هي إلا أيام قليلة حتى وصلت القافلة وأسرع من يحمل القميص من أبناء يعقوب إلى أبيه فألقاه على وجهه فعاد إليه بصره. نظر يعقوب محدّقا فيمن حوله وقال: لم تصدّقوني عندما كنت أقول أن يوسف حي؛ كان ذلك مما أعلمني به الله من قبل وقد وتحقّق. وغمرت الفرحةُ الجميع، وقال أبناء يعقوب لأبيهم: يا أبانا اغفر لنا ذنوبنا، واعف عن خطايانا إنا كنا خاطئين، فقال أبوهم: سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾ [يوسف].

لقاء يعقوب ويوسف

أمر يعقوب أبناءه أن يستعدّوا للسفر إلى مصر فقد اشتاقت نفسُه إلى يوسف، وجمع أبناؤه كل حاجياتهم ومواشيهم، وحزموا أمتعتهم، وودّعوا أرضهم وديارهم منطلقين إلى أرض جديدة ووطن جديد لهم فيه سند وعزوة. استقبلهم يوسف بترحاب منقطع النظير، وضم أبويه إلى صدره قائلا لهم أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ثم أجلسهما على سريره ليكونا بجانبه فخروا له ساجدين تحية إجلال وتقدير وكذلك فعل إخوته. عندها قال لأبيه: يا أبتاه، الحمد لله فقد تحققت رؤياي التي قصصتُها عليك من قبل، ونجّاني الله من السجن، وجمعني بإخوتي بعد أن أفسد الشيطان بيني وبينهم. وأنزلهم يوسف منزلا كريما، وأعطاهم الأرض لرعي ماشيتهم، والدور لسكناهم، وأنعم عليهم الملك بعظيم النعم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف].

تعقيب

اتهام أبناء يعقوب لأبيهم بأنّه يحب يوسف أكثر منهم، واتهامهم ليوسف بأنه ينقل كل أخبارهم إلى أبيه؛ اتهامات لا تليق بحق نبيّين من أنبياء الله.

تقول التوراة أن يعقوب أرسل يوسف لاستقصاء أخبار إخوته، ومن ثم قرّروا التخلّص منه؛ وكأن خاطر القتل قد راودهم فجأة لدى رؤيتهم له. وهذا يتناقض مع ما ذكره القرآن من أن إخوة يوسف طلبوا من أبيهم أن يرسله معهم يرتع ويلعب؛ وهم يضمرون له الشر، وأن أباهم وافق بعد إلحاح كبير منهم، ومن ثم عمدوا إلى التخلّص منه بإلقائه في البئر، ثم عادوا إلى أبيهم وقالوا له أن الذئب قد أكله.

وزاد القرآن فأخبرنا أن الله قد ربط على قلب يوسف؛ فلم يجزع، وأوحى إليه أنه سيخرج من البئر سالما، وسوف يأتي اليوم الذي يحاسبهم فيه على ما فعلوه به؛ وهذا قد تحقق فعلا.

وتذكر التوراة أن إخوة يوسف قد ألقوا به في البئر، ثم أخرجوه من البئر، وباعوه لقافلة من الإسماعيليين. والتوراة هنا تحاول إضفاء بعض من صفات الرحمة على إخوته من ناحيته، لكن مجرد تفكيرهم في التخلص منه، ينزع عنهم كل صفة من صفات الرحمة. أما القرآن فيقول أنّهم لمّا ألقوا به في البئر، وعثرت عليه القافلة وأخرجه واردهم من البئر، سارعوا إليهم يدّعون أنه عبد لهم مارق من خدمتهم، وأنهم سوف يتركونه لهم مقابل قليل من الدراهم يدفعونها لهم؛ أي أنهم طلبوا ثمنا له ممن استخرجه من البئر، ولم يقوموا هم بإخراجه كما تقول التوراة.

ويقول القرآن عن إخوة يوسف أنهم قالوا عند اكتشاف كأس الملك في عدل بنيامين : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل؛ يقصدون يوسف وهم لا يعرفون أنه هو. وهذه الإشارة لم يرد ذكرها في التوراة.

وتقول التوراة عن قصة يوسف مع زوجة العزيز، أنها حاولت حمله على أن يفعل الفاحشة معها لكنه أبى وهرب من أمامها تاركا قميصه في يدها. ولمّا عاد زوجها وقصّت عليه القصة، أمر بالزج به في السجن. لكن القرآن يقول أن أحد أهل البيت حكم ببراءة يوسف لما رأى قميصه الذي يلبسه قد تمزّق من الخلف بسبب جذبها له، وأن زوجها قد رجاه أن يكتم الأمر ولا يذيعه تجنُّبا للفضيحة. ولما انتشر الخبر في المدينة، أمروا بسجنه لإسكات ألسنة الناس.

أما حلمي فرعون، وتفسير يوسف لهما؛ فلا كبير خلاف بين التوراة والقرآن فيما ورد بشأنهما؛ حتى تمّ تولية يوسف أمور مصر. وكذلك قصة لقاء يوسف بإخوته، وحيلة الكأس الفضية؛ فإنها تتشابه في كل من التوراة والقرآن.

إن سياسة يوسف الزراعية في مصر، والعمل على تكريس سلطة فرعون على البلاد وعلى رقاب العباد، وتحويل الناس جميعا إلى عبيد لفرعون؛ تتصف بالقسوة الشديدة، والظلم الفادح الذي لا يتمشّى مع طبيعة يوسف النبي.

قدّم القرآن يوسف على أنه نبي من أنبياء الله؛ بدليل أنه في السجن وقبل تفسيره لحلمي الرجلين، دعاهما لعبادة الله الواحد الأحد. ولم ترتق التوراة بيوسف إلى هذه المنزلة العظيمة، بل قدمته كإنسان متسلِّط؛ بدليل دأبه على تكريس سلطة فرعون وإخضاع الناس لسلطانه.

ذكر القرآن أن الله كان قد أوحى إلى يعقوب بصدق رؤية يوسف، من أجل ذلك كان مطمئنا إلى أنه حيّ، وأن الله سوف يجمعه به قبل موته تحقيقا لتلك الرؤية، لكن التوراة نفت عن يعقوب أي وحي أو إلهام فيما يتعلق بواقعة غياب يوسف.

الفصل
الحادي عشر

موسى

موسى في التوراة
استعباد بني إسرائيل وقتل ذكورهم

بعد موت يوسف بفترة من الزمن، وقيام ملك جديد بأمر مصر لم يكن متعاطفا مع بني إسرائيل، بل كان يرى فيهم قوّة مناوئة لسلطته وكان تكاثرهم وتناميهم يؤرّقانه، فقرّر أن يستعبدهم ويسخّرهم لمصلحته. ورغم حياة السخرة التي كانوا يحيونها، فقد كان تكاثرهم يُمثّل قلقا كبيرا للمصريين، وكان يدفع المصريين إلى مزيد من الاضطهاد والتسخير لهم.

استعباد بني إسرائيل

٨وَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. ٩فَقَالَ
لِشَعْبِهِ: «هَا بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْثَرُ مِنَّا وَأَعْظَمُ قُوَّةً. ١٠فَلْنَتَآمَرْ عَلَيْهِمْ لِكَيْلاَ
يَتَكَاثَرُوا وَيَنْضَمُّوا إِلَى أَعْدَائِنَا إِذَا نَشَبَ قِتَالٌ وَيُحَارِبُونَا ثُمَّ يَخْرُجُوا مِنَ
الأَرْضِ». ١١فَعَهِدُوا بِهِمْ إِلَى مُشْرِفِينَ عُتَاةٍ لِيُسَخِّرُوهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ. فَبَنَوْا
مَدِينَتَيْ فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ لِتَكُونَا مَخَازِنَ لِفِرْعَوْنَ. ١٢وَلَكِنْ كُلَّمَا زَادُوا مِنْ
إِذْلاَلِهِمْ، ازْدَادَ تَكَاثُرُهُمْ وَنُمُوُّهُمْ، فَتَخَوَّفُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٣فَتَفَاقَمَ عُنْفُ
اسْتِعْبَادِ الْمِصْرِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. ١٤وَأَتْعَسُوا حَيَاتَهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ فِي الطِّينِ
وَاللَّبِنِ كَادِحِينَ فِي الْحُقُولِ. وَسَخَّرَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ بِعُنْفٍ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمِ
الشَّاقَّةِ(١).

ولم تقف سياسة العداء لبني إسرائيل في مصر عند حدّ التسخير، بل تعدّتها إلى ما هو أكبر من ذلك، فقد عمل المصريون على الحدّ من تكاثرهم؛ بأن أصدر ملك مصر أمره إلى كل قابلة تشرف على توليد النساء العبرانيات (الإسرائيليات) بأن تقتل المولود إذا كان ذكرا، وتستبقي الإناث. ولم يكن أمر فرعون يُنفّذ دائما؛ بسبب أن معظم القابلات كنّ من العبرانيات، مما أدى إلى استمرار تكاثرهم وتعاظم خطرهم؛ مما حدا بفرعون أن يُصدر أمره بأن يُطرح كل ابن يولد من أبناء العبرانيين في النهر.

(١) سفر الخروج - ١.

١٥ثُمَّ قَالَ مَلِكُ مِصْرَ لِلْقَابِلَتَيْنِ الْعِبْرَانِيَّتَيْنِ الْمَدْعُوَّتَيْنِ شِفْرَةَ وَفُوعَةَ: ١٦«عِنْدَمَا تُشْرِفَانِ عَلَى تَوْلِيدِ النِّسَاءِ الْعِبْرَانِيَّاتِ رَاقِبَاهُنَّ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلادَةِ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْلُودُ صَبِيّاً فَاقْتُلاهُ، وَإِنْ كَانَ بِنْتاً فَاتْرُكَاهَا تَحْيَا. ١٧غَيْرَ أَنَّ الْقَابِلَتَيْنِ كَانَتَا تَخَافَانِ اللهَ فَلَمْ تُنَفِّذَا أَمْرَ الْمَلِكِ فَاسْتَحْيَتَا الأَطْفَالَ الذُّكُورَ. . . . . ٢٠وَتَكَاثَرَ الشَّعْبُ وَعَظُمَ جِدّاً. . . . . ٢٢ثُمَّ أَصْدَرَ فِرْعَوْنُ أَمْرَهُ لِجَمِيعِ شَعْبِهِ قَائِلاً: «اطْرَحُوا كُلَّ ابْنٍ (عِبْرَانِيٍّ) يُولَدُ فِي النَّهْرِ، أَمَّا الْبَنَاتُ فَاسْتَحْيُوهُنَّ»[1].

ولادة موسى وطرحه في النهر

ولمّا وُلد موسى خبّأته أمه عن العيون ثلاثة شهور. ولمّا خافت عليه من عيون فرعون، وضعته في سفط (تابوت) من ورق البرْدي، ووضعت السفط على ضفة النهر بين نباتات الحلفاء التي تنمو على شاطئ النهر، وطلبت من أخته أن تراقبه من بعيد لترى ماذا سيحدث له.

٢- ولادة موسى

وَتَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْتِ لاَوِي فَتَاةً ابْنَةَ لاَوِي. ٢فَحَمَلَتِ الْمَرْأَةُ وَأَنْجَبَتِ ابْناً، وَإِذْ رَاقَهَا جَمَالُهُ خَبَّأَتْهُ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ. ٣وَلَمَّا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُخْفِيَهُ بَعْدُ، أَتَتْ بِسَفَطٍ مِنَ الْبَرْدِيِّ وَطَلَتْهُ بِالْحُمَرِ وَالزِّفْتِ وَأَضْجَعَتِ الطِّفْلَ وَوَضَعَتْهُ بَيْنَ الْحَلْفَاءِ عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ. ٤وَوَقَفَتْ أُخْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ لِتَرَى مَا يَحْدُثُ لَهُ[2].

انتشال موسى وتبنّي ابنة فرعون له

ولمّا أقبلت ابنة فرعون لتستحم في النهر رأت السفط، فأرسلت وصيفتها لتأتي به. ولمّا فتحته ووجدت فيه طفلا يبكي رقّت لحاله، وقالت لا بد أنه من أولاد العبرانيين خافت أمه عليه فأخفته بهذه الطريقة. وأظهرت أخته نفسها لها، وسألتها إن كانت تريد له مرضعة من العبرانيات لترضعه حتى يكُف عن

(١) سفر الخروج - ١.   (٢) سفر الخروج - ٢.

البكاء، فوافقت ابنة فرعون على الفور، وذهبت أختُه إلى أمها وأحضرتها لترضعه. ولما جاءت قالت لها ابنة فرعون خذي الطفل وأرضعيه حتى يكبر وسوف أعطيك أجرتك. وأخذته أمه لتُرضعه، ولما كبر ردته إلى ابنة فرعون حسب الاتفاق بينهما. فأخذته ابنة فرعون وجعلته ابنا لها وأسمته موسى.

إنقاذ موسى

٥وَأَقْبَلَت ابْنَةُ فِرْعَوْنَ لِتَسْتَحِمَّ فِي النَّهْرِ، بَيْنَمَا رَاحَتْ وَصِيفَاتُهَا تَتَمَشَّيْنَ عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ. فَرَأَت السَّفَطَ بَيْنَ الْحُلْفَاءِ فَأَرْسَلَتْ وَصِيفَتَهَا لِتَأْتِيَ بِه. ٦فَفَتَحَتْهُ وَرَأَت الطِّفْلَ وَإِذَا هُوَ يَبْكِي، فَرَقَّتْ لَهُ وَقَالَتْ: «هَذَا مِنْ أَوْلاَدِ الْعِبْرَانِيِّينَ» ٧فَقَالَتْ أُخْتُهُ لاِبْنَةِ فِرْعَوْنَ: «هَلْ أَذْهَبُ وَأَدْعُو لَكِ مُرْضِعَةً مِنَ الْعِبْرَانِيَّاتِ لِتُرْضِعَ لَكِ الْوَلَدَ؟» ٨فَأَجَابَتْهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: «اذْهَبِي»؛ فَمَضَت الْفَتَاةُ وَدَعَتْ أُمَّ الصَّبِيِّ. ٩فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: «خُذِي هَذَا الصَّبِيَّ وَأَرْضِعِيهِ لِي، وَأَنَا أُعْطِيكِ أُجْرَتَكِ». فَأَخَذَت الْمَرْأَةُ الصَّبِيَّ وَأَرْضَعَتْهُ. ١٠وَلَمَّا كَبُرَ الْوَلَدُ، رَدَّتْهُ إِلَى ابْنَةِ فِرْعَوْنَ فَتَبَنَّتْهُ وَدَعَتْهُ مُوسَى (وَمَعْنَاهُ مُنْتَشَلٌ) قَائِلَةً: «إِنِّي انْتَشَلْتُهُ مِنَ الْمَاءِ»(١).

جريمة موسى وهروبه

ترعرع موسى وكبر في بيت فرعون، ولم تُنْسه تربيته في بيت فرعون أصلَه العبراني؛ فكان يتعاطف مع العبرانيين، ويرغب دائما في أن يطمئن على أحوالهم. وذات يوم رأى موسى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا، فغلى الدم في عروقه، وتلفّت حوله؛ ولما لم يجد أحدا يمكن أن يراه، قتل المصري، وطمره (دفنه) في الرمل.

جريمة موسى وهربه

١١وَحَدَثَ بَعْدَ أَنْ كَبُرَ مُوسَى أَنَّهُ ذَهَبَ لِيَفْتَقِدَ إِخْوَتَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ وَيَشْهَدَ مَشَقَّتَهُمْ، فَلَمَحَ رَجُلاً مِصْرِيّاً يَضْرِبُ رَجُلاً عِبْرَانِيّاً، ١٢فَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ، وَإِذْ لَمْ يَجِدْ أَحَداً هُنَاكَ قَتَلَ الْمِصْرِيَّ وَطَمَرَهُ فِي الرَّمْلِ(٢).

(١) (٢) سفر الخروج - ٢.

وفي اليوم التالي رأى موسى رجلاين عبرانيابن يتضاربان، فتدّخل ليفصل بينهما، وسأل المعتدي لماذا تضرب صاحبك؟ فرد عليه بجفاء وقال له ما شأنك أنت؟ أم تريد أن تقتلني كما قتلت المصري بالأمس؟

جريمة موسى وهربه

..... ١٣ثُمَّ خَرَجَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَإِذَا رَجُلاَنِ عِبْرَانِيَّانِ يَتَضَارَبَانِ، فَقَالَ لِلْمُسِيءِ: «لِمَاذَا تَضْرِبُ صَاحِبَكَ؟» ١٤فَأَجَابَهُ: «مَنْ أَقَامَكَ رَئِيساً وَقَاضِياً عَلَيْنَا؟ أَعَازِمٌ أَنْتَ عَلَى قَتْلِي كَمَا قَتَلْتَ الْمِصْرِيَّ؟» فَخَافَ مُوسَى وَقَالَ: «حَقّاً إِنَّ الْخَبَرَ قَدْ ذَاعَ»(١).

أدرك موسى أن الخبر قد ذاع، ولا بد قد وصل إلى مسامع فرعون؛ فخاف على نفسه من القتل، وأسرع بالفرار من المدينة؛ هائما على وجهه في الصحراء حتى وصل إلى أرض مدين. وعند بئر الماء جلس ليستريح ويلتقط أنفاسه.

جريمة موسى وهربه

..... ١٥وَبَلَغَ الْخَبَرُ مَسْمَعَ فِرْعَوْنَ، فَسَعَى إِلَى قَتْلِ مُوسَى، إِلاَّ أَنَّ مُوسَى هَرَبَ مِنْ وَجْهِ فِرْعَوْنَ، وَمَضَى لِيُقِيمَ فِي أَرْضِ مِدْيَانَ، فَبَلَغَهَا وَجَلَسَ عِنْدَ الْبِئْرِ(٢).

موسى في مديان

أقبلت سبعُ فتيات إلى البئر ليسقين الغنم، ولم يستطيعا سقي غنمهنّ لأن الرعاة أبعدوهن عن البئر ليسقوا هم غنمهم أولا. عندها ثارت حميّة موسى من أجلهن، فقام وسقى لهن قبل كل الرعاة؛ ولم يجرؤ أحد على أن يتصدّى له. ولمّا رجعت الفتيات إلى أبيهن مبكرات على غير العادة، سألهنّ عن السبب، فأخبرنه بقصة الرجل المصري الذي سقى لهنّ، فأمر الرجل بناته أن يدعونه للطعام؛ شكرا له على حسن صنيعه بهن.

(١) (٢) سفر الخروج - ٢.

١٦وَكَانَ لِكَاهِنِ مِدْيَانَ سَبْعُ فَتَيَات فَأَقْبَلْنَ وَاسْتَقَيْنَ مَاءً وَمَلأْنَ الأَجْرَانَ لِيَسْقِينَ غَنَمَ أَبِيهِنَّ. ١٧فَأَتَى الرُّعَاةُ وَطَرَدُوهُنَّ. غَيْرَ أَنَّ مُوسَى هَبَّ لِنَجْدَتِهِنَّ وَسَقَى غَنَمَهُنَّ. ١٨وَعِنْدَمَا رَجَعَتِ الْفَتَيَاتُ إِلَى رَعُوئِيلَ أَبِيهِنَّ سَأَلَهُنَّ: «مَا بَالُكُنَّ بَكَّرْتُنَّ بِالرُّجُوعِ الْيَوْمَ؟» ١٩فَأَجَبْنَهُ: «رَجُلٌ مِصْرِيٌّ أَنْقَذَنَا مِنْ أَيْدِي الرُّعَاةِ، فَاسْتَقَى لَنَا وَلِغَنَمِنَا أَيْضاً». ٢٠فَسَأَلَهُنَّ: «وَأَيْنَ هُوَ؟ لِمَاذَا تَرَكْتُنَّ الرَّجُلَ؟ ادْعُونَهُ لِيَأْكُلَ طَعَاماً»(١).

ولمّا كان الرجل متقدِّمًا في السن، وليس له من ولد سوى بناته السبع؛ فقد عرض على موسى أن يعيش معه ليخدمه مقابل أن يزوّجه إحدى بناته، فوافق موسى على الفور، وزوّجه الرجل من ابنته صفورة، ورُزِق منها ولدا سمّاه جِرْشُومَ.

. . . . . ٢١وَقَبِلَ مُوسَى أَنْ يُقِيمَ مَعَ الرَّجُلِ الَّذِي زَوَّجَهُ مِنِ ابْنَتِهِ صَفُّورَةَ. ٢٢فَأَنْجَبَتْ لَهُ ابْناً دَعَاهُ جِرْشُومَ (وَمَعْنَاهُ غَرِيبٌ) إِذْ قَالَ: «كُنْتُ نَزِيلاً فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ»(٢).

ومرّت فترة طويلة من الزمن على موسى وهو في خدمة حميّه، ومات في تلك الفترة ملك مصر الذي عاصره موسى. واشتد ظلم المصريين لبني إسرائيل حتى علا صراخهم فوصل إلى مسامع الله. وتذكّر الله ميثاقه لإبراهيم وإسحق ويعقوب فرقّ لحالهم .

٢٣وَبَعْدَ مُرُورِ حِقْبَةٍ طَوِيلَةٍ مَاتَ مَلِكُ مِصْرَ. وَارْتَفَعَ أَنِينُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَصُرَاخُهُمْ مِنْ وَطْأَةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَصَعِدَ إِلَى اللهِ. ٢٤فَأَصْغَى اللهُ إِلَى أَنِينِهِمْ، وَتَذَكَّرَ مِيثَاقَهُ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ. ٢٥وَنَظَرَ اللهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (وَرَقَّ لِحَالِهِمْ)(٣).

(١) (٢) (٣) سفر الخروج - ٢.

تجلّي الرب لموسى

كان مـوسى يرعى غنم حميّه؛ فـقد كانت هذه هي مـهنته عنده. وفي إحـدى جولاته بالغنـم في أقصى الصـحراء، وعـند جبل حُـوريبَ رأى نارا متوهجة وسط عليقة خضراء، فأصابته دهشة عظيمة وهو يتأملها؛ نار مشتعلة وسط خضرة يانعة. دفعه الفضول إلى الاقـتراب من العليقة ليتبيّن الأمر، وإذ به يسمع صـوتا من جهة العليقـة يقول لـه لا تقترب أكـثر، اخلع نعليك من قدميك لأنك تقف على أرض مقدّسة.

٣- ظهور الله لموسى

وأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرْعَى غَنَمَ حَمِيهِ يَـثْرُونَ كَاهِنِ مِدْيَانَ، فَقَادَ الْغَنَمَ إِلَى
مَـا وَرَاءِ الطَّرَفِ الأَقْصَى مِنَ الصَّـحْرَاءِ حَـتَّى جَـاءَ إِلَى حُورِيبَ جَـبَلِ اللهِ.
٢وَهُنَاكَ تَجَلَّى لَهُ مَـلاَكُ الرَّبِّ بِلَهِـيبِ نَارٍ وَسَطَ عُلَّيْـقَـةٍ. فَنَظَرَ مُـوسَى وَإِذَا
بِالْعُلَّيْقَةِ تَتَّقِدُ دُونَ أَنْ تَحْتَرِقَ. ٣فَـقَالَ مُوسَى: «أَمِيلُ الآنَ لأَسْتَطْلِعَ هَذَا الأَمْرَ
الْعَظِيمَ. لِمَاذَا لاَ تَحْـتَـرِقُ الْعُلَّيْـقَةُ؟» ٤وَعِـنْدَمَا رَأَى الرَّبُّ أَنَّ مُـوسَى قَـدْ دَنَا
لِيَسْـتَطْلِعَ الأَمْرَ، نَادَاهُ مِنْ وَسَطِ الْعُلَّـيْقَةِ قَـائِلاً: «مُوسَى». فَـقَالَ: «هَا أَنَا».
٥فَقَالَ: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى هُنَا: اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ
وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ»(١).

استجاب موسى للنداء، وخلع نعليه. عندئذ سمع الصوت يقول له: أنا هو إله آبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأنه قد آن الأوان لإنقاذ بني إسرائيل من اضطهاد شـعب مصر لهم، وإخراجـهم إلى أرض طيّبة رحبـة تفيض لبنا وعسلا، وأنك سوف تكون رسولا من قِبلي إلـى فرعون؛ ليُطلق معك شعبي بني إسرائيل من قيود الذلّ والعبودية.

---

(١) سفر الخروج - ٣.

٦ثُمَّ قَالَ: «أَنَا هُوَ إِلَهُ أَبِيكَ، إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ، وَإِلَهُ إِسْحقَ، وَإِلَهُ يَعْقُوبَ».
عِنْدَئِذٍ غَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ خَوْفاً مِنْ أَنْ يَرَى اللهَ (فَيَمُوتَ). ٧فَقَالَ الرَّبُّ:
«قَدْ شَهِدْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ عُتُوِّ
مُسَخِّرِيهِمْ وأَدْرَكْتُ مُعَانَاتَهُمْ، ٨فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُخْرِجَهُمْ
مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ طَيِّبَةٍ رَحِيبَةٍ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً، . . . . . . ١٠فَهَلُمَّ
الآنَ لأُرْسِلَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَتُخْرِجَ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ. . . . .(١)

وأمر الرب موسى أن يجمع شيوخ بني إسرائيل، وأن يمثلوا أمام فرعون فيبلغوه أن الرب إله العبرانيين يأمرك أن تتركنا نمضي مسيرة ثلاثة أيام في البرية لنعبد الرب إلهنا ونُقدِّم له الذبائح. وأردف الرب قائلا: واعلم يا موسى أنه لن يطلقكم طواعية، ولكني سوف أجري عليه معجزاتي، وأضربهم بالويلات التي لا يقدرون على تحمّلها، وأجعل المصريين يرضون عنكم؛ فتطلب كل امرأة من جارتها أو ضيفتها الجواهر والفضة والثياب فتعطيها لها عن طيب خاطر؛ فتكون غنيمة لكم عند خروجكم.

وعد الله بتحرير بني إسرائيل

١٥وَقَالَ أَيْضاً لِمُوسَى: . . . . . . ١٦اذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ. . . . .
فَتَمْثُلُ أَنْتَ وَشُيُوخُ إِسْرَائِيلَ أَمَامَ مَلِكِ مِصْرَ وَتَقُولُ لَهُ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ
قَدْ تَفَقَّدَنَا، فَدَعْنَا نَمْضِي مَسِيرَةَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْبَرِّيَّةِ وَنُقَدِّمُ ذَبَائِحَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا.
١٩وَلَكِنَّنِي عَالِمٌ أَنَّ مَلِكَ مِصْرَ لَنْ يُطْلِقَكُمْ مَا لَمْ تُرْغِمْهُ يَدٌ قَوِيَّةٌ. ٢٠فَأَمُدُّ
يَدِي وَأَضْرِبُ مِصْرَ بِجَمِيعِ وَيْلاَتِي الَّتِي أَصْنَعُهَا فِيهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ.

(١) سفر الخروج - ٣.

٢١وَأَجْعَلُ هَذَا الشَّـعْبَ يَحْظَى بِرِضَى الْمِصْرِيِّينَ، فَـلاَ تَخْرُجُـونَ فَارِغِينَ حِينَ
تَمْضُونَ، ٢٢بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا أَوْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا جَوَاهِرَ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ
وَثِيَاباً تُلْبِسُونَهَا بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ فَتَغْنَمُونَ ذَلِكَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ»(١).

إعلان الرب عن بعض معجزاته لموسى

ولما أعلن موسى خوفه من أن يكذّبه قومُه، قال له ربُّه ألق هذه العصا التي في يمينك على الأرض، فلما ألقاها تحوّلت إلى حيّة مرعبة. هرب موسى من أمام الحية، فقال له الرب: لا تخف، ومُدّ يدك واقبض عليها من ذيلها. فلما أمسكها من ذيلها كما أمر الرب ارتدّت عصا كما كانت. قال الرب لموسى هذه آيتك لقومك كي يصدقوك.

٤- معجزات برهانية

فَقَالَ مُـوسَى: «مَاذَا إِذَا لَمْ يُصَدِّقُونِي وَلَمْ يَصْـغُوا إِلَيَّ وَقَالُوا: إِنَّ الرَّبَّ
لَمْ يَظْهَـرْ لَكَ؟» ٢فَسَـأَلَهُ الرَّبُّ: «مَا تِلْكَ الَّتِي بِـيَدِكَ؟» فَـأَجَابَ: «عَـصاً».
٣فَقَـالَ: «أَلْقِهَا عَلَى الأَرْضِ». فَـأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّـةٌ، فَهَرَبَ مِنْهَـا مُوسَى.
٤فَقَـالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مُدَّ يَدَكَ وَاقْـبِضْ عَلَيْهَا مِنْ ذَيْلِهَـا». فَمَـدَّ مُوسَى يَدَهُ
وَقَبَـضَ عَلَيْهَـا، فَارْتَدَّتْ عَـصاً فِي يَدِهِ. ٥وَقَـالَ الرَّبُّ: «هَذَا لِكَي يُؤْمِنُوا أَنَّ
الرَّبَّ إِلَهَ آبَائِكُمْ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهَ إِسْحقَ وَإِلَهَ يَعْقُوبَ قَدْ ظَهَرَ لَكَ»(٢).

ثم أمر الرب موسى أن يدخل يده في عبّه ويُخرجها وإذا بيده بيضاء كالثلج، فأمره بردّها إلى عبّه ثانية وإخراجها فعادت مثل باقي جسده. وقال الرب لموسى هذه آية أخرى تؤيّد الآية الأولى. وقال له الرب: إذا لم يصدقوا الآيتين، فاغرف غرفة من ماء النهر ثم اسكبها على الأرض الجافة؛ فيتحول الماء الذي سكبته إلى دم يغطي وجه الأرض.

(١) سفر الخروج - ٣. (٢) سفر الخروج - ٤.

٤- معجزات برهانية

. . . . . ٦ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ أَيْضاً: «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي عُبِّكَ». فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي عُبِّهِ. وَعِنْدَمَا أَخْرَجَهَا إِذَا بِهَا بَرْصَاءُ كَالثَّلْجِ. ٧وَأَمَرَهُ الرَّبُّ: «رُدَّ يَدَكَ إِلَى عُبِّكَ ثَانِيَةً». فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى عُبِّهِ ثَانِيَةً ثُمَّ أَخْرَجَهَا مِنْ عُبِّهِ، وَإِذَا بِهَا قَدْ عَادَتْ مِثْلَ بَاقِي جَسَدِهِ. ٨وَقَالَ الرَّبُّ: «إِذَا لَمْ يُصَدِّقُوكَ، أَوْ يُعِيرُوا الْمُعْجِزَةَ الأُولَى انْتِبَاهَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُصَدِّقُونَ الثَّانِيَةَ. ٩وَإِذَا لَمْ يُصَدِّقُوا هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وَلَمْ يُصْغُوا لِكَلاَمِكَ، فَاغْرِفْ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ وَاسْكُبْهُ عَلَى الأَرْضِ الْجَافَّةِ، فَيَتَحَوَّلَ الْمَاءُ الَّذِي غَرَفْتَهُ مِنَ النَّهْرِ إِلَى دَمٍ فَوْقَ الأَرْضِ»(١).

محاولة موسى التهرب من تبليغ رسالة الرب إلى فرعون

لم يطمئن قلبُ موسى لتلك المعجزات، وخشي أن لا يستطيع إبلاغ رسالة ربه بسبب عيب في لسانه؛ يجعله يتلعثم ولا يتكلم بالسرعة المعتادة كبقية الناس، فاشتكى لربه من هذا العيب، فطمأنه الرب، وأخبره أنه سوف يشفيه من هذه العلّة، فيتكلم بطلاقة، وينطلق لسانه بوحي من الله.

تهرب موسى

١٠فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «اصْغَ يَارَبُّ، أَنَا لَمْ أَكُنْ فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ فَصِيحاً، لاَ فِي الأَمْسِ، وَلاَ مُنْذُ أَنْ خَاطَبْتَ عَبْدَكَ. إِنَّمَا أَنَا بَطِيءُ النُّطْقِ عَيِيُّ اللِّسَانِ». ١١فَقَالَ الرَّبُّ لَهُ: «مَنْ هُوَ بَارِيءُ فَمِ الإِنْسَانِ؟ أَوْ مَنْ يَجْعَلُهُ أَخْرَسَ أَوْ أَصَمَّ أَوْ بَصِيراً أَوْ كَفِيفاً؟ أَلَسْتُ أَنَا الرَّبُّ؟ ١٢فَالآنَ انْطَلِقْ فَأُلَقِّنَ فَمَكَ النُّطْقَ، وَأُعَلِّمَكَ مَاذَا تَقُولُ»(٢).

ورغم كل هذه البراهين والمعجزات التي أيّده الله بها يطلب موسى من الرب أن يرسل غيره لهذه المهمة فيحتدم غضب الرب عليه، ويقول له سوف

---

(١) (٢) سفر الخروج - ٤.

أرسل معك أخاك هارون؛ يكون لك بمثابة فم، وتكون أنت له بمثابة إله. وأخبره الرب أنا أخاه هارون قادم للقائه؛ كي يطمئن قلبه.

تهرب موسى

. . . . . ١٣لكِنَّ مُوسَى أَجَابَ: «يَا سَيِّدُ، أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُرْسِلَ مَنْ تَشَاءُ غَيْرِي». ١٤فَاحْتَدَمَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى مُوسَى وَقَالَ: «أَلَيْسَ هرُونُ اللاَّوِيُّ أَخَاكَ؟ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ يُحْسِنُ الْكَلامَ، وَهَا هُوَ أَيْضاً قَادِمٌ لِلقَائِكَ. وَحَالَمَا يَرَاكَ يَبْتَهِجُ قَلْبُهُ. ١٥فَتُحَدِّثُهُ وَتُلَقِّنُ فَمَهُ الْكَلامَ، فَأُعِينُكُمَا عَلَى الْقَوْلِ، وَأُعَلِّمُكُمَا مَاذَا تَفْعَلانِ، ١٦فَيُخَاطِبُ هُوَ الشَّعْبَ عَنْكَ وَيَكُونُ لَكَ بِمَثَابَةِ فَمٍ وَأَنْتَ تَكُونُ لَهُ بِمَثَابَةِ إِلَهٍ. ١٧وَخُذْ بِيَدِكَ هَذِهِ الْعَصَا لِتَصْنَعَ بِهَا الْمُعْجِزَاتِ»(١).

أمر الربُ موسى أن يرحل من مدين إلى مصر، وأخبره بأن جميع من كانوا يسعون وراءه بسبب جريمته قد ماتوا ولم يبق منهم أحد، فاستأذن موسى من حميّه يثرون أن يتركه يعود إلى أهله للاطمئنان عليهم. لم يعترض حميّه، ودعا له بالسلامة؛ فأخذ امرأته وبنيه وبدأ رحلة العودة إلى مصر.

رحلة العودة

١٨فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى يَثْرُونَ حَمِيهِ وَقَالَ لَهُ: «دَعْنِي أَعُودُ إِلَى قَوْمِي فِي مِصْرَ لأَرَى أَمَا زَالُوا بَعْدُ أَحْيَاءً». فَأَجَابَ يَثْرُونُ مُوسَى: «اذْهَبْ بِسَلامٍ». ١٩وَأَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى فِي مِدْيَانَ: «هَيَّا ارْجِعْ إِلَى مِصْرَ، فَإِنَّهُ قَدْ مَاتَ جَمِيعُ السَّاعِينَ إِلَى الْقَضَاءِ عَلَيْكَ». ٢٠فَأَخَذَ مُوسَى امْرَأَتَهُ وَبَنِيهِ وَأَرْكَبَهُمْ عَلَى الْحَمِيرِ وَمَضَى عَائِداً إِلَى أَرْضِ مِصْرَ. وَأَخَذَ مَعَهُ عَصَا اللهِ أَيْضاً(٢).

وأمر الرب هارون أن يذهب إلى الصحراء لاستقبال موسى؛ فالتقيا عند جبل الرب. وبعد أن تبادلا الأحضان والقبلات، أطلعه موسى على الرسالة التي كلّفه بها الرب، وأخبره بالمعجزات التي سوف يجريها أمام بني إسرائيل

(١) (٢) سفر الخروج - ٤.

ليصدّقـوه. وأمام شيوخ بني إسرائيل، تحدث هارون نيـابة عن موسى، وقام موسى بإجراء المـعجزات التي أرسله الله بها إليـهم؛ فأعلنوا إيمانهم، وانحنوا ساجدين؛ شكرا لله الذي وعد بأن ينقذهم من ذل طال مداه، وهوان فاق كل طاقاتهم على التحمّل.

موسى يجري المعجزات

٢٧وَقَالَ الرَّبُّ لِهَرُونَ: «اذْهَبْ إِلَى الصَّحْرَاءِ لاسْتِقْبَالِ مُوسَى». فَمَضَى
وَالْتَقَاهُ عِنْدَ جَبَلِ الرَّبِّ وَقَبَّلَهُ. ٢٨فَـأَطْلَعَ مُوسَى هَرُونَ عَلَى جَمِيعِ كَلامِ الرَّبِّ
الَّذِي حَمَّلَهُ إِيَّاهُ، وَمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنْ آيَاتٍ، ٢٩ثُمَّ انْطَلَـقَ مُوسَى وَهَرُونُ وَجَمَعَا
كُلَّ شُيُـوخِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ٣٠فَـحَدَّثَهُمْ هَرُونُ بِجَـمِيعِ مَا قَـالَهُ الرَّبُّ لِمُوسَى.
وَأَجْرَى مُوسَى الْمُعْجِزَاتِ أَمَامَهُمْ. ٣١فَآمَنَ الشَّعْبُ. وَعِنْدَمَا سَمِعُوا أَنَّ اللهَ قَدِ
افْتَقَدَهُمْ وَنَظَرَ إِلَى مَذَلَّتِهِمُ انْحَنَوْا سَاجِدِينَ(١).

مواجهة مع فرعون

وذهب موسى وهارون لمواجهـة فرعون وإبلاغه برسـالة الرب إليه، وما إن سُمح لهم بلقائه حتى قالا له: إن الرب إله إسـرائيل يأمرك أن تطلق شعبه بني إسرائيل مسيرة ثلاثة أيام في الصحراء ليقدّموا له الذبائح. وهدّداه بأنه إن لم يفعل ما يأمره به الرب فسوف يعـاقبه الرب بالوباء والأمراض. قال فرعون متعـجبا: ومن هو هذا الرب الذي تتكلّمان عنه؟ دع النـاس في أعمالهم ولا تعطّلهم عن القيام بواجباتهم.

٥- مقابلة موسى لفرعون

وَبَعْدَ ذَلِكَ ذَهَبَ مُوسَى وَهَرُونُ وَقَالاَ لِفِـرْعَوْنَ: «هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ إِلَهُ
إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَحْتَـفِلَ لِي فِي الْبَرِّيَّةِ». ٢فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ
حَتَّى أُطِيعَ أَمْرَهُ وَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ أَنَا لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ وَلَنْ أُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

(١) سفر الخروج - ٤.

٣ثُمَّ قَالاَ: «إِنَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا، فَدَعْنَا نَذْهَبُ مَسِيرَةَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الصَّحْرَاءِ لِنُقَدِّمَ ذَبَائِحَ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا لِئَلاَّ يُعَاقِبَنَا بِوَبَأٍ أَوْ سَيْفٍ». ٤فَقَالَ لَهُمَا مَلِكُ مِصْرَ: «يَامُوسَى وَهَرُونُ، لِمَاذَا تُعَطِّلاَنِ الشَّعْبَ عَنْ أَعْمَالِه؟ ارْجِعُوا إِلَى أَعْمَالِكُمُ الشَّاقَّةِ». ٥ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ: «هُوَذَا شَعْبُ الأَرْضِ قَدْ كَثُرَ الآنَ، وَأَنْتُمَا تُرِيدَانِ أَنْ تُرِيحَاهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ»(١).

عقاب فرعون لبني إسرائيل

بدأ فرعون نهجا أكثر قسوة في تسخير بني إسرائيل؛ فبعد أن كان المصريون يقدّمون لهم التبن الذي يصنعون به الطوب المكلّفون بصناعته، تركوا لهم مهمّة جمع التبن بأنفسهم والالتزام بتقديم نفس كمية الطوب المطلوبة منهم؛ وكان في ذلك مشقة إضافية على بني إسرائيل.

فرعون يعاقب بني إسرائيل

٦فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمَرَ فِرْعَوْنُ الْقَائِمِينَ عَلَى تَسْخِيرِ الشَّعْبِ وَرُؤَسَاءَ الْعُمَّالِ قَائِلاً: ٧«كُفُّوا عَنْ إِعْطَاءِ الشَّعْبِ تِبْناً لِصُنْعِ اللِّبْنِ كَمَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ سَابِقاً، وَلْيَذْهَبُوا هُمْ وَيَجْمَعُوا تِبْناً لأَنْفُسِهِمْ. ٨وَطَالِبُوهُمْ بِإِنْتَاجِ نَفْسِ كَمِّيَّةِ اللِّبْنِ السَّابِقَةِ. لاَ تُنْقِصُوهَا فَإِنَّهُمْ كُسَالَى، لِذَلِكَ يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: دَعْنَا نَذْهَبُ وَنَذْبَحُ لإِلَهِنَا. ٩ثَقِّلُوا الْعَمَلَ عَلَى كَوَاهِلِ الْقَوْمِ حَتَّى يَشْتَغِلُوا بِهِ وَلاَ يَلْتَفِتُوا إِلَى الأَقْوَالِ الْكَاذِبَةِ»...... (٢)

غضب عُمّالُ بني إسرائيل على موسى وهارون بسبب المشقة التي وقعت عليهم بسببهما، وقالوا لهما لقد أسأتما إلينا وأعطيتما فرعون سيفا ليقتلنا به. فرجع موسى إلى ربه يقول له ليتك لم تُرسلني، وليتني لم أخاطب فرعون بما خاطبته به؛ فقد ازداد ظلمه لبني إسرائيل ولم يأبه بتهديداتك له، ولم تتدخل أنت لإنقاذهم.

---

(١) (٢) سفر الخروج - ٥.

غضب رؤساء العمال على موسى وهرون

١٩فَوَجَدَ رُؤَسَاءُ عُمَّالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْفُسَهُمْ فِي وَرْطَةٍ سَيِّئَةٍ بَعْدَ أَنْ قِيلَ
لَهُمْ أَنْتِجُوا مِنْ لِبْنِكُمْ فَرِيضَةَ كُلِّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ. لاَ تُنْقِصُوا مِنْهَا شَيْئاً ٢٠وَصَادَفُوا
مُوسَى وَهَرُونَ وَهُمَا وَاقِفَانِ فِي انْتِظَارِهِمْ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ
٢١فَقَالُوا لَهُمَا: «لِيَنْظُرْ إِلَيْكُمَا الرَّبُّ وَيَقْضِ. لَقَدْ كَرَّهْتُمَا بِنَا فِرْعَوْنَ
وَحَاشِيَتَهُ، وَأَعْطَيْتُمَاهُمْ سَيْفاً فِي أَيْدِيهِمْ لِيَقْتُلُونَا». ٢٢فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ
وَقَالَ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى شَعْبِكَ يَارَبُّ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ ٢٣فَمُنْذُ أَنْ جِئْتُ
لأُخَاطِبَ فِرْعَوْنَ بِاسْمِكَ، أَسَاءَ إِلَى الشَّعْبِ، وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ عَلَى
الإِطْلاَقِ»(١).

وعد الرب بمعاقبة فرعون

أجاب الربُ موسى بأنه سوف يريه ما هو فاعله بفرعون من أجل أن يُطْلقهم، وأمره الرب أن يُبلغ بني إسرائيل أنه سوف يحرّرهم من أثقال العبودية ويتّخذهم شعبا له، ويكون إلها لهم وحدهم، ويقودهم إلى الأرض التي أقسم لآبائهم أن يهبها لهم. ولما أبلغ موسى بني إسرائيل كلام الرب لم يعطوه أذنا صاغية بسبب ما يقاسونه من ذل العبودية، ولاعتقادهم بأن أي قوة مهما عظمت لا يمكن أن تخلّصهم مما هم فيه.

٦- وعد الرب بمعاقبة فرعون

فَأَجَابَ الرَّبُّ مُوسَى: «سَتَرَى الآنَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ بِفِرْعَوْنَ، لأَنَّنِي بِيَدٍ
قَدِيرَةٍ سَأَجْعَلُهُ يُطْلِقُهُمْ، بَلْ يَطْرُدُهُمْ طَرْداً أَيْضاً»...... ٦لِهَذَا قُلْ لِبَنِي
إِسْرَائِيلَ إِنَّنِي أَنَا الرَّبُّ وَأَنَا أُحَرِّرُكُمْ مِنْ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ،
وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَأَحْكَامٍ قَوِيَّةٍ. ٧وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْباً وَأَكُونُ لَكُمْ

(١) سفر الخروج – ٥.

إِلَهاً، فَتَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مُحَرِّرُكُمْ مِنْ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. ٨وَأَقُودُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمْتُ أَنْ أَهَبَهَا لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ لأُعْطِيَهَا لَكُمْ مِلْكاً. أَنَا هُوَ الرَّبُّ»...... (١)

معجزة الحيّة

وقابل موسى وهارون؛ فرعون ثانية، وطلبا منه أن يطلق بني إسرائيل كما أمر الرب. لم يستجب لطلبهما وقال متحديا؛ إن كنتما صادقين في أن ربّكما قادر، فأرياني معجزة تُثبت ذلك. وكما أمر الرب ألقى هارون عصاه على الأرض أمام فرعون وحاشيته فتحوّلت إلى حيّة. ظنّ فرعون أن ذلك ضرب من السحر، فجمع حكماءه وسحرته؛ ليبطلوا السحر الذي أتى به هارون، وألقى سحرة فرعون عصيّهم فتحولت إلى حيات أحاطت بالحية التي تحوّلت من عصا هارون. وكانت المفاجأة المذهلة لفرعون وحاشيته أن حيّة هارون فغرت فاها وابتلعت الحيات الأخرى واحدة واحدة ولم تُبق منها واحدة. ولم تُزد تلك المعجزة قلب فرعون إلا تصلّبا وعنادا.

معجزة الحية

٨وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَرُونَ: ٩«عِنْدَمَا يَطْلُبُ فِرْعَوْنُ مِنْكُمَا قَائِلاً: أَرِيَانِي عَجِيبَةً فَإِنَّكَ تَقُولُ لِهَرُونَ: خُذْ عَصَاكَ وَأَلْقِهَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ فَتَتَحَوَّلَ إِلَى حَيَّةٍ». ١٠فَمَثَلَ هَرُونُ وَمُوسَى أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَفَعَلاَ تَمَاماً حَسَبَ أَمْرِ الرَّبِّ، فَأَلْقَى هَرُونُ عَصَاهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَأَمَامَ حَاشِيَتِهِ فَتَحَوَّلَتْ إِلَى حَيَّةٍ. ١١فَاسْتَدْعَى فِرْعَوْنُ حُكَمَاءَهُ وَسَحَرَتَهُ فَصَنَعَ سَحَرَةُ مِصْرَ عَلَى غِرَارِ ذَلِكَ بِسِحْرِهِمْ. ١٢فَطَرَحَ كُلُّ وَاحِدٍ عَصَاهُ فَتَحَوَّلَتْ إِلَى حَيَّةٍ. غَيْرَ أَنَّ عَصَا هَرُونَ ابْتَلَعَتْ عِصِيَّهُمْ. ١٣لَكِنَّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ ازْدَادَ تَصَلُّباً فَلَمْ يَسْتَمِعْ لَهُمَا، تَمَاماً كَمَا قَالَ الرَّبُّ(٢).

(١) سفر الخروج - ٦.

(٢) سفر الخروج - ٧.

ولّما لم تفلح مع فرعون معجزة الحيّة، أمر الرب موسى أن يذهب للقاء فرعـون عند النهر ومـعه العـصا التي تحـوّلت إلى حيّـة ويطلب منه أن يطلق شعب بني إسـرائيل وإلا فإن الرب سـوف يضربه ضربـة موجعـة، وأمره أن يهدّده بأنه لو ضرب الماء بهذه العصا فسوف يتحول الماء كله إلى دم فيموت ما فيه من السمك، وينتُن ماؤه.

وعيد الرب لفرعون

١٤ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «إِنَّ قَلْبَ فِرْعَـوْنَ قَدْ تَصَلَّبَ، وَهُوَ يَرْفُضُ أَنْ
يُطْلِقَ سَرَاحَ الشَّعْبِ. ١٥فَـامْثُلْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ فِي الْغَـدِ عِنْدَمَا يَخْرُجُ إِلَى الْمَاءِ،
وَقِفْ لِلِقَـائِهِ عِنْدَ ضَفَّـةِ النَّهْرِ، وَخُـذْ بِيَدِكَ الْعَـصَا الَّتِي تَحَـوَّلَتْ إِلَى حَـيَّةٍ،
١٦وَقُلْ لَهُ: إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أَطْلِقْ سَرَاحَ شَعْبِي
لِيَعْـبُدُونِي فِي الصَّـحْرَاءِ. وَهَا أَنْتَ حَتَّى الآنَ لَمْ تَسْـتَمِعْ. ١٧لِهَـذَا إِلَيْكَ مَا
يَقُولُهُ الرَّبُّ: سَتَعْلَمُ بِمَا أُجْـرِيهِ الآنَ أَنَّنِي أَنَا الرَّبُّ. هَا أَنَا ضَارِبٌ بِهَذِهِ الْعَصَا
الَّتِي فِي يَدِي عَلَى مَاءِ النَّهْرِ فَيَتَحَـوَّلُ دَماً. ١٨فَيَمُوتُ السَّمَكُ، وَيَنْتِنُ النَّهْرُ،
فَيَعَافُ الْمِصْرِيُّونَ مِنَ الشُّرْبِ مِنْ مَائِهِ»(١).

ضربـة الـدم

ولّما لم يكتـرث فـرعـون، رفـع هارون العـصـا أمـام أعين فـرعـون والحاضـرين، وضرب مـاء النهر؛ فـتحـول الماء إلى دم، ومات السـمك في النهر، وفاحت منـه رائحة نتنة. لم يكتـرث فرعون للتك المعجزة وذهب إلى قصره غير مكترث.

الضربة الأولى: ضربة الدم

١٩وَخَاطَبَ الرَّبُّ مُـوسَى: «قُلْ لِهَرُونَ: خُذْ عَـصَاكَ وَابْسِطْ يَدَكَ عَلَى
مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ وَعَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى جَدَاوِلِهِمْ وَسَوَاقِيهِمْ وَخَزَّانَاتِ الْمِيَاهِ فَتَتَحَوَّلَ

(١) سفر الخروج – ٧.

كُلُّهَا إِلَى دَمٍ، وَيَكُونُ دَمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى فِي الأَوَانِي الخَشَبِيَّةِ وَالحَجَرِيَّةِ». ٢٠وَهَكَذَا فَعَلَ مُوسَى وَهَرُونُ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ، فَرَفَعَ هَرُونُ الْعَصَا وَضَرَبَ مَاءَ النَّهْرِ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَحَاشِيَتِه فَتَحَوَّلَ كُلُّ مَاءِ النَّهْرِ إِلَى دَمٍ، ٢١وَمَاتَ كُلُّ سَمَكِهِ وَأَنْتَنَ النَّهْرُ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمِصْرِيُّونَ الشُّرْبَ مِنْ مَائِه. . . . . فَتَصَلَّبَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْتَمِعْ إِلَيْهِمَا، تَمَاماً حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ(١).

ومع تحوّل ماء النهر إلى دم، اضطر المصريون أن يحفروا آبارا حول النهر ليحصلوا منها على ماء للشرب. واستمرّت تلك المعجزة سبعة أيام.

تصلب فرعون

٢٣وَانْصَرَفَ فِرْعَوْنُ إِلَى مَنْزِلِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْرُكَ ذَلِكَ أَثَراً فِي قَلْبِه. ٢٤وَحَفَرَ جَمِيعُ الْمِصْرِيِّينَ حُفَراً حَوْلَ النَّهْرِ طَلَباً لِمَاءِ الشُّرْبِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ مَاءِ النَّهْرِ. ٢٥وَانْقَضَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ مُنْذُ أَنْ ضَرَبَ اللهُ مِيَاهَ النَّهْرِ(٢).

ضربة الضفادع

وبعد ضربة الدم، هدّد الرب بضربة أخرى؛ وهي الضفادع، وأمر موسى أن يعلن فرعون بأن الرب سوف يجعل النهر يفيض بالضفادع التي تقتحم عليهم دورهم وأفرانهم ومعاجنهم؛ فلا يستطيعون ردّها لكثرتها. ولما لم يستجب، بسط هارون يده على مياه النهر فأقبلت الضفادع من النهر جماعات جماعات، وانطلقت في كل اتجاه؛ حتى غطّت كل أرض مصر.

---

(١) (٢) سفر الخروج -٧.

٨- الضربة الثانية: صعود الضفادع

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «امْثُلْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ:
أَطْلِقْ سَرَاحَ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. ٢وَإِنْ أَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُمْ فَهَا أَنَا ضَارِبٌ جَمِيعَ
تُخُومِكَ بِالضَّفَادِعِ. ٣فَيَفِيضُ النَّهْرُ بِالضَّفَادِعِ الَّتِي تَصْعَدُ وَتَقْتَحِمُ بَيْتَكَ
وَمُخْدَعَ فِرَاشِكَ وَسَرِيرَكَ وَبُيُوتَ حَاشِيَتِكَ وَشَعْبِكَ وَأَفْرَانَكَ وَمَعَاجِنَكَ.
٤عَلَيْكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى سَائِرِ حَاشِيَتِكَ تَصْعَدُ الضَّفَادِعُ». ٥ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ
لِمُوسَى: «قُلْ لِهَرُونَ أَبْسِطْ يَدَكَ بِعَصَاكَ عَلَى الأَنْهَارِ وَالسَّوَاقِي وَالْبِرَكِ وَأَصْعِدِ
الضَّفَادِعَ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ». ٦فَبَسَطَ هَرُونُ يَدَهُ عَلَى مِيَاهِ مِصْرَ فَأَقْبَلَتِ
الضَّفَادِعُ وَغَطَّتْ أَرْضَ مِصْرَ......(١)

لم يستطع فرعون تحمُّل تلك الضربة، وطلب من موسى أن يتضرّع إلى ربه ليرفع عنه وعن شعبه هذا البلاء؛ ووعد بأنه سوف يطلقهم كما أراد الرب.

وعد بإطلاق الشعب

٨ثُمَّ اسْتَدْعَى فِرْعَوْنُ مُوسَى وَهَرُونَ وَقَالَ: «تَضَرَّعَا إِلَى الرَّبِّ لِيَرْفَعَ
الضَّفَادِعَ عَنِّي وَعَنْ شَعْبِي، فَأُطْلِقَ سَرَاحَ الشَّعْبِ لِيُقَدِّمُوا ذَبَائِحَ لَهُ». ٩فَأَجَابَ
مُوسَى فِرْعَوْنَ: «عَيِّنْ لِي مَتَى أُصَلِّي مِنْ أَجْلِكَ وَمِنْ أَجْلِ عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ،
لِكَيْ تُبَادَ الضَّفَادِعُ عَنْكَ وَعَنْ بُيُوتِكَ، مَا عَدَا تِلْكَ الْبَاقِيَةَ فِي النَّهْرِ». ١٠فَقَالَ
فِرْعَوْنُ: «غَداً». فَأَجَابَهُ مُوسَى: «فَلْيَكُنْ كَقَوْلِكَ، لِتَعْرِفَ أَنَّهُ لاَ مَثِيلَ لِلرَّبِّ
إِلَهِنَا. ١١فَإِنَّ الضَّفَادِعَ سَتَنْسَحِبُ مِنْ حَوْلِكَ وَمِنْ بُيُوتِكَ وَمِنْ حَوْلِ حَاشِيَتِكَ
وَشَعْبِكَ، وَلاَ تَبْقَى إِلاَّ فِي النَّهْرِ»(٢).

ودعا موسى الرب من أجل رفع بلاء الضفادع عن الأرض وبقائها في النهر؛ فانقطعت الضفادع عن البيوت والدور والحقول، وجمعوها أكواما كثيرة حتى أنتنت منها الأرض. ولما رأى فرعون أن البليّة قد انجلت، نكث بوعده ولم يطلقهم.

---

(١) (٢) سفر الخروج - ٨.

١٢وَبَعْدَ أَنِ انْـصَرَفَ مُوسَى وَهَرُونُ مِنْ لَـدُنْ فِرْعَوْنَ صَلَّى مُـوسَى إِلَى
الرَّبِّ مِنْ أَجْلِ الضَّفَـادِعِ الَّتِي أَصْعَدَهَا عَلَى فِـرْعَوْنَ، ١٣فَفَـعَلَ الرَّبُّ حَسَبَ
دُعَاءِ مُوسَى، فَانْقَطَعَتِ الـضَّفَادِعُ مِنَ الْبُيُوتِ وَالدُّورِ وَالْحُقُولِ، ١٤فَـجَمَعُوهَا
أَكْوَاماً كَـثِيرَةً حَتَّى أَنْتَنَتْ مِنْـهَا الأَرْضُ. ١٥وَعِنْدَمَا رَأَى فِرْعَوْنُ أَنَّ الْبَـلِيَّةَ قَدِ
انْقَشَعَتْ، أَغْلَظَ قَلْبَهُ وَلَمْ يَسْتَمِعْ لَهُمَا، تَمَاماً كَمَا قَالَ الرَّبُّ(١).

ضربة البعـوض

وكانت الضربة الثالثة لفرعـون؛ هي البعوض، فقد أمر الرب هارون أن يضرب بعصاه تراب الأرض فيتحول إلى بعوض. وانتشر البعوض حتى غطّى كل شيء من إنسان وحيوان وجماد؛ لكن قلب فرعون ظلّ متحجرا لا يتّعظ.

الضربة الثالثة: غزو البعوض

١٦فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُلْ لِهَرُونَ أَنْ يَبْـسُطَ يَدَهُ بِعَصَاهُ وَيَضْرِبَ تُرَابَ
الأَرْضِ لِيَملأَ الْبَـعُوضُ كُلَّ أَرْجَاءِ مِصْرَ». ١٧وَهكَذَا فَعَـلاَ، إِذْ بَسَطَ هَرُونُ
يَدَهُ بِعَصَـاهُ وَضَـرَبَ تُرَابَ الأَرْضِ، فَانْتَـشَرَ الْبَـعُوضُ عَلَى النَّاسِ وَالْبَـهَائِمِ.
فَصَـارَ كُلُّ تُرَابِ الأَرْضِ بَعُوضاً فِـي جَمِيعِ أَرْجَـاءِ مِصْرَ. ١٨وَكَـذَلِكَ حَاوَلَ
السَّحَرَةُ بِسِـحْرِهِمْ لِيُخْرِجُـوا الْبَعُوضَ فَأَخْفَـقُوا. وَكَانَ الْبَعُوضُ مُـنْتَشِراً عَلَى
النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ. ١٩فَقَالَ السَّحَرَةُ لِفِرْعَوْنَ «هُوَ فِعْلُ اللهِ». وَلَكِنَّ قَلْبَ فِرْعَوْنَ
ظَلَّ مُتَصَلِّباً فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، تَمَاماً كَمَا قَالَ الرَّبُّ(٢).

(١) (٢) سفر الخروج - ٨.

ضربة الذباب

أما الضربة الرابعة فكانت الذباب الذي غطّى كل شيء، وأصاب الأرض بالخراب، والناس بالقنوط.

الضربة الرابعة: أسراب الذباب

٢٠ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْهَضْ مُبَكِّراً فِي الصَّبَاحِ وَقِفْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى الْمَاءِ وَقُلْ لَهُ: هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي.
٢١وَإِنْ لَمْ تُطْلِقْ شَعْبِي فَهَا أَنَا أُرْسِلُ أَسْرَابَ الذُّبَابِ عَلَيْكَ وَعَلَى حَاشِيَتِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى بُيُوتِكَ، فَتَمْتَلِيءُ بُيُوتُ الْمِصْرِيِّينَ بِالذُّبَابِ، وَكَذَلِكَ الأَرْضُ الَّتِي يُقِيمُونَ عَلَيْهَا. . . . . ٢٤وَهكَذَا صَنَعَ الرَّبُّ، فَقَدْ غَزَتْ أَسْرَابٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الذُّبَابِ بَيْتَ فِرْعَوْنَ وَبُيُوتَ حَاشِيَتِهِ، وَكُلَّ أَرْضِ مِصْرَ فَأَصَابَ الذُّبَابُ الأَرْضَ بِالْخَرَابِ(١).

توسل فرعون إلى موسى أن يدعو ربه بأن يرفع عنهم الذباب ووعد بأنه سوف يطلقهم هذه المرة. ودعى موسى الرب فرفع عنهم الذباب لكن فرعون لم يطلقهم كما وعد.

وعد ثانٍ بإطلاق الشعب

٢٨فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «سَأُطْلِقُكُمْ لِتُقَرِّبُوا لِلرَّبِّ إِلهِكُمْ فِي الصَّحْرَاءِ، وَلَكِنْ لاَ تَذْهَبُوا بَعِيداً. صَلِّيَا لأَجْلِي». ٢٩فَأَجَابَ مُوسَى: «حَالَمَا أَنْصَرِفُ أُصَلِّي إِلَى الرَّبِّ. وَغَداً يَرْتَفِعُ الذُّبَابُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَعَنْ حَاشِيَتِهِ وَعَنْ شَعْبِهِ. وَلَكِنْ عَلَى فِرْعَوْنَ أَلاَّ يُخَادِعَ، بَلْ يُطْلِقَ الشَّعْبَ لِيُقَدِّمَ لِلرَّبِّ ذَبَائِحَ». ٣٠وَفَارَقَ مُوسَى فِرْعَوْنَ وَصَلَّى إِلَى الرَّبِّ، ٣١فَاسْتَجَابَ الرَّبُّ دُعَاءَ مُوسَى، فَارْتَفَعَ الذُّبَابُ عَنْ فِرْعَوْنَ وَعَنْ حَاشِيَتِهِ وَعَنْ شَعْبِهِ. لَمْ تَبْقَ ذُبَابَةٌ وَاحِدَةٌ. ٣٢وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ قَسَّى قَلْبَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَيْضاً وَلَمْ يُطْلِقْ سَرَاحَ الشَّعْبِ(٢).

---

(١) (٢) سفر الخروج – ٨.

ضربة إهلاك المواشي

أمر الرب موسى أن يعلن فرعون بأن الضربة القادمة ستكون شديدة جدا؛ لأن الرب سوف يهلك جميع المواشي على أرض مصر؛ ما عدا تلك الخاصة ببني إسرائيل. وحدّد الرب موعدا لذلك؛ عسى أن يرتدع فرعون قبل حلول الموعد المحدّد. ولمّا لم يتغيّر فرعون وظل على عناده، أنفذ الرب مشيئته؛ فأهلك جميع مواشي المصريين. وعاين فرعون هذه الآية بنفسه لكن قلبه ظل متصلّبا؛ فلم يُطلق بني إسرائيل.

٩- الضربة الخامسة: إهلاك المواشي

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «امْضِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقُلْ لَهُ: هَذَا مَا يُعْلِنُهُ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدَنِي. ٢لأَنَّكَ إِنْ أَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَهُمْ وَحَجَزْتَهُمْ لَدَيْكَ، ٣فَإِنَّ يَدَ الرَّبِّ سَتُهْلِكُ مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحُقُولِ، وَالْخُيُولَ، وَالْحَمِيرَ وَالْجِمَالَ وَالثِّيرَانَ وَالْغَنَمَ، بِوَبَأٍ شَدِيدٍ جِداً. ٤وَأُمَيِّزُ بَيْنَ مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ وَمَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ. فَلاَ يَهْلِكُ شَيْءٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ». ٥وَعَيَّنَ الرَّبُّ مَوْعِداً لِذَلِكَ قَائِلاً: «غَداً يَصْنَعُ الرَّبُّ هَذَا فِي الأَرْضِ». ٦وَفِي الْغَدِ صَنَعَ الرَّبُّ هَذَا الأَمْرَ. فَهَلَكَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمِصْرِيِّينَ، أَمَّا مَوَاشِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهَا وَاحِدٌ. ٧وَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ لِيَتَحَقَّقَ مِنَ الأَمْرِ، وَإِذَا مَوَاشِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَهْلِكْ مِنْهَا وَاحِدٌ. وَتَصَلَّبَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُطْلِقْ سَرَاحَ الشَّعْبِ(١).

ضربة الدمامل المتقيّحة

وأمر الرب؛ موسى وهارون أن يأخذ كلا منهما حفنة من رماد الأتون (الفرن) وأن يقوم موسى أمام فرعون، ويذُرّ الرماد في الهواء؛ فيتحول إلى

(١) سفر الخروج - ٩.

غبار يغطي كل أرض مصر فيصاب الناس والبهائم بدمامل متقيّحة. وكانت هذه هي الضربة السادسة، لكن فرعون لم يتغير موقفه من ناحية إطلاق بني إسرائيل.

الضربة السادسة: الدمامل المتقيحة

٨فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَرُونَ: «لِيَأْخُذْ كُلٌّ مِنْكُمَا حَفْنَةً مِنْ رَمَادِ الأَتُونِ،
وَلْيُذَرِّ مُوسَى الرَّمَادَ نَحْوَ السَّمَاءِ بِمَرْأًى مِنْ فِرْعَوْنَ، ٩فَيَتَحَوَّلَ إِلَى غُبَارٍ يُغَطِّي
كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ، فَيُصَابَ النَّاسُ وَالْبَهَائِمُ بِدَمَامِلَ مُتَقَيِّحَةٍ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ».
١٠فَأَخَذَا رَمَاداً مِنَ الأَتُونِ، وَوَقَفَا أَمَامَ فِرْعَوْنَ، ثُمَّ ذَرَّاهُ مُوسَى نَحْوَ السَّمَاءِ،
فَتَحَوَّلَ إِلَى دَمَامِلَ مُتَقَيِّحَةٍ أَصَابَتِ النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ. ١١وَلَمْ يَسْتَطِعِ السَّحَرَةُ أَنْ
يُوَاجِهُوا مُوسَى مِنْ جَرَّاءِ الدَّمَامِلِ، لأَنَّ الدَّمَامِلَ أَصَابَتِ السَّحَرَةَ وَكُلَّ
الْمِصْرِيِّينَ أَيْضاً. ١٢لَكِنَّ الرَّبَّ قَسَّى قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يَسْمَعْ لَهُمَا، تَمَاماً كَمَا
قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى(١).

ضربة سقوط البرَدْ

أعلن الرب على لسان موسى أنه سوف يُصيب البلاد بسقوط البرَدْ على كل أرض مصر، وأن يخبر فرعون وكل السامعين بأن من أراد أن ينجو من الإصابة بهذا البرَدْ أن يحتمي هو ومواشيه في البيوت. وأمر الرب موسى أن يمدّ يده نحو السماء؛ فانهمر البرَدْ مصاحبا لصواعق مدمّرة لم تشهد البلاد مثلها من قبل، فدمّرت كل شيء في الحقول.

الضربة السابعة: سقوط البرد

١٣ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «قُمْ مُبَكِّراً فِي الصَّبَاحِ وَامْثُلْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقُلْ
لَهُ: هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُنِي. ١٤لأَنَّنِي فِي هَذِهِ
الْمَرَّةِ سَأُوَجِّهُ جَمِيعَ ضَرَبَاتِي إِلَى قَلْبِكَ وَإِلَى حَاشِيَتِكَ وَإِلَى شَعْبِكَ، لِكَيْ

(١) سفر الخروج - ٩.

تَعْـرِفَ أَنَّهُ لَيْسَ مَثِيلٌ لِي فِي كُلِّ الأَرْضِ. . . . . ١٧وَهَا أَنْتَ مَازِلْتَ تُـقَاوِمُ
شَـعْبِي وَلاَ تُطْلِقُـهُ. ١٨لِذَلِكَ غَـداً فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْـتِ أُمْطِرُ بَرَداً ثَقِيـلاً لَـمْ
تَشْهَدْهُ مِـصْرُ مُنْذُ يَوْمِ تَأْسِيسِـهَا حَتَّى الآنَ. ١٩فَأَرْسِلِ الآنَ وَاجْـمَعْ مَوَاشِيَكَ
وَكُلَّ مَالَكَ فِي الْحَقْلِ، لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَمْكُثُ فِي الْحَـقْلِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ وَلاَ
يَلْجَأُ إِلَى مَـأْوًى، يَنْهَمِرُ عَلَيْـهِ الْبَرَدُ فَيَمُـوتُ«. . . . . ٢٢وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى:
»مُدَّ يَـدَكَ نَحْوَ السَّـمَاءِ فَـيَنْهَمِـرَ الْبَرَدُ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِـصْرَ، وَعَلَى الـرِّجَالِ
وَالْبَهَائِمِ وَعَلَـى عُشْبِ الْحُقُلِ فِي جَمِيعِ أَرْضِ مِـصْرَ«. ٢٣فَمَدَّ مُـوسَى عَصَاهُ
نَحْوَ السَّمَاءِ، فَـأَرْسَلَ الرَّبُّ رُعُوداً وَبَرَداً. وَأَصَابَتِ الصَّوَاعِقُ الأَرْضَ، وَأَمْطَرَ
الرَّبُّ بَرَداً عَلَى كُلِّ بِلاَدِ مِصْرَ، ٢٤فَانْهَمَـرَ الْبَرَدُ، وَاخْتَلَطَتِ الصَّوَاعِقُ بِالْبَرَدِ،
فَكَانَتْ أَسْوَأَ عَاصِفَةٍ شَهِدَتْهَا أَرْضُ مِصْرَ مُنْذُ أَنْ صَارَتْ أُمَّةً. ٢٥وَأَصَابَ الْبَرَدُ
فِي كُلِّ أَرْجَاءِ مِصْـرَ جَمِيعَ مَا فِي الْحُقُولِ مِـنْ نَاسٍ وَبَهَائِمَ. وَأَتْلَفَ كُلَّ نَبَاتٍ
نَامٍ فِي الْحُقُلِ وَكَسَّرَ جَمِيعَ الأَشْجَارِ. . . . .(١)

الوعد الثالث بإطلاق الشعب

وأمام هذه الضربة الموجعة استدعى فرعونُ موسى وهارون، وقال أنه قد أخطأ في حق الرب إلههم، وطلب منهما أن يتضرّعا إلى الرب ليكشف عنهم هذه الغمّة؛ فيطلقهم ولا يمكثون في أرضه أبدا. عندئذ قال له موسى سوف أفعل، ولكنك يا فرعون لن تتغيّر ولن تفي بوعدك.

الوعد الثالث بإطلاق الشعب

٢٧فَأَرْسَلَ فِرْعَـوْنُ وَاسْتَدْعَى مُوسَى وَهَرُونَ وَقَالَ لَهُـمَا: »لَقَدْ أَخْطَأْتُ
هَذِهِ الْمَرَّةَ وَالرَّبُّ هُوَ الْبَارُّ، أَمَّا أَنَا وَشَـعْبِي فَأَشْرَارٌ، ٢٨فَتَـضَرَّعَا إِلَى الرَّبِّ إِذْ
يَكْفِـينَا مَـا ابْتُلِينَا بِـهِ مِنْ رُعُودٍ وَبَـرَدٍ، فَأُطْـلِقَكُمْ، وَلاَ تَمْكُثُـونَ هُنَا بَعْـدُ«.
٢٩فَأَجَـابَ مُوسَى: »حَالَمَا أَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَـةِ أَبْسُطُ يَدِي فِي الصَّلاَةِ إِلَى الرَّبِّ

(١) سفر الخروج - ٩.

فَيَتَوَقَّفُ الرَّعْدُ وَيَنْقَطِعُ الْبَرَدُ لِكَيْ تَعْرِفَ أَنَّ الأَرْضَ هِيَ لِلرَّبِّ. ٣٠وَلَكِنَّنِي عَالِمٌ أَنَّكَ أَنْتَ وَحَاشِيَتَكَ مَازِلْتُمْ لاَ تَخْشَوْنَ الرَّبَّ الإِلَهَ.....(١)

ولما خرج موسى من المدينة، تضرّع إلى الرب أن يوقف نقمته على المصريين فاستجاب له الرب. ولما رأى فرعون أن المطر قد توقّف، وأن السماء قد صفت؛ ازداد إصرارا على عدم إطلاق بني إسرائيل.

تصلب قلب فرعون

٣٣وَانْصَرَفَ مُوسَى مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ إِلَى الرَّبِّ، فَتَوَقَّفَ الرَّعْدُ وَالْبَرَدُ وَانْقَطَعَ الْمَطَرُ عَنِ الانْهِمَارِ عَلَى الأَرْضِ. ٣٤وَعِنْدَمَا رَأَى فِرْعَوْنُ أَنَّ الْمَطَرَ وَالْبَرَدَ وَالرَّعْدَ قَدْ تَوَقَّفَتْ أَخْطَأَ مَرَّةً أُخْرَى وَصَلَّبَ قَلْبَهُ هُوَ وَحَاشِيَتُهُ. ٣٥وَهَكَذَا تَقَسَّى قَلْبُ فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يُطْلِقْ سَرَاحَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، تَمَاماً كَمَا أَنْبَأَ الرَّبُّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى(٢).

أمر الرب كلاً من موسى وهارون أن يبلغا فرعون بالآية التالية وهي الجراد الذي سيطلقه الرب فيغطي وجه الأرض، ويلتهم كل ما خلّفه البرَدْ من خضرة، وكل نبتة في الحقل.

التهديد بغزو الجراد

٣فَمَثَلَ مُوسَى وَهَرُونُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ وَقَالاَ لَهُ: «هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ: إِلَى مَتَى تَأْبَى أَنْ تَخْضَعَ لِي؟ أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدَنِي. ٤وَإِذَا أَبَيْتَ أَنْ تُطْلِقَ سَرَاحَ شَعْبِي، فَهَا أَنَا أَجْلِبُ غَداً الْجَرَادَ عَلَى تُخُومِكَ، ٥فَيُغَطِّي وَجْهَ الأَرْضِ، فَيَعْسُرُ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يَرَاهَا، وَيَلْتَهِمُ الْبَقِيَّةَ الْمُتَخَلِّفَةَ لَكُمْ عَنِ الْبَرَدِ، وَكُلَّ شَجَرَةٍ نَابِتَةٍ لَكُمْ فِي الْحَقْلِ، ٦وَيَمْلأُ بُيُوتَكَ وَبُيُوتَ حَاشِيَتِكَ وَبُيُوتَ جَمِيعِ الْمِصْرِيِّينَ، الأَمْرُ الَّذِي لَمْ يَشْهَدْ مِثْلَهُ آبَاؤُكَ وَلاَ أَجْدَادُكَ مُنْذُ أَنِ اسْتَوْطَنُوا هَذِهِ الأَرْضَ إِلَى الآنَ». ثُمَّ تَحَوَّلَ وَانْصَرَفَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ(٣).

(١) (٢) سفر الخروج - ٩. (٣) سفر الخروج - ١٠.

وما إن خرج موسى وهارون من عند فرعون حتى انقلبت حاشيته عليه، وطالبوه بإطلاق بني إسرائيل قائلين له يكفينا ما عمّ البلاد من خراب بسببهم. استدعى فرعونُ موسى وهارون وقال لهما امضوا واعبدوا ربكم كما تشاءون، ولكن لن يذهب سوى الرجال فقط حتى أضمن أنكم لا تنوون بنا شرا، وهذا هو قراري إن شئتم. وطردهما من أمامه.

الإذن بإطلاق الرجال فقط

٧فَقَالَتْ حَاشِيَةُ فِـرْعَوْنَ لَهُ: «إِلَى مَتَى يَظَلُّ هَذَا الرَّجُلُ شَرَكاً لَنَا؟ أَطْلِقِ
الشَّعْبَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهَهُمْ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ مِصْرَ قَدْ عَمَّهَا الْخَرَابُ؟«
٨فَاسْتُدْعِيَ مُوسَى وَهَرُونُ ثَانِيَةً لِلْمُثُولِ أَمَامَ فِرْعَوْنَ، وَقَالَ لَهُمَا: «امْضُوا
وَاعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهَكُمْ، وَلَكِنْ مَنْ هُمُ الَّذِينَ سَيَذْهَبُونَ؟« ٩فَأَجَابَ مُوسَى:
«نَذْهَبُ بِفِتْيَانِنَا وَشُيُوخِنَا. نَذْهَبُ بِبَنِينَا وَبَنَاتِنَا، بِمَوَاشِينَا وَقُطْعَانِنَا لأَنَّهُ يَجِبُ
أَنْ نُقِيمَ عِيداً لِلرَّبِّ». ١٠فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «لِيَكُنِ الرَّبُّ بِعَوْنِكُمْ إِنْ أَنَا أَطْلَقْتُكُمْ
مَعَ نِسَائِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ. فَمِنَ الْجَلِيِّ أَنَّكُمْ عَازِمُونَ عَلَى الشَّرِّ. ١١لا، فَلْيَمْضِ
الرِّجَالُ فَقَطْ لِعِبَادَةِ الرَّبِّ، لأَنَّ هَذَا هُوَ مَا تَطْلُبُونَهُ». ثُمَّ طُرِدَا مِنْ حَضْرَةِ
فِرْعَوْنَ(١).

ضربة الجراد

قال الرب لموسى أبسط يدك نحو الأرض فأُرسل أسرابا من الجراد يملأ السماء، ويُغطّي سطح الأرض، ويلتهم كل شيء في طريقه. ومد موسى عصاه فهبّت رياح قوية استمرت طوال النهار والليل، وفي الصباح أقبل الجراد وانتشر حتى غطّى جميع الأرجاء بصورة لم تشهد البلاد لها مثيلا من قبل.

الضربة الثامنة: غزو الجراد

١٢فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «أَبْسِطْ يَدَكَ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ لِتُبْتَلَى بِالْجَرَادِ،
فَيُغَطِّي بِلاَدَ مِصْرَ وَيَلْتَهِمَ كُلَّ نَبَاتِ الأَرْضِ الْمُتَخَلِّفَ عَنِ الْبَرَدِ». ١٣فَمَدَّ

(١) سفر الخروج - ١٠.

مُوسَى عَصَاهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ، فَأَرْسَلَ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ رِيحاً شَرْقِيَّةً طَوَالَ ذَلِكَ
النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَمَا إِنْ أَقْبَلَ الصَّبَاحُ حَتَّى حَمَلَتِ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ الْجَرَادَ.
١٤فَانْتَشَرَ الْجَرَادُ فِي كُلِّ بِلاد مِصْرَ، وَحَلَّ فِي جَمِيعِ تُخُومِهَا بِأَسْرَابٍ عَظِيمَةٍ،
فَلَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَحْدُثَ مِثْلُهُ فِي مَا بَعْدُ. ١٥فَقَدْ غَطَّى وَجْهَ كُلِّ
الأَرْضِ حَتَّى أَظْلَمَتْ، وَالْتَهَمَ كُلَّ عُشْبٍ فِيهَا وَكُلَّ أَثْمَارِ الأَشْجَارِ الَّتِي خَلَّفَهَا
الْبَرَدُ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ أَخْضَرُ لاَ عَلَى الأَشْجَارِ وَلاَ فِي حُقُولِ الْمَزْرُوعَاتِ فِي
كُلِّ أَرْجَاءِ مِصْرَ»[1].

وكعادة فرعون عند وقوع المصيبة، استدعى كلا من موسى وهارون، وطلب منهما الصفح، وسألهما أن يبتهلا إلى الرب إلههما كي يزيل عنهم هذا البلاء، ووعد بأنه سوف يطلق بني إسرائيل هذه المرة. ابتهل موسى إلى الرب من أجلهم، فأرسل الرب ريحا غربية حملت الجراد إلى البحر، وخلّصت البلاد من شره؛ لكن فرعون لم يتغيّر ولم يتّعِظْ.

استدعاء موسى

١٦عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَ فِرْعَوْنُ فَاسْتَدْعَى مُوسَى وَهَرُونَ قَائِلاً: «لَقَدْ أَخْطَأْتُ
إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكُمْ وَإِلَيْكُمَا. ١٧فَاصْفَحَا هَذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ عَنْ خَطِيئَتِي وَابْتَهِلاَ إِلَى
الرَّبِّ إِلَهِكُمَا كَيْ يُزِيلَ عَنِّي هَذَا الْبَلاَءَ الْمُمِيتَ». ١٨فَانْصَرَفَ مُوسَى مِنْ لَدُنْ
فِرْعَوْنَ وَابْتَهَلَ إِلَى الرَّبِّ، ١٩فَأَرْسَلَ الرَّبُّ رِيحاً غَرْبِيَّةً عَاصِفَةً حَمَلَتِ الْجَرَادَ
وَطَرَحَتْهُ فِي الْبَحْرِ الأَحْمَرِ، فَلَمْ تَبْقَ جَرَادَةٌ وَاحِدَةٌ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ.
٢٠وَلَكِنَّ الرَّبَّ صَلَّبَ قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُطْلِقْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»[2].

ضربة الظلام الكثيف

ثم كانت هذه الضربة العجيبة، إذ أمر الرب موسى أن يبسط يده نحو السماء فيطغى ظلام كثيف على كل أرجاء مصر. واستمر هذا الظلام المرعب ثلاثة أيام لا يرى أحدٌ أحدا ولا يستطيع أحدٌ أن يغادر مكانه من كثافة الظلام واستمراره.

---

(١) (٢) سفر الخروج - ١٠.

٢١فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «أَبْسِطْ يَدَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ فَيَطْغَى ظَلاَمٌ عَلَى كُلِّ
أَرْجَاءِ مِصْرَ حَتَّى يَكَادَ يُلْمَسُ لِكَثَافَتِهِ». ٢٢فَبَسَطَ مُوسَى يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ،
فَطَغَى ظَلاَمٌ كَثِيفٌ عَلَى كُلِّ أَرْجَاءِ أَرْضِ مِصْرَ لِمُدَّةِ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ. ٢٣فَلَمْ يَتَمَكَّنْ
أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَرَى أَخَاهُ، وَلاَ غَادَرَ أَحَدٌ مَكَانَهُ طَوَالَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ. غَيْرَ أَنَّ النُّورَ
كَانَ يَغْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي أَمَاكِنِ إِقَامَتِهِمْ[1].

استدعى فرعون موسى ليخلّصه من مصيبة الظلام التي حلّت بهم، وقال له سوف أسمح لكم بالذهاب لكن لن تأخذوا معكم قطعانكم ولا ماشيتكم. وألحّ موسىّ على أخذ الماشية من أجل طقوس الذبح والتقدمات، لكن فرعون أصرّ على عدم أخذ أي من الماشية، وطرد موسى من أمامه، وهدّده إن هو رأى وجهه مرة أخرى بأنّه سوف يأمر بقتله.

الإذن المشروط بإطلاق الشعب

٢٤فَاسْتَدْعَى فِرْعَوْنُ مُوسَى وَقَالَ: «اذْهَبُوا وَاعْبُدُوا الرَّبَّ، وَلَكِنِ اتْرُكُوا
وَرَاءَكُمْ مَاشِيَتَكُمْ وَقُطْعَانَكُمْ: أَمَّا صِغَارُكُمْ فَلْيَمْضُوا مَعَكُمْ أَيْضاً». ٢٥فَقَالَ
مُوسَى: «عَلَيْكَ أَنْ تَسْمَحَ لَنَا بِأَخْذِ ذَبَائِحَ مُحْرَقَاتٍ لِنُقَدِّمَهَا لِلرَّبِّ إِلَهِنَا.....
٢٧وَلَكِنَّ الرَّبَّ صَلَّبَ قَلْبَ فِرْعَوْنَ فَلَمْ يُطْلِقْ سَرَاحَهُمْ. ٢٨وَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ:
«اذْهَبْ عَنِّي، وَاحْذَرْ لِنَفْسِكَ. لاَ تَمْثُلْ أَمَامِي مَرَّةً أُخْرَى، فَيَوْمَ تَرَى وَجْهِي
تَمُوتُ». ٢٩فَقَالَ مُوسَى: «حَسَناً قُلْتَ، فَأَنَا لَنْ أَرَى وَجْهَكَ مَرَّةً أُخْرَى»[2].

بعد كل ما مضى من آيات دون أن يتّعظ فرعون بواحدة منها، قال الرب لموسى بَقِيَتْ بليّة واحدة بعدها يطلقكم فرعون من البلاد؛ بل ويطردكم طردا، وأمره الرب أن يقول للشعب أن يطلب كل رجل من جاره المصري، وكل امرأة من جارتها المصرية؛ آنية فضة أو ذهب وأن يستعدوا للرحيل.

---

(١) (٢) سفر الخروج - ١٠.

١١- التهديد بالضربة الأخيرة

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «بَقِيَتْ بَلِيَّةٌ وَاحِدَةٌ أُصِيبُ بِهَا فِرْعَوْنَ وَالْمِصْرِيِّينَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُطْلِقُكُمْ مِنْ هُنَا. وَعِنْدَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَطْرُدُكُمْ طَرْداً جَمِيعاً. ٢فَقُلِ الآنَ لِلشَّعْبِ: لِيَطْلُبْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ جَارِهِ، وَكُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا، آنِيَةَ فِضَّةٍ وَذَهَبٍ»(١).

وذهب موسى إلى فرعون يخبره بما أعلنه الرب قائلا أن الرب سوف يجتاز عند منتصف الليل في وسط مصر فيقضي بالموت على كل بكر فيها من إنسان أو بهيمة؛ فيعلو صراخ عظيم وتكون مناحة لم يشهد مثلها أحد قبل. وأردف موسى قائلا لفرعون: عندها سوف يأتي جميع عبيدك هؤلاء وينحنون أمامي ويلحّون على أن أنطلق من بينهم؛ وعندها فقط سوف أمضي. وانصرف موسى من أمام فرعون وهو غاضب.

..... ٤وَقَالَ مُوسَى هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ: «سَأَجْتَازُ حَوَالَي نِصْفِ اللَّيْلِ فِي وَسَطِ مِصْرَ، ٥فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِيهَا: مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْمُتَرَبِّعِ عَلَى الْعَرْشِ إِلَى بِكْرِ الأَمَةِ الَّتِي وَرَاءَ الرَّحَى، وَكَذَلِكَ بِكْرِ كُلِّ بَهِيمَةٍ، ٦فَيَعْلُو صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ، لَمْ يُشْهَدْ مِثْلُهُ مِنْ قَبْلُ وَلاَ يَكُونُ مِثْلُهُ أَيْضاً..... ٨فَيَأْتِي إِلَيَّ، مِنْ ثَمَّ، جَمِيعُ عَبِيدِكَ هَؤُلاءِ وَيَنْحَنُونَ أَمَامِي قَائِلِينَ: انْطَلِقْ أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ يَتْبَعُكَ مِنَ الشَّعْبِ. وَآنَئِذٍ فَقَطْ أَمْضِي« ثُمَّ انْصَرَفَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ بِغَضَبٍ مُحْتَدِمٍ.....(٢)

ضربة موت الأبكار

وفي منتصف الليل أتمّ الله وعده، وأهلك كل بكر في أرض مصر سواء من البشر أو من البهائم، فكانت مناحة عظيمة في البلاد؛ إذ لم يخل

(١) (٢) سفر الخروج - ١١.

بيت من بيـوت المصريين من ميّت، فـاستدعى فـرعون مـوسى وهارون وقال لهما هيّا اخـرجوا من أرضي جميعا ولا يبقى مـنكم أحد، وخذوا معكم كل غنمكم وبقركم وحوائجكم، وكان جمـيع المصريين يلحّون عليهم في الخروج مخافة أن يموتوا جميعا.

الضربة العاشرة: موت الأبكار

٢٩وَفِي مُنْتَـصَفِ اللَّيْلِ أَهْلَكَ الرَّبُّ كُلَّ بِكْرٍ فِي بِـلاَدِ مِصْـرَ، مِنْ بِكْرِ
فِرْعَوْنَ الْمُتَرَبِّعِ عَلَى الْعَرْشِ إِلَى بِكْرِ الْحَبِيسِ فِي السِّجْنِ، وَأَبْكَارَ الْبَهَائِمِ جَمِيعاً
أَيْضاً. ٣٠فَاسْـتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ وَحَـاشِيَتُهُ وَجَمِيعُ الْمِـصْرِيِّينَ وَإِذَا عَوِيلٌ عَظِيمٌ فِي
أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ بَيْتٌ لَيْسَ فِيـهِ مَيْتٌ. ٣١فَاسْتَدْعَى مُوسَى وَهَرُونَ
لَيْلاً قَـائِلاً: «قُومُوا وَاخْرُجُوا مِـنْ بَيْنِ الشَّعْبِ أَنْتُمَا وَبَنُو إِسْـرَائِيلَ، وَانْطَلِقُوا
اعْبُدُوا الرَّبَّ كَمَا طَلَبْتُمْ، ٣٢وَخُذُوا مَعَكُمْ غَنَمَكُمْ وَبَقَرَكُمْ كَمَا سَأَلْتُمْ وَامْضُوا
وَبَارِكُونِي أَيْضاً». ٣٣وَأَلَحَّ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى الشَّـعْبِ لِيُسْرِعُوا فِي الارْتِحَالِ عَنِ
الْبِلاَدِ قَائِلِينَ: «لِئَلاَّ نَمُوتَ جَمِيعاً»(١).

الخـــروج

اضطر بنو إسرائيل أن يرحلوا على عجل بسـبب إلحاح المصريين عليهم بالخروج؛ حتى أنهم أخذوا مـعهم معاجنهم وعجينهم الذي لم يختـمر، كما أخذوا معـهم كل الذهب والفضة التي استعـاروها من المصريين. وارتحلوا إلى "سكوت" في نحو ستمائة ألف رجل ما عدا النساء والأطفال.

الخروج

٣٤فَـحَمَلَ الشَّـعْبُ فِي ثِيَابِهِمْ مَـعَاجِنَـهُمْ وَعَجِـينَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَخْـتَمِـرَ،
وَحَمَلُوهَا عَلَى أَكْـتَافِهِمْ، . . . . . ٣٧وَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَـمْسِيسَ إِلَى
سُكُّوتَ فَكَانُـوا نَحْـوَ سِتِّ مِـئَـةِ أَلْفٍ مِنَ الرِّجَـالِ الْمُشَـاةِ مَـا عَـدَا النِّسَـاءَ
وَالأَوْلاَدَ. . . . .(٢)

---

(١) (٢) سفر الخروج - ١٤.

واجتاز موسى ببني إسرائيل صحراء البحر الأحمر؛ وكانوا يحملون رفات يوسف معهم حسب وصيّته.

عبور صحراء البحر الأحمر

١٧وَعِنْدَمَا أَطْلَقَ فِرْعَوْنُ الشَّعْبَ لَمْ يَقُدْهُمُ اللهُ فِي طَرِيقِ بِلاَدِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِصَرِهَا. لأَنَّ اللهَ قَالَ لِئَلاَّ يَنْدَمَ الشَّعْبُ إِذَا تَعَرَّضَ لِحَرْبٍ وَيَرْجِعَ إِلَى مِصْرَ. ١٨إِنَّمَا اقْتَادَ اللهُ الشَّعْبَ عَبْرَ صَحْرَاءِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ. . . . . ١٩وَحَمَلَ مُوسَى عِظَامَ يُوسُفَ مَعَهُ، لأَنَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَحْلَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَلْفٍ قَائِلاً: «لاَبُدَّ أَنْ يَفْتَقِدَكُمُ اللهُ فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَنْقُلُوا عِظَامِي مَعَكُمْ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ»(١).

فرعون يطارد بني إسرائيل

ولما تيقّن فرعون من رحيل بني إسرائيل، وأقبلت حاشيته تراجعه في الأمر؛ ندم لأنه سمح لهم بالرحيل، وأمر بإعداد العدّة وتجهيز القوّة للّحاق بهم وإجبارهم على العودة. وخرج فرعون في قواته للحاق ببني إسرائيل؛ فأدركهم عند البحر مجتمعين.

فرعون يطارد بني إسرائيل

٥وَقِيلَ لِمَلِكِ مِصْرَ: «هُوَذَا الشَّعْبُ قَدْ هَرَبَ». فَتَحَوَّلَ قَلْبُ فِرْعَوْنَ وَقُلُوبُ حَاشِيَتِهِ ضِدَّهُمْ، وَقَالُوا: «مَاذَا دَهَانَا حَتَّى أَطْلَقْنَا إِسْرَائِيلَ مِنْ خِدْمَتِنَا؟» ٦فَأَعَدَّ مَرْكَبَتَهُ وَاصْطَحَبَ جَيْشَهُ مَعَهُ، . . . . . فَطَارَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. . . . . ، فَأَدْرَكُوهُمْ وَهُمْ مُتَجَمِّعُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ بِالْقُرْبِ مِنْ فَمِ الْحِيرُوثِ مُقَابِلَ بَعْلَ صَفُونَ(٢).

كانت مفاجأة مذهلة لبني إسرائيل أن يجدوا المصريين في إثرهم، فأيقنوا بالهلاك وقالوا لموسى ليتك تركتنا نموت هناك ولا نموت في هذه الصحراء.

---

(١) سفر الخروج - ١٣. (٢) سفر الخروج - ١٤.

فقال لهم موسى لا تخافوا وانتظروا ما سيفعله الرب بهم، فسوف يبيدهم عن آخرهم.

الاستغاثة بالرب

١٠ وَلَمَّا اقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ، نَظَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَإِذَا بِالْمِصْرِيِّينَ يَنْدَفِعُونَ
نَحْوَهُمْ، فَارْتَعَبُوا وَاسْتَغَاثُوا بِالرَّبِّ، ١١ ثُمَّ قَالُوا لِمُوسَى: «هَلْ لاِفْتِقَارِ مِصْرَ
لِلْقُبُورِ أَخْرَجْتَنَا إِلَى الصَّحْرَاءِ لِنَمُوتَ فِيهَا؟ مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا حَتَّى أَخْرَجْتَنَا مِنْ
مِصْرَ؟ ١٢ أَلَمْ نَقُلْ لَكَ فِي مِصْرَ: دَعْنَا وَشَأْنَنَا فَنَخْدُمَ الْمِصْرِيِّينَ، إِذْ كَانَ خَيْراً
لَنَا أَنْ نَخْدُمَ الْمِصْرِيِّينَ مِنْ أَنْ نَمُوتَ فِي الصَّحْرَاءِ». ١٣ فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ:
«لاَ تَخَافُوا. قِفُوا وَانْظُرُوا خَلاَصَ الرَّبِّ الَّذِي يُجْرِيهِ لَكُمُ الْيَوْمَ، لأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ
الَّذِينَ رَأَيْتُمُوهُمُ الْيَوْمَ، لَنْ تَرَوْهُمْ فِي مَا بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ. ١٤ فَالرَّبُّ يُحَارِبُ
عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ»(١).

وتضرّع موسى إلى الرب، فأمره الرب أن يرفع عصاه، ويبسط يده فوق مياه البحر؛ فينشق البحر، ويصبح وسطه أرضا يابسة، فيجتاز بنو إسرائيل البحر إلى الشاطئ الآخر للبحر، ويتبعهم فرعون بجنوده، فينطبق عليهم الماء، فيغرقهم أجمعين؛ ويكونون للناس عبرة.

عمود السحاب بين الفريقين

١٥ وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «مَا بَالُكَ تَسْتَغِيثُ بِي؟ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ
يَرْحَلُوا. ١٦ ارْفَعْ عَصَاكَ وَابْسُطْ يَدَكَ فَوْقَ الْبَحْرِ وَشُقَّهُ، فَيَجْتَازَ بَنُو إِسْرَائِيلَ
فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى الْيَابِسَةِ. ١٧ فَهَا أَنَا أُغَلِّظُ قُلُوبَ الْمِصْرِيِّينَ فَيَسْعَوْنَ
وَرَاءَكُمْ، فَأَتَعَظَّمُ (بِالْقَضَاءِ) عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَى مَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ، ١٨ فَيُدْرِكُ
الْمِصْرِيُّونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، عِنْدَمَا أَتَعَظَّمُ (بِالْقَضَاءِ) عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ
وَفُرْسَانِهِ». . . . . (٢)

(١) (٢) سفر الخروج - ١٤.

انشقاق البحر ونجاة بني إسرائيل

وبسط موسى يده فوق ماء البحر فانشقّ الماء، وظهر قاع البحر كأنه يابسة. اجتاز بنو إسرائيل البحر، وتبعهم المصريون يودّون اللحاق بهم؛ ولكن كانت حركتهم بطيئة جدا بعكس حركة بني إسرائيل.

عبور البحر الأحمر

٢١وبَسَطَ مُوسَى يَدَهُ فَوْقَ الْبَحْرِ، فَأَرْسَلَ الرَّبُّ طَوَالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ رِيحاً
شَرْقِيَّةً قَوِيَّةً رَدَّتِ الْبَحْرَ إِلَى الْوَرَاءِ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى يَابِسَةٍ. وَهكَذَا انْشَقَّ الْبَحْرُ،
٢٢فَاجْتَازَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ عَلَى أَرْضٍ يَابِسَةٍ، فَكَانَ الْمَاءُ بِمَثَابَةِ
سُورَيْنِ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. ٢٣ولَحِقَ بِهِمِ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ إِلَى
وَسْطِ الْبَحْرِ، بِجَمِيعِ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ.....(1)

هلاك جيش فرعون

ولمّا إن اجتاز بنو إسرائيل البحر، أمر الربُّ موسى أن يبسط يده على البحر؛ فارتدّ الماء إلى طبيعته الأولى، وأغرق المصريين جميعهم. وكانت تلك المعجزة العظيمة دافعا لبني إسرائيل على الثقة بتأييد الرب لموسى.

هلاك جيش فرعون

٢٦وقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «ابْسِطْ يَدَكَ فَوْقَ الْبَحْرِ لِيَرْتَدَّ الْمَاءُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ
مَعَ مَرْكَبَاتِهِمْ وَفُرْسَانِهِمْ». ٢٧فَبَسَطَ مُوسَى يَدَهُ فَوْقَ الْبَحْرِ عِنْدَ انْبِثَاقِ
الصَّبَاحِ، فَارْتَدَّ الْبَحْرُ إِلَى مَوْضِعِهِ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ الْهَارِبِينَ فِي اتِّجَاهِهِ،
فَجَرَفَهُمُ الرَّبُّ نَحْوَ وَسْطِ الْبَحْرِ. ٢٨وَارْتَدَّتِ الْمِيَاهُ وَأَغْرَقَتِ الْمَرْكَبَاتِ وَالْفُرْسَانَ
وَكُلَّ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي لَحِقَ بِهِمْ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ نَاجٍ
وَاحِدٌ..... ٣٠وَهكَذَا أَنْقَذَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ مِنْ يَدِ

(١) سفر الخروج - ١٤.

الْمِصْرِيِّينَ، وَشَاهَدُوا جُثَثَ الْمِصْرِيِّينَ مَطْرُوحَةً عَلَى شَاطِيءِ الْبَحْرِ. ٣١وَعِنْدَمَا شَهِدَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي عَامَلَ بِهَا الرَّبُّ الْمِصْرِيِّينَ، خَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِهِ وَبِمُوسَى عَبْدِهِ(١).

ولمّا اجتاز بنو إسرائيل البحر توجه بهم موسى إلى صحراء شور، وبعد ثلاثة أيام من الترحال بلغ بهم العطش مبلغا، وبئر الماء التي عثروا عليها كانت مياهها غير مستساغة للشرب. تذمّر الشعب واشتكوا إلى موسى، فاستغاث موسى بالرب، فأمره الرب أن يرمي بالشجرة التي أراه إياها في البئر فصار ماؤها عذبا فراتا فشربوا منه وارتووا. وتابعوا ترحالهم حتى وصلوا إلى "إيليم" فوجدوا فيها اثنتي عشرة عينا وسبعين نخلة، فحطّوا رحالهم ونصبوا خيامهم حول العيون.

صحراء شور

٢٢ثُمَّ ارْتَحَلَ مُوسَى بِإِسْرَائِيلَ مِنَ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ، وَتَوَجَّهُوا نَحْوَ صَحْرَاءِ شُورٍ، وَظَلُّوا يَجُوبُونَ الصَّحْرَاءَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجِدُوا مَاءً. ٢٣وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى مَارَّةَ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَشْرَبُوا مَاءَهَا لِمَرَارَتِه، لِذَلِكَ سُمِّيَتْ «مَارَّةَ». ٢٤فَتَذَمَّرَ الشَّعْبُ عَلَى مُوسَى قَائِلِينَ: «مَاذَا نَشْرَبُ؟» ٢٥فَاسْتَغَاثَ بِالرَّبِّ، فَأَرَاهُ الرَّبُّ شَجَرَةً فَأَلْقَاهَا إِلَى الْمَاءِ، فَصَارَ عَذْباً. . . . . ٢٧ثُمَّ بَلَغُوا إِيلِيمَ حَيْثُ كَانَتِ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنَ مَاءٍ وَسَبْعُونَ نَخْلَةً. فَخَيَّمُوا إِلَى جُوَارِ عُيُونِ الْمَاءِ(٢).

سقوط المنّ والسلوى

وتابع بنو إسرائيل ترحالهم حتى وصلوا إلى صحراء سين. وكانت حياة الترحال لا تروقهم لأنهم اعتادوا في مصر على الاسترخاء وأكل ما لذ وطاب، ولم يجربوا حياة التقشف هذه التي يحيونها من غير إرادتهم. وتذمّروا إلى موسى فاستغاث موسى بالرب، فقال الرب لموسى: سوف أمطر

(١) سفر الخروج - ١٤.

(٢) سفر الخروج - ١٥.

عليكم خبزا من السماء يلتقط منه الناس قدر حاجتهم يوما بيوم، وفي اليوم السادس من الأسبوع يلتقطون ضعف حاجتهم من أجل اليوم السابع، وفي المساء يسقط عليهم اللحم؛ فيأكلون الخبز في الصباح واللحم في المساء.

١٦- في صحراء سين

ثُمَّ انْتَقَلَتْ كُلُّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ مِنْ إِيلِيمَ حَتَّى أَقْبَلُوا إِلَى صَحْرَاءِ سِينَ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ إِيلِيمَ وَسِينَاءَ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ٢وَهُنَاكَ فِي الصَّحْرَاءِ تَذَمَّرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ، ٣وَقَالُوا لَهُمَا: «لَيْتَ الرَّبَّ أَمَاتَنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَهُنَاكَ كُنَّا نَجْلِسُ حَوْلَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى الشَّبَعِ. وَهَا أَنْتُمَا قَدْ أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ لِتُمِيتَا كُلَّ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ جُوعاً». ٤فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا أُمْطِرُ عَلَيْكُمْ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ، فَيَخْرُجُ الشَّعْبُ وَيَلْتَقِطُ حَاجَةَ كُلِّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ، لِكَيْ أَمْتَحِنَهُمْ، فَأَرَى إِنْ كَانُوا يَسْلُكُونَ فِي شَرِيعَتِي أَمْ لا. ٥وَلَكِنْ لِيَكُنْ مَا يَلْتَقِطُونَهُ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ ضِعْفَ مَا يَجْمَعُونَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ«...... ٨وَقَالَ مُوسَى أَيْضاً: «إِنَّكُمْ سَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ، عِنْدَمَا يُعْطِيكُمْ لَحْماً فِي الْمَسَاءِ لِتَأْكُلُوا، وَخُبْزاً فِي الصَّبَاحِ لِتَشْبَعُوا،.....(١)

وتحقّق وعد الله لهم؛ ففي المساء أقبلت طيور السمّاني وغطت المخيّم، وفي الصباح تغطّت الأرض بطبقة من قشر الدقيق المُجلّد مثل الخبز، فقال لهم موسى ليلتقط كل واحد منكم على قدر حاجته هو ومن يعول، ولا يُبْقي أحدٌ منه شيئا لصباح اليوم التالي.

المن والسلوى

١٣في ذَلِكَ الْمَسَاءِ أَقْبَلَتْ طُيُورُ السَّلْوَى (السُّمَانَي) وَغَطَّتِ الْمُخَيَّمَ. وَفِي الصَّبَاحِ كَسَتْ طَبَقَةُ النَّدَى الأَرْضَ الْمُحِيطَةَ بِالْمُخَيَّمِ. ١٤وَعِنْدَمَا زَالَتْ طَبَقَةُ

(١) سفر الخروج - ١٦.

النَّدَى إِذَا وَجْهُ الصَّحْرَاءِ مُغَطًّى بِشَيْءٍ رَقِيقٍ كَالْقُشُورِ، مُكَتَّلٍ كَالْجَلِيدِ.
١٥وَعِنْدَمَا رَآهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ «مَنْهُو» أَيْ مَا هَذَا؟ لأَنَّهُمْ لَمْ
يَعْرِفُوا مَا هُوَ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هُوَ خُبْزُ الرَّبِّ الَّذِي أَعْطَاكُمْ لِتَأْكُلُوهُ.
١٦وَهَذَا مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ الرَّبُّ: الْتَقِطُوا مِنْهُ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ مَأْكَلِهِ، . . . . .
فَجَمَعَ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ مَأْكَلِهِ. ١٩وَقَالَ مُوسَى لَهُمْ: «لاَ يُبْقِ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئاً
إِلَى الصَّبَاحِ»(١).

وظل المنُّ والسلوى هو طعام بني إسرائيل في الصحراء لمدة أربعين عاما حتى وصلوا تخوم أرض كنعان.

طعام يوم السبت

٣٥وَاقْتَاتَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ بِالْمَنِّ طَوَالَ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّى جَاءُوا إِلَى تُخُومِ
أَرْضِ كَنْعَانَ الْعَامِرَةِ بِالسُّكَّانِ. . . . .(٢)

موسى يمثل أمام الله

خيّم بنو إسرائيل أمام الجبل في بَرِّية سيناء، وصعد موسى الجبل للمثول أمام الله. فأمره الله أن يوصي بني إسرائيل بأن يطيعوا عهد الله ليكونوا ملكا خاصّا له من بين جميع الشعوب.

١٩- برية سيناء

وَفِي تَمَامِ الشَّهْرِ الثَّالِثِ مِنْ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ وَصَلُوا
إِلَى بَرِّيَّةِ سِينَاءَ. ٢فَقَدِ ارْتَحَلَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ مِنْ رَفِيدِيمَ إِلَى أَنْ جَاءُوا إِلَى بَرِّيَّةِ
سِينَاءَ، فَنَزَلُوا مُقَابِلَ الْجَبَلِ. ٣فَصَعِدَ مُوسَى لِلْمُثُولِ أَمَامَ اللهِ. فَنَادَاهُ الرَّبُّ مِنَ
الْجَبَلِ: «هَكَذَا تَقُولُ لآلِ يَعْقُوبَ، وَتُخْبِرُ شَعْبَ إِسْرَائِيلَ: . . . . . إِنْ أَطَعْتُمْ
عَهْدِي، تَكُونُوا لِي مِلْكاً خَاصّاً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ(٣).

(١)(٢) سفر الخروج - ١٦.
(٣) سفر الخروج - ١٩.

وجمع موسى شيوخ بني إسرائيل وأبلغهم كلام الله، فقالوا جميعا نعمل بكل ما نطق به الله. ولما أبلغ موسى كلام الشعب إلى الله، قال له الله أبلغ الشعب أنني مقبل عليهم في هيئة سحاب مظلم فأخاطبك على مسمع من الشعب حتى يثقوا بك دائما وبتأييدي لك. وأمر الربُّ موسى أن يقدّس الشعبَ اليوم وغدا، وأن يأمرهم أن يطهِّروا ثيابهم ليكونوا متأهِّبين في اليوم الثالث لنزول الرب على جبل سيناء.

تحذيرات للشعب

٧فَاسْتَدْعَى مُوسَى شُيُوخَ الشَّعْبِ وَتَلاَ أَمَامَهُمْ جَمِيعَ هَذَا الكَلاَمِ الَّذِي أَوْصَاهُ بِهِ الرَّبُّ. ٨فَقَالَ كُلُّ الشَّعْبِ مَعاً: «كُلُّ مَا نَطَقَ بِهِ الرَّبُّ نَعْمَلُ». فَحَمَلَ مُوسَى جَوَابَهُمْ إِلَى الرَّبِّ. ٩فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا مُقْبِلٌ عَلَيْكَ فِي هَيْئَةِ سَحَابٍ مُظْلِمٍ، فَيَسْمَعُنِي الشَّعْبُ حِينَمَا أُخَاطِبُكَ، فَيَثِقُونَ أَيْضاً بِكَ دَائِماً». وَنَقَلَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ كَلاَمَ الشَّعْبِ. ١٠وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْزِلْ إِلَى الشَّعْبِ وَقَدِّسْهُمُ الْيَوْمَ وَغَداً، وَدَعْهُمْ يَغْسِلُونَ ثِيَابَهُمْ، ١١لِيَكُونُوا مُتَأَهِّبِينَ لِلْيَوْمِ الثَّالِثِ، لأَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ أَنْزِلُ أَمَامَ جَمِيعِ الشَّعْبِ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ. . . .(١)

ونزل الرب على قمة جبل سيناء، ونادى موسى ليصعد إليه. ولمّا صعد موسى حذّره الرب من أن يقتحم أحد من الشعب الجبل، وأمره أن ينزل ويأتي بأخيه هارون. نزل موسى فحذّر الشعب وصعد ومعه أخاه هارون.

لقاء موسى مع الرب

٢٠وَنَزَلَ الرَّبُّ عَلَى قِمَّةِ جَبَلِ سِينَاءَ، وَنَادَى مُوسَى لِيَصْعَدَ إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ، فَصَعِدَ إِلَيْهِ. ٢١فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «انْزِلْ وَحَذِّرِ الشَّعْبَ لِئَلاَّ يَقْتَحِمُوا الجَبَلَ لِيَرَوْنِي فَيَهْلِكَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. . . . . ٢٤فَأَجَابَ الرَّبُّ: «انْزِلْ وَاصْعَدْ بِأَخِيكَ هَرُونَ مَعَكَ، . . . . ٢٥فَانْحَدَرَ مُوسَى إِلَى الشَّعْبِ وَأَنْذَرَهُمْ(٢).

(١) (٢) سفر الخروج – ١٩.

وعلى قمة الجبل تجلّى الله لموسى وهارون ثم نطق بتلك الوصايا: لا يكن لك إلهـا غيري، لا تنحت لك تمثالا، لا تصنع صورة ما، لا تسجد لغيري ولا تعبد سواي، لا تحلف باسم الرب باطلا، اذكر يوم السبت وقدّسه دائما، أكرم أباك وأمك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد شهادة زور على جارك، لا تشته ما عند جارك.

٢٠- الوصايا العشر

ثُمَّ نَطَقَ اللهُ بِجَمِيعِ هَذِه الأَقْوَال: . . . . . ٣لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى
سِوَايَ. ٤لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ،
وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ. ٥لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ
وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، . . . . . ٧لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ يُعَاقِبُ
مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً. ٨اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ، ٩سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَقُومُ
بِجَمِيعِ مَشَاغِلِكَ، ١٠أَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَتَجْعَلُهُ سَبْتاً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ، . . . . .
١٢أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ يَطُولَ عُمْرُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي يَهَبُكَ إِيَّاهَا الرَّبُّ
إِلَهُكَ. ١٣لاَ تَقْتُلْ. ١٤لاَ تَزْنِ. ١٥لاَ تَسْرِقْ. ١٦لاَ تَشْهَدْ زُوراً عَلَى جَارِكَ.
١٧لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ جَارِكَ، وَلاَ زَوْجَتَهُ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ
حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لَهُ»(١).

ومرة ثانية قال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وامكث هناك لأعطيك الشرائع التي كتبتها على لوحي الحجر لتلقّنها بني إسرائيل، وصعد موسى الجبل وأخذ معه خادمه يشوع ومكث على الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة.

١٢وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْعَدْ إِلَى الْجَبَلِ وَامْكُثْ هُنَاكَ لأُعْطِيَكَ الْوَصَايَا
وَالشَّرَائِعَ الَّتِي كَتَبْتُهَا عَلَى لَوْحَيِ الْحَجَرِ لِتُلَقِّنَهَا لَهُمْ». ١٣فَقَامَ مُوسَى وَأَخَذَ
خَادِمَهُ يَشُوعَ وَصَعِدَ إِلَى جَبَلِ اللهِ. . . . . ١٨وَاخْتَفَى مُوسَى فِي وَسَطِ
السَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ حَيْثُ مَكَثَ هُنَاكَ أَرْبَعِينَ نَهَاراً وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً(٢).

(١) سفر الخروج - ٢٠.
(٢) سفر الخروج - ٢٤.

هارون يصنع العجل الذهبي

لمّا طالت غيبة موسى عند الجبل، طلب الشعب من هارون أن يصنع لهم إلها يكون هاديا لهم في سيرهم لأنهم لا يعرفون إن كان موسى سيرجع أم لا، فطلب منهم هارون أن يأتوه بحلي نسائهم من الذهب، فصهرها هارون، وصاغ منها عجلا. هلّل بنو إسرائيل وقالوا: هذا هو إلهنا الذي أخرجنا بقوته من ديار مصر. وعندما رأى هارون تحمّسهم للعجل، شيّد مذبحا أمامه، وأعلن أن غدا هو عيد للرب، فبكّر الشعب في اليوم التالي واحتفلوا بتلك المناسبة بطريقة صاخبة ماجنة.

٣٢- هرون يصنع عجل الذهب

وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى قَدْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ عَلَى الْجَبَلِ، اجْتَمَعُوا حَوْلَ هَرُونَ، وَقَالُوا لَهُ: «هَيَّا، اصْنَعْ لَنَا إِلَهاً يَتَقَدَّمُنَا فِي مَسِيرِنَا، لأَنَّنَا لاَ نَدْرِي مَاذَا أَصَابَ هَذَا الرَّجُلَ مُوسَى الَّذِي أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِ مِصْرَ». ٢فَأَجَابَهُمْ هَرُونُ: «انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الَّتِي فِي آذَانِ نِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَبَنِيكُمْ، وَأَعْطُونِي إِيَّاهَا». ٣فَنَزَعُوهَا مِنْ آذَانِهِمْ، وَجَاءُوا بِهَا إِلَيْهِ. ٤فَأَخَذَهَا مِنْهُمْ وَصَهَرَهَا وَصَاغَ عِجْلاً. عِنْدَئِذٍ قَالُوا: «هَذِهِ آلِهَتُكَ يَاإِسْرَائِيلُ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ». ٥وَعِنْدَمَا شَاهَدَ هَرُونُ ذَلِكَ شَيَّدَ مَذْبَحاً أَمَامَ الْعِجْلِ وَأَعْلَنَ: «غَداً هُوَ عِيدٌ لِلرَّبِّ». ٦فَبَكَّرَ الشَّعْبُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَقَدَّمُوا قَرَابِينَ سَلاَمٍ. ثُمَّ احْتَفَلُوا فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا، وَمِنْ ثَمَّ قَامُوا لِلَّهْوِ وَالْمُجُونِ[١].

أخبر الرب موسى بما فعله قومُه في غيبته عنهم، وأردف الرب قائلا إن هذا الشعب عنيد متصلّب، دعني أفنيهم عن آخرهم وأجعل منك أنت شعبا عظيما. ابتهل موسى إلى الرب أن يعفو عنهم حتى لا يشمت فيهم المصريون ويقولون أن إلههم قد احتال عليهم وأخرجهم من مصر ليفنيهم في الصحراء، وقال: ارفع يارب غضبك عن شعبك، واذكر وعودك التي قطعتها لعبيدك إبراهيم وإسحق وإسرائيل بأن تُكثِّر نسلهم وتهبهم جميع الأرض التي وعدتهم

(١) سفر الخروج - ٣٢.

إيّاها فـتكون ملكا أبديا لهم. عندها رأف الرب بحـالهم، ولـم يوقع بهم أي عذاب بسبب خيانتهم تلك.

ابتهال موسى

٧فَأَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى: «قُمْ وَانْزِلْ فَإِنَّ الشَّـعْبَ الَّذِي قَدْ أَخْرَجْتَهُ مِنْ دِيَارِ
مِصْرَ، قَـدْ فَسَدَ. ٨إِذِ انْحَرَفُـوا سَرِيعاً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَمَرْتُهُمْ بِهِ، فَـصَاغُوا
لَهُمْ عِجْلاً وَعَبَـدُوهُ وَذَبَحُوا لَهُ الذَّبَائِحَ هَاتِفِينَ: هَذَا هُوَ إِلهُكَ يَاإِسْرَائِيلُ الَّذِي
أَخْرَجَكَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ». ٩وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ،
وَإِذَا بِهِ شَعْبٌ عَنِيدٌ مُتَصَلِّبُ الْقَلْبِ. ١٠وَالآنَ دَعْنِي وَغَضَبِي الْمُحْتَدِمَ فَأُفْنِيَهُمْ،
ثُمَّ أَجْعَـلَكَ أَنْتَ شَعْـباً عَظِيمـاً». ١١فَابْتَـهَلَ مُوسَى إِلَى الـرَّبِّ وَقَالَ: «لِمَاذَا
يَحْتَدِمُ غَـضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْـرَجْتَهُ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ بِقُـوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَذِرَاعٍ
مُـقْتَـدِرَةٍ؟ ١٢لِمَاذَا يَشْمَتُ الْمِصْـرِيُّونَ فِينَا قَـائِلِينَ: لَقَـدِ احْتَـالَ عَلَيْهِمْ إِلَهُـهُمْ
فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ هَهُنَا لِيُهْلِكَهُـمْ فِي الْجِبَالِ وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ. ارْجِعْ عَنْ
حُمُوِّ غَضَبِكَ وَلاَ تُوقِعْ هَذَا الْعِقَابَ بِشَـعْبِكَ. ١٣اذْكُرْ وُعُودَكَ لِعَبِيدِكَ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَـقَ وَإِسْرَائِيلَ الَّذِينَ أَقْـسَمْتَ لَهُمْ بِنَفْـسِكَ قَائِلاً: أُكَـثِّرُ نَسْلَكُمْ كَنُـجُومِ
السَّمَاءِ، وَأَهَبُكُمْ جَـمِيعَ هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي وَعَدْتُ بِهَا فَـتَمْلِكُونَهَا إِلَى الأَبَدِ».
١٤فَتَرَاءَفَ الرَّبُّ وَلَمْ يُوقِعْ بِشَعْبِهِ الْعِقَابَ الَّذِي تَوَعَّدَ بِهِ(١).

ونزل موسى من على الجـبل ومعه يشوع وفي يده لوحي الشـهادة وقد نُقشت الوصايا العشر عـلى وجهيهما. وما إن اقتربا من المخـيّم، حتى سمعا أصواتا عالية وهتافات صادرة من المخيّم. ولما شاهد موسى العجل منتصبا في وسطهم وهو يرقـصـون حـوله، احتـدم غـضـبه، وألقـى باللوحين من يده فانكسرا، ثم أخذ العجل فأحرقه بالنار، وطحنه، ثم ذرّاه في الماء، وأرغمهم على الشرب منه.

---

(١) سفر الخروج - ٣٢.

موسى يحطم لوحي الشهادة ويطحن العجل

١٥ثُمَّ نَزَلَ مُوسَى وَانْحَدَرَ مِنَ الجَبَلِ حَامِلاً فِي يَدِهِ لَوْحَيِ الشَّهَادَةِ
(الْوَصَايَا الْعَشْرِ)، وَقَدْ نُقِشَتْ كِتَابَةٌ عَلَى وَجْهَيْ كُلٍّ مِنْهُمَا، ١٦وَكَانَ اللهُ قَدْ
صَنَعَ اللَّوْحَيْنِ وَنَقَشَ الْكِتَابَةَ عَلَيْهِمَا. ١٧وَسَمِعَ يَشُوعُ هُتَافَ الشَّعْبِ فَقَالَ
لِمُوسَى: «هَذَا صَوْتُ تَأَهُّبٍ لِقِتَالٍ فِي الْمُخَيَّمِ». ١٨فَأَجَابَهُ مُوسَى: «هَذَا لَيْسَ
هُتَافَ نُصْرَةٍ وَلاَ صُرَاخَ هَزِيمَةٍ، لَكِنْ مَا أَسْمَعُهُ هُوَ صَوْتُ غِنَاءٍ». ١٩وَمَا إِنِ
اقْتَرَبَ مُوسَى مِنَ الْمُخَيَّمِ وَشَاهَدَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ حَتَّى احْتَدَمَ غَضَبُهُ وَأَلْقَى
بِاللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدِهِ وَكَسَّرَهُمَا عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ. ٢٠ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ
وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِماً، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَأَرْغَمَهُمْ عَلَى
الشُّرْبِ مِنْهُ(١).

وعاتب موسى أخاه هارون على فعلته، فقال له لقد خشيت أن يبطشوا بي في غيبتك وأنت تعرف طبيعة الشر المتأصِّلة في نفوسهم، فأخذت ما لديهم من ذهب وطرحتُه في النار فخرج هذا العجل الذي تراه. ولما رأى موسى أن الشعب لم يتوقّف عن مجونه، وقف عند باب المخيم وقال: كل من يتبِع الرب يُقبل علي، فاجتمع حوله جميعُ اللاويِّين، فأمرهم بأن يتقلّدوا سيوفهم، ويقتلوا كل داعر في المخيم ,لا يستثنون أحدا لقرابة أو صداقة. قام اللاويّون بتنفيذ أمر موسى، وكانت حصيلة القتلى حوالي ثلاثة آلاف رجل.

غيرة اللاويين

٢١وَخَاطَبَ مُوسَى هَرُونَ: «مَاذَا فَعَلَ بِكَ هَذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ
هَذِهِ الْخَطِيئَةَ الْعَظِيمَةَ؟» ٢٢فَأَجَابَ هَرُونُ: «لاَ يَحْتَدِمْ غَضَبُ سَيِّدِي. إِنَّكَ
تَعْرِفُ شَرَّ هَذَا الشَّعْبِ. ٢٣لَقَدْ قَالُوا لِي: اصْنَعْ لَنَا إِلَهاً يَتَقَدَّمُنَا فِي مَسِيرِنَا،
لأَنَّنَا لاَ نَدْرِي مَاذَا أَصَابَ هَذَا الرَّجُلَ مُوسَى الَّذِي أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِ مِصْرَ،
٢٤فَقُلْتُ لَهُمْ مَنْ لَدَيْهِ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي إِيَّاهُ، فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ

(١) سفر الخروج - ٣٢.

هَذَا الْعِجْلُ». ٢٥وَلَمَّا رَأَى مُوسَى أَنَّ الشَّعْبَ غَارِقٌ فِي مُجُونِهِ بَعْدَ أَنْ أَفْلَتَ
هَرُونُ زِمَامَهُمْ فَصَارُوا بِذَلِكَ مَثَارَ سُخْرِيَةِ أَعْدَائِهِمْ، ٢٦وَقَفَ فِي بَابِ الْمُخَيَّمِ
وَصَاحَ: «كُلُّ مَنْ يَتْبَعُ الرَّبَّ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ هُنَا». فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ اللاَّوِيُّونَ.
٢٧فَهَتَفَ بِهِمْ: «هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ: لِيَتَقَلَّدْ كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ،
وَجُولُوا فِي الْمُخَيَّمِ ذِهَاباً وَإِيَاباً مِنْ مَدْخَلٍ إِلَى مَدْخَلٍ، وَاقْتُلُوا كُلَّ دَاعِرٍ سَوَاءٌ
أَكَانَ أَخاً أَمْ صَاحِباً أَمْ قَرِيباً». ٢٨فَأَطَاعَ اللاَّوِيُّونَ أَمْرَ مُوسَى. فَقُتِلَ مِنَ
الشَّعْبِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوَ ثَلاَثَةِ آلافِ رَجُلٍ.....(١)

رجع موسى إلى الرب وتضرّع إليه أن يغفر لهذا الشعب خطيئته، فقال الرب لا بد من العقاب حتى يرتدعوا. وأمره الرب أن يذهب بهم إلى مكان ذكره له، وعندما وصل بهم إلى المكان المحدّد، أصابهم الرب بالوباء؛ عقابا لهم على عبادتهم العجل الذي صنعه لهم هارون.

ابتهال موسى الثاني

٣٠وَفِي الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «لَقَدِ ارْتَكَبْتُمْ خَطِيئَةً عَظِيمَةً، وَهَا أَنَا
أَعُودُ إِلَى الْجَبَلِ لأَمْثُلَ أَمَامَ الرَّبِّ، لَعَلِّي أَحْظَى لَكُمْ بِغُفْرَانِهِ». ٣١وَرَجَعَ
مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَتَضَرَّعَ قَائِلاً: «يَارَبُّ لَقَدِ اقْتَرَفَ هَذَا الشَّعْبُ خَطِيئَةً
عَظِيمَةً، وَصَاغُوا لأَنْفُسِهِمْ إِلَهاً مِنْ ذَهَبٍ. ٣٢وَالآنَ إِنْ شِئْتَ، اغْفِرْ لَهُمْ،
وَإِلاَّ فَامْحُنِي مِنْ كِتَابِكَ الَّذِي كَتَبْتَ». ٣٣فَأَجَابَ الرَّبُّ مُوسَى: «الَّذِي أَخْطَأَ
إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي ٣٤وَالآنَ اذْهَبْ، وَقُدِ الشَّعْبَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي ذَكَرْتُهُ
لَكَ. وَهَا هُوَ مَلاكِي يَتَقَدَّمُكَ، وَلَكِنْ لاَبُدَّ مِنْ مُعَاقَبَةِ الشَّعْبِ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ
فِي يَوْمِ قَضَائِي». ٣٥وَضَرَبَ الرَّبُّ الشَّعْبَ بِالْوَبَأِ عِقَاباً لَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ
الَّذِي صَنَعَهُ هَرُونُ(٢).

وأمر الرب موسى أن يترك المكان وأن ينطلق بهم إلى الأرض التي أقسم لآبائهم أن يهبها لنسلهم، وقال أنه سوف يرسل أمامهم ملاكا يقودهم إلى

(١) (٢) سفر الخروج - ٣٢.

الأرض الموعودة، وأنه لن يسير في وسطهم لأنّهم شعب متصلّب القلب حتى لا يحتدم غضبه عليهم فيفنيهم في الطريق. ولمّا عرف الشعب أن الرب لا زال غاضبا عليهم حزنوا حزنا شديدا، وشرعوا في النوح. وأمرهم موسى أن ينزعوا عنهم كل زينة حتى يتخذ الرب قرارا بشأنهم.

٣٣- تجديد العهد

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اتْرُكْ هَذَا الْمَكَانَ أَنْتَ وَالشَّعْبُ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ، وَامْضِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: سَأَهَبُهَا لِنَسْلِكَ. ٢وَسَأُرْسِلُ أَمَامَكَ مَلاكاً، . . . . . أَمَّا أَنَا فَلَنْ أَسِيرَ فِي وَسَطِكُمْ لأَنَّكُمْ شَعْبٌ مُتَصَلِّبُ الْقَلْبِ لِئَلاَّ أُفْنِيكُمْ فِي الطَّرِيقِ». ٤فَلَمَّا سَمِعَ الشَّعْبُ هَذَا الْكَلامَ الْقَاسِي، شَرَعُوا فِي النَّوْحِ، وَلَمْ يَتَزَيَّنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ. ٥وَكَانَ الرَّبُّ قَدْ قَالَ لِمُوسَى: «قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْتُمْ شَعْبٌ مُتَصَلِّبُ الْقَلْبِ، لِهَذَا إِنْ بَقِيتُ لَحْظَةً وَاحِدَةً فِي وَسَطِكُمْ أُفْنِيكُمْ. وَلَكِنِ الآنَ انْزَعُوا زِينَتَكُمْ عَنْكُمْ إِلَى أَنْ أَتَّخِذَ قَرَارِي بِشَأْنِكُمْ». ٦فَخَلَعَ الشَّعْبُ زِينَتَهُمْ عِنْدَ جَبَلِ حُورِيبَ[1].

لوحا الشريعة الجديدان

قال الرب لموسى، انحت لوحين من الحجر مثل الأوّلين لأكتب لك عليهما ما كتبته على اللوحين السابقين، وامثل أمامي على قمة الجبل ولا يصعد معك أحد. نحت موسى اللوحين وبكّر في الصباح فصعد الجبل حسب أمر الرب له.

٣٤- لوحا الشريعة الجديدان

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْحَتْ لَكَ لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ مِثْلَ اللَّوْحَيْنِ الأَوَّلَيْنِ. فَأَكْتُبَ أَنَا عَلَيْهِمَا الْكَلِمَاتِ الَّتِي دَوَّنْتُهَا عَلَى اللَّوْحَيْنِ الأَوَّلَيْنِ اللَّذَيْنِ

(١) سفر الخروج - ٣٣.

كَسَرْتَهُمَا. ٢وَتَأَهَّبْ فِي الصَّبَاحِ ثُمَّ اصْعَدْ إِلَى جَبَلِ سِينَاءَ، وَامْثُلْ أَمَامِي هُنَاكَ عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ. ٣وَلاَ يَصْعَدْ مَعَكَ أَحَدٌ، . . . . . ٤فَنَحَتَ مُوسَى لَوْحَيْنِ مِنْ حَجَرٍ مُمَاثِلَيْنِ لِلأَوَّلَيْنِ، وَبَكَّرَ فِي الصَّبَاحِ وَصَعِدَ إِلَى جَبَلِ سِينَاءَ حَسَبَ أَمْرِ الرَّبِّ(١).

التجلي الإلهي لموسى

نزل الرب بهيئة سحاب، وعبر من أمام موسى فخرّ موسى ساجدا، وطلب من الرب باستعطاف أن يرافقهم في سيرهم، وأن يعفو عن شعبه.

التجلي الإلهي

٥فَنَزَلَ بِهَيْئَةِ سَحَابٍ، وَوَقَفَ مَعَهُ هُنَاكَ حَيْثُ أَعْلَنَ لَهُ اسْمَهُ: «الرَّبُّ»، ٦وَعَبَرَ مِنْ أَمَامِ مُوسَى. . . . . ٨فَخَرَّ مُوسَى فِي الْحَالِ وَسَجَدَ، ٩وَقَالَ: «إِنْ حَظِيتُ بِرِضَاكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ، فَلْيُرَافِقْنَا الرَّبُّ فِي مَسِيرِنَا. وَمَعَ أَنَّ هَذَا الشَّعْبَ مُتَصَلِّبُ الْقَلْبِ. لَكِنِ اصْفَحْ عَنْ إِثْمِنَا وَخَطِيئَتِنَا وَاتَّخِذْنَا خَاصَّةً لَكَ»(٢).

أجاب الرب موسى بأن هذا الشعب سوف يرى ما سأفعله من معجزات لهم إن هم أطاعوا ما أوصيك به اليوم، وأنه سوف يطرد من أمامهم شعوب هذه البلاد التي هم سائرون إليها، وأمره أن يحذّرهم من أن يعقدوا معهم عهدا، بل عليهم أن يهدموا مذابحهم، وأن يقطعوا أشجارهم التي يقدّسونها.

عهد ووصايا وتحذيرات

١٠فَأَجَابَ الرَّبُّ: «هَا أَنَا أُبْرِمُ مَعَكَ مِيثَاقاً، فَأُجْرِي أَمَامَ جَمِيعِ شَعْبِكَ مُعْجِزَاتٍ لَمْ يُجْرَ مَثِيلُهَا فِي جَمِيعِ أُمَمِ الأَرْضِ كُلِّهَا، . . . . . ١١وَلَكِنْ أَطِعْ

---

(١) (٢) سفر الخروج - ٣٤.

مَا أَوْصَيْتُكَ الْيَوْمَ بِهِ. هَا أَنَا طَارِدٌ مِنْ أَمَامِكَ الأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. ١٢إِيَّاكَ أَنْ تَعْقِدَ مُعَاهَدَةً مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ مَاضٍ إِلَيْهَا لِئَلاَّ يَكُونُوا شَرَكاً لَكُمْ. ١٣بَلِ اهْدِمُوا مَذَابِحَهُمْ، وَاكْسِرُوا أَنْصَابَهُمْ، وَاقْطَعُوا أَشْجَارَهُمُ الْمُقَدَّسَةَ..... (١)

تذمُّر الشعب بسبب المنّ

وحدث أن تذمّر الشعب من طول ما اعتمدوا على المنّ وحده في غذائهم، واشتهوا اللحم والسمك والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم كما تعوّدوا أن يأكلوا في مصر. وكان المنّ ينزل إليهم مع الندى، فيجمعونه ويطحنونه ويطبخونه أو يخبزونه على الحجارة المُحمّاة ويأكلونه مثل القطايف، ولكنهم سئموا من أكله. تذمر الشعب ووصف للمن.

٤وَاشْتَهَى أَخْلاَطُ الأُمَمِ الْمُقِيمِينَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِمَّنْ خَرَجُوا مَعَهُمْ مِنْ مِصْرَ، طَعَامَ مِصْرَ، فَعَادَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَبْكُونَ قَائِلِينَ: «مَنْ يُطْعِمُنَا لَحْماً؟ ٥لَقَدْ تَذَكَّرْنَا سَمَكَ مِصْرَ الَّذِي كُنَّا نَأْكُلُهُ مَجَّاناً، وَالْقِثَّاءَ وَالْبَطِّيخَ وَالْكُرَّاتَ وَالْبَصَلَ وَالثُّومَ، ٦أَمَّا الآنَ فَقَدْ فَقَدْنَا شَهِيَّتَنَا وَهَزُلْنَا، وَلَيْسَ أَمَامَ أَعْيُنِنَا سِوَى هَذَا الْمَنِّ». ٧وَكَانَ الْمَنُّ فِي حَجْمِ بُذُورِ الْكُزْبَرَةِ، وَشَكْلُهُ مُمَاثِلاً لِلْمُقْلِ. ٨وَكَانَ الشَّعْبُ يَطُوفُونَ لِيَجْمَعُوهُ ثُمَّ يَطْحَنُونَهُ بِالرَّحَى أَوْ يَدُقُّونَهُ فِي الْهَاوَنِ وَيَطْبُخُونَهُ فِي الْقُدُورِ أَوْ يَخْبِزُونَهُ عَلَى حِجَارَةٍ مُحْمَاةٍ. وَكَانَ طَعْمُهُ كَطَعْمِ قَطَائِفَ بِزَيْتٍ. ٩وَكَانَ الْمَنُّ يَنْزِلُ بِنُزُولِ النَّدَى عَلَى الْمُخَيَّمِ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ(٢).

وكان موسى في حيرة من أمره؛ فالشعب غاضب عليه من جهة، والرب غاضب على الشعب من جهة أخرى ولا يدري ماذا يفعل بلا معونة من الرب. قال موسى للرب هل أستطيع وحدي تحمّل مسئولية هذا الشعب كما يحمل الأب مسئولية رضيعه؟ من أين أجئ بلحم يكفيهم جميعا؟ إن لم تساعدني فالموت أحسن لي من الحال التي أنا فيها.

---

(١) سفر الخروج - ٣٤.

(٢) سفر العدد - ١١.

شكوى موسى للرب

١٠فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَى بُكَاءَ جَمِيعِ أَفْـرَادِ الشَّعْبِ، كُلٌّ أَمَامَ بَابِ خَيْمَتِهِ،
وَرَأَى احْتِدَامَ غَـضَبِ الرَّبِّ الشَّدِيدِ اعْتَـرَاهُ الاسْتِيَاءُ. ١١فَقَـالَ مُوسَى لِلرَّبِّ:
«لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى عَبْدِكَ وَلَمْ تَرْضَ عَنْهُ حَتَّى إِنَّكَ حَمَّلْتَـهُ مَسْئُولِيَّةَ هَذَا الشَّعْبِ؟
١٢أَلَعَلِّي حَبِلْتُ بِهِ أَوْ وَلَدْتُهُ، حَتَّى تَقُولَ لِي احْمِلْهُ فِي حِضْنِكَ كَـمَا يَحْمِلُ
الْمُرَبِّي الرَّضِـيعَ، وَقُدْهُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِـي وَعَدْتَ بِهَـا آبَاءَهُ. ١٣مِنْ أَيْنَ أَجِيءُ
بِلَحْمٍ يَكْفِي جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ؟ فَـإِنَّهُمْ يَبْكُونَ إِلَيَّ قَائِلِينَ: أَعْطِنَا لَحْماً لِنَأْكُلَ.
١٤إِنَّنِي عَاجِـزٌ عَنْ حَمْلِ عِبْءِ هَذَا الـشَّعْبِ وَحْدِي لأَنَّهُ ثَقِـيلٌ عَلَيَّ. ١٥إِنْ
كُنْتَ سَتُعَامِلُنِي هكَذَا، فَاقْتُلْنِي، إِنْ حَظِيتُ بِرِضَاكَ، فَلاَ أَشْهَدُ بَلِيَّتِي»[1].

ولما اشتكى موسى للرب من ثقل المسئولية التي يحملها، أمره أن يجمع سبعين رجلا من شيوخ بني إسرائيل، ويأتي بهم إلى خيمة الاجتماع، فيأخذ الرب من الروح التي أنزلها على موسى، ويضعها عليهم من أجل أن يصيروا مساعدين له في تسيير أمور الشعب، وأمره أن يقول للشعب أن الرب سوف يعطيهم غدا لحما ليأكلوه مدة شهر كامل حتى يعافوه.

جواب الرب لموسى

١٦فَقَـالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اجْمَـعْ إِلَيَّ سَبْعِـينَ رَجُلاً مِنْ رُؤَسَاءِ إِسْـرَائِيلَ
مِمَّنْ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ حَقّاً شُيُوخُ الشَّعْبِ وَعُرَفَـاؤُهُ، وَأَقْبِلْ بِهِمْ إِلَى خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ
لِيَمْثُلُوا مَعَكَ هُنَاكَ. ١٧ فَأَنْزِلَ وَأُخَاطِبَكَ هُنَاكَ، وَآخُذَ مِنَ الرُّوحِ الَّذِي عَلَيْكَ
وَأَضَعَ عَلَيْـهِمْ، فَيُعِـينُونَكَ فِي حَمْلِ مَـسْئُولِيَّةِ الشَّـعْبِ، فَلاَ تَحْمِـلُهَا أَنْتَ
وَحْدَكَ. ١٨وَقُلْ لِلشَّعْبِ، أَنْ يَتَقَدَّسُوا لِلْغَدِ، فَـيَأْكُلُوا لَحْماً، لأَنَّكُمْ قَدْ بَكَيْتُمْ
فِي أُذُنَي الرَّبِّ مُتَـسَائِلِينَ: مَنْ يُطْعِمُنَا لَحْـماً؟ لَقَدْ كَانَ لَنَا خَيْـرٌ فِي مِصْرَ. إِنَّ

---

(١) سفر العدد - ١١.

الرَّبَّ سَيُعْطِيكُمْ لَحْماً فَتَأْكُلُونَ. ١٩وَسَتَأْكُلُونَهُ لاَ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ، وَلاَ لِيَوْمَيْنِ، وَلاَ لِخَمْسَةِ أَيَّامٍ أَوْ لِعَشَرَةِ أَيَّامٍ وَلاَ لِعِشْرِينَ يَوْماً، ٢٠بَلْ لِشَهْرٍ كَامِلٍ إِلَى أَنْ تَعَافُوهُ وَيَخْرُجَ مِنْ أُنُوفِكُمْ، . . . . . .(١)

إرسال السلوى

وهبت ريح من جهة البحر مُحَمّلة بكميات هائلة من طير السمّاني وأسقطتها على المخيّم، وهبّ الشعب يلتقطون الطير، ويأكلون ما طاب لهم منه، وينشرون الباقي حول المخيّم ليجف.

٣١فَهَبَّتْ رِيحٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ سَاقَتِ السُّمَانِيَ مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ وَأَسْقَطَتْهَا عَلَى الْمُخَيَّمِ، . . . . . ٣٢فَهَبَّ الشَّعْبُ طَوَالَ ذَلِكَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَكُلَّ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي يَلْتَقِطُونَ السُّمَانِيَ. . . . . ثُمَّ نَشَرُوهَا حَوْلَ الْمُخَيَّمِ لِتَجِفَّ. . . . . ٣٥ثُمَّ ارْتَحَلَ الشَّعْبُ مِنْ قَبَرُوتَ هَتَّأَوَةَ إِلَى حَضَيْرُوتَ وَمَكَثُوا فِيهَا(٢).

استكشاف أرض كنعان

وأمر الرب موسى أن يرسل الجواسيس لاستطلاع أرض كنعان، فاختار موسى رؤساء الشعب ليقوموا بهذه المهمة، وأمرهم أن يستكشفوا أوضاع البلاد، ويتحسّسوا مدى قوة شعوبها وطبيعة أرضها ومبانيها، وطلب منهم أن يحضروا معهم عيّنة من ثمار الأرض. ومضى الجواسيس في مهمّتهم؛ فاجتازوا صحراء النقب إلى مشارف حماة، ثم قدموا إلى وادي أشكول وقطفوا بعضا من العنب والتين والرُمّان كما أمر موسى.

١٣- استكشاف أرض كنعان

ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: ٢«أَرْسِلْ جَوَاسِيسَ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا وَاهِبُهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. أَرْسِلْ رَئِيساً مِنْ كُلِّ سِبْطٍ مُمَثِّلاً لَهُ». ٣فَأَرْسَلَ مُوسَى مُمَثِّلِي الشَّعْبِ الرُّؤَسَاءَ مِنْ صَحْرَاءِ فَارَانَ طِبْقاً لأَمْرِ الرَّبِّ. . . . ١٧وَعِنْدَمَا

---

(١) (٢) سفر العدد - ١١.

أَطْلَقَهُمْ مُوسَى لِيَتَجَسَّسُوا أَرْضَ كَنْعَانَ قَالَ لَهُمْ: «انْطَلِقُوا مِنْ هُنَا نَحْوَ الْجُنُوبِ، ثُمَّ اصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ، ١٨وَاسْتَكْشِفُوا الْبِلاَدَ وَأَوْضَاعَهَا. . . . . وَأَحْضِرُوا عَيِّنَةً مِنْ ثَمَرِ الأَرْضِ« . . . . . ٢١فَمَضَوْا وَتَجَسَّسُوا الأَرْضَ، ابْتِدَاءً مِنْ صَحْرَاءِ صِينَ إِلَى رَحُوبَ عَلَى مَشَارِفِ حَمَاةَ. ٢٢وَاجْتَازُوا صَحْرَاءَ النَّقَبِ حَتَّى وَصَلُوا حَبْرُونَ. . . . . ٢٣ثُمَّ قَدِمُوا عَلَى وَادِي أَشْكُولَ، فَقَطَفُوا فَرْعاً مِنْ كَرْمَةٍ عِنَبٍ فِيهِ عُنْقُودٌ وَاحِدٌ، حَمَلُوهُ بِعَصاً عَلَى كَتِفَيِ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ، فَضْلاً عَنْ شَيْءٍ مِنَ التِّينِ وَالرُّمَّانِ. . . . .(١)

وبعد أربعين يوما عاد الجواسيس من مهمّتهم، فأخبروا موسى بما رأوا على مسمع من جميع الشعب، وقالوا: إن الأرض فعلا تفيض لبنا وعسلا، لكن مدنها منيعة وأهلها جبابرة.

تقرير عن استكشاف الأرض

٢٥وَبَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْماً رَجَعُوا مِنِ اسْتِكْشَافِ الأَرْضِ. ٢٦فَأَقْبَلُوا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ وَسَائِرِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ فِي صَحْرَاءِ فَارَانَ فِي قَادَشَ، وَبَلَّغُوهُمْ بِمَا شَاهَدُوهُ، وَأَرَوْهُمْ ثَمَرَ الأَرْضِ. ٢٧وَقَالُوا: «قَدِ انْطَلَقْنَا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرْسَلْتَنَا إِلَيْهَا، فَوَجَدْنَاهَا تَفِيضُ حَقّاً لَبَناً وَعَسَلاً، وَهَذِهِ هِيَ ثِمَارُهَا، ٢٨غَيْرَ أَنَّ الشَّعْبَ الْمُسْتَوْطِنَ فِيهَا بَالِغُ الْقُوَّةِ وَمُدُنُهُ مَنِيعَةٌ وَعَظِيمَةٌ جِداً. . . . .(٢)

حاول أحد الجواسيس المدعو كالب أن يُخفّف من ذعر الشعب، ويحثّهم على المضي لغزو تلك البلاد اتكالا على نصر الله لهم، لكن بقية الجواسيس أشاعوا الذعر بينهم؛ مهوّلين من قوة أهل تلك البلاد.

تخاذل الجواسيس

٣٠وَلَكِنَّ كَالِبَ هَدَّأَ رَوْعَ الشَّعْبِ الْمَاثِلِ أَمَامَ مُوسَى وَقَالَ: «لِنَمْضِ وَنَمْتَلِكِ الأَرْضَ لأَنَّنَا قَادِرُونَ حَقّاً عَلَى ذَلِكَ». ٣١فَعَارَضَهُ الرِّجَالُ الَّذِينَ كَانُوا

(١) (٢) سفر العدد - ١٣.

مَعَهُ وَقَالُوا: «لاَ نَقْدِرُ أَنْ نُقَاوِمَ سُكَّانَهَا لأَنَّهُمْ أَقْوَى مِنَّا». ٣٢وَبِذَلِكَ أَشَاعُوا الذُّعْرَ بَيْنَ الإِسْرَائِيلِيِّينَ مِنَ الْبِلاَدِ الَّتِي تَجَسَّسُوهَا قَائِلِينَ: «سَتَفْتَرِسُنَا الأَرْضُ الَّتِي تَجَسَّسْنَاهَا، وَجَمِيعُ مَنْ شَاهَدْنَاهُمْ مِنْ سُكَّانِهَا عَمَالِقَةٌ. ٣٣فَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ بَنِي عَنَاقَ، فَبَدَوْنَا فِي أَعْيُنِ أَنْفُسِنَا كَالْجَرَادِ، وَكَذَلِكَ كُنَّا فِي عُيُونِهِمْ»(١).

تمرّد بني إسرائيل

بكى الشعب من شدة الخوف، وتذمّروا على موسى وهارون، وقالوا فلنرجع إلى مصر فنموت هناك خيرا من أن نموت بحد السيف. وأمام هذا الموقف المخزي من الشعب، خرّ موسى وهارون على وجهيهما أمام جميع الشعب، ومزّق كل من يشوع بن نون وكالب بن يفنة ثيابهما حزنا؛ وهم يقولون للناس إن الأرض بها خيرات عظيمة، فإن نلنا رضا الرب فسوف يساعدنا على دخولها فهو قد وهبها لنا ولا بد أن يحقق وعده.

١٤- تمرد أبناء إسرائيل

فَرَفَعَ الشَّعْبُ كُلُّهُ صَوْتَهُ وَبَكَى فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ٢وَتَذَمَّرَ عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ، وَقَالُوا: «لَيْتَنَا مُتْنَا فِي دِيَارِ مِصْرَ، أَوْ لَيْتَنَا مُتْنَا فِي الصَّحْرَاءِ.....
أَلَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مِصْرَ؟» ٤وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لِنَنْتَخِبْ لَنَا قَائِداً وَنَرْجِعْ إِلَى مِصْرَ». ٥فَخَرَّ مُوسَى وَهَرُونُ عَلَى وَجْهَيْهِمَا أَمَامَ جَمِيعِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ، ٦وَمَزَّقَ يَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ ثِيَابَهُمَا، وَهُمَا مِمَّنْ تَجَسَّسُوا الأَرْضَ، ٧وَقَالاَ لِكُلِّ الشَّعْبِ: «إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي اجْتَزْنَا فِيهَا هِيَ أَرْضٌ خَيْرَاتٍ عَظِيمَةٍ جِداً. ٨فَإِنْ رَضِيَ عَنَّا الرَّبُّ يُدْخِلْنَا إِلَيْهَا وَيَهَبْهَا لَنَا، أَرْضاً تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً. ٩إِنَّمَا لاَ تَتَمَرَّدُوا عَلَى الرَّبِّ وَلاَ تَجْزَعُوا مِنْ شَعْبِ الأَرْضِ، لأَنَّنَا سَنَبْتَلِعُهُمْ كَالْخُبْزِ، فَقَدْ تَلاَشَى ظِلُّ الْحِمَايَةِ عَنْهُمْ، وَالرَّبُّ مَعَنَا فَلاَ تَرْهَبُوهُمْ»(٢).

(١) سفر العدد - ١٣.

(٢) سفر العدد - ١٤.

غضب الرب على بني إسرائيل

احتدم غضب الشعب على يشوع وكالب، وطالبا برجمهما بالحجارة؛ غير أن مجد الرب تجلّى في خيمة الاجتماع على مرأى من الشعب كله، وقال لموسى إن هذا الشعب إذا استمر في الاستهانة بي، وعدم الإيمان بمعجزاتي، فإنني سوف أبيدهم بالوباء وأجعل منك شعبا أكبر وأعظم منهم.

غضب الرب

١٠وَلَكِنَّ الشَّعْبَ طَالَبَ بِرَجْمِهِمَا بِالْحِجَارَةِ. غَيْرَ أَنَّ مَجْدَ الرَّبِّ ظَهَرَ فِي خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ عَلَى مَرْأَى مِنْهُمْ جَمِيعاً. ١١وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «إِلَى مَتَى يَمْعَنُ هَذَا الشَّعْبُ فِي إِهَانَتِي، وَإِلَى مَتَى لاَ يُصَدِّقُونَنِي عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُعْجِزَاتِي الَّتِي أَجْرَيْتُهَا فِي وَسَطِهِمْ؟ ١٢سَأُبِيدُهُمْ بِالْوَبَإِ، وَأَجْعَلُكَ شَعْباً أَكْبَرَ وَأَعْظَمَ مِنْهُمْ»(١).

قال موسى للرب إنك إن أهلكت هذا الشعب دفعة واحدة فإن الأمم التي سمعت بمعجزاتك التي أجريتها لتأييدهم، سوف يقولون أنك عجزت عن أن تدخلهم الأرض التي وعدتهم بها فأهلكتهم في الصحراء. أما وأنت الرب الرحيم غافر الذنب، فإنني أرجوك أن تصفح عن هذا الشعب كما عوّدتنا دائما.

تشفع موسى

١٣فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: . . . . . ١٥فَإِنْ أَهْلَكْتَ هَذَا الشَّعْبَ دَفْعَةً
وَاحِدَةً، فَإِنَّ الأُمَمَ الَّتِي سَمِعَتْ بِخَبَرِكَ تَقُولُ ١٦إِنَّكَ قَدْ عَجَزْتَ عَنْ أَنْ
تُدْخِلَ هَذَا الشَّعْبَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ بِهَا، فَأَهْلَكْتَهُمْ فِي الصَّحْرَاءِ.
١٧وَالآنَ لِتَتَعَظَّمْ قُدْرَةُ سَيِّدِي كَمَا نَطَقْتَ قَائِلاً: ١٨الرَّبُّ طَوِيلُ الأَنَاةِ، وَافِرُ
الرَّحْمَةِ، يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَالسَّيِّئَةَ. . . . . . ١٩فَاصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ هَذَا الشَّعْبِ
بِحَسَبِ نِعْمَتِكَ، وَاغْفِرْ لَهُ كَمَا غَفَرْتَ ذُنُوبَهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى هُهُنَا»(٢).

(١) (٢) سفر العدد - ١٤.

عقابُ الرب لبني إسرائيل

أجاب الربُّ على شفاعة موسى بأن عفا عنهم، ولكنه أقسم أن لا يروا الأرض التي وعد آباءهم بها، وأنهم لن يدخلوها لأنهم استخفّوا به رغم معجزاته التي أجراها أمامهم. واستثنى كالب من هذا الحرمان، ووعد أن يدخله إلى الأرض التي ذهب ليستكشفها وأن يرثها نسله من بعده.

عقاب بني إسرائيل

٢٠فَأَجَابَ الرَّبُّ: «قَدْ صَفَحْتُ بِحَسَبِ قَوْلِكَ. ٢١وَلَكِنْ كَمَا أَنَا حَقّاً
حَيٌّ، وَكَمَا أَنَّ مَجْدَ الرَّبِّ حَقّاً يَمْلأُ الأَرْضَ، ٢٢فَإِنَّ جَمِيعَ الرِّجَالِ الَّذِينَ
عَايَنُوا مَجْدِي وَمُعْجِزَاتِي الَّتِي أَجْرَيْتُهَا فِي مِصْرَ وَفِي الصَّحْرَاءِ، وَجَرَّبُونِي
عَشْرَ مَرَّاتٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُطِيعُوا قَوْلِي، ٢٣لَنْ يَرَوْا الأَرْضَ الَّتِي وَعَدْتُ بِهَا
آبَاءَهُمْ. جَمِيعُ الَّذِينَ اسْتَخَفُّوا بِي، لَنْ يُشَاهِدُوهَا. ٢٤وَلَكِنْ لأَنَّ فِي عَبْدِي
كَالِبَ رُوحاً مُخْتَلِفَةً، وَقَدْ تَبِعَنِي بِكُلِّ قَلْبِهِ، فَسَأُدْخِلُهُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي ذَهَبَ
إِلَيْهَا، وَسَيَرِثُهَا نَسْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ[1].

أمر الربُّ موسى أن يرجع ببني إسرائيل إلى الصحراء في اتجاه البحر الأحمر، وأقسم أن يجعل جثثهم تتساقط في الصحراء من ابن عشرين سنة فما فوق، وأن يمكثوا في الصحراء أربعين سنة حتى تبلى جثثهم، وأن أولادهم سوف يدخلون تلك الأرض التي جبنوا هم عن دخولها.

. . . . . ٢٥وَبِمَا أَنَّ الْعَمَالِقَةَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ سَاكِنُونَ فِي الْوِدْيَانِ، فَارْجِعُوا
غَداً إِلَى الصَّحْرَاءِ فِي اتِّجَاهِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ». ٢٦قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَرُونَ:
٢٧«إِلَى مَتَى أَصْفَحُ عَنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الشِّرِّيرَةِ الْمُتَذَمِّرَةِ عَلَيَّ؟ لَقَدْ سَمِعْتُ
تَذَمُّرَهُمْ عَلَيَّ، ٢٨فَقُلْ لَهُمْ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ، لأُنْزِلَنَّ بِكُمْ كُلَّ مَا تَكَلَّمْتُمْ
بِهِ فِي مَسْمَعِي. ٢٩إِذْ تَتَسَاقَطُ جُثَثُكُمْ فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ، مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً
فَمَا فَوْقُ مِمَّنْ تَمَّ إِحْصَاؤُهُمْ وَتَذَمَّرُوا عَلَيَّ. ٣٠لَنْ تَدْخُلُوا الأَرْضَ الَّتِي

(١) سفر العدد - ١٤.

وَعَدْتُ رَافعاً يَدِي بِـقَسَمٍ أَنْ أُسْكِنَكُمْ فِيهَا، مَا عَـدَا كَالِبَ بنَ يَفُنَّةَ وَيَشُوعَ بْنَ
نُونَ. ٣١غَيْرَ أَنِّي سَأُدْخِلُ إِلَيْهَا أَوْلاَدَكُمُ الَّذِينَ ادَّعَـيْتُمْ أَنَّهُمْ يُصْبِحُونَ أَسْرَى،
فَيَتَمَتَّـعُونَ بِالأَرْضِ الَّتِي احْتَقَرْتُمُوهَا. ٣٢أَمَّا أَنْتُمْ فَإِنَّ جُـثَثَكُمْ تَتَسَاقَطُ فِي هَذَا
الْقَفْرِ، ٣٣وَيَبْقَى بَنُوكُمْ فِي الصَّحْرَاءِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، تُعَانُونَ مِنْ فُجُورِكُمْ، حَتَّى
تَبْلَى جُثَـثُكُمْ فِيـهَا. ٣٤وَتَحْمِـلُونَ أَوْزَارَكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً. كُلُّ يَوْمٍ بِسَنَةٍ، عَلَى
عَدَدِ الأَيَّامِ الأَرْبَعِينَ الَّتِي تَـجَسَّسْتُمْ فِـيهَا الأَرْضَ، فَـتُدْرِكُونَ عَـاقِبَةَ ابْتِـعَادِي
عَنْكُمْ. ٣٥أَنَا الرَّبُّ قَدْ تَكَلَّمْتُ، وَهَذَا مَـا سَأُعَاقِبُ بِهِ هَذِهِ الْجَمَـاعَةَ الشِّرِّيرَةَ
الْمُتَآمِرَةَ عَلَيَّ: فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ يَفْنَوْنَ وَيَمُوتُونَ»(١).

أما الجواسيس الذين أثاروا الشعب، فـقد أماتهم الرب بالوباء عقابا لهم على تخويف الشعب، ولم يعش منهم إلا يشوع بن نون وكالب بن يفنة.

. . . . . ٣٦أَمَّا الْجَوَاسِيسُ الَّذِينَ أَرْسَلَـهُمْ مُوسَى لاسْتِكْشَافِ الأَرْضِ،
فَرَجَعُوا فَأَثَارُوا عَلَيْهِ الشَّعْبَ بِمَا رَوَّجُـوهُ مِنْ أَخْبَارٍ سَيِّئَةٍ عَنِ الأَرْضِ، ٣٧فَقَدْ
أَمَاتَهُمُ الرَّبُّ بِالْوَبَأ عِقَـاباً لَهُمْ ٣٨وَلَمْ يَعِشْ مِنْهُمْ إِلاَّ يَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ
يَفُنَّةَ(٢).

لما أبلغ موسى كلام الرب لبني إسـرائيل، بكوا بكاء شديدا، وقرروا أن يصحّحوا خطأهم مع الرب؛ بأن يذهبوا حيث أمرهم، لكن موسى أمرهم أن لا يعصوا أمر الرب مرة ثانية لأنه لن يكون مـعهم، وحذّرهم حتى لا ينهزموا أمام أعـدائهم المتربّصين بهـم، لكنهم تجاهلوا كـلام موسى، وارتقـوا الجبل، فانقض عليهم العمالقة والكنعانيون سكان الجبل وأجبروهم على الفرار.

انهزام بني إسرائيل

٣٩وَلَمَّا أَبْلَغَ مُـوسَى هَذَا الْكَلاَمَ إِلَى جَـمِـيعِ بَنِي إِسْـرَائِيلَ بَكَوْا جِـداً.
٤٠وَفِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ صَـعِدُوا إِلَى رَأْسِ الْجَبَلِ قَائِلِينَ: «هَا نَحْنُ قَدْ أَخْطَأْنَا،
فَلْنَمْضِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ الرَّبُّ». ٤١فَقَالَ مُوسَى: «لِمَاذَا تَعْصَوْنَ أَمْرَ

(١) (٢) سفر العدد - ١٤.

الرَّبِّ؟ إِنَّ عَمَلَكُمْ هَذَا لَنْ يُفْلِحَ. ٤٢لاَ تَنْطَلِقُوا لِئَلاَّ تَنْهَزِمُوا أَمَامَ أَعْدَائِكُمْ،
لأَنَّ الرَّبَّ لَيْسَ فِي وَسَطِكُمْ، ٤٣فَالْعَمَالِقَةُ وَالْكَنْعَانِيُّونَ مُتَرَبِّصُونَ بِكُمْ هُنَاكَ
فَتَهْلِكُونَ بِحَدِّ السَّيْفِ، لأَنَّكُمْ قَدِ ارْتَدَدْتُمْ عَنِ الرَّبِّ وَلَنْ يَكُونَ الرَّبُّ مَعَكُمْ».
٤٤لَكِنَّهُمْ، فِي غَطْرَسَتِهِمْ، ارْتَقَوْا إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، . . . . . غَيْرَ أَنَّ تَابُوتَ عَهْدِ
الرَّبِّ وَمُوسَى لَمْ يَبْرَحَا مِنْ وَسَطِ الْمُخَيَّمِ. ٤٥فَانْقَضَّ عَلَيْهِمِ الْعَمَالِقَةُ
وَالْكَنْعَانِيُّونَ الْمُقِيمُونَ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ، وَهَاجَمُوهُمْ وَتَعَقَّبُوهُمْ إِلَى «حُرْمَةَ»(١).

عقاب الرب لموسى و هارون

ولم يكن هناك ماء للشرب، فاحتج بنو إسرائيل على موسى وهارون وهم يقولون ليتنا هلكنا كإخواننا الذين أهلكهم الرب من قبل ولا أن نهلك نحن ومواشينا في هذه الصحراء. تضرّع موسى للرب، فقال له الرب خذ العصا واجمع الشعب أنت وأخوك هارون حول الصخرة، وأمُرا الصخرة أن تُخرج الماء أمام جميع الشعب فيخرج الماء ويشرب الجميع. لما جمع موسى الشعب كما أمر الرب قال مغضبا أيها المتمرِّدون كيف لنا أن نخرج لكم ماء من هذه الصخرة !! ثم رفع عصاه وضرب بها الصخرة مغضبا فتفجّر منها ماء غزير.

ماء من الصخرة

٢وَإِذْ لَمْ يَتَوَافَرْ مَاءٌ لِلشَّعْبِ اجْتَمَعُوا عَلَى مُوسَى وَهَرُونَ، ٣وَخَاصَمُوا
مُوسَى قَائِلِينَ لَهُ: «لَيْتَنَا هَلَكْنَا كَإِخْوَتِنَا الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الرَّبُّ. ٤لِمَاذَا قُدْتُمَا
شَعْبَ الرَّبِّ إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ، لِكَيْ نَمُوتَ فِيهَا نَحْنُ وَمَوَاشِينَا؟ ٥لِمَاذَا
أَخْرَجْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِتَأْتِيَا بِنَا إِلَى هَذَا الْمَكَانِ الْقَاحِلِ، حَيْثُ لاَ زَرْعَ فِيهِ وَلاَ
تِينَ وَلاَ كَرْمَ وَلاَ رُمَّانَ وَلاَ مَاءَ لِلشُّرْبِ؟» ٦فَافْتَرَقَ مُوسَى وَهَرُونُ عَنِ
الْجَمَاعَةِ، وَقَدِمَا إِلَى مَدْخَلِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ حَيْثُ انْطَرَحَا عَلَى وَجْهَيْهِمَا،

(١) سفر العدد - ١٤.

فَتَرَاءَى لَهُمَا مَجْدُ الرَّبِّ، ٧وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: ٨»خُذ الْعَصَا، وَاجْمَع الشَّعْبَ
أَنْتَ وَأَخُوكَ هَرُونُ وَأْمُرَا الصَّخْرَةَ عَلَى مَشْهَد مِنْهُمْ أَنْ تُعْطِي مَاءَهَا، فَتُخرِجَ
لَهُمْ مَاءً مِنَ الصَّخْرَة فَيَشْرَبَ الشَّعْبُ وَمَوَاشِيهِمْ». ٩فَأَطَاعَ مُوسَى وَأَخَذَ الْعَصَا
مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ، ١٠وَجَمَعَ مُوسَى وَهَرُونُ الشَّعْبَ عِنْدَ الصَّخْرَة وَقَالاَ لَهُمْ:
«اسْمَعُوا أَيُّهَا الْمُتَمَرِّدُونَ، أَعَلَيْنَا أَنْ نُخْرِجَ لَكُمْ مِنْ هَذه الصَّخْرَة مَاءً؟«
١١وَرَفَعَ مُوسَى يَدَهُ وَضَرَبَ الصَّخْرَةَ بِعَصَاهُ مَرَّتَيْنِ، فَتَفَجَّرَ مَاءٌ غَزِيرٌ، فَشَرِبَتِ
الْجَمَاعَةُ وَمَوَاشِيهَا[1].

غضب الرب على موسى وهارون بسبب ما قاله موسى أمام الشعب عندما أمره الرب أن يأمر الصخرة بإخراج الماء لكنه لم يأمرها بل ضربها بعصاه مخالفا لما أمر به الرب بعد أن قال ما قاله، وأعلن الرب لهما أنه قد حرمهما من دخول الأرض التي وهبها لهم. وتابع القوم ترحالهم نحو الصحراء كما أمر الرب، ومن أجل تقصير مسافة السير على الشعب، أرسل موسى إلى ملك أدوم يستأذنه في المرور بأرضه، لكنه رفض أن يأذن لهم، فتحولّوا عنه.

عقاب موسى وهرون

١٢فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَرُونَ: «مِنْ حَيْثُ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى
تُقَدِّسَانِي عَلَى مَرْأًى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنَّكُمَا لَنْ تُدْخِلاَ هَذَا الشَّعْبَ الأَرْضَ
الَّتِي وَهَبْتُهَا لَهُمْ». ١٣فَكَانَ هَذَا مَاءَ مَرِيبَةَ حَيْثُ خَاصَمَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ الرَّبَّ
فَأَظْهَرَ قَدَاسَتَهُ أَمَامَهُمْ. ١٤وَبَعَثَ مُوسَى رُسُلاً مِنْ قَادَشَ إِلَى مَلِك أَدُومَ
يَقُولُونَ لَهُ: «هَذَا مَا يَقُولُهُ لَكَ أَخُوكَ إِسْرَائِيلُ: قَدْ بَلَغَكَ مَا أَصَابَنَا مِنْ
مَشَقَّة، . . . . . ١٧فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَمُرَّ فِي أَرْضِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَدُوسَ فِي حَقْلٍ أَوْ
كَرْمٍ أَوْ نَشْرَبَ مَاءَ بِئْر، . . . . . ١٨فَقَالَ لَهُمْ مَلِكُ أَدُومَ: «إِيَّاكُمُ الْمُرُورَ بِأَرْضِي
لِئَلاَّ أُجَابِهَكُمْ بِالسَّيْف« . . . . . وَعَبَّأَ مَلِكُ أَدُومَ جَيْشاً قَوِيّاً وَخَرَجَ لِلِقَاءِ

(١) سفر العدد - ٢٠.

إِسْرَائِيلَ. ٢١وَأَبَى مَلِكُ أَدُومَ أَنْ يَأْذَنَ لِلإِسْرَائِيلِيِّينَ بِاجْتِيَازِ أَرَاضِيهِ. فَتَحَوَّلُوا عَنْهُ(١).

وفاة هارون

وعند جبل هور أمر الرب موسى أن يأخذ هارون وابنه العازار ويصعد بهما الجبل، وينزع ثياب هارون ويُلبسها لابنه لأن هذه ستكون نهاية هارون. وفعل موسى ما أمر به الرب، ولما توفّى الله هارون ودّعه موسى ونزل مع ألعازار.

وفاة هرون

٢٢وَارْتَحَلُوا جَمِيعُهُمْ مِنْ قَادَشَ حَتَّى أَقْبَلُوا عَلَى جَبَلِ هُورٍ. ٢٣وَقَالَ
الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَرُونَ فِي جَبَلِ هُورٍ عِنْدَ حُدُودِ أَرْضِ أَدُومَ: ٢٤«هَرُونُ لَنْ
يَلْبَثَ أَنْ يَمُوتَ، لأَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الأَرْضَ الَّتِي وَهَبْتُهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكُمْ
عَصَيْتُمْ كَلاَمِي عِنْدَ مَاءِ مَرِيبَةَ». ٢٥خُذْ هَرُونَ وَأَلِعَازَارَ ابْنَهُ وَاصْعَدْ إِلَى جَبَلِ
هُورٍ، ٢٦وَانْزِعْ عَنْ هَرُونَ ثِيَابَهُ وَأَلْبِسْهَا أَلِعَازَارَ ابْنَهُ، لأَنَّ هُنَاكَ يَمُوتُ
هَرُونُ». ٢٧فَفَعَلَ مُوسَى كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ، فَصَعِدُوا جَمِيعاً إِلَى الجَبَلِ عَلَى
مَرْأَى مِنَ الشَّعْبِ كُلِّهِ، ٢٨فَنَزَعَ مُوسَى ثِيَابَ هَرُونَ وَأَلْبَسَهَا أَلِعَازَارَ ابْنَهُ.
وَمَاتَ هَرُونُ هُنَاكَ عَلَى قِمَّةِ الجَبَلِ، ثُمَّ انْحَدَرَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ عَنِ الجَبَلِ(٢).

مواجهات في الطريق

بعث موسى رُسُلا إلى سيحون ملك الأموريين ليسمح لهم باجتياز أرضه إلى وجهتهم لكنه رفض، بل حشد جيشه وخرج للقائهم في الصحراء، فهزموه واستولوا على بلاده من أرنون حتى حدود العمونيِّين.

---

(١) (٢) سفر العدد - ٢٠.

انكسار سيحون

٢١وَبَعَثَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ رُسُلاً إِلَى سِيحُونَ مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ قَائِلِينَ:
٢٢«دَعْنَا نَجْتَزْ فِي أَرْضِكَ، فَلاَ نَمِيلُ إِلَى حَقْلٍ وَلاَ إِلَى كَرْمٍ، وَلاَ نَشْرَبُ مَاءَ
بِئْرٍ، بَلْ نَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ الْعَامَّةِ الْمُخَصَّصَةِ لِلسَّفَرِ حَتَّى نَعْبُرَ حُدُودَكَ. ٢٣فَلَمْ
يَأْذَنْ سِيحُونُ لِلإِسْرَائِيلِيِّينَ بِالْمُرُورِ فِي تُخُومِهِ، بَلْ حَشَدَ جَيْشَهُ وَخَرَجَ لِلقَائِهِمْ
إِلَى الصَّحْرَاءِ، وَحَارَبَهُمْ عِنْدَ يَاهَصَ، ٢٤فَهَزَمَهُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ بِحَدِّ السَّيْفِ،
وَاسْتَوْلَوْا عَلَى بِلاَدِهِ مِنْ أَرْنُونَ إِلَى يَبُّوقَ حَتَّى حُدُودِ الْعَمُّونِيِّينَ وَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا
لِمَنَاعَتِهَا. . . . .(١)

وتابع موسى توسُّعه في بلاد الأموريين، ثم توجّهوا إلى طريق باشان، فهبّ عوج ملك باشان لمواجهتهم، لكن الرب أسلمه إليهم، فقضوا عليه وعلى جميع أبناء قومه، ولم يُبْقوا منهم حي، وامتلكوا ديارهم.

هزيمة عوج

٣١فَأَقَامَ الإِسْرَائِيلِيُّونَ فِي بِلاَدِ الأَمُورِيِّينَ. ٣٢وَأَرْسَلَ مُوسَى لِيَسْتَكْشِفَ
مِنْطَقَةَ يَعْزِيرَ، وَمَا لَبِثَ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنِ اسْتَوْلَوْا عَلَى قُرَاهَا وَطَرَدُوا مِنْهَا
الأَمُورِيِّينَ، ٣٣ثُمَّ اتَّجَهُوا نَحْوَ طَرِيقِ بَاشَانَ. فَهَبَّ عُوجُ مَلِكُ بَاشَانَ مَعَ
جَمِيعِ قَوْمِهِ لِلِقَائِهِمْ فِي إِذْرَعِي وَمُحَارَبَتِهِمْ. ٣٤فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «لاَ تَخَفْ
مِنْهُ لأَنَّنِي قَدْ دَفَعْتُهُ لِيَدِكَ مَعَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَرْضِهِ، فَتَفْعَلُ بِهِ مَا فَعَلْتَهُ بِسِيحُونَ
مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ فِي حَشْبُونَ». ٣٥فَقَضَوْا عَلَيْهِ وَعَلَى أَبْنَائِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ
مِنْهُمْ حَيٌّ، وَامْتَلَكُوا دِيَارَهُ(٢).

خلافة يشوع لموسى

ولمّا قَرُب أجلُ موسى، أمره الرب أن يصعد إلى جبل عباريم ويتطلع إلى الأرض التي منحها الرب لبني إسرائيل، فيموت مثل أخيه هارون. قال موسى للرب ومن سيكون قائدا لهذا الشعب من بعدي؟ فأمره الرب أن يوقف

(١) (٢) سفر العدد - ٢١.

يشوع بن نون أمام ألعازار وجميع الشعب وأن يضع يده عليه، ويُسلِّمُه بعض سلطته؛ فيجعله الرب مطاعا من الجميع، فقام موسى بكل ما أمره به الرب.

خلافة يشوع لموسى

١٢وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «اصْعَدْ إِلَى جَبَلِ عَبَارِيمَ، وَانْظُرْ مِنْ عَبْرِ النَّهْرِ
إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. ١٣وَمَتَى شَاهَدْتَهَا تَمُوتُ وَتَنْضَمُّ إِلَى
قَوْمِكَ أَيْضاً، نَظِيرَ أَخِيكَ هَرُونَ. . . . . ١٥فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: ١٦«لِيُقِمِ
الرَّبُّ، إِلَهُ أَرْوَاحِ جَمِيعِ النَّاسِ، قَائداً لِلشَّعْبِ، ١٧يَخْرُجُ وَيَدْخُلُ أَمَامَهُمْ،
يَقُودُهُمْ وَيُرْجِعُهُمْ لِئَلاَّ تُصْبِحَ جَمَاعَةُ الرَّبِّ كَغَنَمٍ لاَ رَاعِيَ لَهَا». ١٨فَقَالَ
الرَّبُّ لِمُوسَى: «خُذْ يَشُوعَ بْنَ نُونَ، رَجُلاً فِيهِ رُوحُ الرَّبِّ، وَضَعْ يَدَكَ عَلَيْهِ.
١٩ثُمَّ أَوْقِفْهُ أَمَامَ أَلْعَازَارَ وَأَمَامَ الْجَمَاعَةِ كُلِّهَا، وَأَوْصِهِ بِحَضْرَتِهِمْ، ٢٠وَسَلِّمْهُ
بَعْضَ سُلْطَتِكَ، لِكَيْ يُطِيعَهُ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. . . . . ٢٢فَأَخَذَ مُوسَى
يَشُوعَ وَأَوْقَفَهُ أَمَامَ أَلْعَازَارَ الْكَاهِنِ وَسَائِرِ الْجَمَاعَةِ، ٢٣وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ
وَأَوْصَاهُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ(١).

القضاء على المديانيين

وأمر الرب موسى أن ينتقم من المديانيين وبعدها يموت، فأمر موسى بتجهيز المحاربين اللازمين لأداء تلك المهمة. وحاربوا المديانيين فانتصروا عليهم، وقضوا على كل ذكر فيهم بحد السيف كما أمر الرب، وأسروا نساءهم وأطفالهم وأحرقوا مدنهم كلها.

٣١- القضاء على المديانيين

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: ٢«انْتَقِمْ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَعْدَهَا تَمُوتُ
وَتَنْضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ». ٣فَقَالَ مُوسَى لِلشَّعْبِ: «جَهِّزُوا مِنْكُمْ رِجَالاً مُجَنَّدِينَ
لِمُحَارَبَةِ الْمِدْيَانِيِّينَ وَالانْتِقَامِ لِلرَّبِّ مِنْهُمْ(٢).

(١) سفر العدد - ٢٢.
(٢) سفر العدد ٣١.

. . . . . ٦فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى، أَلْفاً مِنْ كُلِّ سِبْطٍ، لِلْحَرْبِ. . . . .
٧فَحَارَبُوا الْمِدْيَانِيِّينَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ؛ ٨وَقَتَلُوا مَعَهُمْ مُلُوكَهُمُ الْخَمْسَةَ. . . . . بِحَدِّ السَّيْفِ. ٩وَأَسَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ الْمِدْيَانِيِّينَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَغَنِمُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَسَائِرَ أَمْلاَكِهِمْ، ١٠وَأَحْرَقُوا مُدُنَهُمْ كُلَّهَا بِمَسَاكِنِهَا وَحُصُونِهَا، ١١وَاسْتَوْلَوْا عَلَى كُلِّ الْغَنَائِمِ وَالأَسْلاَبِ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ، . . . . .(١)

ولما رجع المقاتلون بالأسرى، أبدى موسى سخطه عليهم لأنهم لم يقتلوا النساء مع من قتلوا؛ من حيث أنهن كن السبب في إغواء بني إسرائيل وجرِّهم لعبادة فغور. وأمرهم موسى بقتل جميع الذكور من الأطفال، وقتل كل امرأة ضاجعت رجلا، وأن يستبقوا لهم كل عذراء لم تضاجع رجلا.

تطهير المحاربين وقتل النساء الأسيرات

١٣فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ وَكُلُّ قَادَةِ إِسْرَائِيلَ لاِسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمُخَيَّمِ، ١٤فَأَبْدَى مُوسَى سَخَطَهُ عَلَى قَادَةِ الْجَيْشِ. . . . . ١٥وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا اسْتَحْيَيْتُمُ النِّسَاءَ؟ ١٦إِنَّهُنَّ بِاتِّبَاعِهِنَّ نَصِيحَةَ بَلْعَامَ أَغْوَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِعِبَادَةِ فَغُورَ، وَكُنَّ سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ، فَتَفَشَّى الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. ١٧فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ، وَاقْتُلُوا أَيْضاً كُلَّ امْرَأَةٍ ضَاجَعَتْ رَجُلاً، ١٨وَلَكِنِ اسْتَحْيُوا لَكُمْ كُلَّ عَذْرَاءَ لَمْ تُضَاجِعْ رَجُلاً. . . . .(٢)

وفاة موسى

وقال موسى لبني إسرائيل أنه قد بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، وأنه صار عاجزا عن قيادتهم، وأن الرب قد أخبره أنه لن يعبر الأردن، وأن يشوع سوف يقوم بقيادتهم لعبور نهر الأردن إلى الأرض الموعودة. واستدعى موسى

(١) (٢) سفر العدد - ٣١.

يشوعَ، وأوصاه بأن يكون شجاعا وهو ماض لمحاربة شعوب الأرض التي حلف الرب لآبائهم أن يهبها لهم.

٣١- خلافة يشوع

وَمَضَى مُوسَى يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ٢»أَنَا الْيَوْمَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْعُمْرِ مِئَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَصِرْتُ عَاجِزاً عَنْ قِيَادَتِكُمْ. وَقَدْ قَالَ الرَّبُّ لِي: لَنْ تَعْبُرَ هَذَا الأُرْدُنَّ. ٣وَلَكِنَّ الرَّبَّ إِلَهَكُمْ عَابِرٌ أَمَامَكُمْ، وَهُوَ يُبِيدُ تِلْكَ الأُمَمَ مِنْ قُدَّامِكُمْ فَتَرِثُونَهُمْ. وَسَيَكُونُ يَشُوعُ قَائِدَكُمْ كَمَا وَعَدَ الرَّبُّ...... ٧فَاسْتَدْعَى مُوسَى يَشُوعَ وَقَالَ لَهُ أَمَامَ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ: «تَقَوَّ وَتَشَجَّعْ، لأَنَّكَ أَنْتَ مَاضٍ مَعَ هَذَا الشَّعْبِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ الرَّبُّ لآبَائِهِمْ أَنْ يَهَبَهَا لَهُمْ، وَأَنْتَ تُوَزِّعُهَا عَلَيْهِمْ.....(١)

أمر الرب موسى أن يصعد إلى سلسلة جبال عباريم ويرتقي جبل نبو وينظر من هناك إلى أرض كنعان التي هو واهبها لبني إسرائيل، وأنه سوف يموت على الجبل كما مات أخوه هارون من قبل جزاء لهما لأنهما لم يثقا بالرب ولم يقدسانه كما ينبغي لما أمرهما أن يأمرا الحجر بإخراج الماء بل أعلنا يأسهما للشهب وضربا الحجر بغيظ.

الرب ينبيء موسى باقتراب موته

٤٨وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى فِي نَفْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ: ٤٩»اصْعَدْ إِلَى سِلْسِلَةِ جِبَالِ عَبَارِيمَ حَيْثُ جَبَلُ نَبُو الَّذِي فِي أَرْضِ مُوآبَ مُقَابِلَ أَرِيحَا، وَشَاهِدْ أَرْضَ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا وَاهِبُهَا مُلْكاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. ٥٠وَمُتْ فِي الْجَبَلِ الَّذِي تَصْعَدُ إِلَيْهِ، وَالْحَقْ بِقَوْمِكَ كَمَا مَاتَ أَخُوكَ هَرُونُ فِي جَبَلِ هُورٍ وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ. ٥١لأَنَّكُمَا لَمْ تَثِقَا بِي فِي حُضُورِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ عِنْدَ مَاءِ مَرِيبَةِ قَادِشَ فِي بَرِّيَّةِ

(١) سفر التثنية - ٣١.

صِين، إِذْ لَمْ تُقَدِّسَانِي بَيْنَ الشَّعْبِ. ٥٢لِهَـذَا فَإِنَّكَ تَشْهَـدُ الأَرْضَ عَنْ بُعْدٍ، وَلَكِنَّكَ لَنْ تَدْخُلَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَهَبُهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»(١).

وارتقى موسى جبل "نـبو" كما أمر الرب، فـأراه الرب جميع الأرض الموعودة، وقال له هذه هي الأرض التي أقسمتُ لآبائك أنني سأهبها لذريتهم قد جـعلتك تراها بعينيك ولكنك لن تدخلهـا. ثم أماته الله ودفنه في الوادي في أرض موآب، ولم يعرف أحد موضع قبره الذي دفن فيه.

٣٤- وفاة موسى ودفنه

وَارْتَقَى مُوسَى جَـبَلَ نَبُو إِلَى قِـمَّةِ الْفِـسْجَةِ مِنْ سُـهُولِ مُـوآبَ الْمُقَابِلَةِ لأَرِيحَا، فَأَرَاهُ الرَّبُّ جَمِيعَ الأَرْضِ. . . . . ٤وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «هَذِهِ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي أَقْسَـمْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ أَنَّنِي سَأَهَبُهَا لِذُرِّيَّتِهِمْ. قَـدْ جَعَلْتُكَ تَرَاهَا بِعَيْنَـيْكَ وَلَكِنَّكَ إِلَيْهَا لَنْ تَعْـبُرَ». ٥فَـمَاتَ مُوسَى عَـبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ بِمُـوجِبِ قَوْلِ الرَّبِّ. ٦وَدَفَنَهُ فِي الْوَادِي فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُـقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ قَبْرَهُ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ(٢).

---

(١) سفر التثنية - ٣١.　　(٢) سفر التثنية - ٣٤.

موسى في القرآن
حال بني إسرائيل في مصر

عاش بنو إسرائيل في مصر في ذل العبودية والاضطهاد بعد موت يوسف عليه السلام. وزادت معاناتهم بأن أمر فرعون بأن يُقتل ذكورُهم عاما ويُتركون عاما، ولا تُقتل إناثهم حتى لا تنقرض ذريتهم تماما؛ وفي نفس الوقت لا يتزايدون بصورة مقلقة. وظل هذا هو حالهم حتى بعث الله نبيّه موسى عليه السلام فخرج بهم من مصر، وأنجاهم الله من فرعون على يديه، وشقّ الله لهم البحر ليعبروه، وأغرق فرعون وجنوده من خلفهم؛ في معجزة مُبهرة ظاهرة للعيون.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة].

إلقاء موسى الرضيع في النهر

وضعت أم موسى وليدها موسى في العام الذي يقتُل فيه فرعون كل وليد لبني إسرائيل، فأوحى الله إليها أن تضعه في صندوق، وتقذف بالصندوق في نهر النيل، فتأخذه المياه إلى شاطئ النهر ففعلت. وأخذت أخته ترقب الصندوق وهو يتهادى على سطح الماء من بعيد حتى لا يفتضح أمرُها. ورسا الصندوق أمام قصر فرعون، فالتقطته وصيفات القصر، وقدّمنه إلى زوجة فرعون. فرحت زوجة فرعون بالوليد، وقرّرت تربيته رغم معارضة فرعون، وأن تتخذه ولدا بدلا من الولد الذي لم تشأ إرادة الله أن تُنجبه هي.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص].

لمّا علمت أمُّ موسى بالتقاط آل فرعـون له، خافت عليه وفزعت، لكن الله أنزل السكينة على قلبها، وألهمها الصبر والتصديق بوعده لها. وطلبت أم موسى من ابنتهـا أن تتقصّى خبره، فكانت تقـترب من القصر في استـخفاء؛ لتتسمّع الأخبار وهي حريصة على أن لا يشعر بها أحد.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١)﴾ [القصص].

ولّما أخذ الرضـيع في البكاء، تقدّمت إليه مـرضعات القـصر، لكنه لم يقـبل على صدر أي منهـن، فذهبن به إلى السـوق بحـثا عن مُـرضعـة له. عرضت أخته عليهن أن تأتي له بمرضعة من بني إسرائيل؛ حديثة عهد بالولادة فقد يُقْبِل على صدرها. وأخذتهم الفتاة إلى أمّها، فأقبل الرضيع على صدرها وأخذ يعُبّ من لبـنها حتى سكن روعـه وهدأت نفسـه. وفي قصر فـرعون، عرضت عليها زوجة فرعون أن تُرضعه لها قائلة أنها سوف تُجزِل لها العطاء. وافقت أم موسى بشرط أن يكون ذلك في بيتها لا في قـصر فرعون كما كانوا يريدون. وافقـوا على شرطها فـحملته إلى بيـتها وقـد طابت نفسهـا برجوع وليدها إليهـا. ولما انتهت فترة الرضاعـة أعادته إلى قصر فرعـون وقد اطمأن قلبها من ناحيـته، فنشأ وترعرع في قصر فرعـون محاطا بكل عناية. ووضع الله محبته في قلب كل من يراه حتى كبر وشبّ عن الطوق.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [القصص].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [القصص].

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴿٤٠﴾﴾ [طه].

قتل موسى للمصري

ترعرع موسى في قصر فرعون محاطا بالعناية والتكريم؛ حتى اشتد ساعده وصار فتى قوي الجسم بالغ الذكاء والفطنة، وقد آتاه الله من العلم والحكمة ما يحسده عليه أقرانه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص].

وذات يوم دخل موسى مَدينة منف؛ مقر حكم فرعون في وقت كان فيه الناس قائلين (وقت القيلولة) وقد خلت من الزحام المعتاد قبل الظهيرة، فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما مصري والآخر عبراني من قوم موسى. استغاث العبراني بموسى لينصره على المصري، فتدخل موسى ليُخلِّص العبراني من قبضة المصري، واستسمحه أن يتركه لحال سبيله. اشتدّ المصري على موسى وجاهده، فلكمه موسى في صدره فوقع المصري ميتا. ولما لم يكن موسى يقصد قتله، فقد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وتضرّع إليه أن يغفر له ذنبه، وعاهد الله أن لا يكون معينا للمجرمين على جُرمهم.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص].

بعد قتل المصري؛ خاف موسى من عقاب فرعون له إذا علم بفعلته، وعاش مُتخفّيا ولا ينزل إلى المدينة إلاّ خلسة. ومرة ثانية وجد نفس العبراني يقتتل مع مصري آخر ويطلب منه أن ينصره كما فعل من قبل، فوبّخه موسى

وقال له ألا ترتجع عن حماقاتك. وتوجّه إليهما ليفصل بينهما، فظنّ العبراني أنه يقصد قتله، فبادره مستعطفا أتريد أن تقتلني كما قتلت المصري من قبل، فتكون متجبّرا لا مصلحا.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص].

لّما سمع المصريُّ بالخبر، تحدّث به إلى كل من قابله. وظل الخبر يتنقل حتى وصل إلى مسامع فرعون، فأمر فرعون بقتل موسى، وأرسل أعوانه يبحثون عنه. وعلم رجل مؤمن من خاصّة فرعون؛ يكتم إيمانه؛ بما يدبّره فرعون لموسى، فأسرع إلى موسى يحذّره، ونصحه بأن يخرج مسرعا من المدينة قبل أن يلحق به جندُ فرعون. خرج موسى في اتجاه صحراء سيناء، فأرشده الله طريقه إلى أرض مدين.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص].

موسى في مدين

لّما وصل موسى إلى عين الماء التي يشرب منها القوم ويسقون ماشيتهم في أرض مدين، وجد حول العين مجموعة من الرُعاة يسقون أغنامهم، وبعيدا عن العين وجد فتاتين قد تجنّبتا مزاحمة الرعاة بأغنامهما فسألهما لماذا لا تسقيان؟ فقالتا ننتظر حتى ينتهي الرجال من سقي أغنامهم ثم نسقي من بعدهم لأننا امرأتان وأبونا شيخ كبير لا يقدر على سوق الغنم فيريحنا من هذه المهمّة الشاقة. رقّ موسى لحالهما، وزاحم الرعاة وسقى لهما. ولما ذهبت

الفتاتان إلى حال سبيلهما، أسند ظهره إلى شجرة ليستظل بظلها ويستريح من مشقة الطريق ومن خواء بطنه؛ ولسانه يلهث بالشكر لله وطلب العون منه.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص].

وبينما هو كذلك فوجئ بإحدى الفتاتين تقبل عليه وتبلغه في استحياء أن أباها يدعوه إلى بيته ليشكره على ما صنعه من جميل معهما، ويقدم له جزاء على معروفه. وما إن وصل موسى إلى الشيخ حتى أخذ يقُصُّ عليه قصّته وما حدث له في مصر. هدّأ الشيخ من روعه وقال له لقد أنجاك الله من هؤلاء القوم الكافرين، ولا سلطان لهم على بلادنا حتى يلاحقوك عندنا.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص].

وطلبت إحدى الفتاتين من أبيها أن يعرض عليه أن يعمل لديهم مقابل أجر، ووصفته لأبيها بأنه قوي فيقوم بعمله خير قيام، وأمين فلا يُخشى منه خيانة. عرض عليه الشيخ أن يزوّجه إحدى ابنتيه مقابل أن يخدمه ثماني سنوات، وإن شاء أن يُكملهم عشر سنوات مكرمة منه وتفضُّلا. وأضاف الرجل القول إلى موسى أنه لن يشُقّ عليه في العمل، وأنه سوف يجد فيه كل صلاح وتقوى. قال موسى موافق بشرط أن يكون لي الخيار في اختيار أي الأجلين أقضيهما في خدمتك، وأن لا تزد على ما تراضينا عليه. وتم الاتفاق بينهما، وأشهدا الله على نفسيهما؛ وهو خير الشاهدين.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ [القصص].

تكليف الله لموسى

لما انتهى الأجل المُتّفق عليه استأذن موسى من حميِّه في العودة إلى مصر. وفي طريقه من أرض مدين، جلس بأهله ليلا ليستريح من طول المسير وينتظر نور الصباح ليواصل سيره على هُدى وبصيرة. ومن بين الظلام الدامس فوجئ بنار تتوهج قريبا منه وتضيء حلكة الليل، فقال لزوجته لا تبرحي مكانك حتى أذهب إلى حيث النار لأسأل من حولها عن الطريق، وآتي منها بجذوة ندفئ بها أوصالنا ونستعين بها على قضاء ليلتنا.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ⑨ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⑩﴾ [طه].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⑦﴾ [النمل].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ㉙﴾ [القصص].

ولما اقترب موسى من النار رأى عجبا؛ شجرة خضراء الأغصان نضرة الأوراق؛ متوهّجة بنار تشع نورا. وما إن اقترب منها حتى سمع من ينادي قائلا: البركة على من في النار (موسى) وعلى من حولها (من الملائكة) والعظمة لله وحده. يا موسى إنك في البقعة المباركة في الجانب الأيمن من الشجرة، وأنا الله المستحق للعبادة والقادر على كل شيء. واقترب أكثر فسمع صوتا يناديه يا موسى اخلع نعليك من قدميك فأنت تدخل إلى أرض الوادي المقدس طوى. ولمّا عرف موسى أنه في حضرة الله هدأت نفسه واطمأنت وأنصت بكل جوارحه. قال الله يا موسى لقد اخترتك لنبوّتي ورسالتي، إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وحدي ولا تشرك بي شيئا. وسأل اللهُ موسى عمّا في يده؛ وهو أعلم؛ فقال موسى هي عصاي ياربي. واستئناسا منه بالحديث مع الله، أردف قائلا: أتوكّأ عليها في سيري، وأهزّ بها أوراق

شجر لتأكل غنمي. وخشي موسى أن يكون قد أساء الأدب مع الله باستطراده في الكلام، فختم بقوله وأستخدمها في أشياء أخرى كثيرة. أمره الله أن يُلقي عصاه على الأرض، فلما ألقاها تحوّلت إلى حيّة كبيرة تتلوّى وتسعى فخاف منها وانطلق هاربا، فناداه الله أن يرجع ولا يخاف لأن الرسل لا ينبغي لها أن تخاف في حضرة الله، وأمره أن يمدّ يده ليأخذ عصاه. مدّ موسى يده إلى الثعبان الذي تقدم نحوه فاغرا فاه، وما إن وضع موسى يده في فم الثعبان حتى وجد نفسه وقد أمسك بعصاه التي ألفها وألفته. أمره الله أن يُدْخل يده اليمنى في جيبه ويخرجها فإذا هي بيضاء بياضا خالصا. وقال الله يا موسى سوف أرسلك إلى فرعون وقومه لتدعوهم إلى عبادتي وحدي، وسوف أؤيِّدك بتسع آيات بيِّنات فلا يكذبوك.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)﴾ [القصص].

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾ [طه].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه].

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾ [النمل].

وقال الله لموسى بعد أن أمسك بعصاه؛ هذه هي معجزتنا الأولى لفرعون التي سوف تواجهه بها. ثم أردف الله آمرا موسى أن يُدخل كفّ يده اليمنى تحت إبطه الأيسر، ثم يخرجه. نفّذ موسى أمر الله، وإذ به يرى يده

تسطع في ظلام الليل بنور كنور الشمس يغشي البصر، ثم أمره الله أن يعيدها مرة أخرى إلى إبطه ويخرجها فعادت إلى حالتها الأولى. وقال الله لموسى هذه هي معجزتنا الثانية، وهناك آيات أخرى أكبر إذا كذّب وعصى.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل].

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [طه].

أمر الله لموسى بدعوة فرعون

أمر اللهُ موسى أن يذهب إلى فرعون؛ الذي أفسد في الأرض وتجاوز الحد بأن ادعى أنه إله يُعْبد من دون الله ليُنذره ويحذّره، فدعا موسى ربه أن يشرح له صدره؛ فيتحمَّل عبء الرسالة التي كُلّف بها، وأن يُيَسِّر له أمر إبلاغها، وأن يجعل لسانه فصيحا ليفقه الناس قوله ويستجيبوا لما يدعوهم إليه. ومن حسن ظنه بالله وثقته في استجابته له، طلب منه عز وجل أن يجعل من أخيه هارون معينا له على تأدية رسالته، وأن يُشركه معه في النبوة، فاستجاب الله له.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل].

تأييد الله لموسى بأخيه هارون

لما أمر الله موسى أن يذهب إلى هؤلاء القوم الظالمين؛ قوم فرعون، وأن يدعوهم إلى الإيمان لعلّهم يستجيبون لدعوته فيتّقون عذابه. أجابه موسى

قائلا إني أخاف أن لا يصدّقونني إذا دعوتهم، وأن لا يساعدني لساني على مجادلتهم، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فاجعله عونا لي على مجادلتهم فإني أخاف أن يكذّبوني. وأردف موسى قائلا كما أنني أخاف أن يقتلوني بسبب قتلي للمصري من قبل. فقال الله لن يقتلوك لأنني معكما أحفظكما من مكرهم، فاذهبا إليه وأبلغاه أنكما رسولا رب العالمين، واسألاه أن يترك بني إسرائيل يرحلون لعبادة الله في الأرض التي اختارها الله لهم. وسوف أجعل لكما الغلبة عليهم أنتما ومن اتّبعكما من المؤمنين.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص].

دعوة موسى لفرعون

اصطفى الله موسى لرسالته، وربّاه على طريقته، وأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون لإبلاغه أمر الله إليه بأن يرجع عن طغيانه ويكف عن تجبُّره وإذلاله لبني إسرائيل، وأمرهما أن يبدآه باللِّين من القول لعله يتّعظ ويرجع عن غيِّه. فكان جوابهما إننا نخاف أن لا يستمع إلينا ولا حتى يمهلنا فيأمر بقتلنا، فقال الله لهما لا تخافا منه فأنتما في رعايتي، وأنا معكما أسمع ما يقول وأرى ما يفعل. اذهبا إليه وأبلغاه أن الله ربّك قد أرسلنا إليك، ويأمرك أن تكف عن تعذيب بني إسرائيل، وأن ترسلهم معنا إلى أرض غير أرضك قد جعلها الله لنا مستقرا وموطنا، وأمرهما أن يبلغاه أن الله قد أيّدهما بآيات منه تؤكد صدقهما، وأن يحذّراه من عقاب الله إن هو لم ينفذ أمره له.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [طه].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف].

قال فرعون لموسى متهكّما أُذْكر فضلنا عليك بأن ربّيناك وأنت رضيع حتى كبرت وبلغت سن الشباب في قصرنا تأكل مما نأكل وتلبس مما نلبس، وهل كان قتلك للمصري إلا جحودا لأنعمنا عليك؟ فرد عليه موسى قائلا أما قتلي للمصري فكان عن غير عمد مني وكان سببا في هروبي منكم خوفا من القصاص، وكان ضلالا غفره الله لي وهداني إلى صراطه المستقيم، وجعلني نبيا من المرسلين. أما تربيتك لي فليست منّة منك بل كانت بتدبير من الله رب العالمين بسبب ظلمك واضطهادك لقومي بني إسرائيل.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء].

قال فرعون إن كنتَ صادقا أرنا آيات ربك التي تدّعي، فألقى موسى عصاه فتحوّلت إلى ثعبان كبير فاغرا فاه، وأخرج يده من جيبه فإذا هي بيضاء يشعُّ منها نور يأخذ بالأبصار. وما إن رأى فرعون تلك المعجزات حتى صاح في الناس إنه ساحر متمرّس على فنون السحر، ويريد أن يفتنكم بسحره لتكون له الغلبة عليكم فماذا ترون في أمره؟

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)﴾ [الأعراف].

ولما أبوا أن يصدِّقاهما واتّهموهما بالسحر، قال لهم موسى أتقولون على الحق الذي جئتكم به سحرا؟ وهل يُفلح الله الساحرين؟ قالوا: لقد جئتنا يا موسى لتُفسد علينا معتقداتنا، وتصرفنا عن دين آبائنا وأجدادنا، وتتملّك على الناس وتُذلُّهم انتقاما لبني قومك الذين هم عبيد لنا، وإن ما جئت به هو السحر وسوف ترى منا ما يبطله.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾ [يونس].

وتساءل فرعون مستكبرا: ومن هو ربكما الذي تتوعدانني به؟ فقال موسى ربنا هو خالق كل شيء في الوجود، وهاديه ومرشده إلى ما فيه صلاحه. قال فرعون متهكّما: فما علمك بمن سبقنا أين هم؟ وما هو واقع بهم؟ قال موسى: علمهم عند ربي ومرجعهم إليه، وهو الذي يحاسبهم على أفعالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وأعمالهم مسجّلة عنده في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾ [طه].

ويواصل موسى حديثه عن نعم الله فيقول هو الذي جعل سطح الأرض ممهّدا لعيشنا، وجعل مسالكها دروبا لسعينا، وأنزل المطر من السماء لنشرب

منه وتشرب منه أنعامُنا، ويسقي الأرض فتُنبت لنا الزرع والثمار أزواجا لا حصر لها طعاما لنا ولبهائمنا؛ أليس في ذلك آيات لذوي العقول تعيها وتتّعظ بها؟ وهو الذي خلقنا من تراب هذه الأرض، ويعيدنا بعد موتنا جثثا خامدة في جوفها، ثم يُخرجنا منها أحياء مرة أخرى ليوم الحساب.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)﴾ [طه].

وقال موسى أن الله هو خالق السماوات والأرض وما بينهما. فنظر فرعون إلى من حوله من حاشيته وقال هل تسمعون ما يقول عن ربكم ورب آبائكم الأولين؟ لا شك أنه مجنون! فقال موسى بل ربُّ المشرق والمغرب وربُّ كل شيء لو أعملتم عقولكم فيما حولكم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾ [الشعراء].

صاح فرعون في حاشيته هل تعلمون لكم من إله غيري؟ وقال لهامان كبير وزرائه فلتبن لي برجا عاليا لعلّي من أعلى البرج أرى الإله الذي يقول عنه موسى، وأردف قائلا ولا أظنه إلا كاذبا، فليس هناك إله كما يدّعي. ومنعه الكبرُ أن يستمع إلى موسى، وغرّته قوته وكثرة جنوده عن أن ينصاع لما يدعوه إليه؛ معتقدا أنه لن يُردّ إلى الله في يوم البعث فينال جزاء تجبّره.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾ [القصص].

وقال فرعون لموسى مُحذِّرا: لو اتخذت لـك إلها غيري فسوف أسجُنك حتى تثوب إلى رشدك، فقال مـوسى حتى لو جئتك بآية ودليل على صدقي؟ قال فرعون قدّم دليلك إن كنت صادقا فيما تدّعي.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)﴾ [الشعراء].

وقـالت حاشـية فـرعون: لا تبُتّ في أمـره الآن، وأرسل إلى جمـيع السحـرة في كل الأرجاء ليأتيك كل سـاحر متـمكّن من علم السحـر ليبطلوا سحـره، ويحبطوا حـيله. وتوعّد فـرعون مـوسى بأنه سوف يأتيـه بمن يبطل سحره بسحر مـثله أو أشدّ منه، وأمره أن يُحدّد بنفسه موعدا ليـتواجه فيه مع السحرة الذين سيـجمعهم له، وشدّد عليه حتى لا يتـخلّف عن موعده. قال موسى موعدكم يوم الزينة؛ يوم عيد لهم. وطلب من فرعون أن يجمع الناس في هذا اليـوم العظيم عندهم؛ وفي وضح النهار كي يروا بأم أعـينهم الآيات البيّنات.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)﴾ [الأعراف].

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾ [طه].

مواجهة سحرة فرعون

جمع فرعون السحرة من كل الأنحاء، وجاء كل من ظنّ في نفسه قدرة على الأعمال الشـيطانية؛ علّه ينال رضا الفرعون وعطاياه. ووعـدهم فرعون بالأجر الجـزيل والمكانة العاليـة في بلاطه وبين حاشيـته. وفي يوم عـيد لهم يجتمع فيه القاصي والداني للاحتـفال؛ كان الموعد المرتقب بين سحرة فرعون ونبي الله موسى. واصطفّ السحرة مـتحفّزين بعصيّهم وحبـالهم في مواجهة

موسى وأخيه هارون، والناس إليهم ينظـرون مترقِّبين لمن تكون الغلبة. وبدت نتيجة المعركة محسومـة لصالح السحرة؛ إذا قيست بميزان العدد والعدّة؛ ذلك في نظر الكافرين غير المؤمنين بالله القادر الحكيم.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)﴾ [الأعراف].

وفي اليـوم الموعود، اجـتـمع الناس من كل حـدْب وصوْب، وتواجـه موسى وهارون مع سـحرة فرعـون وسط هذا الحشـد الحاشد. وقـبل أن تبدأ المبارزة، توجّـه موسى إلى السـحرة قائلا في شـفقة؛ إننـي أدعوكم إلى الله الواحد الأحـد، فلا تشركوا بـه شيئا؛ فـينالكم منه أشد العذاب وتخـسرون خسـرانا مبينا. وتداول السـحرة أمرهم فيـما بينهم يتفكرون في كـلام موسى بصوت خفيض، لكنهم انتهوا إلى أمر واحد وهو عدم الإصغاء إليه والثبات على أمرهم حتى لا تكون له الغلبةَ عليهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾ [طه].

لّما لم يفلح موسى في أن يُثني السحرة عمّـا هم مقدمين عليه، قال لهم بثبات فلتجمعوا جـمعكم وتوحّدوا صفوفكم؛ وسوف ترون من هو الفائز في هذا اليوم العظيـم. قال السحرة: هـل تبدأ يا موسى أنت أو نبـدأ نحن؟ قال لهم مـوسى بل أنتم تبدءون. فلمـا ألقى السـحرة حـبالهم وعـصيّـهم على الأرض، خُيِّـل لموسى أنها حـيّات تتلوى وتتـحرك. أحس مـوسى بشيء من الخوف في نفسه، فأوحى الله إليه أن لا يخاف لأنه سينصره عليهم، وأمره أن يُلْقي عـصاه. وألقى موسى عـصاه فـإذا هي ثعبان كـبيـر يبتلع كل حـبالهم وعصيّهم، وأخزى الله أعداءه، وأبطل سحرهم.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾ [طه].

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)﴾ [الأعراف].

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)﴾ [يونس].

إيمان السحرة بإله موسى

لمّا رأى السحرةُ عصا موسى التي ألقاها ثعبانا حقيقيا، أدركوا أن الأمر ليس سحرا كما يفعلون، لكنه أمر واقع لا يقدر عليه ساحر، فخرّوا ساجدين، وقالوا: آمنا برب موسى وهارون. اغتاظ فرعون وخاف على سلطانه من أن يهتز في أعين الناس فقال للسحرة متوعّدا أتؤمنون له دون إذن مني؟ إذن فهو كبيركم الذي علّمكم السحر، واتفقتم معه على هذه التمثيلية لتفتنوا الناس وتصدّوهم عن طاعتي وعن الخضوع لسلطاني! وسوف يكون جزاؤكم عندي عظيما؛ فسوف آمر بتقطيع أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم آمر بصلبكم أحياء على جذوع النخل لتعلموا من هو أحق بالطاعة. لكنهم استخفوا بتهديده لهم وقالوا لقد رأينا من الآيات البيّنات ما دلنا على من هو أحق بالطاعة، وأقسموا بالله الذي خلقهم أن لا يثنيهم الموت عن الإيمان بالله الواحد الأحد، آملين منه أن يغفر لهم خطاياهم وما أكرههم عليه فرعون من أعمال السحر التي كانوا يقومون بها رغما عنهم.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾ [طه].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)﴾ [الأعراف].

بطش فرعون ببني إسرائيل

استفزّ موقفُ السحرةِ بطانة فرعون وحاشيته، ورأوا في ذلك تهديدا لمكانة فرعون ومكانتهم بالتبعية، فنصحوا فرعون أن لا يسكت على موسى ولا على قومه؛ حتى لا تقوى شوكتهم ويزداد خطرهم، ويصرفون الناس عن عبادته وعبادة آلهته التي تسند عرشه. قال فرعون سوف نأمر بقتل أبنائهم الذكور، وترك بناتهم حتى لا يتكاثروا فيزداد عددهم وحتى نستبقيهم في خدمتنا ضعفاء أذلاء.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)﴾ [الأعراف].

دعوة موسى على فرعون

لما اشتد أذى فرعون على بني إسرائيل، ومنعهم من إقامة صلواتهم، أوحى الله إلى نبيِّه موسى وأخيه هارون أن يأمرا بني إسرائيل ببناء مساجد لهم بعيدا عن العيون، وأن يقيموا صلواتهم فيها حتى لا ترصدهم عيون فرعون، وبشّرهم الله بقرب الخلاص من ذلّ العبودية ونير الاضطهاد. ودعا

موسى الله أن يحرم فـرعون من أمواله وأعوانه التي يتقوّى بهـا على محاربة دعوته، وأن يختم على قلبه بالكفر فلا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم، فأبلغه الله أنه قد استجاب لدعائه، وأمره وأخاه أن يصبرا في سبيل الدعوة، وأن لا يستعجلا قضاء الله.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس].

تدرج آيات الله إلى فرعون

أرسل الله نبيه مـوسى إلى فرعون وملئه بمعجـزات بيّنات تؤيّد صدقه، وتثبت أنه رسول من عند الله رب العالمين. فلما قـدّم إليهم موسى المعجزات سخـروا منه، واستـهزءوا به، تدرج الله مـعهم بإنذاراته وعذاباتـه وضرباته؛ فكانت الآية تأتي أشد من سابقتها لعلّهم يتّعظون وينتهون عن كفرهم. وكانوا إذا وقع بهم العذاب يُهرعون إلى موسى مـتضرّعين إليه أن يدعوا ربه ليكشف عنهم ما هم فيه، ويعلنون أنهم سوف يؤمنون به إن رفع عنهم العذاب. وكان مـوسى يدعـو الله أن يكشف عنهم العـذاب، فـيكشـفه الله عـنهم، لكنهم ينقضون عهدهم ويصرّون على كفرهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الزخرف].

عقاب الله لآل فرعون

أصاب الله آل فرعون بسنوات من القحط ونقص الثمرات لعلهم يتّعظون ويرجعون عن غيّهم لكنهم لم يرتدعوا، فكانوا إذا أخصبت أرضُهم وأثمرت زروعُهم يقولون هذا ما نستحقه، وإذا أصابهم القحط يقولون أن ذلك بسبب موسى وقومه فيتشاءمون منهم. وكانوا مُصِرّين على تكذيبهم لموسى، وأعلنوا له أنه مهما أظهر لهم من معجزات فلن يصدّقوه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾ [الأعراف].

فكان أن أرسل الله عليهم الطوفان آية منه؛ حيث أمطرت السماء مطرا متواصلا مدة من الزمن فأتلف الماء زروعهم، وهدم بيوتهم، وأغرق ماشيتهم؛ لكنهم لم يرتدعوا.

ولما لم يتعظوا بآية الطوفان أرسل الله عليهم أسراب الجراد تغطي ضوء الشمس فأتلف الجراد محاصيلهم وأشجارهم. ثم اختبرهم الله بالسوس ينخر أثاثهم، ويخرب جميع أمتعتهم.

ولما لم يرتدعوا أرسل الله عليهم الضفادع جماعات جماعات ملأت دورهم وحقولهم، وأفسدت عليهم حياتهم. ثم ابتلاهم الله بآية الدم يجدونه في كل آنيتهم وفي كل ما يشربون، فالماء يتحول في فمهم دما بقدرة القادر؛ فلا يستسيغون مأكلا ولا مشربا.

وعند كل آية من تلك الآيات كانوا يتوسّلون إلى موسى أن يسأل ربه أن يرفع عنهم العقاب، فيسأل موسى الله أن يرفعه عنهم. وما إن يُرفع عنهم العقاب حتى يعودون إلى ضلالهم وتكذيبهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف].

موقف فرعون وحاشيته

كان فرعون متجبّرا في الأرض مفسدا، وقد قسّم الناس جماعات؛ كل جماعة لها مهمة في حماية عرشه وتثبيت سلطانه. وكانت جماعة بني إسرائيل ممّن استذلّهم فرعون وسخّرهم في الأعمال الشاقة في مملكته. وكانت أوامره أن يُذبح أي طفل ذكر يولد لهم وتُستبقى الإناث حتى لا تنقرض جماعتهم. وزيّنت له بطانته ذلك وكان هامان (وزيره الأول) وقارون (من أثرياء بني إسرائيل) من أشدّهم على بني إسرائيل.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر].

وكان يقول متعاليا أنه ملك هذه البلاد، وكل ما فيها من أنهار وخيرات تحت تصرُّفه وحده لا ينازعه فيها أحد، ويقول هل هناك من هو أعظم مني؟ وهل هناك وجه للمقارنة بين عظمتي وذلّة موسى وضعفه بين الناس؟ فلو كان صادقا لألقى إليه ربُّه أساور الذهب يتحلّى بها أمام الناس فيعظّمونه، أو يرسل معه ملائكة تؤيّده وتشهد بصدقه. ولم يجد فرعون من بني قومه من يعترض على كلامه أو يستخفّ برأيه.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ

مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤)﴾ [الزخرف].

واحتدم الجدل بين فرعون وحاشيته بسبب موسى؛ فقائل يقول نقتله، وآخر يرى فيه رأيا آخر. وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه: كيف تقتلون رجلا يدعو إلى عبادة الله وحده وقد قدّم لكم من المعجزات ما يؤيّد دعواه؟ وقال دعوه وشأنه؛ فإن كان كاذبا فسوف ينال جزاءه، وإن كان صادقا فسوف ينالكم بعضا من الذي توعّدكم به. وقال يا قومي إنكم في عزّة ومنعة من الملك والقوّة، لكن قوّتكم لن تحول بينكم وبين غضب الله إذا وقع بكم. عندها قال فرعون بكبرياء: لا يخالفني أحد منكم الرأي، فأنا صاحب الرأي السديد والفكر الرشيد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر].

وقال الذي آمن من قوم فرعن، أذكروا يا قومي ما حلّ بالأمم من قبلكم إذ كذّبوا رسلهم فأهلكهم الله، وما جرى لقوم نوح وعاد وثمود ببعيد عنكم خبرُه. يا قومي إني أخاف عليكم يوم الحساب، يوم لا يعصمكم من عذاب الله عاصم. واذكروا نبي الله يوسف الذي جاءكم من قبل بآيات الله لكنّكم كذّبتموه وكنتم في شك من أمره. قال فرعون في استكبار: يا هامان ابن لي برجا يصل إلى عنان السماء؛ فقد أرى إله موسى الذي يدعي أنه في السماء، ولكني واثق من أنني سوف أثبت لكم كذب ادعائه.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) ...... وَقَالَ فِرْعَوْنُ .... وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾ [غافر]

خروج بني إسرائيل من مصر

أوحى الله إلى موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر تحت جُنْح الظلام، وأعلمه أن فرعون سوف يتبعهم بجنوده، ففرّوا ليلا متجهين نحو صحراء سيناء. وما إن علم فرعون بخبر خروجهم، حتى جمع جنوده من أماكن تمركزهم في أنحاء البلاد، وحشد جيشا كبيرا لينطلق بهم في إثر بني إسرائيل. وكان يحُثّ جنوده على الانتقام من هذه الشرذمة القليلة التي لا تستحق الذكر؛ لأنهم أقدموا على كل ما يغيظهم ويكدّر عليهم صفوهم. وكان يحذّر جنوده من التهاون معهم أو الرأفة بهم.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)﴾ [الشعراء].

ولم يكد يبزُغْ فجر النهار حتى خرج فرعون بجنوده للّحاق بهم وردّهم على أعقابهم. وما إن رأى بنو إسرائيل المصريين في إثرهم حتى فزعوا إلى موسى وقالوا لا نجاة لنا اليوم منهم. ردّ عليهم موسى بثقة المؤمن بربه؛ لن يسلمنا الله إليهم، وسوف يهديني إلى سبيل للنجاة من قبضتهم.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء].

هلاك فرعون وجنوده

في هذا الموقف العصيب، أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، فلما ضرب موسى البحر انشقّت المياه إلى شقين، وارتفعت ارتفاع جبل عظيم، فظهر في البحر طريق يابس والماء على جانبيه كأنهما شاطئين من صخر. أسرع بنو إسرائيل إلى البحر يسيرون على هذا الطريق بخفة وسهولة لم يعهدوها في مسيرهم من قبل؛ وكانت تلك آية من آيات الله لنصرة عباده المؤمنين. وأسرع فرعون بجنوده ليلحق بهم دون رويّة أو تفكير ولم يُفكِّر لحظة في أنها قد تكون آية من آيات الله لغرقه، لكن أعماه كفره. وما إن خرج جميع بني إسرائيل من البحر، وصار فرعون في منتصف الطريق، حتى عاد البحر إلى طبيعته، فانطبق عليه الماء هو ومن معه.

ولمّا أيقن فرعون أنه غارق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال له الله الآن فقط تؤمن بالله وكنتَ من قبل عاصيا ومحاربا لله ولرسوله؟ وأزهق الله روحه فمات، وألقت المياه بجسده إلى البرّ ليكون عبرة وآية. ولو لم يَرَ بنو إسرائيل جثته لما أيقنوا بهلاكه، ولظلّوا في رعب منه بسبب ما لاقوه من تجبُّره وتسلُّطه.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس].

نجاة بني إسرائيل

وأنجى الله بني إسرائيل من بطش فرعون واستعباده لهم، وأخرجهم من مصر سالمين غانمين إلى الأرض المباركة التي وعدها آباءهم من قبل، وجعل فرعون وقومه عبرة للمعتبرين، وأهلكهم وخرّب ديارهم.

ويقول المولى - عز وجل - أن محنة بني إسرائيل في مصر كانت ابتلاء منه جلّت قدرته لأنه كان يُعِدُّهم ويُهيِّئُهم لأمر جلل.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾ [الأعراف].

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)﴾ [الأعراف].

موعد الله مع موسى

لما أمر الله موسى أن يتهيأ للقائه بعد ثلاثين ليلة، أمضى موسى تلك الليالي صائما متبتّلا. وفي نهاية الليلة الثلاثين؛ خشي موسى أن يلقى الله وفي فمه رائحة كريهة بسبب طول الصيام، فاستاك، ونظف فمه بعشب طيب الرائحة. ولما كان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، فقد أرجأ الله لقاءه مع موسى عشر ليالي أخر حتى يأتيه صائما. ولما توجّه موسى إلى الجبل لميقات ربه، أوصى أخاه هارون أن يكون خليفته في بني إسرائيل، وأن يُصْلح بينهم، وينهاهم عن الشر، وأن يحُضّهم على فعل الخيرات.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)﴾ [الأعراف].

وعلى الجبل كلّم الله موسى بدون واسطة. ومن فرط فرح موسى بالكلام مع ربه تمنّى لو رآه، فطلب من ربه أن يراه رأي العين، لكن الله قال

له: يا موسى لا تستطيع أن تراني، وتأكيدا لذلك أنظر إلى الجبل الأشمّ، وسوف أتجلّى له؛ فإن استقر مكانه فسوف تراني. وتجلّى الله للجبل فتهاوى الجبل وتلاشى. ذُهل موسى لتصدُّع الجبل، وأُغشي عليه، وغاب عن الوعي. ولما أفاق سبّح الله وعظّمه، وسأله أن يتوب عليه بسبب جرأته عليه، وطلبه ما لا يتوجّب عليه أن يطلبه. طمأنه ربه، وأخبره أنه قد اصطفاه واختاره لرسالته، وأمره أن يتمسّك بالتوراة، وأن يعمل بما فيها من حكمة، وأن يكون دائم الشكر لأنعمه. وكانت التوراة قد كتبت على ألواح وفيها المواعظ والأحكام التي يتوجب على بني إسرائيل أن يعملوا بها.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف].

وتعجل موسى لموعد ضربه الله له مع وفد من قومه، فسأله المولى عز وجل عن سبب تعجُّله المجيء مخلّفهم وراءه، أجاب موسى أنّهم قادمون في إثره، وأنه أسرع للقائه طمعا في رضاه ورحمته. قال له ربه إنا فتنّا قومك في غيابك عنهم، وصنع لهم السامري عجلا، وأوهمهم أنه ربُّهم فعبدوه.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه].

صناعة العجل وعبادته

فإنه لمّا ذهب موسى للقاء ربه، طلب بنو إسرائيل من هارون أن يصنع لهم عجلا يعبدوه، لكنه هدّدهم وتوعّدهم إن هم فعلوا ذلك، فقال لهم

السامري؛ أنا أصنع لكم ما تريدون، وطلب منهم أن يقدّموا له الذهب والحلي التي كانوا قد استعاروها من أهل مصر ولم يردّوها لهم، وصنع منها صنما على هيئة عجل، وجعل له فتحة في دبره تمر في جوفه حتى فمه؛ فكان إذا دخل فيها الهواء؛ سُمع له صوت كأنه خُوار.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف].

وكان هارون؛ لمّا رأى أن بني إسرائيل قد التفوا حول العجل واتخذوه إلها لهم، نصحهم بترك عبادة غير الله، وقال لهم: إن ربي وربكم هو الرحمن الرحيم، فاسمعوا نصحي وعودوا لعبادته وحده وانبذوا ما عداه من الأصنام، لكنهم قالوا: لن نترك عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى ونرى فيه أمرا.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه].

وكان الله قد أخبر موسى بما فعله قومُه من صناعة العجل وعبادته فحزن أشد الحزن، ورجع إليهم فشاهد عجبا. وجدهم يدورون حول العجل يرقصون ويغنّون، فاستشاط غضبا وعنّفهم، وقال لهم: لقد ارتكبتم خطيئة عظيمة في حق الرب إلهكم، وقال لهم بأسى بئس ما فعلتم في غيابي. ومن فرط غضبه عليهم ألقى الألواح إلى الأرض، وأمسك بلحية أخيه هارون وجذبه إليه بشدة، وقال له لماذا لم تحكم فيهم كما أمرتُك وأوصيتُك؟ أم أنك وافقتهم على ما فعلوه؟ فقال هارون يا أخي إن القوم قد استضعفوني، وكادوا أن يقتلونني، فلا تُشمِّتهم في، ولا تأخذني بذنبهم. تمالك موسى نفسه، وخفّف من حدة غضبه على أخيه، وتضرّع إلى الله أن يغفر له ولأخيه، وأن يتغمّدهما برحمته الواسعة. وقال لبني إسرائي:ل هل نسيتم وعد الله لكم بأن يعطيكم التوراة نبراسا ونورا لحياتكم؟ أم طالت عليكم غيبتي فظننتم أني لن أعود؟ أم أنكم لا تخافون غضب الله فلم تلحقوا بي كما أمرتكم. فكان

جـوابُهم أن السامـري قـد طلب منهم الذهب الذي خـرجـوا به من مصـر، وأشعل نارا ورماه فيها، ثم سـبك لهم منه جسد عجل له خوار، وقال لهم: أن هذا هو إلههم وإله موسى لكن موسى كان قد نسي أن هذا هو إلهه.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)﴾ [طه].

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾ [طه].

عقاب السامري

لما هدأت نفسُ موسى، واطمـأن على صدق إيمان أخيـه هارون، توجّه إلى السامـري يسأله عن أمره وأمـر العجل الذي صنعه، فـقال السامـري لقد تتبّـعتُ أثر حافر فـرس جبريل، وأخـذت بعضا من التـراب الذي داس عليه الفرس؛ وحدّثتني نفسي أن هذا الأثر له شأن عظيم. ولما كان القومُ قد طلبوا منك أن تجعل لهم إلهـا، فقد زيّنت لي نفـسي أن أصنع لهم عجـلا، وأُلقي عليه بـعضا من أثر فـرس جبـريل فتتلـبّسه الروح، ويكون هو إلـههم الذي يطلبونه.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾ [طه].

أمر موسى السامري أن يفارق الجماعة، ودعا عليه بأن يهيم في البرية لا يمسّ أحدا ولا يمسّـه أحدٌ طيلة حيـاته. وكان هذه هو عقـابه في الدنيا، وفي الآخرة يكون حـسابه على الله. ورمى موسـى العجل في النار حتى انصـهر وصار رمادا ثم ألقاه في البحر.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾ [طه].

عقاب عبدة العجل

وقال موسى لعبدة العجل لقد ارتكبتم خطيئة عظيمة في حق الرب إلهكم، وليس لكم من توبة إلا أن يقتُل البريءُ منكم المذنب حتى تتطهّروا جميعا من خطيئة الشرك التي ارتكبتموها؛ فرضخوا لأمره. ولمّا همّوا بتنفيذ الأمر، أرسل الله سحابة سوداء أظلمت عليهم لئلا يُبصر بعضُهم بعضا فيتراحموا فيما بينهم. وكانت مذبحة عظيمة قُتل منهم فيها نحو سبعين ألفا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾ [الأعراف].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)﴾ [البقرة].

محنة شيوخ بني إسرائيل

ولمّا هدأ موسى وذهب عنه غضبه، تناول الألواح التي كان قد رماها على الأرض، وضمّها إلى صدره سائلا ربه يغفر له ويرحمه. واختار سبعين شيخا من شيوخ بني إسرائيل ليذهب بهم إلى الجبل، لينوبوا عن بني قومهم في أن يقدموا الاعتذار لله ويستغفروه علّه يغفر لهم جميعا. وعند الجبل كلّم الله نبيّه موسى وهم يسمعون، فطلبوا من موسى أن يروا الله كما يروه هو، فزُلزلوا زلزلة شديدة نزعت أرواحهم من أجسادهم وأماتتهم جميعا. فزع موسى وتضرّع إلى الله أن يعفو عنهم وينجيهم من الهلاك، فعفا عنهم وردّ إليهم أرواحهم واحدا واحدا، فهبّوا من سباتهم ينظر بعضهم إلى بعض في ذهول.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)﴾ [الأعراف].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ [البقرة].

ولما قرأ موسى أحكام الشريعة على شيوخ بني إسرائيل؛ استثقلوها، وأبوا أن يُقرّوا بجميع ما فيها، فأمر الله الجبل أن يرتفع من على سطح الأرض ويستقر فوق رؤوسهم كأنه مظلّة تُظلّهم، وقال لهم موسى إن الله يأمركم أن تقبلوا بكل ما فيها أو يُسْقط عليكم الجبل فتهلكوا جميعا. خرّوا جميعا سجودا كل على حاجبه الأيسر وعينه اليمنى تنظر إلى الجبل في خوف ووجل من أن يسقط عليهم وهم يردّدون قبلنا قبلنا، فرفع الله عنهم العقوبة، وأمر الجبل أن يعود إلى مكانه.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)﴾ [الأعراف].

انبعاث الماء من الحجر

كان بنو إسرائيل يهيمون في الصحراء بلا زاد ولا ماء، فطلبوا من موسى أن يسأل ربه أن يدلّهم على الماء ليرووا ظمأهم ويسقون ماشيتهم، فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر. وضرب موسى الحجر، ففجّر الله منه اثنتي عشرة عين ماء بعدد أسباط بني إسرائيل، حدّد موسى لكل سبط عينا منها حتى لا يتخاصموا أو يتزاحموا على الماء. وهكذا يسّر لهم المولى - عز وجل - الماء لشربهم وشرب ماشيتهم في صحراء قاحلة، وأمرهم أن يشكروا نعمه حق شكرها، وأن لا يسيروا في طريق المفسدين.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾ [البقرة].

تظليل الغمام لهم ونزول المنّ والسلوى

وتوالت نعم الله عليهم أثناء مسيرهم إلى أرض الميعاد، فقد ظلّلهم الله بالغمام من حرارة الشمس المحرقة، وجعل طعامهم المَنّ (رقائق بيضاء من دقيق سماوي)، والسّلوى (طير كطير السماني)؛ يسقط عليهم من السماء يوما بيوم طعاما شهيا لا يتكلّفون أي مشقّة في سبيل تحصيله. وظلوا على هذه الحال فترة من الزمن.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ [البقرة].

تأفف بني إسرائيل بسبب المنّ والسلوى

لم تقنع نفوسهم الخبيثة بالطعام الربّاني، واشتاقت للطعام الأرضي التي تعودت عليه فطلبوا من موسى أن يدعو ربّه أن يعطيهم مما تنبت الأرض من بقل وقثاء وثوم وعدس وبصل. فكان جوابُ الله عليهم أن يدخلوا أي بلد من البلدان التي وعدهم الله إياها ليجدوا فيها مطلبهم وما يشتهون.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ... (٦١)﴾ [البقرة].

الأمر بدخول القرية

بعد أن رحل بنو إسرائيل من مصر متوجّهين إلى الأرض المقدسة، أمرهم الله على لسان نبيه موسى أن يدخلوا أول قرية من قرى الأرض

المقدسة ليطردوا منها أهلها الكافرين وهم مسلحون بسلاحي الإيمان والتواضع؛ شاكرين لله سجدا وطالبين مغفرته. وأن يواجهوا أعداءهم ببسالة؛ ولا يتخاذلون أمامهم فيهزمونهم شر هزيمة، فقالوا يا موسى لا طاقة لنا بقتال أهلها من الجبابرة، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها. كان هذا هو موقف غالبيتهم، إلا قليلا من الفئة المؤمنة. ولم يمتثلوا لأمر الله، وتقاعسوا عن دخولها خوفا من أهلها من العماليق.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة].

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)﴾ [المائدة].

التيه في الصحراء

وقال رجلان من الفئة المؤمنة أدخلوا عليهم لا تهابوهم، واطلبوا النصر من الله إن كنتم تؤمنون به، فأجابوهم بغلظة لن ندخلها أبدا ما دام فيها هؤلاء الجبّارين، وليذهب موسى وربُّه ليقاتلوهم ونحن في انتظار نتيجة قتالهم. عندها توجه موسى إلى ربه أن يفصل بينه وبين قومه الخارجين عن شرع الله لأنه وأخيه قد يئسا من نصحهم، فحرّم الله عليهم دخولها إلا بعد أربعين سنة؛ يتيهون في الأرض فلا يعرفون أين يتوجهون حتى ينقرض من بينهم كل هؤلاء المتمردين. وأنزل الله عليهم عذابا من السماء؛ طاعونا أهلك منهم نحو سبعين ألفا.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ

بيْنَنا وبيْنَ القَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [المائدة].

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة].

موسى والعبد الصالح

سُئل موسى عليه السلام هل هناك من هو أعلم منك؟ فقال لا، فأوحى الله إليه أن هناك من آتاه الله علما وحكمة لم يؤتها الله له. تشوّقت نفس موسى إلى أن يقابل هذا الذي أعطاه الله العلم والحكمة ليزداد من علمه، فطلب من الله أن يدلّه عليه ليلقاه، فأمره الله بأن يتزوّد للمسير للقياه، وأن يأخذ في طعامه حوتا (سمكة) مملّحا؛ وفي المكان الذي تُردُّ فيه الروح إلى تلك السمكة يجد مبتغاه.

جهّز موسى نفسه للرحيل، وصحب معه تلميذه يوشع بن نون، وجدّا في السير إلى حيث وجّههما الله. وعند التقاء مياه البحرين؛ جلسا ليستريحا من طول السير فغلبهما النوم. وانتبه يوشع من نومه على حركة في صُرّة الأكل التي بجانبه، وفغر فاه، وجحظت عيناه وهي ترصد الحوت وقد خرج من الوعاء الذي حُفظ فيه وأخذ يتلوى زاحفا نحو المياه حتى شق طريقه في مياه البحر، وغلَبَ النومُ الرجلَ فنام، ولما استيقظ موسى من نومه أيقظه وتابعا سيرهما.

وبعد فترة من السير جلسا ليتناولا طعامهما، ولما لم يجدا الحوت في موضعه، سأل موسى عن الحوت، فتذكّر يوشع ما جرى من الحوت وقصّ قصّته لموسى. قال له موسى: هذا هو المكان الذي نقصده، ارجع بنا إليه. وعادا أدراجهما يتتبعان آثار أقدامهما حتى لا يضلاّ الطريق.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ

﴿إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾ [الكهف].

لقاء موسى والعبد الصالح

وعند المكان الذي فُقِد فيه الحوت، وجدا الرجل الذي ذكر الله لموسى أنه قد آتاه من لدنه علما وحكمة. قال موسى: أيها العبد الصالح هل تسمح لي بأن أصاحبك لأقتدي بك وأنهل من بحر علمك؟ فقال له الرجل الصالح أخشى أن لا تصبر على ما تراه مني، فإني على علم من الله؛ علّمني إياه قد تعجز أنت عن تفسيره، كما إنك على علم من الله لا أعلمه أنا. وبتواضع الأنبياء ولهفة طالب العلم، قال له موسى: سوف أصبر إن شاء الله وأطيعك في كل ما تأمرني به. قال العبد الصالح: عندي شرط واحد هو أن لا تسألني عن شيء حتى أجيبك أنا بنفسي عن كل ما يجيش في خاطرك، فقال موسى: قبلت.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾ [الكهف].

العبد الصالح يخرق السفينة

انطلق الجمعُ المبارك حتى وصلوا إلى شاطئ البحر، وعلى الشاطئ وجدوا سفينة فطلب الرجل الصالح من ربّانها أن يركبا معه على ظهر السفينة فوافق. وبينما السفينة تتهادى على صفحة الماء حتى فوجئ موسى بالعبد الصالح يضرب بفأسه خشبها، ويقتلع لوحين من ألواحها في غفلة من أصحابها. حار موسى في أمره، وقال في نفسه أيعقل أن يرتكب الرجل الذي زكّاه الله فعلة خبيثة كهذه، ويعمل عملا يمكن أن يؤدي إلى غرق السفينة

وهلاك من على ظهرها !!! وتوجه إليه منكرا فعلته وسأله لماذا فعلت هذا الأمر المنكر؟ فذكّره الرجل الصالح بشرطه معه، وقال له ألم أقل لك إنك لن تستطيع أن تصبر على ما سوف تراه مني من أمور؟ فسأله موسى أن يسامحه على ما بدر منه وأن يسمح له بمواصلة سيره معه.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾ [الكهف].

العبد الصالح يقتل الغلام

ولمّا انتهوا إلى البر، تابعوا سيرهم يقودهم الرجل الصالح، فصادفوا غلاما يلهو وحده بعيدا عن أقرانه، فأمسك به الرجل الصالح، وقتله ووارى جثته الثرى؛ وموسى في غاية الدهشة لما يراه منه. ومرة أخرى لا يقدر موسى أن يقاوم نفسه التي ترفض الظلم ولا ترضى بارتكاب ما حرمّه الله حتى لو كان من هذا العبد الصالح، وانبرى موسى معاتبا العبد الصالح بقوله لقد قتلت نفسا زكية بريئة من غير ذنب، لقد قمت بعمل منكر لا يرضاه دين ولا منطق. فذكّره العبد الصالح بشرطه معه، فقال له موسى: لا تؤاخذني هذه المرة، وإن اعترضتُ مرّة أخرى فمن حقك أن تُنهي صحبتك لي.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦)﴾ [الكهف].

العبد الصالح يقيم الجدار

وتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى قرية من القرى؛ وكان قد بلغ الجوع منهم مبلغه، فسألوا أهل هذه القرية طعاما فلم يستضيفهم أحد من أهلها، أو يدعوهم إلى شربة ماء. جلسوا يستظلّون بجدار أحد أبنيتها وهم يتضوّرون جوعا، وإذ بالعبد الصالح يقوم إلى جدار متهاو من الجدر فيُصلحه ويقوّم

اعوجاجه ويجعله متماسكا دون أن يُطْلب منه ذلك، ودون أن يسأل أهله أجرا أو تعويضا. تعـجب موسى من فعله وقال له لـولا سألت أهل هذا الجدار أن يطعمونا مـقابل ذلك؟ قال له العبد الصالح: هـذه هي المرة الثالثة التي تنسى فيها شرطي مـعك؛ وهي الأخيرة، وسوف أخبرك بتفسيـر ما رأيته ولم تصبر حتى أفسّره لك.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾ [الكهف].

العبد الصالح يُقدّم التفاسير لموسى

وكما وعـد العبدُ الصالح مـوسى أن يقدِّم له تفسيـر وحكمة كل شيء فعله، بدأ بقوله عن السـفينة: أما السفينة فكانت مملوكـة لمساكين يعملون في البحـر ويتقوّتون من ورائهـا، وقد أتلفتُهـا تلفا ظاهريا لا يؤدي إلى غرقـها؛ حتى تبدو مَعيبة أمام من يتفحّصها من رجال الملك الظالم فلا يأخذونها غصبا من أهلها ويضمّونها إلى سفن الملك.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾ [الكهف].

وقال العـبد الصالح عن الغـلام: أما الغلام الذي قتلـتَه فكان في علم الله كافرا وأبواه مـؤمنين، وقد أمر الله بقتله حـتى لا يكون سببا في إيذائهـما عندما يكبر. وقال أن الله سوف يبدلهما به من هو أصلح منه نفسا، وأوصل منه رحما.

﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف].

وقال العبـد الصالح عن الجدار: أما الجدار فكان مملوكا لغـلامين يتيمين لأب صالح، وكان أبوهما قد حفَظ كنزه في هذا الجدار، وأراد الله أن يحافظ لهمـا على هذا الكنز حتى يـكبرا ويستـخرجـا كنزهما؛ فيكونـان أقدر على حمايته والانتفاع به.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...(٨٢)﴾.

وأردف العبد الصالح قائلا لموسى: إنّ ما قمتُ به من أمور بدت غريبة في نظرك؛ كلُّها كانت بأمر من الله وليست من أمري، وهذا هو تفسير ما لم تستطع أن تصبر حتى تعرف حكمته والغرض منه ورائه.

﴿... وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف].

تعقيب

تقول التوراة عن موسى أنه قتل المصري متعمّدا، ويقول القرآن أن موسى دفعه فقط ولم يكن يقصد قتله. وهذا أصوب لأن موسى لم يكن ليتجرأ على قتل المصري، ويعرّض نفسه لغضب فرعون والمصريين.

وتقول التوراة أن اللذين كانا يقتتلان في المرة الثانية هما من العبرانيين؛ وهذا لا يكون مبررا لتدخل موسى للفصل بينهما، فأبناء الطائفة الواحدة لا يكون العداء بينهما مستحكما لدرجة تستدعي أي حدة في الفصل بينهما. ويقول القرآن أنهما نفس العبراني الذي كان في المرة الأولى مع مصري آخر، وهذا أكثر واقعية ومصداقية.

وتقول التوراة عن الفتيات اللائي سقى لهن موسى أنّهن كنّ سبع فتيات، ويقول القرآن أنّهن كنّ اثنتين فقط. وأن يكنّ سبعَ فتيات، ففي ذلك مبالغة أي مبالغة؛ وما أكثر ما نراه من مبالغات في ثنايا التوراة.

وتقول التوراة عن الفترة التي قضاها موسى في مدين، أنها حقبة طويلة حدّدها المفسرون النصارى بأنها أربعين سنة. والقرآن يقول أنها بين ثمانية وعشرة أعوام؛ أيّما الأجلين كما هو الاتفاق بين موسى وحميّه. وهذا هو الصواب، لأنه لو افترضنا أن موسى قد غادر مصر وعمره ثلاثون سنة (لما بلغ أشُدّه)، ثم نضيف إليها عشر سنوات قضاها في مدْين (أيّما الأجلين)، فيكون قد عاد إلى مصر وعمره قد بلغ أربعين سنة؛ وهي السن التي يكلّف الله فيها الأنبياء بالرسالة.

أمّا ما تقوله التوراة من أنّ من عاصروا جريمته كانوا قد ماتوا؛ لذلك أمره الله بالعودة من مدين فلا تستقيم مع قدرة الله ومشيئته، ولا ينتظر الله ظرفا كهذا ليكلف نبيه بالرسالة؛ فهو قادر على حمايته من أي كائن كان.

تذكُر التوراة أن الرب أمر موسى أن يطلب من فرعون أن يتركهم يمضون مسيرة ثلاثة أيام في البرية لعبادته وتقديم الذبائح له. وهذا مستغرب أن تكون هذه هي كل رسالة موسى إلى فرعون، فالرُّسل تدعوا الناس الذين يرسلون إليهم إلى دين الله، ولا تقتصر دعوتهم على أمر كهذا فقط.

أما قول الرب لموسى أنّ فرعون لن يطلقهم طواعية قبل أن يجري الله عليهم معجزاته ويصيبهم بويلاته فيجعلنا نتساءل ما فائدة دعوته لهم وما جدواها في نظره إذا؛ وهو يعلم مُسْبقا أنهم لن يطيعوه؟

أما قول الرب لموسى بأنه سوف يحبِّبْهم إلى المصريين؛ فيُعطونهم كل ما يطلبونه من جواهر وفضة وثياب عن طيب خاطر؛ فتكون غنيمة لهم عند خروجهم من مصر، فهو قول لا يستقيم أبدا مع قداسة الربّ، وحضّه دوما على مكارم الأخلاق. وهل يختلف اثنان على أن عدم اغتصاب مال الغير من مكارم الأخلاق؟

تقول التوراة أن معجزة العصا واليد والدم؛ كانت من أجل أن يصدّق بنو إسرائيل بأن الله هو مُرسله. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل يحتاج موسى إلى معجزة ليصدّقه قومُه وهو مُرْسل لإنقاذهم؟ أما القرآن فيقول أن معجزة العصا واليد والدم وغيرها من المعجزات كانت إلى فرعون وقومه لاّ إلى بني إسرائيل.

تقول التوراة أن الله بعد أن طَمأن موسى، وأيّده بكل المعجزات، حاول موسى أن يتهرّب من المهمّة التي أوكلها الله إليه، وأنه توسّل إليه أن يُكلِّف غيره بالرسالة. هل يُصدِّق أحد مثل هذه اللجاجة من نبي مع ربِّه!!

تقول التوراة أن الله أيّد موسى بأخيه هارون بعد أن حاول موسى أن يتنصّل من مهمة تبليغ أوامره إلى فرعون، ويقول القرآن أن موسى هو الذي سأل الله أن يَشُدَّ عضُده بأخيه هارون، فأجاب الله طلبه في الحال، ولم تكن هناك لجاجة ولا تهرُّب من قِبَلْ موسى.

تقول التوراة أنّه لّما غَضِب بنو إسرائيل على موسى وهارون بسبب زيادة اضطهاد المصريين لهم، رجع موسى إلى ربه يعاتبه؛ لأنه أرسله إلى فرعون الذي لم يأبه بتهديدات الله له، كما يَعْتِب على الله لأنه لم يتدخّل لإنقاذ قومه. هل يُعْقل أن يخاطب نبي الله موسى ربَّه بمثل هذا اللغط؟ أو يقف موقف المحاسِب لله؛ فيقول له: لماذا فعلت كذا، ولماذا لم تفعل كذا؟

ونسمع العَجبْ في رد الله على موسى بقوله، أنه سوف يُحرّر بني إسرائيل من أثقال العبودية، وأنه سوف يتخذهم شعبا له دون سائر الشعوب، وسيكون لهم وحدهم إلها، ويقودهم إلى الأرض الموعودة؛ كأنّ الله لم يخلُقْ غيرهم.

وتقول التوراة أن هارون هو الذي ألقى العصا أمام فرعون فتحوّلت إلى حية، والقرآن يقول أن موسى هو الذي ألقى العصا وليس هارون.

ذكرت التوراة عن المعجزات أنها اثنتي عشرة معجزة هي: اليد، والعصا، والدم والضفادع، والبعوض، والذباب، وهلاك الماشية، والرماد، والبردْ، والجراد، والظلام الكثيف، وموت الأبكار. أما القرآن فقد ذكر أنها تسع معجزات فقط؛ هي: اليد، والعصا، والدم، والضفادع، والجراد، والقمّل، والطوفان، والسنين، ونقص الثمرات.

تقول التوراة أن الله أمر موسى أن يبسط يده على البحر لينشق، ويقول القرآن أن الله أمره أن يضرب البحر بعصاه.

تقول التوراة أن بني إسرائيل وجدوا في الصحراء اثنتي عشرة عينا وسبعين نخلة؛ فحطّوا رحالهم وعسكروا حولها، ويقول القرآن أن العيون الاثنتي عشرة قد فجّرها الله لهم بضربة من عصا موسى.

تقول التوراة أن المنّ والسلوى؛ ظلاّ طعاما لبني إسرائيل مدة أربعين عاما، وهذا غير صحيح، لأن الله لمّا غضب عليهم بسبب رفضهم دخول القرية، عاقبهم بالتيه في الصحراء أربعين سنة؛ فكيف يكونون في فترة عقاب، ويكافئهم الله بمثل هذه المكافأة العظيمة؟

والقرآن يقول أنّهم لما سئمت نفوسهم من أكل المنِّ والسّلوى، وطلبوا من موسى أن يُبدِلهم بهما بما تُنْبت الأرض، أمرهم الله بدخول القرية المقدّسة، ولمّا رفضوا قطع عنهم نعمة المنّ والسلوى، وحكم عليهم بالتيه؛ فتكون نعمة المنِّ والسّلوى قد رزقهم الله بها بعد خروجهم من مصر حتى الأمر بدخول القرية.

ونلاحظ هناك خللا في قضية المنّ والسّلوى بين ما ذكره سفر الخروج وما ذكره سفر العدد. فقد ورد في سفر الخروج أن الله رزقهم بنعمتي المنّ والسّلوى معا في نفس اليوم. أما في سفر العدد فإن الأمر مختلف، إذ ذكر السفر أن الله رزقهم بالمنّ أولا، ولمّا ملّوا من أكله وحده أعلنوا غضبهم على موسى، فرزقهم الله بالسّلوى حتى لا يعتمد غذاؤهم على صنف واحد تملّه النفس. وقد أوردنا النصّين كلٌّ في موضعه الذي هو فيه في نص الكتاب حفاظا على السياق وتسلسل الأحداث.

أمّا ما ذكر عن أن أخلاط الأمم المقيمين بين بني إسرائيل هم الذين اشتهوا طعام مصر، وتبرئة بني إسرائيل من هذه التهمة؛ فتبدو غير مستساغة لأن تكملة النص تقول أن بني إسرائيل عادوا يبكون قائلين: من يطعمنا لحما... إلى نهاية النص، وهي تؤكّد على أن بني إسرائيل هم الذين اشتهوا طعام مصر، وهم الذين تذمّروا على موسى، ونضيف متسائلين وهل لأخلاط الأمم أي حقوق عند شعب الله المختار؟

تقول التوراة أن هارون هو الذي صاغ العجل لبني إسرائيل، وأنه شيّد مذبحا أمامه، وأعلن أن الغد سيكون عيدا للرب. والقرآن الكريم يقول أن من صاغ العجل هو السامري؛ وهذه هي حقيقة لا لبس فيها، لأن هارون نبي، ولا ينبغي لنبي أن يصنع بنفسه صنما ليعبُده الناس من دون الله حتى لو اضطرّ لذلك. وقد كان عتاب موسى لأخيه أنه سكت على عبادتهم للعجل ولم يقاومهم، وكان جوابه أنه خاف من الاقتتال بين مع عبدوا العجل ومن ظلوا على إيمانهم من بني إسرائيل، ورأى أنه من الحكمة أن ينتظر رجوع موسى ليحكم في أمرهم بحكمه.

تقول التوراة أن الرب أخبر موسى؛ وهو في حضرته بما قام به قومُه من صناعة العجل، وأن الرب طلب من موسى أن يتركه يفنيهم، لكن موسى ابتهل إليه أن يعفو عنهم، فرأف الرب بحالهم، ولم يوقع بهم أي عقاب. ويناقض ذلك أن يقوم موسى نفسه بعدها بعقابهم، فقد أمر اللاويين أن يقتلوا عبدة العجل جميعا، وكانت حصيلة القتلى ما يقرب من ثلاثة آلاف منهم.

ويزداد عجبنا حينما تذكر التوراة أن موسى بعدها قد رجع إلى الرب، وتضرّع إليه أن يغفر لهذا الشعب خطيئته، لكن الرب يصرّ على عقابهم حتى يرتدعوا، ويوقع الرب بهم عقابا آخر؛ فيصبيهم بالوباء.

ونلخص نقاط هذا التناقض فيما يلي ومن لا يرى فيه تناقضا يناقشنا لعلنا نكتشف حكمة من وراء ذلك:

* يعلن الرب موسى عن نيته إيقاع العقاب بهم ويعفو عنهم إرضاء لموسى.

* يعاقبهم موسى بعد عودته من عند الرب فيقتل اللاويون منهم ثلاثة آلاف.

* يطلب موسى من الرب أن يعفو عنهم لكن الرب يعاقبهم بالوباء.

أما القرآن فيقول: أن موسى لمّا عاد من لقاء ربه وجدهم يدورون حول العجل ويرقصون ويغنّون، فاستشاط غضبا وعنّفهم، وقال لهم لقد ارتكبتم خطيئة عظيمة في حق الرب إلهكم، وليس لكم من توبة إلا أن يقتل البريء منكم المذنب؛ حتى تتطهّروا جميعا من خطيئة الشرك التي أقدمتم عليها. ولمّا همّوا بتنفيذ أمر نبيّهم أرسل الله سحابة سوداء أظلمت عليهم لئلا يبصر بعضهم بعضا فيتراحمون فيما بينهم حتى قُتل منهم نحو سبعين ألفا.

ونقطة التلاقي بين التوراة والقرآن في هذه المسألة تتلخص: أمر موسى للاويين بأن يقتلوا عبدة العجل لا تختلف كثيرا عما ورد في القرآن من أن موسى أمر أن يقتل البريء منهم المذنب. أما عدد القتلى فلا تعليق عليه لأن القرآن لم يذكُره وقد أوردتُه من مصادر غير القرآن ليست موضوع بحثنا.

تقول التوراة أن موسى لما اشتكى للرب من ثقل المسئولية التي يحملها وحدُه، أمره الرب أن يجمع سبعين رجلا من شيوخ بني إسرائيل، ويأتي بهم إلى خيمة الاجتماع؛ فيأخذ الرب من الروح التي أنزلها على موسى ويضع عليهم منها؛ من أجل أن يصيروا مساعدين له في تسيير أمور الشعب.

والتساؤل الملح هنا: هل تعوز الرب - عزّ وجلّ - الوسيلة لكي يجعل من هؤلاء الشيوخ رجالا يتحمّلون المسئولية؛ فيضطر أن يأخذ من موسى

ليعطيهم. ولو كانت فضيلة تحمُّل المسئولية أمرا ماديا كما تُصوِّره التوراة؛ فمن المفروض أن ينقُص وزنُها عند موسى بالقدر الذي يُؤخذ منه ويُعطى للشيوخ، وهذا أمر لا يقبله منطق.

تقول التوراة أن الرب قد غضب على بني إسرائيل لأنهم جبُنوا عن دخول الأرض الموعودة وحرّم عليهم دخولها، وأقسم الرب أن يجعل جثثهم تتساقط في الصحراء من ابن عشرين سنة فما فوق، ويمكثون في الصحراء أربعين سنة حتى تبلى جثثهم، وأنّه سوف يُدخل أولادهم تلك الأرض التي جبنوا هم عن دخولها. والقرآن لا يختلف مع التوراة في هذا الأمر ويقول بمثله.

وتقول التوراة عن سبب حرمان موسى من دخول الأرض الموعودة أن موسى تضرّع إلى الرب أن يسقي بني إسرائيل، فأمره هو وهارون أن يقفا حول الصخرة، ويأمراها أن تُخرج الماء، لكن موسى لم يفعل كما أمره الرب، بل رفع عصاه وضرب الصخرة بغضب. وتقول أن الصخرة قد انفجر منها الماء، لكن الرب غضب على كل من موسى وهارون، وحرّم عليهما دخول الأرض بسبب ذلك. وهذا قول غير مستساغ، لأن الرب قد حرّم عليهم جميعا دخول الأرض بسبب تخاذل الشعب عن دخول الأرض الموعودة بعد عودة الجواسيس من استكشافها كما في القول السابق.

أما ما ذكرته التوراة عن مواجهات تمّت بينهم وبين ملك سيحون، وانتصارهم عليه واستيلائهم على أرضه، وتوسعاتهم في بلاد الأموريين، وقضائهم على عوج ملك باشان وامتلاكهم لديارهم، وانتصارهم على المديانيين، والقضاء عليهم وإحراق مدنهم؛ فهي أمور تتناقض مع حكم الرب عليهم بالتيه في الصحراء، فكيف يكون تيه وتصحبه حروب وبطولات وانتصارات لشعب مغضوب عليه من الرب؟ فما هو التيه إذا؟ وأين العقاب في مثل هذه الحالة؟

أما ما تقوله التوراة عن الأسْرى من المديانيين؛ فقول يثير تساؤلين. فالحروب التي قيل أنها تمت في هذه الفترة ليست صحيحة لأنهم جبُنوا عن

دخـول القرية الـتي أمرهم اللـه بدخولهـا؛ فـمن أين أتتـهم تلك البطولات الموهومة؟ وكيف يمدهم الله بنصره؛ وهو غاضب عليهم؟

أما ما تقـوله التوراة عن أمر موسى بقتل النسـاء الأسيرات؛ لأنّهن كنّ السبب في إغـواء بني إسرائيل واستـمالتهن لعـبادة فغـور، مما أوجب سخط الرب عليهم، وإصابتهم بالوباء. فكيف ومتى تمت عبادة فغور هذا وموسى لا يزال بين ظهرانيهم؛ خاصة أن عقابهم بسبب عبادة العجل كان قاسيا ولم يبعُد عهده كثيرا.

أما ما ذكرته التوراة من أن موسى أمر بقتل جميع الذكور من الأطفال، وقتل كل امـرأة ضاجعت رجلا، وأنّه أمـرهم أن يستبقـوا لهم كل عذراء لم تضاجع رجلا؛ فأمر مستغرب، وانتقائي، وغير مستساغ. فما هي الحكمة من استبقـاء كل عذراء لم تضاجع رجلا وقتل جمـيع الذكور من الأطفال؟ وهل العذراء لها قُدسية خاصة لا تتوفر في غيرها حتى في الأطفال؟

تناولت التـوراة قصـة وفاة موسى بـصورة ضبـابية؛ فـفي الوقت الذي ذكرت فيه التوراة تفاصـيل ما حدث بين موسى والرب على الجبل، وكيف أن الرب قـد أراه جمـيع الأرض الموعودة، ثم أمـاته ودفنه في الوادي في أرض موآب، ولم يعرف أحد موضع قبره الذي دفن فيه. والسؤال هنا كيف عُرفت مثـل هذه التفـاصيل ولم يعـرف بالتبـعيـة موضع دفنه؟ ومن أخـبر ببـعض التفاصيل وأخفى بعضـها الآخر؟ ومن الذي كتب هذه النصوص؟ أي شخص يكون غير موسى عليه السلام.

لم تتعرّض التوراة لـقصة موسى مع العبد الصالح مـن قريب أو بعيد. وإن دلّ ذلك على شيء، فإنما يدلّ على أن التوراة لم تغطي كل جوانب حياة موسى؛ بإغفالها قصة محوريّة كهذه القصة. وربّما هناك الكثير مما غفلنا عنه نحن كذلك ولم نذكره. وهل لبشر كائنا من كان أي كمال؟

مراجع الجزء الأول

١- القرآن الكريم.

٢- التـــوراة.

٣- البداية والنهاية، الدمشقي، إسماعيل بن كثير مكتبة المعارف.

٤- تفسير ابن كثير، الدمشقي، إسماعيل بن كثير دار إحياء التراث العربي.

٥- تفسير الجلالين.

٦- معجم البلدان، الحموي، ياقوت دار صادر.

٧- تاريخ الطبري، الطبري، محمد بن جرير دار الكتب العلمية.

٨- تفسيــر الكتاب المقدس، فكري، الأب أنطونيوس كنيسة الســيدة العذراء بالفجالة.

هذا الكتاب



يتناول قصة بدء الخلق كما ورد ذكرها في كل من التوراة والقرآن، مرورا بخلق آدم وحواء وقصة قابيل وهابيل وسيرة أنبياء الله نوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان وأيوب ويونس، وقصة قارون؛ كل في سياقه التاريخي وترتيبه الزمني، وكذلك الأحكام المنظِّمة لبعض المعاملات عند أصحاب الديانتين كالزواج والطلاق والزنا والاغتصاب والقتل والقصاص والربا والمواريث والنجاسة والطهارة والمأكولات والمشروبات، ومعجزة إحياء الموتى، والبعث والثواب والعقاب، وقصة البقرة وبعض من مكارم الأخلاق.

وهذا هو المحصِّلة الثانية لعدة أبحاث عكف عليها مُعدّ هذا الكتاب بهدف تسليط الضوء على قضايا تناولتها التوراة والقرآن وتقديمها للقارئ تاركا له الحكم المنصف على تناول كل من المصدرين المذكورين للقضايا المُخْتلف... تباع الديانات السماوية الثلاث؛ اليهود والنصارى والمسلمين كان أولها... كل من الدولتين اليهودية والإسلامية حقائق ونتائج. وهو في السوق...



I.S.B.N. 977-10-2505-8

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر

دار الكتاب الحديث